النصائح الغالية

لأصحاب الهمم العالية

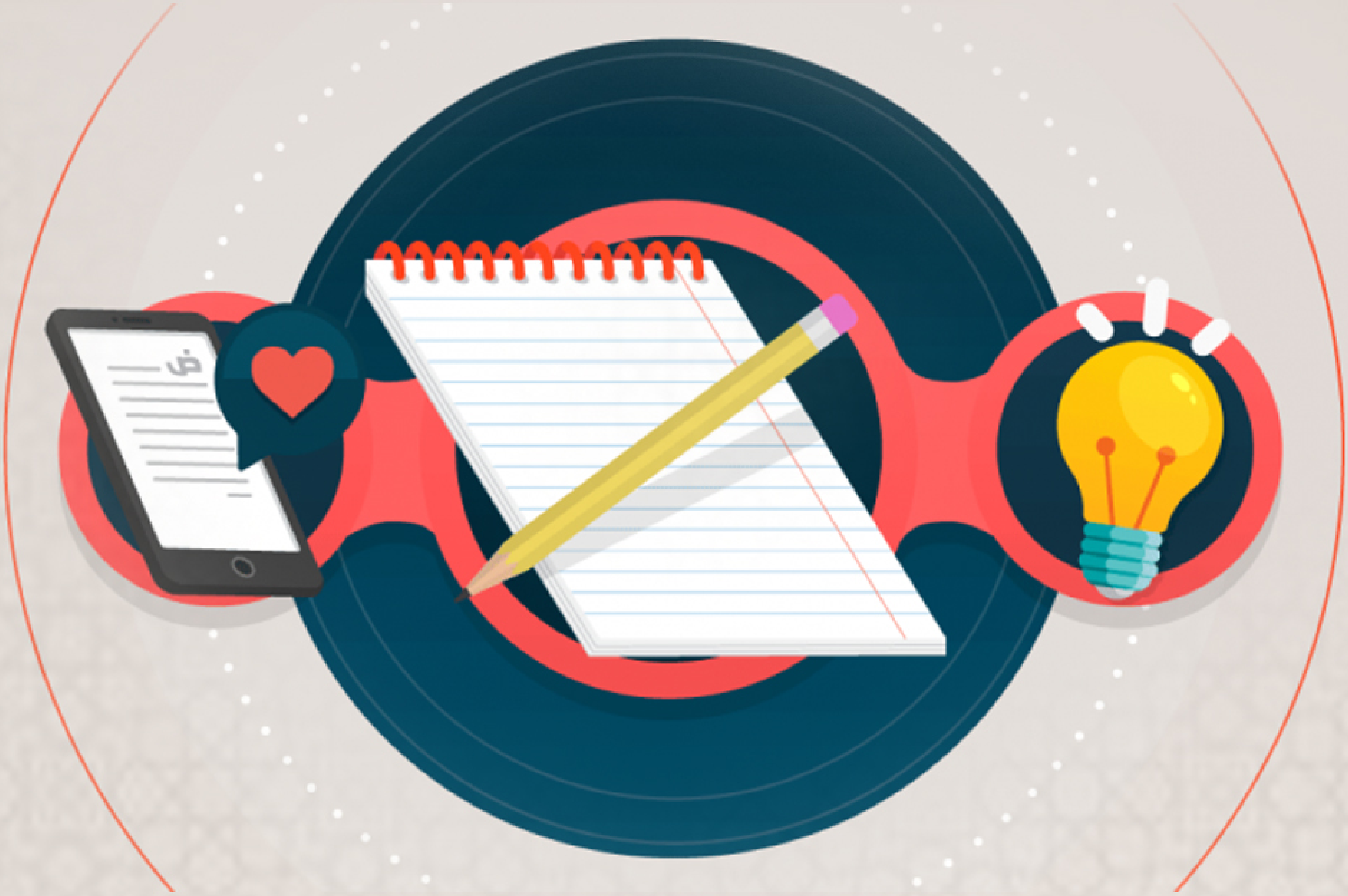

محمود حسن حجازي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النصائح الغالية لأصحاب الهمم العالية

محمود حسن حجازي

2022-1443

كل الحقوق محفوظة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإهـداء

إهـداء إلى روح أبي العزيز ،،،

إهداء إلى أمي الغالية ،،،

إهداء إلى زوجتي الحبيبة ،،،

إهداء إلى ابني الحبيب ،،،

إهداء إلى ابنتي الغالية،،،

إهداء إلى كل أحبابي ،،،

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله..

قال تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران: ١٠٢

قال تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

النساء: ١

قال تعالى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ الأحزاب: ٧٠ – ٧١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الحشر: ١٨

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله ﷻ، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار..

لقد بَصَّر الله ﷻ عِبادَه بالحقّ، ويسَّر لهم سُلُوكه، وأمَر مَن يُعينهم عليه من ناصح وصُحبةٍ صَالحةٍ، فالمسلمُ إن رأى في أخيه قصورًا أو خَللاً وجبَ عليه أن يعينه على إصلاحِه، يفعلُ ذلك من منطلق إيمانه وإسلامه، إذِ النصيحة أصل الدين، قال ﷺ: "الدين النصيحة"[1]، والنصيحة دأْبُ الأنبياء والمرسَلين، قال الله ﷻ على لسان نوحٍ عليه السلام لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ الأعراف: ٦٢، وقال الله ﷻ على لسان هود عليه السلام لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأعراف: ٦٨، وقال ﷻ على لسان صالح عليه السلام لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأعراف: ٧٩، وقال الله ﷻ على لسان شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ

[1] رواه مسلم (1/ 74).

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ الأعراف: ٩٣، وبعث الله عز وجل موسى عليه السلام لتذكيرِ الناس ونصحهم وإنذارهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ القصص: ٤٦، ومن أخصِّ صفاتِ نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم أنّه مُذكِّر ناصح، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾ الغاشية: ٢١، قال عليٌّ رضي الله عنه: "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يخطُبنا فيُذكِّرنا بأيام الله سبحانه وتعالى"[1]، والنصيحة عبادة من عباداتِ الصالحين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ لقمان: ١٣، وامتثَلها الصحابةُ رضي الله عنهم في حَياتهم، كان ابن مسعودٍ رضي الله عنه يقول: "أتخوَّلُكم بالموعظة كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوَّلنا بها"[2]، واشترَط النبيُّ صلى الله عليه وسلم على من أسلَمَ مِن الصحابةِ رضي الله عنهم فعلَ هذه العِبادة، وهذا يعني أنَّ النصيحة من الحقوق الواجبة بين المسلمين، قال جريرٌ رضي الله عنه: "بايَعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام، فاشترَط عليَّ النصحَ لكلِّ مسلم"[3]، وإنَّ من خصالِ الإيمان الواجبة حبُّ الخير للمسلمين، والخوفُ عليهم من السيِّئات والعقوباتِ، قال صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمِن أحدُكم

[1] مسند أحمد (3/ 46)، المعجم الأوسط (3/ 109).
[2] رواه البخاري (1/ 25).
[3] التوبيخ والتنبيه للأصبهاني ص 21.

حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه"[1]، **قال الإمام الذهبيّ**: "من لم ينصَح لله ﷻ وللأئمّة وللعامّة كان ناقصَ الدين"[2]

إنّ النصيحة تُصلِح المجتمعَ، وتَجلِبُ له الأُلفة، وتُبعِدُ عنه الغِيبة، وهي من الأعمالِ الدالّة على صفاء السّريرة، **قال الفضيل بن عياض** رضي الله عنه: "ما أدرَك عندَنا من أدرَك بكثرةِ الصلاة والصيام، وإنما أدرَك عندَنا بسخاءِ الأنفس وسلامةِ الصدور والنصح للأمّة، وأنصحُ الناس لك من خاف الله فيك"[3]، وكان السلفُ يحبُّون من يُبصِّرهم بعيُوبهم، **قال مِسعَرُ بن كِدام**: "رحِم الله من أهدَى إليَّ عُيوبي في سرٍّ بيني وبينه"[4]، ولا غنى لأحدٍ عن التذكير، فإن كان المنصوحُ ذا خيرٍ عمَّ خيرُهُ.

فالنصيحةُ واجبةٌ على كلِّ مسلم، فينصَح لنفسِه ولغيره بطاعة الله ﷻ والبُعدِ عن معاصيه وتحقيق التوحيد الخالص له، ولكتاب ربّه ﷻ بتعلُّمه وتعليمه وفهمه والعمل به، ولرسولِه ﷺ بامتثال أوامره وعدم الابتِداع في الشريعة، ونشر سنته، وينصح لأئمَّة المسلمين بإعانتهم على الحقّ وتذكيرهم به والدّعاء لهم، وينصح لعامّة المسلمين بجلب الخير لهم ودعوتهم إليه، ودَرء الشر عنهم وتحذيرهم منه.

ومن قام بالنصيحة وتجرَّد لله ﷻ وبذَل جهدَه فيها بالصّدق مع الله سبحانه وتعالى فحَقُّه الإكرام والدعاء والثناء، **قال الحسن البصري** رضي الله عنه: "مَا زال للهِ نُصحاءُ ينصَحون لله في عبادِه، وينصحون لعبادِ الله في حقّ الله، ويعمَلون لله في الأرضِ بالنّصيحة، أولئك خُلفاءُ الله في الأرض"[5]، ومن أعرضَ عن نصيحةٍ سديدة قُدِّمَت لَه ندِمَ،

---

[1] رواه البخاري (1/ 12)، رواه مسلم (1/ 67).
[2] سير أعلام النبلاء (11/ 500).
[3] جامع العلوم والحكم (1/ 225)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (1/ 48).
[4] الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 290).
[5] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (5/ 67- 68).

ومن أسباب سعادةِ المجتمَع حُبُّ النصيحة والعمل بها؛ وانتشارُ النصح؛ ومحبة الناصحين. إنّ مِن فضل الله ﷻ على عباده أن وضَع لهم مع نُصحِ الناصحين دلائلَ وأسبابًا تعِظُ النفسَ وتُحيِي القلب، فالقرآنُ والسنّة منبعا النصح والموعظة، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ البقرة: ٢٣١

والنصيحة سواء كانت لأفراد أو جماعات من حق المسلم على أخيه المسلم، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بايعه على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم"[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: "المؤمن مرآة المؤمن"[2]، أي المؤمن ينصح أخاه ويريه عيوبه كما يرى الإنسان نفسه في المرآة.

فالنصيحة من خصائص هذا الدين، وهي من دعائم استقامة الأمة واستقرارها، وعلامة من علامات النضج الفكري لمن يمارسها وكذلك من يستقبلها.

وما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا صورةٌ من صور النصيحة التي يستقيم بها حال المأمور بالمعروف والمنهي عن المنكر فيتبدَّل سلوكه من الخطأ إلى الصواب.

إنها مهمة من أشرف المهمَّات التي يقوم بها العبد، ذلك أن خيرها يتجاوز مؤديَها والقائمَ بها، فالأصل في تأديتها إرادة الخير والحق للمنصوح، فهي تحمل معاني الحرص والحب والإخلاص والصراحة والوضوح مع من يتم نصحهم، وقد **قال حكيم**: "اعلم أن من نصحَك فقد أحبَّك، ومن داهَنك فقد غشَّك"[3]

[1] التوبيخ والتنبيه للأصبهاني ص 21.
[2] السنن الكبرى للبيهقي (8/ 290).
[3] رسالة المسترشدين ص 71.

لقد كانت النصيحة الوظيفة الرئيسة التي جاء بها الأنبياء والمرسلون لأقوامهم، متلمِّسين هدايتَهم وتصحيحَ مسارهم وإصلاحَ دنياهم وآخرتهم.

وإذا كان للنصيحة آثار جمة، فإن لترك النصيحة مضاراً كثيرة فتزداد الأنانية ويتفشى النفاق الاجتماعي، وبترك التناصح يتمادى المخطئون في غيهم وانحرافهم، الأمر الذي يؤدي إلى الفساد في المجتمع.

وأما الهمة فهي عملٌ قلبيٌ، والقلب لا سلطان بعد الله ﷻ لغير صاحبه عليه، وكما أن الطائر يطير بجناحيه، كذلك يطير المرء بهمته فتحلق به لأعلى الآفاق، طليقة من القيود التي تكبل الأجساد.

ومن أبرز صفات صاحب الهمة أنه ذو طموح، والطموح كنز لا يفنى ولا يبلى، ولا يسعى للنجاح من لا يملك طموحًا، فصاحب الطموح دائمًا يتطلع للمعالي، فهذا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان صاحب همة عالية، ونفس طموحة يقول: " إنَّ لي نفسًا توّاقة تمنت الإمارة فنالتها، وتمنَّت الخلافة فنالتها، وأنا الآن أتوق إلى الجنة، وأرجو أن أنالها"[1]

ومن صفات صاحب الهمة العالية أنه لا يكترث بكثرة العوائق وبنيات الطريق، فشعاره دائمًا " **فإذا عزمت فتوكل على الله** "، ومن صفات صاحب الهمة العالية أيضًا أنه شحيح على وقته فإذا أمضى يومًا من عمره في غير حقٍ قضّاه، أو فرضٍ أدّاه، أو حَمْدٍ حصّله، أو خيرٍ أسسه، أو علمٍ اقتبسه، فقد عق يومه، وظلم نفسه، فالمؤمن ابن وقته، والعقل ابن لحظته، فالوقت حياة الجادين، وموت المستهترين،

[1] لطائف المعارف لابن رجب ص 244.

قال ﷺ: "ليس يتحسَّر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها"[1]

فإن من الخصال الجميلة، والخلال الحميدة، والأخلاق العالية الرفيعة الهمة العالية، والناس إنما تعلو أقدارهم، وترتفع منازلهم بحسب علو هممهم وشريف مقاصدهم، قال الشيخ محمد الخضر حسين: "علو الهمة هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور"[2]، ومعنى ذلك: "أن المؤمن لا تنتهي إنجازاته في أمور دينه ودنياه، بل كلما انتهى من إنجاز سعى إلى آخر، وهكذا حال صاحب الهمة العالية"

وقد حثَّ سبحانه وتعالى عباده على علوِّ الهمة، والمسارعة إلى الخيرات، والتنافس في أعالي الدرجات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ آل عمران: ١٣٣، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾ الصافات: ٦١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ المطففين: ٢٦، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: "إِنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشرَافَهَا، وَيَكرَهُ سَفْسَافَهَا"[3]، أي: الحقير الرديء منها.

وكان نبينا محمد ﷺ من أعلى الناس همة، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾

---

[1] المعجم الكبير للطبراني (20/ 93).
[2] رسائل الإصلاح (2/ 86).
[3] المعجم الكبير للطبراني (3/ 131).

المزمل: ١ - ٤، وكان نبينا محمد ﷺ يمتثل لهذا التوجيه الرباني الكبير، فيقوم حتى تتفطر قدماه، وفي النهار جهاد ودعوة وقيادة للأمة، وكان في بيته تسع نسوة يقوم على شؤونهن، وكان يضع الحجر على بطنه من الجوع، وتمرُّ الليالي تلو الليالي لا يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار، إن هو إلا الأسودان – التمر والماء – لقد ولَّى عهد النوم والراحة، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾﴾

الشرح: ٧ - ٨، وكان ﷺ يحث أصحابه ﷺ على الهمة العالية والمسابقة إلى الدرجات العالية، فعن أنس بن مالك ﷺ في غزوة بدر، قال: فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: "لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه"، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: "قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض"، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: "ما يحملك على قولك بخ بخ؟", قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: "فإنك من أهلها"، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل"[1]

قال ابن القيم ﷺ وهو يتحدث عن الهمة: "فكيف يحسن بذي همة قد أزاح الله ﷻ عنه علله، وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون حيواناً، وقد أمكنه أن يصير إنساناً، وبأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً، وبأن يكون ملكاً

[1] رواه مسلم (3/ 1509).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد أمكنه أن يكون ملكاً في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فتقوم الملائكة في خدمته، وتدخل عليهم من كل باب، قال ﷻ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤ ﴾ الرعد: ٢٤"[1]، وهذا الكمال إنما يُنَالُ بالعلم ورعايته والقيام بموجبه، وأعظم النقص نقص القادر على التمام وحسرته على تفويته، فَثَبَتَ أنه لا شيء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلاً عن الفضائل الدينية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، فمن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكدرون الماء ويقلون، إن عاش عاش غير حميد، وإن مات مات غير فقيد، وفقدهم راحة للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السماء، ولا تستوحش لهم الغبراء.

إذن ينبغي للمؤمن أن تكون همته عالية، يسعى إلى معالي الأمور وفيما يصلحه من أمر دينه ودنياه، وأن يبذل في ذلك الغالي والنفيس، وألا يكون ضعيف الهمة يحب الراحة والكسل، فإنه بقدر الكد تكتسب المعالي، ومن طلب العلا سهر الليالي.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى وسلم على نبينا محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين

كتبه

محمود حسن حجازي

أبو حازم

[1] مفتاح دار السعادة (1/ 110).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تمهيد

تعريف النصيحة في اللغة:

جاء في لسان العرب: "النصح: نقيض الغش، مشتق منه نصحه وله نُصْحاً، ويقال: نصحت له نصيحتي نُصوحاً: أي أخلصت وصَدَقْتُ. الاسم النصيحة."[1]

وفي تاج العروس: "النصح والنصيحة والمناصحة: إرادة الخير للغير وإرشاده له، وهي كلمة جامعة لإرادة الخير."[2]

النصيحة مأخوذة من قولهم: نصح الخياط الثوب إذا أنعم خياطته، ولم يترك فيه فتقاً ولا خللاً، وقيل: مأخوذ من نصحت العسل، إذا صفيته من الشمع.

تعريف النصيحة في الاصطلاح:

عرفها الخطابي: "النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له."[3]

أما الجرجاني فقال: "هي الدعاء إلى ما فيه الصلاح، والنهي عما فيه الفساد."[4]

وقال الإمام الراغب: "النصح تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه."[5]

وقال الإمام محمد بن نصر المروذي: "قال بعض أهل العلم: هي عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان."[6]

تعريف الهمة في اللغة:

الهمة مأخوذة من الهمّ، والهمُّ أصل صحيح.

---

[1] لسان العرب (2/ 615)
[2] تاج العروس (7/ 175).
[3] جامع العلوم والحكم (1/ 219)، سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد (1/ 527)، تاج العروس (7/ 175).
[4] التعريفات ص 241.
[5] المفردات في غريب القرآن (1/ 808).
[6] تعظيم قدر الصلاة (2/ 691).

قال ابن منظور: "والهمة واحدة الهمم، والمهمات من الأمور الشدائد المحرقة."[1]

قال: "وهم الشيء يهمٌّ هماً: نواه، وأراده، وعزم عليه."[2]

وقال ابن فارس: "والهم ما هممت به، وكذلك الهمة."[3]

والهمة تنطق بكسر الهاء وفتحها.

قال ابن منظور: "الهَمَّةُ، والهِمَّة: ما هَمَّ به من أمر ليفعله، وتقول: إنه لعظيم الهمة، وإنه لصغير الهمة، وإنه لبعيد الهِمَّة والهَمَّة بالفتح."[4]

قال الفيروز أبادي: "الهمة ما هُمَّ به من أمر ليفعل."[5]

قال ابن فارس: "والهمام الملك العظيم الهمة."[6]

وقيل: " الهمام السيّد الشجاع السَّخِيُّ."[7]

قال ابن القيم رضي الله عنه: "والهمَّة فعلة من الهَمّ، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة. فالهمُّ مبدؤها. والهمَّة نهايتها."[8]

تعريف الهمة في الاصطلاح:

"هي توجه القلب وقصده بجميع قواه الروحانية إلى جانب الحق لحصول الكمال له ولغيره."[9]

علو الهمَّة هو: "استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب السامية."[10]

---

[1] لسان العرب (12/ 620).
[2] لسان العرب (12/ 620).
[3] مجمل اللغة لابن فارس (1/ 892).
[4] لسان العرب (12/ 621).
[5] المعجم الوسيط (2/ 995).
[6] مجمل اللغة لابن فارس (1/ 892).
[7] لسان العرب (12/ 621)، المعجم الوسيط (2/ 995).
[8] مدارج السالكين لابن القيم (3/ 5).
[9] قواعد الفقه ص 553, التعريفات ص 257.
[10] رسائل الإصلاح (2/ 86) للشيخ محمد الخضر حسين.

قال المناوي: "عظم الهمَّة عدم المبالاة بسعادة الدنيا وشقاوتها."[1]

قال الراغب الأصفهاني: "الكبير الهمَّة على الإطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه، فلا يصير عبد رعاية بطنه، وفرجه، بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة."[2]

"هي النية الصادقة، والعزمة الجازمة، والإرادة القوية الرفيعة، والرغبة الأكيدة في التحلي بالفضائل والتخلي من الرذائل."[3]

قال ابن القيم رضي الله عنه: "علو الهمَّة ألا تقف أي النفس دون الله عز وجل ولا تتعوض عنه بشيء سواه، ولا ترضى بغيره بدلاً منه، ولا تبيع حظها من الله سبحانه وتعالى وقربه والأنس به والفرح والسرور والابتهاج به بشيء من الحظوظ الخسيسة الفانية."[4]

[1] التوقيف على مهمات التعاريف ص 243.
[2] الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 209.
[3] الهمة العالية للعلامة محمد بن ابراهيم الحمد، ص16.
[4] مدارج السالكين لابن القيم (3/ 163).

النصيحة الأولى
اتق الله حيثما كنت

إنّ التقوى هي عنوان الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ ولي المتقّين ومعهم في الدنيا والآخرة، وقد وعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الجنّة حيث لن يُصيبهم خوف أو حزن، والعبد العاقل يستعدّ للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أي وقت، فهو لا يدري متى يدركه الموت، ولا يمكنه استدراك ما قصّر فيه، وفي حينها يندم عندما لا ينفعه ندم.

وأعظم التقوى هي اتقّاء سخط وغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمّا حقيقة التقوى فهي أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية تحميه منه، أي أنّ تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ هي أن يجعل العبد بينه وبين غضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقوالاً وأفعالاً تقيه من ذلك، وتشمل التقوى التزام أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والابتعاد عن المحرّمات والشبهات، وفعل ما نُدب أو سنّ فعله، وترك ما كُره من ذلك، وقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أرسل أميراً على سرية أوصاه بأن يتقّي الله عَزَّ وَجَلَّ في نفسه ومن معه من المسلمين، وقد تناقل السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الوصية بها، حيث كان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خُطبه يُوصي النّاس بدايةً بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

والوصية بالتقوى هي وصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأولين والآخرين من الأنبياء والمرسلين، والناس أجمعين إلى يوم الدين، وقد دل على ذلك القرآن والسنة؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ

﴿ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ النساء: ١٣١، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ آل عمران: ١٠٢

والتقوى كما قال علمائنا الإجِلاَّء هو أن تجعل بينك وبين عقاب الله ﷻ وعذابه وقاية، ويكون ذلك بفعل المأمورات والمستحبات، وترك المنهيات والمكروهات، وكلما ازداد المسلم من زاد التقوى، ازداد رصيده من فعل الحسنات، ومجانبة السيئات، حتى إنه ليدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

ومن حقق التقوى جعل له من أمره يسرًا، ورزقه من حيث لا يحتسب؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾﴾ الطلاق: ٢ - ٣ ، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾ الطلاق: ٥

ومن لزم التقوى رزَقه الله ﷻ الحياة المطمئنة السعيدة، وانقلبت المحنة في حقه منحة، والبلايا عطايا، والحال ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد؛ قال ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ الأعراف: ٩٦

وقد سأل عمر بن الخطاب ﷺ ذات يوم كعب الأحبار ﷺ فقال: "حدثني عن التقوى، فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال نعم، قال فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال كعب كذلك التقوى."[1]

فالتقوى خشية مستمرة وحذر دائم من أشواك الحياة من فتن وشهوات وشبهات، ولذلك قال ابن المعتز عن التقوى:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

ولا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى[2]

وقال شهر بن حوشب: "المتقي الذي يترك ما لا بأس به حذراً من الوقوع فيما فيه بأس."[3]

وقال طلق بن حبيب ﷺ: "التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله."[4]

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: "التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل."[5]

فالتقوى هي سفينة النجاة، ومفتاح كل خير، وهي الغاية العظمى، والمقصد الأسمى من العبادة، إنها محاسبة دائمة للنفس، وخشية مستمرة لله ﷻ، وحذر من أمواج

---

[1] تفسير القرطبي (1/ 161).
[2] تفسير القرطبي (1/ 162)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ص 627.
[3] تفسير البغوي (1/60)، التفسير المظهري (1/ 18).
[4] الإيمان لابن تيمية ص 132,المطلب الحميد في بيان مقاصد التوحيد ص 262, جامع العلوم والحكم (1/ 400)، مجموع الفتاوي لابن تيمية (7/ 163)، حقوق النبي على أمته في ضوء الكتاب والسنة (1/ 257).
[5] فتاوي النووي ص 240,صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (2/ 77).

الشهوات والشبهات التي تعيق من أراد السير إلى ربه ﷻ، إنها الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعدادُ ليوم الرحيل.

التقوى هي التي تصحبنا إلى قبورنا فهي المؤنس لنا من الوحشة والمنجية لنا من عذاب الله ﷻ، دخل علي رضي الله عنه المقبرة فقال: "يا أهل القبور ما الخبر عندكم: إن الخبر عندنا أن أموالكم قد قسمت وأن بيوتكم قد سكنت وإن زوجاتكم قد زوجت، ثم بكى ثم قال: والله لو استطاعوا أن يجيبوا لقالوا: إنا وجدنا أن خير الزاد التقوى."[1]

التقوى هي خير ضمانة نحفظ بها أولادنا ومستقبل أبنائنا من بعدنا، قال ﷻ:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٩ ﴾ النساء: ٩

فالتقوى أصلح للعبد وأجمع للخير، وأعظم للأجر، وهي الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، الكافية لجميع المهمات.

كما أن التقوى وصية النبي ﷺ لأمته، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه: قال: "صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظة بليغة زرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأنها موعظة مودع، فقال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة."[2]، وكان من

---

[1] كنز العمال (3/ 697)، حياة الصحابة للكاندهلوي (3/ 414).

[2] مسند أحمد (28/ 375)، سنن ابن ماجه (1/ 17)، صحيح ابن حبان (1/ 178)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 176).

دعاء النبي ﷺ: "اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها."[1]

والتقوى وصية السلف الصالح رضي الله عنه، فقد كان أبو بكر رضي الله عنه يقول في خطبته: "أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله"[2]، ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعاه فأوصاه بوصيته قائلاً: "اتق الله يا عمر."[3]

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله رضي الله عنه: "أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل فإنه من اتقاه وقاه، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك."[4]

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى رجل: "أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل."[5]، ولما ولي خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: "أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإن تقوى الله عز وجل خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف."[6]

فالمرء محتاج للتقوى ولو كان أعلم العلماء، وأتقى الأتقياء، يحتاج إلى التقوى؛ لأن العبد تمر به حالات، ويضعف في حالات، يحتاج إلى التقوى للثبات عليها، يحتاج إلى التقوى للازدياد منها، **اتقِ الله عز وجل حيثما كنت، في السر والعلانية.**

[1] رواه مسلم (4/ 2088).
[2] معارج القبول بشرح سلم الوصول (2/ 449)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (5/ 671)، مصنف ابن شيبة (7/ 91)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 35)
[3] تفسير ابن رجب الحنبلي (1/ 366)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 36)، كنز العمال (12/ 533)، صفة الصفوة (1/ 100).
[4] تفسير ابن رجب الحنبلي (1/ 366).
[5] تفسير ابن رجب الحنبلي (1/ 366)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (3/ 56)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (5/ 267).
[6] تفسير ابن رجب الحنبلي (1/ 366)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (1/ 63).

والتقوى هي أجمل لباس يتزين به العبد: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ الأعراف: ٢٦

إ ذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى *** تقلب عريانا وإن كان كاسياً

وخير لباس المرء طاعة ربه *** ولا خير فيمن كان لله عاصياً[1]

والتقوى هي أفضل زاد يتزود به العبد، قال ﷻ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ البقرة: ١٩٧

وبها الطريق الى الجنة، فقد سئل النبي ﷺ ما أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: "تقوى الله وحسن الخلق."[2]

والنبي ﷺ كان يسأل في دعائه فيقول: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى."[3]

إن تقوى الله ﷻ إذا استقرت في القلوب وارتسمت بها الأقوال والأعمال والأحوال أثمرت وأعقبت من الفضائل والفوائد والثمار شيئاً كثيراً به تصلح الدنيا والآخرة دار القرار وما يشحذهم أولي الأبصار إلى صراط العزيز الغفار ﷻ.

---

[1] تفسير القرطبي (7/ 184)، أيسر التفاسير للجزائري (2/ 162)، مجموعة القصائد الزهديات (2/ 179)

[2] سنن الترمذي (4/ 363)، صحيح ابن حبان (2/ 224)، شعب الإيمان (7/ 503).

[3] مسند أحمد (7/ 229)، رواه مسلم (4/ 2087)، سنن ابن ماجه (2/ 1260)، سنن الترمذي (5/ 522)، صحيح ابن حبان (3/ 182).

وتقوى الله ﷻ سبب لتفريج الكروب وإيجاد المخارج والحلول عند نزول الخطوب وهي سبب لفتح سبل الرزق قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ٣ ﴾ الطلاق: ٢ - ٣

فتقوى الله ﷿ سبب لنجاة العبد من الهلاك والعذاب والسوء قال ﷻ: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١ ﴾ الزمر: ٦١

وهي سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات والفوز بالغرف والجنات قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥ ﴾ الطلاق: ٥

فاتقوا الله ﷿ فإن تقوى الله ﷻ هي أكرم ما أسررتم وأعظم ما ادخرتم وأزين ما أظهرتم.

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى *** ولاقيت يوم الحشر من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله *** وأنك لم تُرصد كما كان أرصدا

وكل من أراد العز في الدين والدنيا والبركة في الرزق والوقت والعمل فعليه بتقوى الله ﷻ فإنها من أعظم ما استنزلت به الخيرات واستدفعت المكروهات.

إن تقوى الله ﷻ هي خير ما يقدم به العبد على الله ﷻ يوم العرض، وهي أعظم جنة يحتمي بها العبد في ذلك اليوم، قال ابن القيم ﵀: "فتقوى الله سبب لنجاة العبد من الهلاك والعذاب والسوء قال ﷻ: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١ ﴾ الزمر: ٦١

التقوى سبب في توفيق العبد في الفصل بين الحق والباطل ومعرفة كل منهما، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾ الأنفال: ٢٩

والتقوى سبب لتعظيم شعائر الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ ﴾ الحج: ٣٢،كما أنها سبب لنيل رحمة الله ﷻ، وهذه الرحمة تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة: قال ﷻ: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ﴾ الأعراف: ١٥٦

وجعل الله ﷻ التقوى هي الميزان عنده في التفاضل بين الناس، فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ الحجرات: ١٣، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قيل يا رسول الله ﷺ: "من أكرم الناس؟ قال: "أتقاهم"[1]

والتقوى سبب للفوز والفلاح: قال ﷻ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾ النور: ٥٢، وإنها سبب للنجاة يوم القيامة من عذاب الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢ ﴾ مريم: ٧١ -

[1] صحيح البخاري (4/ 140)، صحيح مسلم (4/ 1846)

٧٢ , وإنها سبب لقبول الأعمال, قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ المائدة: ٢٧

والتقوى سبب قوي لأن يرثوا الجنة، قال ﷻ: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ مريم: ٦٣

إن المتقين لهم في الجنة غرف مبنية من فوقها غرف، قال ﷻ: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الزمر: ٢٠، وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها" فقال أعرابي: يا رسول الله لمن هي؟ قال: "لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام"[1]

فلنجاهد الأنفس بتقوى الله عز وجل بالسر والعلن، ونجعله نصب أعيننا، ولنجعل الخوف منه منهجاً لحياتنا، فوالله إن الخوف من الله عز وجل الغنيمة التي لا بعدها غنيمة إذا رزقها العبد، لذا قَالَ ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم: ١٤، وَقَالَ ﷻ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الرحمن: ٤٦.

المسلم الحق هو المسلم الذي يلتزم أوامر الله ﷻ ولا يخالفها، فمن التزم أوامر الله ﷻ فقد أفلح ونجا، فالله ﷻ لما خلق البشر وجعلهم بطبيعتهم التي خلقهم عليها، أرسل

[1] مسند أحمد (2/ 449)، سنن الترمذي (4/ 673).

لهم الرسل، وأنزل مع الرسل كُتُباً وصحفاً تُتلى، فلم يتركهم دون رعايةٍ وتَوعية، بل أرسل لهم ما يدلّهم على طريق الهدى والرشاد، فأمرهم من الأوامر ما فيه صلاحهم، ونهاهم عن كلِّ ما فيه الفسادَ والهلاكَ لهم في الدنيا والآخرة، والعاقل الرشيد هو من يَعي حقيقة أوامر الله ﷻ ونواهيه وما فيها من الخير للإنسانية؛ فيَحرص على تقوى الله ﷻ والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

تعدّ التقوى من أهمّ وأفضل ما ينبغي على العبد المسلم أن يتحلّى ويتزين قلبه به، فقد قال ﷻ: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧ ﴾ البقرة: ١٩٧، فالتقوى منزلةٌ ساميةٌ لا صلاح للعبد دونها، ولا سعادة لحياته بفقدانها، فقد علّق الله ﷻ بها الخير الكثير، ووعد عليها الأجر والثواب الجزيل، وهي رأس كل خير، ومفتاح كل خير، وسبب كل خير في الدنيا والآخرة، وإنما تأتي المصائب والبلايا والمحن والعقوبات بسبب الإهمال أو الإخلال بالتقوى وإضاعتها، أو إضاعة جزء منها، فالتقوى هي سبب السعادة والنجاة وتفريج الكروب والعز والنصر في الدنيا والآخرة.

فالتقوى حقيقتها هي دين الإسلام، وهي الإيمان والعمل الصالح، وهي العلم النافع والعمل به، وهي الصراط المستقيم، وهي الاستسلام لله ﷻ والانقياد له ﷻ بفعل الأوامر، وترك النواهي عن إخلاص كامل له ﷻ وعن إيمانه به ورسله، وعن إيمان بكل ما أخبر الله ﷻ به ورسوله ﷺ، إيماناً صادقاً يثمر أداء الخير والحذر من الشر والوقوف عند الحدود، وإنما سمى الله ﷻ دينه تقوى؛ لأنه يقي من استقام عليه

عذاب الله ﷻ وغضبه، ويحسن لربه ﷻ العاقبة، وسمى هذا الدين إسلاماً؛ لأن المسلم يسلم نفسه لله ﷻ وينقاد لأمره.

"ومن فوائد التقوى أنه معية الله ﷻ للمتقين، والبشرى بالتكريم للمتقين، وتكفير الذنوب وتعظيم الأجر، والوعد بالمغفرة وزوال الخوف من النفوس، واليسر والسهولة في الأمر، تكفير للذنوب وتعظيم للأجر من الله ﷻ، والعون والنصرة من الله ﷻ للمتقين، والأمن من البلية ونيل الوصال والقربة، وعز الفوقية على سائر الخلق، والخروج من الهم والمحنة والوعد بالرزق الواسع، والنجاة من العذاب والعقوبة، والفوز بالجنة، والتوفيق والشهادة لهم بالصدق، ومحبة الله ﷻ للمتقين"[1]

أسأل الله ﷻ أن يوفقنا وجميع المسلمين للتقوى، وأن يأخذ بأيدينا جميعا لما يرضيه وأن يجعلنا جميعاً من عباده الصالحين ومن حزبه المفلحين، وأن يمن علينا بالاستقامة على تقواه في كل أقوالنا وأعمالنا والدعوة إلى ذلك والصبر عليه إنه ﷻ جواد كريم.

[1] نظرة النعيم (4/ 1120).

النصيحة الثانية

أخلص تخلص

أمر الله ﷻ بالتحلّي بالأخلاق الحسنة، كما بعث رسوله محمد ﷺ ليدعو إلى مكارم الأخلاق، ومن أعظم هذه الأخلاق وأساسها توحيد الله ﷻ، والإخلاص له في كلّ الأقوال والأعمال، والإخلاص لله ﷻ هو أن يكون هدف العبد وقصده من خلال أعماله وأقواله رضا الله ﷻ، وألّا يشرك معه أحداً، وأن يبتعد عن الرياء، والسُمعة، والشهرة، ومدح الناس، فيكون عمله خالصاً لوجه الله ﷻ؛ رغبةً بالأجر والثواب العظيم يوم القيامة، والتوفيق في الحياة الدنيا، حيث قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ البينة: ٥، والإخلاص هو من الأعمال القلبيّة؛ حيث إنّ مكانه القلب، فبما أنّ محلّه القلب فهو بين العبد وربّه ﷻ، متعلّقٌ بما يفعل العبد فلا يُمكن للناس قياس مدى إخلاص عبدٍ ما، بل هو أمر ذاتيّ بالعبد خاصٌ به، والإخلاص لا يتعلّق بعملٍ معيّنٍ، بل يشمل جميع الأقوال والأعمال.

لا تُقبل أعمال العبد إلّا بإخلاص النية والقصد والإرادة لله ﷻ، فقد أمر الله ﷻ نبيّه محمداً ﷺ بالإخلاص أكثر من مرّةٍ، وورد ذلك في مواضع من القرآن الكريم، منها قوله ﷻ: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ ﴾ الزمر: ٢، فالأعمال لا تُقبل إلّا بالإخلاص فيها والمتابعة، يقول ﷻ: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ﴾ الملك: ٢، فورد أنّ أحسن الأعمال

الواردة في الآية السابقة يُقصد بها الخالص منها والأصوب، فلا بدّ أن يكون العمل خالصاً وصائباً، فلا يُقبل العمل الخالص إن لم يكن صائباً، وكذلك لا يُقبل العمل الصائب إن لم يكن خالصاً أيضاً، ويُقصد بالعمل الخالص العمل لله ﷻ، أمّا العمل الصائب فهو العمل الموافق للسنة النبوية الواردة عن النبي محمدٍ ﷺ، وفي ذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "لا ينفع قول وعمل إلّا بنيةٍ ولا ينفع قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلّا باتباع السنة."[1]، **ويقول سفيان الثوري** رضي الله عنه: "ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نيتي لأنّها تتقلب عليّ."[2]

وحقيقة الإخلاص تتمثّل بتوجيه وتحديد النية لله ﷻ في الأعمال، دون رياءٍ ولا سُمعةٍ، أو سعي في القرب من أحد من الناس، أو نيل المدح والثناء منهم، أو الخوف والخشية من القدح والذم، وبذلك يسير المسلم إلى الجنة، وتتحقّق له المكانة الرفيعة والمنزلة الجليلة، ويمنع الشيطان من التسلّط عليه.

فأن أعظم الأصول المهمة في دين الإسلام هو تحقيق الإخلاص لله ﷻ في كل العبادات، والابتعاد والحذر عن كل ما يضاد الإخلاص وينافيه، كالرياء والسمعة والعجب ونحو ذلك، **قال العز بن عبد السلام**: "الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله عز وجل وحده، لا يريد بها تعظيماً من الناس ولا توقيراً، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي."[3]، **وقال سهل بن عبد الله** رضي الله عنه: "الإخلاص أن

[1] جامع العوم والحكم (1/ 68).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 62)، جامع العلوم والحكم (1/ 69).
[3] قواعد الأحكام (1/ 146)، مباحث العقيدة في سورة الزمر ص 188

يكون سكون العبد وحركاته لله ﷻ خاصة."[1]، وقيل: "هو تفريغ القلب لله" أي: صرف الانشغال عمّا سواه، وهذا كمال الإخلاص لله ﷻ.

ويقول بعضهم: "المخلص هو: الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الناس من أجل صلاح قلبه مع الله ﷻ، ولا يحب أن يطلع الناس على مثاقيل الذر من عمله."[2]، وسئل التستري رضي الله عنه: "أي شيء أشد على النفس؟! قال: "الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب."[3]

والإخلاص هو حقيقة الدين، وهو مضمون دعوة الرسل قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ البينة: ٥، والإخلاص سبب لعظم الجزاء مع قله العمل، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل هذا، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟! أظلمك كتبتي الحافظون؟! فيقول: لا يا رب. فيقول: أفلك عذر؟! فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم. فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال:

[1] إحياء علوم الدين (4/ 381).
[2] مجموع الفتاوي (18/ 260)، موارد الظمآن لدروس الزمان (1/ 174).
[3] تفسير التستري (1/ 78)، صفة الصفوة (2/ 273)

إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء."[1]

يقول ابن تيمية رضي الله عنه معلقاً على حديث البطاقة: "فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلّا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة."[2]، فإن الإيمان يتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟! قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت؛ ولكنك قاتلت ليُقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها فقال: فما عملت؟! قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت القرآن. قال: كذبت، ولكن تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال قاري، فقد قيل. ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من صنوف المال، فأتى به فعرفه نعمته فعرفها. قال: فما عملت بها؟! قال: ما تركت من سبيل يحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل. ثم أمر به على وجهه حتى أُلقي في النار."[3]

---

[1] مسند أحمد (11/ 570)، رواه الترمذي (5/ 24)، صحيح ابن حبان (1/ 461)، المعجم الكبير للطبراني (13/ 19)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 46)، شعب الإيمان للبيهقي (1/ 448).
[2] منهاج السنة النبوية لابن تيمية (6/ 219)
[3] رواه مسلم (3/ 1513).

درجات الإخلاص:

الدرجة الأولى:

إخراج رؤية العمل عن العمل، والخلاص عن طلب العوض عن العمل، والنزول عن الرضى بالعمل.

فالأولى: يشاهد منة الله ﷻ وتوفيقه له على هذا العمل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ النور: ٢١

الثانية: ليعلم إنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوض.

الثالثة: مطالعته عيوبه وآفاته وتقصيره فيه.

الدرجة الثانية:

الخجل من العمل مع بذل المجهود حيث لا يرى العمل صالحا لله ﷻ مع بذل المجهود، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ المؤمنون: ٦٠، فالمؤمن جمع إحساناً في مخافة، وسوء ظن بنفسه.

الدرجة الثالثة:

إخلاص العمل بالخلاص من العمل، إلا بنور العلم، فيحكمه في العمل حتى لا يقع في البدعة.

ثمار الإخلاص:

لا بد من أمرين هامين عظيمين أن يتوفرا في كل عمل وإلا لم يقبل:

1- أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله سبحانه وتعالى.

2- أن يكون موافقاً لما شرعه الله سبحانه وتعالى في كتابه أو بينه رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته.

فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحاً ولا مقبولاً، ويدل على هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ الكهف: ١١٠، **قال الحافظ ابن كثير** في تفسيره: "وهذان ركنا العمل المتقبل؛ لا بد أن يكون خالصًا لله عز وجل، صواباً على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم."[1]

ولهذا من ثمار الإخلاص:

1. تفريج الكربات (قصة الثلاثة – قصة عكرمة – قصة أصحاب الكهف).
2. الانتصار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنفال: ٤٥ – ٤٧
3. العصمة من الشيطان: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤

[1] تفسير ابن كثير (5/ 183).

4- نيل شفاعة محمد ﷺ: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "قلت يا رسول الله؛ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟! فقال: لقد ظننت يا أبا هريرة، أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قِبَل نفسه."[1]

5- مغفرة الذنوب ونيل الرضوان: كما في حديث البطاقة، والمرأة البغي التي سقت الكلب، والرجل الذي أزاح الشجرة من الطريق.

والإخلاص هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة الرسل عليهم السلام، وهو لب العبادة وروحها، **قال ابن حزم**: "النية سر العبودية وهي من الأعمال بمنزلة الروح من الجسد، ومحال أن يكون في العبودية عمل لا روح فيه، فهو جسد خراب."[2]

والإخلاص هو أساس قبول الأعمال وردها فهو الذي يؤدي إلى الفوز أو الخسران، وهو الطريق إلى الجنة أو إلى النار، فإن الإخلال به يؤدي إلى النار وتحقيقه يؤدي إلى الجنة.

فالإخلاص مصدر رزق عظيم للأجر وكسب الحسنات قال ﷺ: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليه حتى ما تجعل في فم امرأتك."[3]

قال ﷺ: "من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لم يتعلمه إلا ليصيب به عرض من عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة."[4]، وقال ﷺ: "من تعلم العلم ليماري به السفهاء أو ليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار."[5]

[1] رواه البخاري (1/ 31).
[2] مقاصد المكلفين ص 68.
[3] رواه البخاري (1/ 20).
[4] مسند أحمد (14/ 169)، سنن ابن ماجه (1/ 92)
[5] سنن ابن ماجه (1/ 93).

الإخلاص يقلب المباحات إلى عبادات وينال بها عالي الدرجات، **قال أحد السلف**: "إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي ونومي ودخولي الخلاء"[1]

كما أن الإخلاص ينقي القلب من الحقد والغل ويسبب قبول العمل لأن النبي ﷺ قال: "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه."[2]

إن الله ﷻ لما أمرنا أن نعبده، وأن نطيعه، جعل لذلك مقياسًا يقاس به أعمال الناس وعباداتهم، وطاعاتهم، فما كان منها على هذا الشرط أو هذا المقياس فهو مقبول، وما كان منها على غير ذلك فهو مردود على صاحبه، فيا ترى ما هو هذا الشرط وأي مقياس الذي به قبول الأعمال وردها، إنه الإخلاص، والمتابعة.

فالإخلاص أساس الدين، وركنه المتين، وهو روح العبادة وشرط قبولها، وهو الذي يزكي الأعمال ويطهرها وينميها، فيبارك الله ﷻ فيها وينفع بها، وهو الذي أمر الله ﷻ العباد بالتزامه، وهو الذي ابتلاهم به، فقال ﷻ: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٢﴾ ﴾ الملك: ٢، وقوله ﷻ: ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ ﴾ الكهف: ٧، **قال ابن كثيرٍ** في تفسيره لهذه الآية الكريمة مبينًا هذا الأمر العظيم، والركن المتين: "لم يقل أكثر عملًا بل أحسن عملًا، ولا يكون العمَلُ حسنًا حتى يكون خالصًا لله ﷻ على شريعةِ رسول الله ﷺ، فمتى فقَد العمل واحدًا من هذين الشّرطين حبط وبطل"[3]

---

[1] موارد الظمآن لدروس الزمان (1/ 179).
[2] السنن الكبرى للنسائي (4/ 286).
[3] تفسير ابن كثير (4/ 266).

فالإخلاص والمتابعة أساس قبول عمل العبد، بل لا يقبل أي عمل إلا أن يكون خالصًا صوابًا، فالإخلاص أمر مهم في حياة المسلم، فالمسلم في عبادة دائمة لله ﷻ ، فإذا لم يكن مع تلك العبادة إخلاص ومتابعة، فإنه إنما يتعب نفسه بدون فائدة تعود عليه في الدنيا والآخرة، فقد يأتي بأعمال كالجبال قد راء بها، ولم يخلص لله ﷻ فيها فيجعلها الله ﷻ هباءً منثوراً.

فالإخلاص محلّه القلب، فقد قال ﷺ: " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[1]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجرتُه لدنيا يصيبُها أو امرأةٍ ينكِحها فهِجرته إلى ما هاجَر إليه"[2]

فأخلِص في عملك عبد الله، فإن الله ﷻ يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ثم اعلم أنه لن يقبل لك عمل إلا أن يكون خالصًا لوجه الله ﷻ، فهو الميزان يوم القيامة وهو المقياس، فاعمل جاهدًا على مجاهدة نفسك بالإخلاص، فإنها نفس أمّارة بالسوء تحب الفخر، والرياء والسمعة.

وأن من أعظم أسباب تخلّف الإخلاص وغيابه في الأعمال هو طلب الدنيا، ومحبة المدح والثناء، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح، والثناء، والطمع، فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا حدّثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبِل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس،

---

[1] رواه مسلم (4/ 1987).
[2] رواه البخاري (1/ 6)، رواه مسلم (3/ 1515).

وأقبِل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص"[1]

فما أحوجنا إلى أن نكون مخلصين لله ﷻ في أقوالنا، وأفعالنا، وحركاتنا وسكناتنا، فإنه السبب في الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة، وما أشدنا حاجة في هذا الزمان بالذات إلى الإخلاص؛ لكي يقوى إيماننا، ولكي تنتصر أمتنا، ولكي يفرج عن المسلمين الشدائد والكربات، ويتحرّرون من العبودية، ويتحقق لهم الطمأنينة والسكينة، ويشعرون بالسعادة؛ لأنهم في حالة لا يعلم بها إلى الله ﷻ فما أحوجنا إلى الإخلاص؟!

ومن فوائد الإخلاص أنه هو الأساس في قبول الأعمال والأقوال، وهو الأساس في قبول الدعاء، ويرفع منزلة الإنسان في الدنيا والآخرة، ويبعد عن الإنسان الوساوس والأوهام، ويحرر العبد من عبودية غير الله ﷿، ويقوي العلاقات الاجتماعية وينصر الله ﷻ به الأمة، ويفرج شدائد الإنسان في الدنيا، ويحقق الطمأنينة لقلب الإنسان ويجعله يشعر بالسعادة، ويقوي إيمان الإنسان ويكره إليه الفسوق والعصيان، ويقوي عزيمة الإنسان وإرادته في مواجهة الشدائد، وحصول كمال الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة"[2]

اللهم أخلص نياتنا وأجعل أعمالنا كلها صالحة ولوجهك خالصة يا رب العالمين

اللهم ارزقنا الإخلاص في أقوالنا وأعمالنا، واجعلها خالصة لك، صواباً على سنة رسولك ﷺ

---

[1] الفوائد لابن القيم ص 149

[2] نظرة النعيم (2/ 140).

النصيحة الثالثة
اعقلها وتوكل

التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ من أعظم العبادات التي يتقرّب بها العبد إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرطاً للإيمان والإسلام؛ لأنه أعظم درجات التوحيد التي تقود إلى القيام بالأعمال الصالحة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٢، ويُعدُّ التوكل من الأعمال القلبيّة التي لا تتم باللسان.

فإن التوكل على الله عَزَّ وَجَلَّ عبادة الصادقين، وسبيل المخلصين، أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به أنبياءه المرسلين، وأولياءه المؤمنين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ الفرقان: ٥٨، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ الشعراء: ٢١٧ – ٢٢٠، ولقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به المؤمنين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سبعة مواضع من القرآن: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٠

فالتوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عَزَّ وَجَلَّ في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة والاعتقاد بأنه لا يعطى ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما هو انطراح القلب بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كانطراح الميت بين يدي المغسل يقلبه كيف يشاء.

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: "التوكل جماع الإيمان"[1]، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣، فهو حال المؤمن في جميع الأحوال والأحيان.

ففي مقام العبادة: قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ ﴾ هود: ١٢٣

وفي مقام الدعوة: قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ التوبة: ١٢٩

وفي مقام الرزق: قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ الطلاق: ٢ - ٣

وفي مقام الحكم والقضاء: قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ الشورى: ١٠

وفي مقام الجهاد: قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٠

[1] تفسير ابن رجب (2/ 484)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/ 274).

وفي مقام الهجرة والسفر: قال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ النحل: ٤١ - ٤٢

وفي مقام العهود والمواثيق: قال ﷻ: ﴿ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ ﴾ يوسف: ٦٦

وفي كل ما يقوله الإنسان ويفعله ويعزم عليه يتوكل فيه عليه ﷻ، قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٩، وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق: ٣

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل:

بل هو من تمامه وكماله لكن الحذر من ركون القلب إلى الأسباب فهذا الذي ينافي التوكل لذا قيل: السعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله ﷻ والتوكل بالقلب على الله ﷻ إيمان بالله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ الأنفال: ٦٠ ، وقال ﷻ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴿١٠﴾ ﴾ الجمعة: ١٠، وقال ﷻ لمريم عليها السلام: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ ﴾

مريم: ٢٥، وهي الضعيفة الواضعة النفساء والنخلة لا تُهز وإن هُزّت لا يسقط ثمرها لكن أراد الله ﷻ أن يعلمنا أن الأخذ بالسبب ولو كان ضعيفاً دون أن يُتَعَلَق به صاحبه تكون وراءه النتيجة المثمرة.

وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ الأنفال: ٦٢، وقال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ المائدة: ٦٧، إلا أنه حين هجرته أخذ دليلاً لتعمية الأثر وخرج في وقت يغفل فيه الناس ومن طريق غير متوقع كل هذا أخذاً بالأسباب، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "التوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم معه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله ﷻ لا بها، وحال بدنه قيامه بها، فالأسباب محل حكمة الله ﷻ وأمره ونهيه، والتوكل معلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية"[1]

فمِن أعظم العبادات القلبيةِ التوكُّلُ على الله ﷻ في جميع الأمور؛ **قال ابن رجب:** "التوكُّل صِدْقُ اعتمادِ القَلْبِ على الله ﷻ في جلْب المصالح، ودفْع المضارِّ من أمور الدنيا والآخرة، وأن يَكِل العبدُ أمورَه كلَّها إلى الله ﷻ، وأن يحقِّق إيمانه بأنه لا يُعطي ولا يمنع، ولا يَضرُّ ولا يَنفع، إلا هو ﷻ"[2]، قال ﷻ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 120).
[2] جامع العلوم والحكم (3/ 1266).

﴿بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ الأنعام: ١٧، وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً"[1]

قال ابن رجب: "هذا الحديث أصلٌ في التوكل، وأنه مِن أعظم الأسباب التي يُستجلَب بها الرزق؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ٣﴾ الطلاق: ٢ – ٣، وقد دلَّ حديث عمر بن الخطاب ﷺ؛ أن الناس إنما يُؤتَوْن مِن قلَّة تحقيق التوكُّل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم، ومساكنتهم لها؛ فلذلك يُتعِبون أنفسَهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلا ما قُدِّر لهم، فلو حقَّقوا التوكلَ على الله ﷯ بقلوبهم، لساقَ اللهُ ﷻ إليهم أرزاقَهم مع أدنى سبب، كما يسُوق إلى الطير أرزاقَها بمجرد الغدوِّ والرَّوَاح، وهو نوع من الطلب والسعي، لكنه سعي يسير"[2]

وقال بعض السلف: " توكل تُسَقْ إليك الأرزاق بلا تعب، ولا تَكَلُّف"[3]

قال ابن القيم ﷺ: "التوكل مِن أقوى الأسباب التي يَدفع بها العبدُ ما لا يطيق مِن أذى الخَلْق، وظلمِهم، وعدوانهم"[4]، وقال: "التوكلُ نصفُ الدِّين، والنصفُ الثاني الإنابة، فإن الدِّين استعانةٌ وعبادةٌ، فالتوكل استعانة، والإنابة هي العبادة"[5]

---

[1] مسند أحمد (1/ 332)، سنن ابن ماجه (2/ 1394)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 354).
[2] جامع العلوم والحكم (3/ 1271).
[3] جامع العلوم والحكم (3/ 1272).
[4] التفسير القيم لابن القيم (1/ 649)
[5] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 113).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إذا خرج الرجُل مِن بيته فقال: بسم الله، توكَّلتُ على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله"، قال: يُقال حينئذٍ: هُدِيتَ، وكُفيتَ، ووُقيتَ، فتتنَحَّى له الشياطين، فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي، وَكُفِيَ، وَوُقِيَ"[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النَّار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: إنَّ النَّاس قد جمعوا لكم فاخشوْهم، فزادهم إيمانًا، وقالوا: حسبُنا الله ونعم الوكيل"[2]

فإبراهيم عليه السلام عندما قال: "حسبُنا الله ونعم الوكيل"، كانت عاقبته ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ الأنبياء: ٦٩، وحين قال النبي محمد ﷺ: "حسبُنا الله ونعم الوكيل"، كانت عاقبته ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ آل عمران: ١٧٤

ومؤمنُ آلِ فرعون عندما كاده قومُه، قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ غافر: ٤٤، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ غافر: ٤٥

[1] سنن الترمذي (5/ 490).
[2] رواه البخاري (6/ 39).

إن التوكل على الله ﷻ عمل قلبي، يتبعه عمل بدني، ومعناه: "صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدينا والآخرة، وتفويض الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع، ولا يضر ولا ينفع سواه"[1]

قال الإمام أحمد: "صدق المتوكل على الله ﷻ: أن يتوكل على الله ﷻ ولا يكون في قلبه أحد من الآدميين يطمع أن يجيئه بشيء، فإذا كان كذا كان الله ﷻ يرزقه، وكان متوكلاً."[2]

فالمتوكل على الله ﷻ توكلاً صادقًا يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن كل شيء بيد الله ﷻ، فنيل آماله لا يتحقق إلا بالله ﷻ، وإذهاب آلامه لا يكون إلا بالله ﷻ، ومن كان كذلك صار قلبه متحرراً من التعلق بالخلق رغبة ورهبة، وأصبح ينظر إلى السماء تاركًا أهل الأرض؛ إذ إنهم لا ينفعون ولا يضرون إلا بإرادة الله ﷻ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف"[3]

فأما من رضي لنفسه العبودية لغير الله ﷻ، ورضي لها الهوان بعرض حاجاته على الخلق من غير تعلق بالله ﷻ، وإنما يصبح تعلقه الكامل بالخلق؛ فقد خسر الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من نزلت به فاقة

[1] جامع العلوم والحكم (3/ 1266).
[2] الآداب الشرعية والمنح المرعية (3/ 270).
[3] سنن الترمذي (4/ 667).

فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل"[1]

إذن فإن التوكل على الله ﷻ بصدق عبادةٌ من أعظم العبادات التي يتقرب بها المسلم إلى ربه ﷻ؛ لأنها برهان من أعظم براهين العبودية للمعبود الحق ﷻ؛ فلذلك أمر الله ﷻ به في عبادات كثيرة، وذكر ﷻ أن التوكل من صفات أهل الإيمان فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الأنفال: ٢، وذكر كذلك أن التوكل الصادق على الله ﷻ وحده يعد حصنًا حصينًا وحرزاً أمينًا من الشيطان الرجيم، قال ﷻ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ النحل: ٩٨ - ٩٩، فإن التوكل على الله ﷻ عمل جليل لا يستغني عنه العبد في سائر أحواله، وقل من الخلق من يفقه هذا الباب، ويعتني ويكلف به، والدين مبناه على التوكل، **قال سعيد بن جبير** رضي الله عنه: "التوكل على الله نصف الإيمان"[2]، والتوكل عمل قلبي ليس من أعمال الجوارح **قال الإمام أحمد**: "التوكل عمل القلب"[3]، قال أيضاً: "وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله ﷻ والثقة به"[4]

ومن مقتضى التوكل وشرط صحته العمل بالأسباب النافعة المأذون بها شرعاً؛ لأن الشارع الحكيم ربط بين التوكل والعمل بالأسباب، فلا يُجزئ التوكل، ولا ينفع العبد

[1] سنن الترمذي (4/ 563).
[2] تفسير ابن أبي حاتم (5/ 1656).
[3] مسند أحمد (42/ 19)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (2/ 316).
[4] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 390).

إلا بالأخذ بالأسباب، ولا تنافي مطلقاً بين التوكل والعمل بالأسباب، فحقيقة التوكل في المفهوم الشرعي إذن؛ اعتماد القلب على الله ﷻ مع تعاطي الأسباب بالجوارح فهذان هما رُكنا التوكل لا يصح التوكل إلا بهما.

أما الاعتماد على الله ﷻ والإعراض عن الأسباب فقدح في الشرع ونقص في العقل وأما الاقتصار فقط على العمل بالأسباب دون الاعتماد على الله ﷻ فشرك في الأسباب، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "فإن تركَها عجزاً ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله ﷻ في حصولِ ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضرّه في دينه ودنياه ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً."[1]

ثمار التوكل على اللّه ﷻ:

إنّ التوكل على الله ﷻ من أهمّ أعمال القلوب، وهو من العبادات التي يؤجَر عليها صاحبها، كما أنّه سببٌ في زيادة إيمان العبد، وهو صفةٌ من صفات المؤمنين؛ لقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ الأنفال: ٢، **يقول سهل بن عبد الله** رضي الله عنه: "من طعَن في الاكتساب، فقد طعَن في السنة، ومن طعَن في التوكل، فقد طعن في الإيمان"[2]، ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: "التوكّل جماع

[1] زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم (4/ 14).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 463).

الإيمان"[1]، والدليل على أهميّة التوكل على الله ﷻ أن الله ﷻ أمر به نبيّه ﷺ والأنبياء من قبله، وللتوكل على الله ﷻ ثمار منها:

1. كفاية الله ﷻ للمتوكل وحمايته له حيث يقول ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ ﴿٣﴾﴾ الطلاق: ٣

2. الشعور بطمأنينةٍ وسكينةٍ في النفس.

3. سبب في جلب النفع ودفع الضر.

4. سبب في محبة الله ﷻ للعبد؛ حيث يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران: ١٥٩.

5. شجاعة النفس وقوة القلب والروح.

6. حماية الإنسان من وساوس الشيطان.

7. وقاية الإنسان من شر الحسد والعين، ومن الأمراض القلبية، كالعجب، والكبر، والتشاؤم.

8. الرضا بقضاء الله ﷻ وزيادة الإيمان به.

9. دخول المتوكلين للجنة أول الناس، وتكون وجوههم مضيئة؛ حيث يقول النبي ﷺ: "أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة"[2]

10. الثقة بالله ﷻ وعدم اليأس.

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 474).

[2] رواه البخاري (4/ 118)، رواه مسلم (4/ 2178).

11. تحقيق الإيمان الصادق.

12. تحقيق الله ﷻ لغايات العبد، ورغباته، وكفايته في جميع شؤونه جزاءً على حقِّ توكّله.

13. الحصول على المنافع في الدنيا والآخرة، ودفع المضار.

14. قوّة القلب والشجاعة، وتحدي الأعداء والظالمين، وعدم الخوف من البشر.

15. الصبر وتحمّل المصاعب والمصائب، والاطمئنان بأقدار الله ﷻ.

"ومن فوائد التوكل على الله ﷻ أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام, ويجلب محبة الله ﷻ ومعونته ونصره وتأييده، ودوام طلب المعونة من الله ﷻ الملك ليقين المتوكل بالعجز التام عن تحصيل ما يريده وتمام قدرة الله ﷻ على إنجاز كل ما يريد وفوق ما يريد، والحفظ والمنعة من الشيطان الرجيم ومن البشر اللئيم، وترك المزاحمة مع الناس لأن المتوكل لا يخاف فوت شيء قدر له، قطع الطمع فيما في أيدي الناس توكلاً على ما عند الله ﷻ، وراحة البال واستقرار الحال، ولا يمنع الأخذ بالأسباب المشروعة المباحة مع الخروج من أسرها، ويحقق طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، ويحقق رضا الله ﷻ فيجعل للعبد مخرجاً ويكفر عنه سيئاته، ويهيأ صاحبه للفوز بصحبة النبيين في جنات النعيم، ومن أسباب سعة الرزق، وبه تمام المعونة من الله ﷻ مما يدفع عن المتوكل شر الأشرار من الشيطان ومن كل من يكيده"[1]

فلنتوكل على الله ﷻ توكلاً صادقًا صحيحًا في جميع شؤون حياتنا؛ فإن المتوكل على الله ﷻ أسعد الناس، وأحراهم بنيل ما يرجو، والأمان مما يخاف.

[1] نظرة النعيم (4/ 1398).

النصيحة الرابع

اصبر وما صبرك إلا بالله ﷻ

حثنا ديننا الحنيف على التحلي بالعديد من الصفات التي تهذب النفس، ومن أعظم هذه الصفات هي صفة الصبر، لما لها من أجر عظيم في الدنيا والآخرة، وقد وردت العديد من الأدلة الشريعة سواء في القران الكريم أو السنة النبوية الشريفة، التي تحث على خلق الصبر وتذكر أهميته وفوائده على الإنسان، ويتجلى ذلك في قوله ﷻ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

البقرة: ١٥٣

فالصبر هو حبس النفس على ما تكره، دون جزع قد يؤدّي إلى ضياع الأجر وفقدان الصبر، وهو مهم جداً في حياة الإنسان فضيلة حضنا الله ﷻ إليه وأمر بها، وهي خلق وصفة الأنبياء والمرسلين من قبلنا الذين كابدوا ما كابدوه من مشقّة وتعب وإيذاء، ومع ذلك صبروا وتحمّلوا حتّى أذن الله ﷻ لهم بالفرج والتمكين، وهو خلق النبّي ﷺ الذي تعرض لأشدّ أنواع الأذى والبلاء من قومه وأهله لكنّه مع هذا صبر وشكر موقناً بنصر الله ﷻ الذي ينصر عباده ويدير الدائرة على الظالمين كما قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ آل عمران: ٢٠٠، فالفلاح هنا اقترن بالصبر الذي هو أهمّ الوسائل التي تعيننا على هذه الحياة وتصبّرنا، ولهذا كلّه فالصبر عبادة يكافأ عليها من التزم وتحلّى بها بالسداد والتوفيق في الدنيا وفي الأجر الجزيل يوم القيامة، بل إنّ الصبر ليحاجّ عن صاحبه في قبره فإن كان هذا الميت من أهل التقى

والصلاح وكانت صلاته وقراءته للقرآن وزكاته وصيامه وأعماله قد شفعت له، يجلس الصبر في زاوية من القبر حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة ظل هذا الصبر رفيقاً وقريناً لصاحبه حتى يدخله الجنة.

ومن الصبر: الصبر على الطاعة، والصبر على المعصية اللتان هما أساس الإيمان بالله ﷻ، فالتقوى أساس ديننا الحنيف وهو أساس حياتنا، فنصبر على كل ما فرضه الله ﷻ ونبتعد عن كل ما حرّمه الله ﷻ.

الصبر مهمّ لمن يصبو للنجاح والتميّز فعليه أن يصبر ويواصل في دربه فالقمة تستحق منّا كل تعب وسهر، وصبر المسلم على ما قضى الله ﷻ له وقدّر، فالمصيبة والنعمة هما ابتلاء واختبار من الله ﷻ لعباده ليختبر صبره وإيمانه فيجازيه على إحسانه أو يعاقبه على إساءته، والصبر مهم في البيت، وفي المدرسة وفي كل شيء هو مهم؛ لأن الله ﷻ يؤخر الأمور بما فيه خير لعباده، فهو أعلم بما يصلحهم وطالما العبد ينتظر فرج ربه ﷻ فهو في عبادة عظيمة دون أن يشعر، لذا فالصبر مهم في كل شيء فالحياة جبلت على كل كدر وتعب، قال ﷻ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ البلد: ٤، أي أنه يبقى يكابد الهموم حتى يموت.

إن الله ﷻ أعد للصابرين جزاءً عظيماً لا يعلمه إلا الله ﷻ حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ الزمر: ١٠، ولقد قال العلماء فيها أن الله ﷻ قصد بلا حساب أن يعطي على الخير الوفير والرزق الكثير دون حساب أو عد، والبعض الآخر يرى أنّه المقصود هنا يوم القيامة وما أعده الله ﷻ لمن صبر ورضي

بالأجر الذي لا يخطر على قلب أحد، وأياً كان المقصود فإن الصبر عواقبه محمودة يحبه الله ﷻ ويرضى عمّن تحلّى به، لذلك فالصبر مهم يجب علينا أن نجعله خصلة من خصالنا التي تكون سبباً مهماً في الأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

فالصبر عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه ﷻ فيرضى بما قسم الله ﷻ له راجياً منه المغفرة والرفعة والخير الجزيل، وما للصبر من أجر عظيم في الدنيا والقبر الآخرة، ففي الدنيا يعطيه الله ﷻ خيراً مما أُخذ منه، أما في قبره فإن الصبر يأتي شفيعاً لصاحبه ويمنع عنه العذاب، حتى إذا ما جاء ويوم القيامة وفّاه الله ﷻ جزاء صبره فأسكنه فسيح جنته، حيث أمر به الله ﷻ نبيه ﷺ، قال ﷻ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴿٧٧﴾ ﴾ غافر: ٧٧ ، وقال ﷻ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ ق: ٣٩

ثمرات الصبر:

للصبر ثمرات عديدة، منها:

أولاً: تحقيق الإيمان:

فالإيمان قول وعمل واعتقاد، والصبر من الإيمان، وقد دل على ذلك القرآن..

فكل ما أمر الله ﷻ به بعد ندائه بـ {يا أيها الذين آمنوا} دليل على دخوله في مسمى الإيمان، ودلت على ذلك سنة خير الأنام فقد قال النبي ﷺ: "أفضل الإيمان الصبر والسماحة"[1]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "الصبر نصف الإيمان"[2]

[1] مسند أحمد (4/ 385)، سنن ابن ماجه (2794) من حديث عمرو بن عبسة، وأخرجه أحمد (5/ 318) من حديث عبادة بن الصامت.، وأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (6/ 530)، والحاكم في "المستدرك" (3/ 626) من حديث عمير بن قتادة الليثي، وأخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (11/ 33)

[2] المعجم الكبير للطبراني (9/ 104)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (2/ 484).

ثانياً: تحقيق الإخبات:

والإخبات الخضوع، قال ﷻ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥ ﴾ الحج: ٣٤ - ٣٥

ثالثاً: تحقيق الصدق والتقوى:

قال ﷻ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ البقرة: ١٧٧

والبأساء: حال الفقر، **والضراء**: حال المرض.

رابعاً: تحقيق الهداية:

قال ﷻ: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ١١ ﴾ التغابن: ١١

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله سبحانه وتعالى، فيرضى ويسلم"[1]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "الصبر ضياء"[2]، أي: لا يزال صاحبه مستضيئاً به ومهتدياً مستمراً على الصواب.

ومما قاله علي رضي الله عنه في الصبر: "الصبر مطية لا تكبو"[3]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وجدنا خير عيشنا بالصبر"[4]، وذلك لأن به هداية القلب وراحة البال.

خامساً: التمكين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۝١٣٧﴾ الأعراف: ١٣٧، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ السجدة: ٢٤

سادساً: نيل الرحمة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ البقرة: ١٥٥ - ١٥٧، والصلوات المغفرة كما قال الطبري.

سابعاً: تكفير السيئات:

---

[1] السنن الكبرى للبيهقي (4/ 110).
[2] رواه مسلم (3، 99).
[3] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (3/ 378).
[4] رواه البخاري (8/ 99).

قال ﷻ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ١٢٣﴾ النساء: ١٢٣، قد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ عن ذلك: كل سوء عملنا جزينا به؟، وأينا لم يعمل سوء؟ فقال ﷺ: "يا أبا بكر ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به"[1]، وعن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "ما يصيب المسلم، من نصب[2] ولا وصب[3]، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه"[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده، وماله، وولده، حتى يلقى الله ﷻ، وما عليه من خطيئة"[5]

ثامناً: الأجر الجزيل:

قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ الزمر: ١٠، قال قتادة: "لا والله، ما هُناكم مكيال ولا ميزان"[6]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض"[7]، ولقد جمع الله ﷻ بين المغفرة والأجر الجزيل للصابرين في آية فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ هود: ١١

---

[1] مسند أحمد (1/ 232).
[2] النصب: التعب
[3] الوصب: الوجع والمرض
[4] رواه البخاري (7/ 114).
[5] مسند أحمد (15/ 504).
[6] جامع البيان للطبري (21/ 270).
[7] سنن الترمذي (4/ 603).

تاسعاً: معية الله عز وجل:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ البقرة: ١٥٣، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ الأنفال: ٦٦

عاشراً: محبة الله عز وجل:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٦

الحادي عشر: الجنة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٥ - ١٧، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لعطاء: " ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك"، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها"[1]

---

[1] رواه البخاري (7/ 116).

الثاني عشر: الصبر يرفع العبد درجات عالية في الجنة:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل، فما يزال يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها"[1]

ولهذه الثمار كلها قال نبينا ﷺ: "ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر"[2]

فما أوسع العيش به وبالأمل، وما أضيقه بدونهما!

مجالات الصبر:

أولاً: الصبر على عبادة الله ﷻ:

فالعبادة لا يوفق العبد إليها إلا بالصبر، قال ﷻ: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم: ٦٥، فالصلاة تحتاج إلى الصبر، قال ﷻ: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴿١٣٢﴾ ﴾ طه: ١٣٢، والحج يحتاج إلى صبر، ولذا سماه النبي ﷺ جهاداً.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله ﷻ مما يحتاج إلى صبر، قال ﷻ -حاكياً عن لقمان-: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ لقمان: ١٧، وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴿٧﴾ ﴾ المدثر: ١ - ٧.

---
[1] شعب الإيمان للبيهقي (12/ 277).
[2] رواه البخاري (2/ 122).

وطلب العلم كذلك، قال ﷻ عن موسى عليه السلام وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩﴾ الكهف: ٦٥ – ٦٩.

ثانياً: العفة:

وهي الصبر عن الشهوة المحرمة، قال ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٥﴾ النساء: ٢٥، والمعنى: والصبر عن نكاح الإماء مع العفة أولى وأفضل، والصوم يحتاج إلى الصبر، ولقد سمى النبي ﷺ رمضان شهر الصوم.

فإن الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد فلا إيمان لمن لا صبر له ومقام الصبر من أعظم مقامات الإيمان؛ لأنه يكف عن اجتراح السيئات والوقوع في الشبهات

ويحمي العبد عن سلوك قبائح العادات ويقويه على فعل القرب والطاعات ويثبته عند نزول المدلهمات، قال ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ هود: ١١٥.

والصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به المرء من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وحقيقته شرعاً حبس النفس عن كل ما يسخط الله ﷻ في القلب واللسان والجوارح، **قال سعيد بن جبير** رضي الله عنه: "الصبر اعتراف العبد لله عز وجل بما أصابه فيه واحتسابه عند الله ﷻ ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه الا الصبر"[1]

ومما يبين أهمية الصبر وعظم منزلته في الدين أن الله ﷻ ذكره في كتابه في تسعين موضعاً على ستة عشر نوعاً لكل نوع منها فائدة جليلة.

ولقد وصف النبي ﷺ بأنه ضياء، والضياء هو النور المصحوب بالإحراق كنور الشمس، **قال ابن رجب:** "ولما كان الصبر شاقاً على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء فإن معنى الصبر في اللغة الحبس ومنه قتل الصبر وهو أن يحبس الرجل حتى يقتل"[2]

ومما يدل على أهمية الصبر وشدة حاجته أن المؤمن يتقلب في الدنيا بين حالين إما السراء فيشرع له الشكر أو الضراء فيشرع له الصبر فإذا أنعم عليه أحسن وإذا ابتلي حبس نفسه عن القول والفعل المحرم وكل ذلك خير؛ لأنه ممتثل لعبادة يحبها الله عز وجل مناسبة للحال التي نزلت به، قال ﷺ: "عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس

[1] تفسير ابن أبي حاتم (1/ 102)، تسلية أهل المصائب ص 132.
[2] جامع العلوم والحكم (2/ 648).

ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له"[1]

وقد أوصى أئمة السلف الصالح بالصبر وحثوا عليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وجدنا خير عيشنا بالصبر"[2]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان"[3]، **وقال الحسن البصري** رضي الله عنه: "وجدت الخير في صبر ساعة"[4]، **وقال عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه: "ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاض مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه"[5]

فضائل الصبر:

أولاً: الثواب العظيم في الآخرة:

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ الزمر: ١٠، **قال سفيان الثوري** رضي الله عنه: "إنما الأجر على قدر الصبر"[6]

ثانياً: محبة الله سبحانه وتعالى:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ آل عمران: ١٤٦

---

[1] رواه مسلم (4/ 2295).
[2] رواه البخاري (8/ 99).
[3] شعب الإيمان للبيهقي (1/ 146).
[4] شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 183).
[5] شعب الإيمان للبيهقي (12/ 371).
[6] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 54).

ثالثاً: الجنة لمن صبر على البلاء في الدنيا:

قال عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه: قال لي ابن عباس رضي الله عنه: "ألا أريك امرأة من أهل الجنة قلت: بلى. قال: "هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف فادع الله لي قال إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك فقالت أصبر فقالت إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف فدعا لها"[1]، وقال سفيان بن عيينة رضي الله عنه: "لم يعطَ العباد أفضل من الصبر به دخلوا الجنة"[2]

رابعاً: تحقق معية الله عز وجل للصابرين:

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ الأنفال: ٤٦

خامساً: خير عطاء من الله سبحانه وتعالى للمؤمن:

قال النبي ﷺ: "وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر"[3]

سادساً: لذة الإيمان وحلاوته لمن صبر على ترك المعاصي:

قال ابن تيمية رضي الله عنه: "وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع"[4]

سابعاً: للصابر ثلاث بشائر بشر الله عز وجل بها:

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ البقرة: ١٥٥ – ١٥٧.

---

[1] رواه البخاري (7/ 116)، رواه مسلم (4/ 1994).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 305).
[3] رواه البخاري (2/ 122).
[4] مجموع الفتاوي لابن تيمية (10/ 96).

ومن أعظم فوائد الصبر الاستقامة على شرع الله سبحانه وتعالى والثبات على الدين والحذر من سوء الخاتمة والوقاية من الانحرافات والسلامة من الشرور.

أنواع الصبر:

الأول: الصبر على أداء الطاعة بحيث يحتسب الأجر في فعلها ويصبر على مشقتها ويؤديها على الوجه المشروع ويداوم على فعلها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾ لقمان: ١٧، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبر على مشقة قيام الليل فيقوم قياماً طويلاً حتى تفطرت قدماه ولامته عائشة رضي الله عنها فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً."[1]

الثاني: الصبر عن ارتكاب معصية الله عز وجل بحيث يجاهد هواه والشيطان ويصبر على مشقة ترك المألوف واجتناب الفساد وأهله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢ ﴾ الرعد: ٢٢، ولقد صبر النبي يوسف عليه السلام عن ارتكاب الزنا حين أغرته امرأة العزيز واجتمعت له دواعي الشهوة وتيسير أمرها وغاب عنه الرقيب فصبر صبراً عظيماً لقوة إيمانه واستحضاره مراقبة الله عز وجل واستحيا من الله عز وجل، فعصمه الله سبحانه وتعالى عن الوقوع في الفاحشة وحماه من الرذيلة.

[1] رواه البخاري (6/ 135)، رواه مسلم (4/ 2172).

الثالث: **الصبر على الأقدار المؤلمة** بحيث يصبر على مشقتها والآثار المترتبة عليها ويتجنب جميع الأقوال والأفعال التي تسخط الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ البقرة: ١٥٦ – ١٥٧، وقال النبي ﷺ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط"[1]، ولا يؤجر المؤمن على صبره إلا إذا احتسب الأجر من الله ﷻ بأن يوقن أن الله ﷻ قدر عليه هذه المصيبة لحكمة بالغة ليبتليه ويختبر إيمانه ويرفع درجته ويكفر سيئاته وأنه إذا صبر عليها جازاه الله ﷻ بالثواب في الآخرة.

والناس في مقام الصبر أربعة أصناف:

الصنف الأول: من يصبر على طاعة الله ﷻ ويصبر عن معصية الله ﷻ وهذا أعلى الأصناف وهو حال الأنبياء والصديقين والأولياء، **قال ابن بطال**: "أرفع الصابرين منزلة عند الله ﷻ من صبر عن محارم الله ﷻ وصبر على العمل بطاعة الله ﷻ ومن فعل ذلك فهو من خالص عباد الله ﷻ وصفوته ألا ترى قوله ﷺ: "لن تعطوا عطاء خيراً وأوسع من الصبر"[2]"[3]

[1] سنن ابن ماجه (2/ 1338)، سنن الترمذي (4/ 601)، شعب الإيمان للبيهقي (12/ 234).
[2] رواه البخاري (2/ 122).
[3] شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 182).

الصنف الثاني: من يصبر على طاعة الله ﷻ فيواظب على الفرائض ولا يصبر عن معصية الله ﷻ فيرتكب الفواحش فهذا ظالم لنفسه ولا يدخل في الفضل العظيم للصبر.

الصنف الثالث: من يصبر عن المعصية فلا يغشى الفواحش لسمو نفسه عن الرذائل ولا يصبر على الطاعة فيفرط في الفرائض فهذا مسيء وهو على شفا هلكة وسوء خاتمة.

الصنف الرابع: من لا يصبر على طاعة الله ﷻ فيترك الفرائض ولا يصبر عن معصية الله ﷻ فيغشى الفواحش فهذا شر الأصناف وقد باع دينه بعرض من الدنيا وتعرض لسخط الله ﷻ وعذابه وهذا حال أهل الفجور.

وحاجة المؤمن للصبر عظيمة؛ لأن الدنيا جبلت على الهموم والأحزان والمصائب وملئت بالفتن ولا يستطيع المؤمن مواجهة ذلك إلا بسلاح الصبر.

قال ابن القيم رضي الله عنه: "ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين: أما السببان فالخوف من لحوق الوعيد المرتب عليها والثاني الحياء من الرب سبحانه وتعالى أن يستعان على معاصيه بنعمه وأن يبارز بالعظائم وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان والحذر من الحرام"[1]

والصبر هو الزاد، والقوة والعتاد، يحتَاجُهُ المرِيضُ في شَكوَاهُ، والمبتَلى في بَلوَاهُ، وَالدَّاعِيَةُ إلى الله سبحانه وتعالى في دعوته، والمرأة في بيتها، والأب في أسرته، والمعلم في مدرسته، وطَالِبُ العِلمِ في دراسته، والموظف في إدارته، والتاجر في تجارته، والعامل في خدمته.

الصبر طريق المجد وسبيل المعالي، وكل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر؛

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 163).

وإذا كانت الدنيا لا تنال إلا بالصبر، وهي لا تعدل عند الله ﷻ جناح بعوضة، فكيف بالجنة التي عرضها السماوات والأرض، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، **قال ابن تيمية** رحمه الله: "ذكر الله الصَّبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا وقرنه بالصلاة في قوله ﷻ: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ﴾ البقرة: ٤٥، وقوله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ١١٤ ﴾ هود: ١١٤ إلى قوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥ ﴾ هود: ١١٥، ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا ١٣٠ ﴾ طه: ١٣٠ ، ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ٦٠ ﴾ الروم: ٦٠، وجعل "الإمامة في الدِّين" موروثةً عن الصَّبر واليقين بقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ ﴾ السجدة: ٢٤؛ فإن الدين كله علمٌ بالحق، وعملٌ به، والعمل به لا بد فيه من الصَّبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصَّبر؛ كما قال معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه: "عليكم بالعلم؛ فإن طلبه لله عبادةٌ، ومعرفته خشيةٌ، والبحث عنه جهادٌ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقةٌ، ومذاكرته تسبيحٌ، به يُعرف الله ويُعبَد، وبه يمجَّد اللهُ ويوحَّد، يرفع الله بالعلم أقوامًا يجعلهم للناس قادةً وأئمةً يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم، فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بد في الجهاد من الصَّبر؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ العصر: ١ - ٣ ،

وقال ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥)﴾ ص: ٤٥؛ فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغَيُّ؛ فالضلال العمل بغير علمٍ، والغَي اتباع الهوى؛ قال ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ النجم: ١ - ٢ ، فلا يُنال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصَّبر؛ ولهذا قال عليٌّ رضي الله عنه: "ألا إن الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لِمَن لا صبر له"[1]

آداب الصَّبر:

يمكن أن نوجز آداب الصَّبر في الأمور التالية:

أولاً: مِن آداب الصَّبر استعماله في أول صدمة؛ لقوله ﷺ: "إنما الصَّبر عند الصدمة الأولى"[2]

ثانياً: الاسترجاع عند المصيبة، وهو قول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ البقرة: ١٥٦، وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "ما من مسلمٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول ما أمره الله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾، اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها"، قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خيرٌ من أبي سلمة؟! أول بيتٍ هاجر إلى رسول

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (10/ 39- 40)
[2] رواه البخاري (2/ 83)، رواه مسلم (2/ 637).

الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ، قالت: أرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتًا، وأنا غيورٌ، فقال: "أما ابنتُها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة"[1]

ثالثاً: سكون الجوارح واللسان، فأما البكاء فجائز.

رابعاً: مِن حُسن الصَّبر ألا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعَلَتْ أمُّ سليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "مات ابنٌ لأبي طلحة من أم سليمٍ، فقالت لأهلها: لا تحدِّثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عَشاءً، فأكل وشرب، فقال: ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنَّعُ قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيتٍ، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب وقال: تركتِني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: "بارَك الله لكما في غابر ليلتكما"، قال: فحملَتْ، قال: فكان رسول الله ﷺ في سفرٍ وهي معه، وكان رسول الله ﷺ إذا أتى المدينة من سفرٍ لا يطرقها طروقًا، فدنَوْا من المدينة، فضربها المخاض، فاحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق رسول الله ﷺ، قال: يقول أبو طلحة: إنك لتعلَم يا رب أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى، قال: تقول أم سليمٍ: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، انطلِقْ، فانطلقنا، قال: وضربها المخاض حين قدمَا، فولدت غلامًا، فقالت لي أمي: يا أنس، لا يرضعه أحدٌ حتى تغدو به على رسول الله ﷺ،

[1] رواه مسلم (2/ 631).

فلما أصبَح احتملته، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ، قال: فصادفته ومعه مِيسَمٌ، فلما رآني، قال: "لعل أم سليمٍ ولدَتْ"، قلت: نعم، فوضع الميسَم، قال: وجئت به فوضعته في حجره، ودعا رسول الله ﷺ بعجوةٍ من عجوة المدينة، فلاكها في فيه حتى ذابت، ثم قذفها في فِي الصبي، فجعل الصبي يتلمَّظها، فقال رسول الله ﷺ: "انظروا إلى حُبِّ الأنصارِ التمرَ"، قال: فمسح وجهه، وسماه عبد الله"[1]

ثمرات الصَّبر:

"1. ضبط النفس عن السأم والملل لدى القيام بأعمال تتطلب الدأب والمثابرة خلال مدة مناسبة، قد يراها المستعجل مدة طويلة.

2. ضبط النفس عن العجلة والرعونة لدى تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية.

3. ضبط النفس عن الغضب والطيش لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس، ومحرِّضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتزان، في القول أو في العمل.

4. ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس.

5. ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها.

6. ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهَواتها وغرائزها.

7. ضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية، كلما كان في هذا التحمل خير عاجل أو آجل.

8. دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

9. يورث هداية في القلب.

---

[1] رواه مسلم (4/ 1909).

10. يثمر محبة الله ﷻ ومحبة الناس.

11. سبب للتمكين في الأرض.

12. الفوز بالجنة والنجاة من النار.

13. معيَّةُ الله ﷻ للصابرين.

14. الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

15. مظهَرٌ من مظاهر الرجولة الحقة، وعلامة على حسن الخاتمة.

16. صلاة الله ﷻ ورحمته وبركاته على الصابرين"[1]

"ومن فوائد الصبر ضبط النفس عن الأم والملل لدى القيام بأعمال تتطلب الدأب والمثابرة خلال مدة مناسبة قد يراها المستعجل مدة طويلة، وضبط النفس عن العجلة والرعونة لدى تحقيق مطلب من المطالب المادية أو المعنوية، وضبط النفس عن الغضب والطيش لدى مثيرات عوامل الغضب في النفس ومحضات الإرادة للاندفاع بطيش لا حكمة فيه ولا اتزان في القول أو العمل، وضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف في النفس، وضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع فيها، ضبط النفس عن الاندفاع وراء أهوائها وشهواتها وغرائزها، ضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية كلما كان في هذا التحمل خير عاجل أو آجل، ودليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام، ويورث هداية القلب، يثمر محبة الله ﷻ ومحبة الناس، وسبب للتمكين في الأرض، والفوز بالجنة والنجاة من النار، ومعية الله ﷻ للصابرين، والأمن من الفزع الأكبر يوم

[1] نظرة النعيم (6/ 2471)

القيامة، ومظهر من مظاهر الرجولة الحقة وعلامة على حسن الخاتمة، وصلاة الله ﷻ ورحمته وبركاته على الصابرين"[1]

يا أيها الذين صدَّقوا الله ﷻ ورسوله ﷺ وعملوا بشرعه، واصبروا على طاعة ربكم ﷻ، وعلى ما ينزل بكم من ضر وبلاء، وصابروا أعداءكم حتى لا يكونوا أشد صبرًا منكم، وأقيموا على جهاد عدوي وعدوكم، وخافوا الله ﷻ في جميع أحوالكم، رجاء أن تفوزوا برضاه في الدنيا والآخرة

[1] نظرة النعيم (6/ 2471 – 2472)

النصيحة الخامسة
ثق بربك تكن أسعد الناس

إنّ الثقة بالله ﷻ هي الطريق الذي يؤدي بالعبد إلى النجاة من المحن والمصائب، وهي الطريق الذي يجلب له ما يُحبّ ويرغب، فالواثق بالله ﷻ يعتقد يقيناً أنّ ما شاء الله ﷻ كان وما لم يشأ لم يكن، وأنّ ما كتبه الله ﷻ واقعٌ لا محالةٌ، وما صرفه الله ﷻ لن يحدث، وهو وليّ الأقدار وصاحبها، ولا مُعقّب لحكمه، هذا وإنّ الواثق بالله ﷻ يعيش مرتاحاً مطمئناً؛ وذلك لأنّه مهما جرى من أقدارٍ، ومهما واجه من محنٍ وابتلاءاتٍ، يُدرك إدراكاً تاماً أنّ أقدار الله ﷻ كلّها خير، وإن بدى الشرّ على ظاهرها؛ أي ما يراه العبد شرّاً يكون خيراً عظيماً، وما رآه العبد شرّاً إلّا لأنّه قاصر العلم، ومحدود القدرات، فالمؤمن بالله ﷻ الواثق بقدرته يعلم أنّ الله ﷻ يكتب ما يراه خيراً لنا وما ينفعنا، ويجدر بيان أنّ الثقة بالله ﷻ تجلب البركة، فعندما يثق العبد بالله ﷻ في رزقه، ويؤمن يقيناً أنّ الله ﷻ هو الرزّاق، كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾ ﴾ هود: ٦، ويؤمن أنّ بذله للجهد في كسب الرزق ما هو إلّا أخذٌ بالأسباب، وإنّ الرزق من عند الله ﷻ وحده وبيده، وعندما يستشعر كذلك أنّ الفقر لا يبقى، والغنى لا يدوم، وأنّ الله ﷻ له حكمةً ورحمةً في توزيع الأرزاق، هذا التفكير والإيمان مدعاةٌ لجلب البركة في الرزق، ويجدر التنبيه إلى أنّ الأصل في المصائب والشدائد ألّا تُفتر إيمان المسلم وتُضعفه، وإنّما الأصل فيها أن تقوّي الثقة بالله ﷻ، وتُعزّز يقينه به، وقد ضرب يعقوب عليه السلام أروع الأمثلة في ذلك، فقد

جاء في القرآن الكريم على لسانه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾ يوسف: ٨٧

إنّ ثقة العبد بالله سبحانه وتعالى تشمل ثقته به في أمور الحياة كلّها، ومن جوانب الحياة التي يجدر بالمسلم تعزيز ثقته بالله سبحانه وتعالى فيها:

أولاً: الثقة بالله سبحانه وتعالى في إجابة الدعاء:

عرّف أهل العلم الدعاء في الاصطلاح على أنّه طلب النفع، ودفع الشرّ والضرر، وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالدعاء، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠ ﴾ غافر: ٦٠، وقال أيضاً: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾ البقرة: ١٨٦، ووعدهم بالإجابة، فالله عز وجل يُجيب من دعاه بقلبٍ حاضرٍ خاشعٍ، ودعاءٍ مشروعٍ، وخاصّةً إذا أخذ العبد بأسباب إجابة الدعاء؛ مثل: عبادته، واجتناب نواهيه، ويُشترط كذلك في إجابة الدعاء اجتناب موانع الإجابة كأكل الحرام، فإذن يجدر بالمسلم أن يدعو الله عز وجل واثقاً بإجابته، فيسأله بعزمٍ وإلحاحٍ ورجاءٍ.

ثانياً: الثقة بالله سبحانه وتعالى في تفريج الكرب:

يجدر بالمسلم أن يثق أنّ الله عز وجل هو وحده القادر على تفريج الهموم مهما عظمت، وكشف الكروب مهما كبرت، وقد دلّل الله سبحانه وتعالى على ذلك بكثيرٍ من قصص الأنبياء عليهم السلام، ومنها: نجاة إبراهيم عليه السلام من النار، ونجاة موسى عليه السلام وقومه وإغراق عدوّهم، وغيرهم الكثير من الأنبياء عليهم السلام، ولقد جاءت الدعوة إلى الناس للثقة بالله سبحانه وتعالى في تفريج الكروب واضحةً في القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأنعام: ٦٣

ثالثاً: الثقة بالله سبحانه وتعالى في تكفّله بالرزق:

فالله سبحانه وتعالى تكفّل برزق المخلوقات كلّها، وقد بيّن ذلك في عددٍ من مواضع القرآن الكريم، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الأنعام: ٣٨، ولكن يجدر التنبيه إلى أنّ العمل بأسباب الرزق أمرٌ لا بُدّ منه، قد أودع الله سبحانه وتعالى الإلهام في مخلوقاته، وهداها لسلك هذه السبل.

رابعاً: الثقة بالله سبحانه وتعالى في الدعوة إليه:

يجدر بالمسلم أن يثق بأنّ الله سبحانه وتعالى تكفّل بإبقاء دعوته وإظهارها، وأنّ الأمر يستلزم تجهيز الدعاة لينشروا دين الله عز وجل في بقاع الأرض المختلفة، وعلى الداعي أن

يستحضر أنّ هذا الطريق ليس مفروشاً بالورود، فعليه أن يثق بتأييد الله سبحانه وتعالى له مهما واجه من صعوباتٍ.

خامساً: الثقة بالله سبحانه وتعالى في نصر الإسلام:

فالمسلم الذي يُجاهد في سبيل الله عز وجل وليس لتحقيق أيّ غرضٍ من أغراض الدنيا، عليه أن يؤمن يقيناً أنّ الله سبحانه وتعالى ناصر دينه لا محالة، وممّا يُساعد على إدراك ذلك فهم الآيات الكريمة الكثيرة التي قصّت نصر الله سبحانه وتعالى لدينه في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

سادساً: الثقة بالله سبحانه وتعالى في تحقيق وعوده:

ومن ذلك الثقة بالله سبحانه وتعالى في إنفاذ يوم الميعاد، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩ ﴾ آل عمران: ٩، ويُقصد بالميعاد يوم القيامة الذي يجمع الله سبحانه وتعالى عباده فيه، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، ومن ذلك أيضاً وعد الله سبحانه وتعالى بنصر رسله عليهم السلام، ووعده بإدخال المؤمنين الجنة.

ومن الأمور التي تُعزّز ثقة العبد بربّه عز وجل تدبّر معاني القرآن الكريم وفهم آياته، والإمعان في قصص الأنبياء عليهم السلام، وإدراك رحمة الله سبحانه وتعالى، وقوّته وقدرته في كلّ ما حصل معهم، ومن الأمور التي تزيد الثقة بالله سبحانه وتعالى الدعاء بجلب الهدى واليقين، ومجالسة أهل العلم والواثقين بالله سبحانه وتعالى، واستشعار حكمة الله سبحانه وتعالى في تدبير أمور عباده.

فقد خلق الله ﷻ الخلق جميعاً لغاية واحدة؛ لعبادته وحده لا شريك له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الذاريات: ٥٦، وقد بين لهم ﷻ كيفية العبادة، ووضَّح لهم صفتها، وفصَّل لهم أنواعها، فثمة عبادات ظاهرة بالجوارح؛ كالصلاة والصيام، وما إلى ذلك، وعبادات باطنة قلبية؛ كالخوف منه، والتوكل عليه، والرضا به، وما أشبه ذلك، ومن هذه العبادات القلبية التي تعبد الله ﷻ بها عباده: الثقة به، وصدق الاعتماد عليه، وحسن التوكل عليه، وتفويض الأمور إليه.

والثقة بالله ﷻ صفة من صفات الأنبياء؛ فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حينما ألقي في النار كان على ثقة عظيمة بالله ﷻ؛ حيث قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، فكفاه الله ﷻ شر ما أرادوا به من كيد، وحفظه من أن تصيبه النار بسوء، قال ﷻ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ الأنبياء: ٦٩

ولما فر نبينا ﷺ من الكفار فدخل الغار؛ فحفظ الله ﷻ نبيه ﷺ من كيد الكفار، وحرسه بعينه التي لا تنام؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدثه، قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"[1]، إنها ثقة الحبيب ﷺ العظيمة بالله عز وجل، ولذلك خاف أبو بكر الصديق رضي الله عنه على أن يصاب النبي ﷺ بأذى؛ فرد عليه بلسان الواثق بوعد الله عز وجل: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۝٤٠﴾ التوبة: ٤٠، وفعلاً كان الله عز وجل مع نبيه ﷺ فحفظه وأيده ونصره، وجعل العاقبة له ولأتباعه من المؤمنين والمؤمنات، فعن

[1] رواه البخاري (2/ 288)، رواه مسلم (4/ 1854).

ابن عباس رضي الله عنهما قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ آل عمران: ١٧٣"[1]، ففي هذه الأوقات العصيبة والحرجة كانا حبيبا الرحمن إبراهيم ومحمد عليهما السلام في ثقة عظيمة بالله سبحانه وتعالى.

والثقة أيضاً صفة من صفات الأولياء الصادقين؛ **قال يحي بن معاذ** رضي الله عنه: "ثلاث خصال من صفة الأولياء: الثقة بالله في كل شيء، والغنى به عن كل شيء، والرجوع إليه من كل شيء"[2]

وهي كذلك صفة من صفات العباد الزهاد، فقد جاء رجل إلى **حاتم الأصم فقال**: "يا أبا عبد الرحمن أي شيء رأس الزهد ووسط الزهد وآخر الزهد؟ فقال: "رأس الزهد الثقة بالله عز وجل ووسطه الصبر وآخره الإخلاص"[3]، **وقال حاتم الأصم**: "وأنا أدعو الناس إلى ثلاثة أشياء: إلى المعرفة وإلى الثقة وإلى التوكل؛ فأما معرفة القضاء فأن تعلم أن القضاء عدل منه، فإذا علمت أن ذلك عدل منه فإنه لا ينبغي لك أن تشكو إلى الناس أو تهتم أو تسخط، ولكنه ينبغي لك أن ترضى وتصبر، وأما الثقة فالإياس من المخلوقين، وعلامة الإياس أن ترفع القضاء من المخلوقين، فإذا رفعت القضاء منهم استرحت منهم واستراحوا منك، وإذا لم ترفع القضاء منهم فإنه لابد لك أن تتزين لهم وتتصنع لهم، فإذا فعلت ذلك فقد وقعت في أمر عظيم، وقد وقعوا

---

[1] رواه البخاري (6/ 39).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 354).
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 75).

في أمر عظيم وتصنع، فإذا وضعت عليهم الموت فقد رحمتهم وأيست منهم، وأما التوكل فطمأنينة القلب بموعود الله ﷻ فإذا كنت مطمئناً بالموعود استغنيت غنى لا تفتقر أبداً."[1]

والثقة بالله ﷻ تجعل العبد راضياً بالله ﷻ، **قال حاتم الأصم**: "من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضا الله ﷻ: أولها الثقة بالله ﷻ، ثم التوكل، ثم الإخلاص، ثم المعرفة، والأشياء كلها تتم بالمعرفة"[2]، وتجعله يائساً مما في أيدي الناس؛ **قيل لأبي حازم**: "يا أبا حازم ما مالك؟ قال: "ثقتي بالله ﷻ، وإياسي مما في أيدي الناس"[3]

ومن وثق بالله ﷻ نجاه من كل كرب أهمه؛ **قال أبو العالية**: "إن الله ﷻ قضى على نفسه أن من آمن به هداه، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ التغابن: ١١، ومن توكل عليه كفاه، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴿٣﴾﴾ الطلاق: ٣، ومن أقرضه جازاه، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴿٢٤٥﴾﴾ البقرة: ٢٤٥، ومن استجار من عذابه أجاره، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ آل عمران: ١٠٣، والاعتصام الثقة بالله ﷻ، ومن دعاه أجابه،

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 75).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 75).
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (3/ 231).

وتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦، فكون واثقاً بالله عز وجل، متوكلاً عليه، معتصماً به"[1]

بل من تحلى بهذه الصفة فقد فاز بالجنة؛ **قال شقيق البلخي**: "من عمل بثلاث خصال أعطاه الله عز وجل الجنة: أولها: معرفة الله عز وجل بقلبه ولسانه وسمعه وجميع جوارحه، والثاني: أن يكون بما في يد الله عز وجل أوثق مما في يديه، والثالث: يرضى بما قسم الله عز وجل له، وهو مستيقن أن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه، ولا يحرك شيئاً من جوارحه إلا بإقامة الحجة عند الله عز وجل، فذلك حق المعرفة، وتفسير الثقة بالله عز وجل ألا تسعى في طمع، ولا تتكلم في طمع، ولا ترجو دون الله عز وجل سواه، ولا تخاف دون الله عز وجل سواه، ولا تخشى من شيء سواه، ولا يحرك من جوارحه شيئاً دون الله عز وجل، يعني في طاعته واجتناب معصيته"[2]

إن الثقة بالله عز وجل معراج وثيق يصل بين العبد وربه عز وجل، يصل به إلى المحبوبات والمرغوبات، وينجو به من المكروهات والمرهوبات.

والثقة بالله سبحانه وتعالى صرح شامخ في قلب المؤمن لا تهزه عواصف المصائب والمحن، بل تزيده شموخاً ورسوخاً، ولا يهدمه إلا سوء الظن بالله سبحانه وتعالى، والشك في حصول فرجه، وكثرة التعلق بالمخلوقين، وتناسي الخالق سبحانه وتعالى.

والثقة بالله سبحانه وتعالى اطمئنان قلبي لا يخالطه ريب، وتسليم مطلق لمن يصرف أمور خلقه وحده، والواثق بالله سبحانه وتعالى يعتقد أن الله عز وجل إذا حكم بحكم وقضى أمراً فلا مرد

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 221)، سير أعلام النبلاء (5/ 119 – 120).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 61).

لقضائه، ولا معقب لحكمه، فمن حكم الله ﷻ له بحكم وقسم له بنصيب من الرزق أو الطاعة أو الحال أو العلم أو غيره فلا بد من حصوله له ومن لم يقسم له ذلك فلا سبيل له إليه، فبهذا القدر يقعد عن منازعة الأقسام فما كان له منها فسوف يأتيه على ضعفه، وما لم يكن له منها فلن يناله بقوته.

إن الثقة بالله سبحانه وتعالى وسيلة نجاح يحتاجها المسلم في كل المجالات المشروعة، فيحتاجها في تحصيل الرزق، حيث يمشي في مناكب الأرض، ويسعى في جوانبها طالباً رزق الرزاق الكريم مما أحله الله سبحانه وتعالى له، معتقداً أن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى وحده، حتى صار قلبه معلقاً بالله ﷻ دون غيره، وما سعيه إلا بذل للسبب الممكن، راضياً بما قسم الله ﷻ له، فلا يحسد الناس إن زادوا عليه في الرزق؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر بعلمه وحكمته ورحمته، وأن الغنى لا يدوم، والفقر لا يبقى، وبهذا الشعور يجد البركة في رزقه وإن قل، ويذوق طعم الراحة والاطمئنان.

وهذه الثقة بالله سبحانه وتعالى صفة ملازمة للمؤمنين في جميع أحوالهم، في حال السعة والضيق والرفاهية والشدة، وتظهر آثارها في واقع المؤمنين وحركتهم وتصرفاتهم في حال الأزمات الخانقة والمنعطفات المحيِّرة، وهي تتراءى في عدد من المواقف البارزة.

فعلينا معشر المسلمين أن نكون واثقين بالله سبحانه وتعالى في إصلاح أحوالنا وذهاب آلامنا وتحقق آمالنا الخيّرة، فالليل المظلم عما قريب يدركه الفجر الصادق.

النصيحة السادسة
صل رحمك ولا تقطعها

أمَرَ اللهُ سبحانه وتعالى بصلة الأرحام، ووصَّى بها عبادَه المؤمنين، وحثَّ عليها وبيَّن ما يترتب عليها مِن خيريِ الدنيا والآخرة، كما حثَّ عليها نبيُّ الرحمة ﷺ مُبيِّنًا جزاءها وثمرة الصلة، وما أعدَّه الله عز وجل للواصلين مِن الخير العظيمِ والثواب الجزيل، وما يترتَّب على ذلك مِن سَعَة الرزق، وطولِ العمر، والبركة في المال والولد، لقد قضى اللهُ سبحانه وتعالى بالسعادة والخيريَّة والفلاح في الدنيا والآخرة لمن يَصِلُون أرحامهم، ويقومون بحقوقهم؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ الروم: ٣٨، وعن أبي أيوب رضي الله عنه؛ أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته – أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: "لقد وفق، أو لقد هدي"، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: "تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة"[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "مَن سَرَّه أن يُبسَط له في رزقه، وأن يُنْسَأ له في أثره، فليَصِل رَحِمَه"[2]

إن صلة الرحم مما قَصَّر فيها الكثيرون في هذه الأزمان؛ نظرًا لانشغالهم بالملْهِيَات والمغريات، وحطام الدنيا الفاني، ولذا عظَّم الله عز وجل شأنَ الرحم؛ فعن عائشة رضي

[1] رواه مسلم (1/ 42).
[2] رواه البخاري (8/ 5).

الله عنها عن النبي ﷺ قال: "الرحم معلَّقة بالعرش، تقول: مَن وصَلني وصلَه اللهُ، ومَن قطَعَني قطعه اللهُ"[1]

وليعلم أنَّ مِن أفضلِ صلةِ الرحمِ أن تصِل مَن قطعك، وتُعطي مَن حرَمَك، وتحلُم على مَن جَهِلَ عليك، وتُحْسن إلى مَن أساء إليك؛ حفاظًا على صلة الرحم، وطاعة لله ﷻ ورسوله ﷺ؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، إنَّ لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي[2]، فقال: "لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم الملّ[3] ولا يزال معك من الله ظهير[4] عليهم ما دمت على ذلك"[5]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ الرعد: ٢١

صلة الأرحام تُقوِّي المودَّة وَتَزيد المحبَّة، وتُوثِّق عُرَى القرابة، وتُزيل العداوة والشحْناء، وهي ذاتُ مجالاتٍ شتَّى؛ فمِن بشاشةٍ عند اللقاء، ولينٍ في المعاملة، إلى طيبٍ في القول، وطلاقةٍ في الوجه، إنها زياراتٌ وصِلاتٌ، وتَفَقُّد واستِفسارات، ومكالمة ومراسلة، إحسانٌ إلى المحتاج، وبذلٌ للمعروف، وتبادلٌ للهدايا، ينضمُّ إلى ذلك غضٌّ عن الهفوات، وعفوٌ عن الزَّلَّات، وإقالة للعثرات، عدل وإنصاف، أما مَن يُفاصِل أهلَه وأقاربَه ويُقاطعُهم بسبب كلمة سمعها، أو وشاية نُقِلَت إليه، فهذا المسكين جَنَى على نفسِه وعلى غيره، وظلَم الآخرين، ومنَع وصولَ الحقِّ إليهم.

---

[1] رواه مسلم (4/ 1981).
[2] ويجهلون علي: أي يسيئون والجهل هنا القبيح من القول وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم.
[3] تسفهم الملّ: الملّ هو الرماد الحار أي كأنما تطعمهموه.
[4] ظهير: الظهير المعين والدافع لأذاهم.
[5] رواه مسلم (4/ 1982)

إن صلة الرحم من شعارات الإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه"[1]

وهي سبب لزيادة العمر وبسط الرزق، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من أحبّ أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه"[2]؛ ويقول ﷺ: "صلة الأرحام وحسن الجوار وحسن الخلق يعمرن الديار؛ ويزدن في الأعمار"[3]

صلة الرحم تجلب صلة الله سبحانه وتعالى للواصل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم؛ فقالت: هذا مقام العائذِ بكَ من القطيعة؛ قال: نعم؛ أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلِكَ لكِ"، ثم قال رسول الله ﷺ: "اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ محمد: ٢٢ - ٢٣ "[4]

صلة الرحم من أكثر الأشياء التي أوصى بها الدين، إذ إن الله سبحانه وتعالى أمر بصلة الرحم وذكرها كثيراً في القرآن الكريم، كما أمر بها الرسول ﷺ وشدد عليها، فالرحم معلقةٌ بعرش الله سبحانه وتعالى، من وصلها فإنما وصل علاقته بالله ﷻ، ومن قطعها فقد قطع الله ﷻ ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على عظيم الأجر والثواب الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لمن يصل رحمه، ولا يقتصر أجر صلة الرحم على الأجر والثواب في الآخرة، بل إنها سببٌ في تيسير الأمور في الحياة الدنيا، بالإضافة إلى أنها تزيد في بركة الرزق

[1] رواه البخاري (8/ 32).
[2] رواه البخاري (8/ 5).
[3] مسند أحمد (42/ 153)، شعب الإيمان للبيهقي (10/ 344).
[4] رواه البخاري (8/ 5).

وتزيد في بركة العمر، وسببٌ لنشر السعادة والألفة والمحبة بين الناس، فهي تؤسس للحب في القلوب وتزيد من تواصل الناس فيما بينهم، فتصبح العلاقات أكثر مودة وألفة، وتعزز من الترابط الأسري.

إن صلة الأرحام من أنفس القربات، وأعظمها إلى الله ﷻ، وهي من أجلّ الطاعات، وأعظمها بركة، وأعمها نفعاً، حيث قرنها الله ﷻ بالتقوى، فقال ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ النساء: ١

فإن أسمى ما يسعى أن يصل إليه المسلم هو رضوان الله ﷻ والاقتداء بالرسول ﷺ، وإن أعظم ما يوصل العبد إلى ذلك صلة الرحم، وهي متعلقة بالعرش، إذ توصل العبد بالله ﷻ وتوصل الله ﷻ بالعبد، ولعظمتها وأهميتها فقد اشتقى الله ﷻ اسمها من اسمه، فمن أسمائه ﷻ الرحمن الرحيم.

وإن صلة الرحم تعني الإحسان وتقديم الخير للأقربين وإبعاد الشر عنهم، وعكس صلة الرحم قطعه والإساءة للأقربين، ويعد ذلك من الكبائر التي تدخل صاحبها النار، وتشمل أقارب الوالدين من آبائهم وأمهاتهم وإن علَوْا، وأولادهم وأحفادهم وإن نزلوا، وكذلك الأعمام والأخوال وأولادهم وكل من له علاقة من الصهر والنسب، ولا تكون الصلة بالزيارة وردّ السلام فقط؛ وإنما تتسع لتشمل تقديم المساعدة وزيارة المرضى وتقديم كل ما يستطيع عليه الشخص اتجاه أقاربه وصلة رحمه، حتى وإن كان الشخص قاطعاً رحمَه ولا يزورهم، فلنثابر على صلة الرحم

بالتواصل الشخصي، وبالصدقة، وبالدعاء لهم بظهر الغيب، وبتفقد أحوالهم، وبالاستغفار لهم، وبتدعيم المحبة معهم.

"ومن فوائد صلة الرحم أنه علامة كمال الإيمان وحسن الإسلام، وتحقق السعة في الأرزاق والبركة في الأعمار، واكتساب رضى الرب عز وجل ثم محبة الخلق، وتقوية أواصر العلاقات الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة والأسر المرتبطة بالمصاهرة والنسب حتى يعم المجتمع كله، واستصحاب معية النصر، والتأييد من الله عز وجل القوي العزيز للواصل، وللأرحام حق وإن كانوا كفاراً أو فجاراً أو مبتدعة، وتقوى الصلة بقرب العلاقة وهي للأقرب أقوى منها للأبعد"[1]

اتقوا الله تعالى وصلوا أرحامكم؛ واحذروا من أسباب قطيعتهم، واستحضروا دائماً ما أعد الله عز وجل للواصلين من الثواب؛ وما أعده للقاطعين من العقاب، وكونوا من أهل الصفح والعفو والجود والكرم، وادفعوا بالتي هي أحسن، وكونوا من الصالحين والمصلحين لعلكم تفلحون، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يصل الأرحام وأن يرزقنا من فضله الكريم وإحسانه.

[1] نظرة النعيم (7/ 2632).

النصيحة السابعة
كن قرآنيا

القرآن هو أشرف كتاب أنزله الله ﷻ، نزل به أشرف ملك هو جبريل عليه السلام، في أشرف شهر هو شهر رمضان، في أشرف ليلة هي ليلة القدر، في أشرف بقعة على الأرض هي مكة المكرمة، وبأشرف لغة اللغة العربية، وعلى أشرف خلق الله ﷻ، هو الحبيب النبي ﷺ، والى خير أمة هي أمة خاتم النبيين ﷺ وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥

القرآن أنزله الله ﷻ ليكون آية وبرهانًا على صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ، وليكون منهاجاً للأمة وشفاءً لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وهداية للناس أجمعين، أنزله الله ﷻ لنتلوه حق تلاوته ونتبعَه حق اتباعه، ولنتدبر آياته ونتفكر في معانيه، أنزله الله ﷻ لنقفَ عند حدوده فنُحلَّ حلاله ونحرم حرامه ولا نحرفه عن مواضعه.

ولقد تكفل الله ﷻ لمن اتبعه حق اتباعه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، قال ﷻ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ طه: ١٢٣، فهو عصمة لمن اعتصم به، ونجاة لمن تمسك به، ونور لمن استنار به، فعلى كل من تمسك بهذا القرآن الذي هو حبل الله ﷻ المتين، عليه أن يعلم أنه ربح الربح الذي ليس بعده ربح، وفاز الفوز الذي ليس بعده فوز، ونجَح وأفلح في دنياه وأخراه، عليه أن يعلم أنه استحق الرفعة والشرف والإعزاز والتكريم

من العلي الكريم ﷻ، وكل من جافى القرآن وتنكر له وأعرض عنه، عليه أن يعلم أنه سقط قدره وانحطت منزلته من عند العلي القدير ﷻ كيف ما كان نسبه أو جاهه في أهله وعشيرته.

قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ طه: ١٢٤

القرآن سماه الله روحًا ونوراً، فقال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى: ٥٢.

إن المكانة والمنزلة التي أعدها الله ﷻ لأهل القرآن الذين يشتغلون به تلاوةً وتدبراً وتعلماً وتعليماً وعملاً ودعوةً وتطبيقاً لهي من أسمى المنازل، بل أرقى وأعلى وأشرفُ ما يمكن أن ينالَه المسلم بعمل من الأعمال التي يرجو بها القرب من الله ﷻ، والمتمسك بالقرآن، فعن عثمان بن عفان ﵁ عن النبي ﷺ قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[1]، وفي لفظ آخر: "أن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه"[2]

أن صاحب القرآن، المرتبط المتمسك به تعليماً وتعلّماً في المكانة العليا والمنزلة الرفيعة، ومُقدم في أعظم الأمور وأشرفها، مقدم في الصلاة التي هي عماد الدين وأعظم العبادات، يقول النبي ﷺ: "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله"[3]، وعن عمر بن الخطاب ﵁ سأل عامله على أهل مكة فقال له: "من خلفت على أهل مكة قال:

---

[1] رواه البخاري (6/ 192)، مسند أحمد (1/ 530)، سنن الترمذي (5/ 173).
[2] مسند أحمد (1/ 466)، رواه البخاري (6/ 192)، سنن ابن ماجه (1/ 77)، سنن الترمذي (5/ 174).
[3] رواه مسلم (1/ 465)، مسند أحمد 37/ 31)، سنن ابن ماجه (1/ 313)، سنن الترمذي (1/ 458).

ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: رجل من الموالي، فقال عمر رضي الله عنه كالمتعجب أو المستنكر، أستخلفت عليهم مولى! فقال: إنه قارئ لكتاب الله، وإنه عالمٌ بالفرائض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيك ﷺ قال: "إن الله ليرفع بهذا الكتاب[1] أقواماً ويضع به[2] آخرين[3]"[4]

بل صاحب القرآن مُقدم على غيره حتى بعد الموت في الدفن، فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول: "أيّهم أكثر أخذاً للقرآن، فإن أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد، ويقول: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة"[5]

فانظر إلى مقامك وقدرك يا صاحب القرآن، فمهما كنت موصوفاً بنقص عند الناس، فأنت المقدّم المشرف بشهادة النبي ﷺ، شرف يُذهب نقصك ويَرفع قدرك ومقامك عند رب الناس، فعن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه، عن أبيه قال: كنت عند النبي ﷺ فسمعته يقول: "إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطى الملكَ بيمينه والخلدَ بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويُكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان بم كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذًّا كان أو ترتيلاً."[6]

---

[1] يرفع بهذا الكتاب: أي بقراءته والعمل به

[2] ويضع به: أي بالإعراض عنه وترك العمل بمقتضاه.

[3] رواه مسلم (1/ 559)، سنن الدارمي (4/ 2118)، سنن ابن ماجه (1/ 79)، مسند أحمد (1/ 355).

[4] مسند أحمد (1/ 355)، صحيح ابن حبان (3/ 49)، شعب الإيمان للبيهقي (4/ 222).

[5] رواه البخاري (2/ 93)، سنن ابن ماجه (1/ 485)، سنن الترمذي (3/ 345)، السنن الكبرى للنسائي (2/ 434)

[6] مسند أحمد (38/ 41)، سنن الدارمي (4/ 2135)، شعب الإيمان للبيهقي (3/ 374).

ما من عبد إلا ويلتمس أسباب النجاة بين يدي الله عز وجل، ويحرص على العتق من غضبه سبحانه وتعالى، في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، في يوم لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً، فعن سهل بن معاذ رضي الله عنه عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ القرآن وعمل بما فيه أُلبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسنُ من ضوء الشمس في بيوت الدنيا"[1]

وأهل القرآن لهم بشارة خاصة من النبي صلى الله عليه وسلم، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله أهلينَ من الناس، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته"[2]

وحتى ننال هذا الشرف ونكون من أهل القرآن الذين جعلهم الله عز وجل أهلَه وخاصته، ونال القرب منه سبحانه وتعالى، لا بد من الإكثار من تلاوة القرآن والمداومة على ذلك وفهم آياته ومعانيه وتعلمه وتعليمه والاستماع إليه وحفظه والعمل به وتعليمه لأولادنا.

القرآن كلام الرحمن، تلاوته تَشرح صدر المسلم، وتدبُّر آياته يزيد الإيمان، وتعلُّمه وتعليمه رِفعة للشأن، وهدى يهدي القلوب، ونور يُنير الحياة، وكتاب الله سبحانه وتعالى المعجز المتعبَّد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر.

القرآن للداء دواءٌ، وللمرض شفاء، وللقلب نقاء، وللرُّوح ارتقاء، ورِفعة للدرجات، ورفيق في المدْلهمَّات.

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 756)، شعب الإيمان للبيهقي (3/ 342).
[2] مسند أحمد (19/ 305)، سنن ابن ماجه (1/ 78).

القرآن ارتقاء رُوحي؛ لتسمو الروح في بحر الطمأنينة، وارتقاء فكري؛ ليَسبح العقل في التفكُّر والتأمُّل، وشفاء لنفسٍ أنْهَكتها المعاصي والآثام، وشفاء لجسد أتعَبَته الأمراض والآلام، وهو بركة في العمر والأوقات، وزيادة في الأجر والحسنات، فيه القَصص النيِّرات، والمعجزات الخالدات، **وباختصار: القرآن منهج حياة.**

مَن أراد القُرب من الرحمن، والأُنس بالكريم المنَّان، ورَغِب في الجِنان، فعليه بالقرآن.

مَن أراد العلم لينهل منه، والحِكمة ليستقي منها فعليه بالقرآن.

مَن أراد الرفيق في القبر يؤنِس وَحشته، ويُنير قبره، ويُواسي غُربته، فعليه بالقرآن.

كن مع القرآن، وتأمَّل كلام سيد الأنام ﷺ، فعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: سَمِعت رسول الله ﷺ يقول: "اقرَؤوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه"[1]

كن مع القرآن، تَنَلْ رضا الرحمن سبحانه وتعالى وأعلى الجنان؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْتَقِ ورتِّل، كما كنتَ ترتِّل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تَقْرؤها"[2]

كن مع القرآن قراءةً، وسماعًا، وتدبُّرًا، وحفظًا، كن معه ولا تَهجره.

كن مع القرآن، ردِّده بلسانك، ورطِّب شَفَتيك بكلماته؛ لتَنعم بالسرور.

كن مع القرآن، ردِّده بقلبك، وتأمَّل الآيات، وتدبَّر الكلمات؛ لتَنعم بالراحة النفسيَّة.

كن مع القرآن؛ لتُلامس الفلاح، وتُحقِّق النجاح.

---

[1] رواه مسلم (1/ 553).

[2] مسند أحمد (11/ 403)، السنن الكبرى للنسائي (7/ 272).

القرآن هو المصباح الذي لا تنطفئ مصابيحه، والمنهاج الذي لا يضل ناهجه، والعز الذي لا يهزم أنصاره، أنزله الله ﷻ في أمة تتباهى بالفصاحة والبيان، وتتفاخر بالبلاغة وجزل الكلام فتحداهم الله ﷷ جميعاً أنسهم وجنهم، فقال ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨ ﴾ الإسراء: ٨٨

إن العيش مع القرآن عيش كريم، ونعمة يتفضل بها الله ﷷ على من شاء من خلقه، وحياة تعجز العبارات أن تعبر عنها، ولذا كان حريٌ بالمؤمن الناصح لنفسه أن يجاهد نفسه للعيش الحقيقي مع القرآن.

فالقرآن الكريم أعظمُ الكتب وأقدسها وأرفعها شأنًا، فهو يضمّ كلام الله ﷻ الذي أُنزل على نبيّه محمد ﷺ، وهو الكتاب المتعبّد في تلاوته الذي لا يمسّه إلا المطهّرون، وفي آياته دواءٌ وشفاءٌ للنفس والروح، ومن يقرأ في القرآن الكريم ينال الأجر العظيم من الله ﷻ، ويأخذ في كلّ حرفٍ منه حسنة، والله يُضاعف لمن يشاء، فالقرآن الكريم نورٌ على نور، وفيه من العظمة ما يجعل النفس ترتاح وتطمئن، وفيه من السكينة ما يمنح القلب الأمان والطمأنينة والراحة العظيمة، لذلك فإنّ القراءة في آياته نجاة من الهمّ والغمّ، وفوزٌ بالجنة، وتثبيت على الصراط المستقيم، ونجاة من نار جهنم.

القرآن الكريم هو المؤنس في الوحشة، وهو ربيع قلب المؤمن، ما إن يبدأ المؤمن بتلاوة آياته حتى يشعر بأنّ أبواب النور فُتحت في وجهه وزال عنه الظلام، لأنّ في كل حرفٍ من حروفه أجرٌ وعلو في الدرجات، حتى أن الله ﷻ يوم القيامة يأمر

حافظ القرآن الكريم أن يقرأ ويرتقي في الجنة، حتى يصل إلى أعلى درجة فيها، فيا له من شرفٍ عظيم لا يُدانيه أي شرف، فالقرآن الكريم عطر الروح، ومن يعتاد على قراءة آياته يوميًا يجد راحة ما بعدها راحة، ويأتي القرآن الكريم يوم القيامة وهو يُحاجج عن صاحبه ويُدافع عنه، لذلك فإنّ أصحاب القرآن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

فالقرآن الكريم هو دستور المؤمن، وهو الطريق لفهم الإسلام ومعرفة أمور الدين، فآياته نبعٌ لا ينضب من الحكمة والإيمان، كما أنّ فيه إعجازٌ بياني ولغوي لا مثيل له، وهو الكتاب المحفوظ الذي لا يطاله أي تغيير أو تحريف، لأن الله ﷻ تكفل بحفظه، وجعله صالحًا لكلّ زمانٍ ومكان.

فالقرآن الكريم هو مفتاح الأمان والراحة ومفتاح الجنة، وهو الأصل الذي تقوم عليه العبادات، فالصلاة لا تكون صلاة إلا بقراءته في جميع الركعات، وفي آياته رحمة كبيرة، فالقرآن الكريم يشفع لصاحبه، ويُدخله الجنة، ومن أراد أن يظفر بالخير في الدنيا والآخرة، فعليه أن يجعل من القرآن الكريم دستوره في الحياة مهما كانت الظروف.

"**ومن فوائد تلاوة القرآن** أنه عصمة لمن اعتصم به وحرز من النار لمن عمل بما جاء به، ومن تلا القرآن وأراد به رضا مولاه ﷻ كان من المفلحين، وتلاوة القرآن تهدي المؤمن إلى صراط مستقيم وتشفي صدور قوم مؤمنين، والقرآن هو حبل الله ﷻ المتين فمن تمسك به وتلاه حق تلاوته فاز بنعيم الدنيا والآخرة، والذين يستمعون القرآن من عباده المؤمنين فيتبعون أحسنه أولئك على هدى من ربهم ﷻ

شبكة الألوكة

وكل كلام ربنا ﷻ حسن لمن تلاه، والاستماع إلى القرآن والإصغاء إليه بأدب وتعظيم فيه مهابط الرحمة وعميمها، وسبب من أسباب انشراح الصدر، وفيه الشفاء من أدواء الجسم والنفس"[1]

"**ومن ثمرات قراء القرآن** أنه في مصاف العظماء ومن أفضل الناس وأعلاهم درجة، ويكتسب عن كل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، وتشمل القارئ ظلة الرحمة ويحاط بالملائكة وتتنزل عليه السكينة، ويضيء الله ﷻ قلب القارئ ويقيه ظلمات يوم القيامة ويبعد عنه الشدائد، والقارئ رائحته زكية ومذاقه حلو كالأترجة ومن هنا فهو جليس صالح يقترب إليه الصالحون العاملون ليشموا منه عطره وينفحوا من شداه، وأنه من أهل الله ﷻ وخاصته المتقربين إليه والعاملين الشغوفين بطاعة الله ﷻ والقانتين له، ويرقى إلى قمة المعالي في الجنة ويصعد إلى ذروة النعيم، وتدعو له الملائكة الكرام بالرحمة والمغفرة، ويكتب عند الله ﷻ من الذاكرين والقانتين، وتبتعد عن الشياطين، ويستنير عقله ويمتلئ قلبه بالحكمة وتتفجر منه ينابيع العلم، بالقرآن تعمر القلوب والبيوت ويعمها الخير والبركة، وقراءة القرآن تورث القلب خشوعاً والنفس صفاءً."[2]

عظموا كتاب ربكم ﷻ واستشفوا به من أدوائكم، واطلبوا به النصر على أعدائكم، وميزوا به بين أعدائكم وأصدقائكم، ثم صلوا على نبيكم ﷺ كما أمركم الله ﷻ بذلك في كتابه.

---

[1] نظرة النعيم (4/ 1229).
[2] نظرة النعيم (4/ 1182- 1183).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النصيحة الثامنة
كن أحسنهم خلقاً

يزداد جمال العبد حين يتحلّى بالأخلاق الفاضلة التي تُجمّله وتجعلهُ أكثر قُرباً من الآخرين وأكثر قُرباً من ربّهِ ﷻ أيضاً، فالأخلاق هيَ منظومة مُتكاملة لا تتجزأ، على العبد أن يلتزمَ بكلّ تفاصيلها حتّى يكونَ فاضلاً وذا خُلُقٍ حسَن، فلا يُعقل أن يكونَ أحد الناس موصوفاً بمحاسن الأخلاق وهوَ كاذب، بمُجرّد أنّهُ كريمٌ أو لطيفٌ وحسنُ المعشر؛ فالكذب أو غيره مثلاً هوَ مقتل للصّفات الفاضلة ووأد للأخلاق ومحاسنها.

والخُلُق الحسن هو الخُلُق الفاضل وهوَ أصلٌ متجذّر في فِطرة المسلم؛ فالمسلم بخلقتهِ التي خلقهُ الله ﷻ عليها يتوجّهُ نحوَ الإيمانِ به ونحوَ العمل الصالح ونحوَ الأخلاقِ الحميدة، وهذهِ الفِطرة دليلُ الخير، ولكن البيئة المحيطة بالعبد المسلم تجرّهُ إمّا في اتّجاهٍ يوافقُ فِطرته أو ما يُخالفها.

ومن أحسنِ الناس أخلاقاً هوَ نبينا مُحمّد ﷺ، فقد كانَ قُرآناً يمشي على الأرض وكانَ خُلُقُه القُرآن كما وُصِف، أي إنَّ كُلّ صفةٍ عظيمة وخُلُقٌ قُرآنيَ رفيع قد اتّصفَ بِهِ ﷺ، وقد قالَ عنهُ ربّهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ القلم: ٤، وهذهِ أعظمُ شهادةٍ بأنّهُ سيّدُ الأخلاقِ الفاضلة على الإطلاق، ومن هذا الباب فقد أصبحَ الخُلُقُ الحسَن معروفاً لدينا وهوَ التأسّي بأخلاق الرسول ﷺ، وهذا يكون بمتابعة أفعاله وأقواله وصفاته وكيفيّة تعامله مع الناس، ومع هذهِ المتابعة لحياتهِ الشريفة ﷺ نقف على حُسنِ الخُلُق على حقيقته.

وحُسنُ الخلق لهُ أهميّة كُبرى في الإسلام؛ فأصحابُ الأخلاق الحسنة من المؤهّلينَ لدخُول الجنّة؛ فعن أبي هريرة ﵁ قال: "سُئِلَ رسولُ اللّه ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناسَ الجنّة؟ قال: تقوى الله وحُسنُ الخُلُق"[1]، وقالَ عنهُ ﷺ: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق"[2]

ومن الثمرات التي تعود على صاحب الأخلاق الحسنة أنّهُ قريبٌ من قُلوب الناس، وذو سيرةٍ عطِرة وذكرٍ محمود ومحبوب منهُم، وهوَ بلا شكّ ذو قبول عند الناس، كما أنّ صاحبَ الأخلاق الحسنة مُصدّقٌ عندَ الناس وذو كلمةٍ مسموعة بفضلِ صدقهِ وأمانته ونُبل أخلاقه التي ألقت الاحترام في قُلوب الناس له.

ورغب النبي ﷺ في حسن الخلق في كل مظاهر الحياة الإنسانية، فحسن الأخلاق هو علامة على كمال الإيمان، وهو ضرورة اجتماعية، ومهمة خاصة للدعاة إلى دين الله ﷻ، تجعل من يتحلى بها من أقرب الناس مجلساً إلى رسول الله ﷺ يوم القيامة، كما أنّ الأخلاق تفاضل الناس فتجعل من يتحلى بها خير الناس وأحسنهم على الإطلاق، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا."[3]

والخلق الحسن كذلك طريق المسلم للتقرب إلى الله ﷻ ونيل الأجر والثواب، فقد يبلغ الرجل صاحب الخلق الحسن درجة الصائم القائم، كما أنّ الخلق الحسن هو أعظم الوسائل للدعوة إلى الله ﷻ فهو يحبب الناس في صاحب الخلق، كما أنّه يجذب غير المسلمين إلى دين الإسلام.

[1] مسند أحمد (15/ 435)، سنن الترمذي (4/ 363)، صحيح ابن حبان (2/ 224).
[2] رواه الترمذي (4/ 363).
[3] رواه البخاري (4/ 189).

ويتحصل المسلم على حسن الخلق بما يلي:

1. يدعو الله ﷻ أن يحسن خلقه تأسٍّ بنبي الله ﷺ في ذلك.
2. يقبل نصيحة أخيه المسلم في التحلي بالأخلاق والحث عليها.
3. يتذكر ثواب وأجر حسن الخلق.
4. يصاحب أهل الفضل والخلق الحسن، ويجتنب أهل السوء.
5. يمرن نفسه على تطبيق الأخلاق الحسنة تطبيقاً عملياً، ويبذل وسعه لترك الأخلاق السيئة.

وحسن الخلق يكون للمسلم باتباعه لما أمر به الله سبحانه وتعالى واجتناب ما نهى عنه، والاقتداء بالرسول ﷺ، كما يجب أن يبتعد المسلم لتمام حسن الخلق عمّا حرّم عليه الله سبحانه وتعالى من الكبائر، والتي تعتبر إحدى المفاسد العظمى، فصاحب الخلق العظيم لا يرتكب الفواحش والآثام ويرى فيهم قمّة الفساد سواءً كان من المسلمين أو غيرهم، وصاحب الخلق العظيم لا يترك لنفسه العنان عند الغضب فيتجرّد من جميع مبادئه وأخلاقه، إنّما يمسك نفسه ويعفو عند مقدرته على ذلك، وإذا تحلّى الإنسان بهذه الأخلاق وغيرها فمن المؤكد أنّه سينال بذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى وحبّه وسينال حبّ الناس من حوله أيضاً أكثر ممّا يناله صاحب الخلق البذيء الذي يزدريه الناس ولا يطيقونه.

فحثّ الإسلام على الأخلاق الحسنة، وجعل ذلك من أهداف البعثة المحمديّة، فهناك منزلة عظيمة لحسن الحلق في الإسلام، وهناك عدة ميادين يشملها الخلق الحسن، وهناك أهميّة أيضاً للأخلاق الحسنة في المجتمع، وأضرار تترتب على ضياع الأخلاق ونقصانها، وسبل لإعادة تعزيزها. كما اهتم الإسلام بالأخلاق الحسنة،

فنجد القرآن الكريم قد تناول قسم كبير منها، بما يشمل معظم مجالات التعامل اليومي في المجتمع، فحث القرآن الكريم على الصدق، وحذر من الكذب، وحث كذلك على الأمانة والإيفاء بالعهد، وتجنب الغش في البيع أو الشراء، كما حث القرآن الكريم على العفو، والصفح، وعدم مقابلة السيئة بالحسنة وذلك في قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ فصلت: ٣٤، وكان الرسول ﷺ في سيرته اليوميّة نموذجاً تطبيقياً عملياً للخلق الحسن، ويظهر ذلك في اعتراف كفار قريش بصدقه وأمانته رغم ما هم عليه من الكفر، وظهر ذلك في عدة مواطن في سيرته، فكانوا يؤمّنوه على أموالهم، ويرتضوه حكماً في بعض الأمور المشكلة كما حصل في بناء الكعبة وإعادة الحجر الأسود إلى مكانه، فنزلوا على تحكيم الرسول ﷺ بينهم في كيفيّة اشتراكهم في إعادة الحجر الأسود إلى موضعه.

والخلق الحسن من أعظم القربات وأجلّ العطايا والهبات، والداعية إلى الله ﷻ هو من أحق الناس بهذا الخير العظيم؛ ليطبقه على نفسه، ويدعو الناس إليه؛ ليحصل على الثواب الجزيل، ولهذا قال ﷺ: "ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن"[1]، وقال ﷺ: "إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم"[2]، وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "أربع إذا كن فيك فما عليك ما

[1] سنن الترمذي (4/ 362).
[2] مسند أحمد (42/ 346).

فاتك من الدنيا: حفظُ أمانةٍ، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة"[1]، وبهذا يحصل المسلم على جوامع الخيرات والبركات، قال ﷺ: "البر حسن الخلق"[2] والخلق الحسن هو وصية رسول الله ﷺ إلى جميع المسلمين، وخاصة الدعاة، فقد أوصى به ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه حينما بعثه إلى اليمن واليًا، وقاضيًا، وداعيًا إلى الله فقال له: "وخالق الناس بخلق حسن"[3]

والخلق الحسن ذو أهمية بالغة؛ لأن الله سبحانه وتعالى أمر به نبيه ﷺ، وأثنى عليه به، وعظم شأنه الرسول ﷺ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ الأعراف: ١٩٩، وقال ﷺ: "إنما بعثتُ لِأُتمِّمَ مكارم الأخلاق"[4]، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: "فإن خلق نبيكم ﷺ كان القرآن"[5]

والخلق الحسن من أعظم الأساليب التي تجذب الناس إلى الإسلام، والهداية، والاستقامة؛ ولهذا من تتبع سيرة النبي ﷺ وجد أنه كان يلازم الخلق الحسن في سائر أحواله وخاصة في دعوته إلى الله سبحانه وتعالى، فأقبل الناس ودخلوا في دين الله عز وجل أفواجًا بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل حسن خلقه ﷺ، فكم دخل في الإسلام بسبب خلقه العظيم، فيسلم ثمامة بن أثال رضي الله عنه ويقول: "والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ."[6]، وذاك يقول: "اللهم

---

[1] مسند أحمد (11/ 233)، شعب الإيمان للبيهقي (7/ 201).
[2] مسند أحمد (29/ 181)، سنن الدارمي (3/ 1836).
[3] مسند أحمد (36/ 313)، المعجم الكبير للطبراني (20/ 144).
[4] السنن الكبرى للبيهقي (10/ 323)
[5] رواه مسلم (1/ 513).
[6] رواه مسلم (3/ 1386)، السنن الكبرى للنسائي (1/ 150).

ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا"، تأثر بعفو النبي ﷺ ولم يتركه على تحجيره رحمة الله عز وجل التي وسعت كل شيء، بل قال له ﷺ: "لقد تحجرت واسعًا"[1]

والخلق الحسن هو أمنية كل مسلم وكل داعية مخلص خاصة؛ لأنه بذلك ينجو ويفوز وينجح في جميع أموره الخاصة والعامة؛ ولهذه الأهمية كان ﷺ يدعو ربه عز وجل أن يهديه للخلق الحسن، فكان ﷺ أحيانًا يقول في استفتاحه للصلاة: "واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت"[2]، وكان يقول ﷺ: "اللهم أحسنت خَلْقي فحسِّن خُلُقي"[3]

والخلق الحسن يُحبب صاحبه إلى الناس جميعًا حتى أعدائه، ويتمكن بذلك من إرضاء الناس على اختلاف طبقاتهم، وكل من جالسه أو خالطه أحبه، وبهذا يسهل على الداعية إدراك مطالبه السامية بإذن الله سبحانه وتعالى؛ لأن الدعاة إلى الله عز وجل لا يسعون الناس بأموالهم ولكن ببسط الوجه وحسن الخلق.

وإن من لم يتخلق بالخلق الحسن من الدعاة ينفر الناس من دعوته، ولا يستفيدون من علمه وخبرته؛ لأن من طبائع الناس أنهم لا يقبلون ممن يستطيل عليهم أو يبدو منه احتقارهم، واستصغارهم، ولو كان ما يقوله حقًا، قال سبحانه وتعالى للنبي ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ١٥٩ ﴾ آل عمران: ١٥٩، وقال سبحانه وتعالى:

---

[1] رواه البخاري (8/ 10).
[2] رواه مسلم (1/ 534)، مسند أحمد (2/ 132)، سنن الدارمي (2/ 788).
[3] مسند أحمد (6/ 373)

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾ الشعراء: ٢١٥، وقال ﷻ مُمْتَنًّا على عباده: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾ التوبة: ١٢٨، وقال ﷻ: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ ﴾ آل عمران: ١٦٤، ولا شك أنه يتعين على كل مسلم أن يتخذه ﷺ قدوة وإمامًا لقوله ﷻ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ الأحزاب: ٢١

وإن صلاح الأمة وهدايتها والنهوض بها لا يكون سليمًا نقيًا إلا بالأخذ من المنبع الصافي، والبعد عن الأفكار الهدامة المنحرفة، والتزام المسلمين بالخلق الحسن ودعوة الناس إليه هو من هذا المنبع، وتطبيق ذلك على أنفسهم، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣ ﴾ الصف: ٢ - ٣؛ ولهذا أمر الله ﷻ بالعلم قبل العمل، وبالعمل قبل الدعوة إليه، فقال ﷻ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ١٩ ﴾ محمد: ١٩

والخلق الحسن يجعل المسلم مستنير القلب، ويفتح مداركه، فيتبصر به مواطن الحق، ويهتدي به إلى الوسائل والأساليب الصحيحة في دعوة الناس الملائمة للظروف والأحوال، والأشخاص، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنفال: ٢٩

والخلق الحسن من أعظم الأسباب التي تنجي من النار وتورث الفوز بأعلى الدرجات في جنات النعيم وهذا هو غاية كل مسلم بعد رضى الله ﷯، ولهذا عندما سأل ﷺ رجلًا فقال له: "ما تقول في الصلاة؟" قال: أتشهّد ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله! ما أحسن دندنتك، ولا دندنة معاذ، فقال ﷺ: "حولها نُدَنْدِنُ"[1]، وهذا يدل أن جميع الأقوال والدعوات والأعمال؛ إنما هو من أجل الفوز بالجنة والنجاة من النار بعد رضى الله ﷻ.

ولقد تكفل ﷺ ببيت في أعْلى الجنة لمن حسَّن خلقه فقال: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسَّن خلقه"[2]

والخلق الحسن من أكثر الأعمال التي يدخل بها المسلم الجنة، فقد سُئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: "تقوى الله وحسن الخلق"[3]، ويبين ﷺ أن النار تحرم على كل قريب هَيِّنٍ سهل، فعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول

[1] سنن ابن ماجه (1/ 295).
[2] سنن أبي داود (7/ 172)، سنن الترمذي (3/ 242)
[3] مسند أحمد (15/ 435)، سنن الترمذي (4/ 363)، صحيح ابن حبان (2/ 224).

الله ﷺ: "ألا أُخبركم بمن يحرم على النار – أو بمن تَحرُمُ عليه النار –؟! على كل قريب هين سهل "[1]

اتقوا الله ﷻ، واعلموا أن الخلق الحسن موضوع واسع جدًا يشمل: الحلم، والأناة، والجود والكرم، والعفو والصفح، والرفق واللين، والصبر، والعزيمة، والثبات، والعدل والإنصاف، والصدق، والبرّ، والوفاء بالعهد، والإيثار، والرحمة، والعفة، والتواضع، والزهد، والكيس والنشاط، والسماحة، والمروءة، والشجاعة، والأمانة، والإخلاص وهذا هو الخلق الحسن في دين الله ﷻ، وما يتفرع منه.

أما الخلق العظيم الذي مدح الله ﷻ به النبي ﷺ فهو الدين كله، والخلق الحسن جزء منه، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقِه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة"[2]

وهذه الأخلاق الحسنة العظيمة قد عمل بها النبي ﷺ، فاجتهدوا في الاقتداء بالنبي ﷺ في أخلاقه تفوزوا بالسعادة في الدنيا والآخرة.

والخُلُق الحسَن في الإسلام له مَنزلة رَفيعة، ومكانَة عالِية، ولقد بيَّن الرسولُ ﷺ ذلك في بيان قيِّم يقتدي به المحسنون، ويسير على نَهجه المسلمون.

والخُلُق الحسَن له أجرٌ كبير، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة "[3]؛ ولذا يَجب علينا التمسُّك بالأخلاق الحسنة،

---

[1] سنن الترمذي (4/ 654).
[2] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 308).
[3] سنن الترمذي (4/ 363).

واحتساب أجرها، والتقرُّب إلى الله ﷻ بملازمتها، ومواجهة نَزغ الشَّيطان واستثارة النَّفس لمخالفة النَّهج القويم الذي أَمر به الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ الإسراء: ٥٣، إنَّ لحُسن الخلق منزلة عالية في دين الإسلام العظيم، ومن يتمتع بحسن الخلق ويتحلى بتطبيق المنهج الربَّاني في معاملة الآخرين، ويتمسك بسنَّة الرسول ﷺ في التعامل مع الناس فقد فاز فوزاً عظيماً في الدنيا وفي الآخرة.

وحسن الخلق والكلمة الطيبة زاد لكل مسلم يسعى لمرضاة الله ﷻ، وطيب المعاملة سبب لكي يشهد الناس للمسلم بحسن الخلق يوم القيامة، ويكون سبباً بفضل الله ﷻ في دخول جنات النعيم ومصاحبة الصالحين.

"ومن فوائد حسن الخلق أنه من أفضل ما يقرب العبد إلى الله ﷻ، وإذا أحسن العبد خلقه مع الناس أحبه الله ﷻ والناس، ويألف الناس ويألفه الناس، لولا يكرم العبد نفسه بمثل حسن الخلق ولا يهينها بمثل سوئه، وسبب في رفع الدرجات وعلو الهمم، وسبب في حب الرسول ﷺ والقرب منه يوم القيامة، ويدل على سماحة النفس وكرم الطبع, ويحول العدو إلى الصديق، وسبب لعفو الله ﷻ وجالب لغفرانه، ويمحو الله ﷻ بحسن الخلق السيئات، ويدرك المرء بحسن الخلق درجة الصائم القائم، ومن أكثر ما يدخل الناس الجنة، ويجعل صاحبه ممن ثقلت موازينه يوم القيامة، ويحرم جسد صاحبه على النار، ويصلح ما بين الإنسان وبين الناس، ويكثر المصافون ويقل المعادون"[1]

[1] نظرة النعيم (5/ 1586).

فاتقوا الله ﷻ، وأحسنوا أخلاقكم ما استطعتم، واعلموا أن للنفوس جماحًا، فأحيانًا للهوى، وأحيانًا للحمق، وأحيانًا للشقاق، فخيركم من يملك زمام نفسه ويسيطر على أعصابه، ولا يترك الشيطان والهوى يتحكمان في أفعاله ومصيره.

عليكم بمكارم الأخلاق ومحاسنها، فما اتصف بهما مسلم إلا كان ذلك دليل سعادته وفوزه.

النصيحة التاسعة
توبوا إلى الله جميعاً

ما من إنسانٍ على وجه الأرض إلّا هو خطّاءٌ ذو ذنبٍ، لكنّ المؤمن الحقّ هو الذي يسارع بعد الذنب بالتوبة، والعودة إلى الله ﷻ من فوره، فلا يبقى على الذنب ويغرق في الخطايا، بل يعود نادماً تائباً، راجياً رحمة الله ﷻ، ومغفرته، وقد فتح الله ﷻ باب توبته لعباده المذنبين؛ فلم يغلق الباب في وجههم، أو يقطع عليهم طريق العودة إليه، فباب التّوبة والعودة إليه مفتوحٌ على الدّوام.

فالتوبة إلى الله ﷻ من أجَلِّ العبادات، وأعظم القُرُبات، وكفى أهلَها شرفًا وفضلًا محبّةُ الله ﷻ لهم؛ حيث قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ البقرة: ٢٢٢، فهنيئًا للتائبين محبّةُ الله ﷻ لهم؛ لأنَّ مَن أحبَّه الله ﷻ لا يعذِّبه في الدنيا ولا في الآخرة.

وإنَّ التوبة سببٌ للمغفرة والرَّحمة وتبديلِ السيئات إلى حسنات؛ قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ الأعراف: ١٥٣

وتعدُّ التوبة سببًا في نزول البَرَكات من السماء وزيادة القوّة؛ قال ﷻ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ هود: ٥٢، كما أنَّ التوبة سبب للفلاح

ودخول الجنَّة والنجاة من النار؛ قال ﷻ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ النور: ٣١، وهي سبَب لقَبول أعمال العبد والعفوِ عن سيئاته؛ قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الشورى: ٢٥، وقال أيضًا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾ مريم: ٥٩ - ٦٠

والله ﷻ يَفرح بتوبة العبد فرحًا شديدًا؛ فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: "لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من أحدكم كان على راحِلَته بأرض فلاةٍ، فانفلتَت منه وعليها طعامُه وشرابُه، فأيس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلّها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثُمَّ قال من شدَّة الفرَح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك؛ أخطأ من شدَّة الفرَح"[1]

ويجدر بكلِّ مسلم أن يجدِّد توبتَه مع الله عزّ وجلّ؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: " كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون"[2]

إنَّ العبد مأمورٌ بالتوبة حتَّى الممات، وإذا كانت التوبة طريقَ الطاعات والأعمال الصالحة، فهي تفتح للعبد أبوابًا من المحبَّة، فهذا الطريقُ من أسرع الطُّرق إلى الله ﷻ وهو يسمَّى بطريق الصبر، يسبق التائب بها السعادة.

---

[1] رواه مسلم (4/ 2104).

[2] سنن الدارمي (3/ 1793)، سنن ابن ماجه (2/ 1420)، سنن الترمذي (4/ 659).

فالتوبة التي يريدها الله ﷻ منَّا، ويقبلها عنَّا، ويغفر بها لنا هي التوبةُ النصوح، التوبة الصادقة المخلصة التي يُبتغى بها رضا الله ﷻ.

فالتوبة هي العودة إلى الله ﷻ بقلبٍ نادمٍ على معصيته، راجياً مغفرته ورضاه، باكياً خوفاً من عقابه، مصراً على عدم الرجوع إلى معصيته مهما حدث، بالإضافة إلى العزم على أداء جميع فرائضه بأكمل وجه، وأن يقوم بالأعمال الصالحة لكي يؤكد توبته ويبدل سيئاته بالحسنات، ويجب على التائب أن يكون مؤمناً قولاً وفعلاً واعتقاداً، وتؤدّى التوبة دون اتخاذ أي وسيط بينه وبين الله ﷻ فيجب أن تُطلب من الله ﷻ بشكل مباشر، والتوبة الصادقة إلى الله ﷻ هي واجبة على كل مسلم ومسلمة، ولا يصلح إيمان العبد إن لم يتب عن المعاصي التي قام بها واستبدلها بالطاعات والأعمال الصالحة، ومن لم يتب إلى الله ﷻ قبل موته أو شروق الشمس من مغربها لن يغفر الله ﷻ ذنوبه ولن ينال الجنة.

أهمية التوبة:

1. تكفير الذنوب، ودخول الجنة والنجاة من النار.
2. نيل التوفيق من الله ﷻ في الدنيا والآخرة.
3. كسب محبة الله ﷻ، ومحبة رسوله ﷺ.
4. يبارك الله ﷻ بأموال وأبناء التائبين.
5. يمحو الله ﷻ سيئات التائبين ويبدلها بالحسنات.

ويعتبر المشي في طريق التّوبة أولى الخطوات في طريق الإيمان، والانطلاقة للإيمان الصّحيح، قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ

دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾ النساء: ١٤٦.

ولأهمّيّة التوبة عند الله ﷻ ؛ فإنّ الله ﷻ يفرح أشدّ الفرح لعبده إن تاب وترك المعصية لوجهه وابتغاء مرضاته، قال ﷺ: " لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن، من رجل في أرض دوية مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده"[1]

إذا كان هذا فرح الله ﷻ بتوبة العبد، فلا بدّ أنّه يحبّ عباده التّوابين، ويحبّ هذه الخصلة فيهم، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٢٢، والتوّاب هو من مشى في طريق التوبة، وسلكها كلّ وقتٍ؛ فهي صفةٌ ملازمةٌ له، كلّما أحدث ذنباً أو قصّر في جنب الله ﷻ تاب وأناب إليه، ونوى الإحسان في قادم أيّامه، فاستحقّ محبّة الله ﷻ وتكريمه، ولكي يكون العبد توّاباً وينال حبّ الله ﷻ له، فإنّ لتوبته شروطٌ يجب أن يلتمسها حتى يقبل الله ﷻ توبته ويرفعه بها، **فمن شروط قبول التوبة عند الله ﷻ ما يأتي:**

1. أن يعترف التائب أمام الله ﷻ بذنبه وتقصيره، وينوي التوبة منه.
2. أن يخلص التائب توبته لوجه الله ﷻ وحده، فإنّ الله ﷿ لا يقبل من العمل إلّا ما كان خالصاً لوجهه الكريم.

---

[1] رواه مسلم (4/ 2103).

3. أن يُقلع التائب عن هذا الذّنب ويتركه، فلا يأتيه مرّةً أخرى إن تكرّرت أسبابه ووُجدت.

4. أن يكثر التائب من الاستغفار على خطيئته، ويشعر بالندم لإتيانها؛ فإنّ الله ﷻ يغفر لمن استغفر ويتوب عليه.

5. أن يردّ التائب المظالم إلى أهلها؛ فإن كانت توبته من ظلمٍ أو ضررٍ ألحقه بإنسانٍ، فعليه أن يردّ المظالم له، ويطلب منه العفو والمسامحة.

والتّوبة هي ندم العبد على ما قام به من المعاصي والذّنوب التي تُغضب الله ﷻ، مع العزم على عدم العودة إليها مجدّداً، ويجبُ ألا تكون التّوبة بالإكراه أو لتحقيق مصلحة متعلّقة بالدنيا، وإنّما رغبةً في إرضاء الله ﷻ، وذهب العلماء إلى القول بوجوب التّوبة على المرء الذي ارتكب ذنباً، فإذا كان الذّنب بين العبد وربّه ﷻ فإنّ للتّوبة ثلاثة شروط، وإذا كان الذّنب بين العبد وأحد النّاس فلها أربعة شروط؛ وبيان ذلك فيما يأتي:

1. أن يترك العبد المعصيّة ولا يعود إليها أبداً.

2. أن يشعر العبد بالنّدم وأنّه ظلم نفسه بإتيانه المعاصي والذّنوب التي تُغضب الله ﷻ.

3. أن يعقد العبد العزم على عدم العودة إلى الذّنب إلى ارتكبها أبداً.

إنّ الشّرط الرّابع يتعلّق بمن كان بينه وبين أحد من عباد الله ﷻ حقوق؛ كمن ظلم أحداً أو استغابه أو شتمه أو أخذ ماله، فالتّائب من مثل هذه الذّنوب يلزمه إرجاع الحقوق لأصحابها؛ فإن كان مالاً أعاده، وإن كان ظُلماً أو غيبةً أو قذفاً طلب العفو والمسامحة منه.

وأضاف العلماء شروطاً أخرى تتعلّق بوقت نيّة التّوبة، وبيان ذلك فيما يأتي:

1. أن تكون توبة العبد قبل الغرغرة؛ أيّ قبل خروج الرّوح منه لحظة الوفاة؛ قال ﷻ: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ النساء: ١٨

2. أن يتوب العبد قبل طلوع الشّمس من مغربها؛ حيث دلّ النبيّ ﷺ أنّ التّوبة مقبولة من العباد في كلّ وقتٍ حتى تطلع الشمس من مغربها.

3. أن تكون التّوبة قبل نزول العذاب؛ وهذا خاصّ بالأقوام التي نزل عليها عذاب الله ﷻ بسبب كفرهم وجحودهم بالله ﷻ، فإذا رأوا العذاب آمنوا وتابوا من الكفر والجحود؛ قال ﷻ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾
غافر: ٨٣ ـ ٨٥

فالتوبة هي الرجوع عما يكرهه الله ﷻ ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه الله ﷻ ظاهراً وباطناً، وهي اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان، وهي الهداية الواقية من اليأس والقنوط، وهي الينبوع الفياض لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة، وهي ملاك الأمر، ومبعث الحياة، ومناط الفلاح، وهي أول المنازل وأوسطها وآخرها،

وهي بداية العبد ونهايته، وهي ترك الذنب مخافة الله ﷻ، واستشعار قبحه، والندم على فعله، والعزيمة على عدم العودة إليه إذا قدر عليه، وهي شعور بالندم على ما وقع، وتوجه إلى الله ﷻ فيما بقي، وكف عن الذنب.

الأسباب المعِينة على التوبة لله ﷻ، فنذكر أهمَّها على النحو التالي:

أولًا: استِشعار خطورة الذُّنوب، وعواقبها الوخيمة في الدنيا والآخِرة؛ فلا تَنظر إلى صِغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظَمة مَن تعصي.

ثانيًا: الإخلاص لله ﷻ؛ فمَن أخلص لله ﷻ، يسَّر الله ﷻ له الخيرَ، وصرَف عنه الشرَّ والسوء؛ قال ﷻ في حقِّ يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يوسف: ٢٤

ثالثًا: مجاهدة النَّفس؛ فإنَّ العبد ما لم يجاهِد نفسه أولًا فيَبدأ بها ويُلزمها بفِعل ما أُمرَتْ به وترْك ما نُهيَتْ عنه، لم يُمكِنْه تجديد تَوبته لله ﷻ؛ فعن فَضالةَ بن عُبيدٍ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: "ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب"[1]

رابعًا: تذكُّر الموت؛ فإنَّ العبد إذا ما تذكَّر الموت وأحواله، فإنَّه حتمًا إن كان له قلب سيجدِّد التوبةَ لله ﷻ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: "أكثِروا ذِكر هادم اللذَّات"[2]؛ يعني: الموت.

[1] مسند أحمد (39/ 381)، صحيح ابن حبان (11/ 203)، المعجم الكبير للطبراني (18/ 309)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 54)، شعب الإيمان للبيهقي (13/ 454).
[2] سنن ابن ماجه (2/ 1422).

خامسًا: الخشية من الله ﷻ والخوف من عِقابه؛ فإنَّ العبد إذا ما خَشِيَ اللهَ ﷻ وخاف من عقابه وعذابه، وتذكَّر الآخرةَ والحِساب، والجزاءَ والنَّار والعذاب، فإنَّه سيجدِّد توبته لله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ المؤمنون: ٥٧ - ٦١

سادسًا: تذكُّر رحمة الله ﷻ التي وسعَت كلَّ شيء؛ فإذا ما تذكَّر العبدُ كم هي رحمة الله ﷻ واسِعة، وأنَّه ﷻ يَغفرُ الذنوبَ جميعًا، فإنه يجدِّد التوبة، لا تَقنَط نفسُه من رحمة الله ﷻ، ولا تيأس من روح الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ الزمر: ٥٣

سابعًا: تَذكُّر النَّعيم المقيم يوم القيامة؛ فإنَّ العبد إذا ما تفكَّر في الجنَّة ونعيمها، ودرجاتها وحُورِها، حرَصَتْ نفسُه على الطَّاعة، والبعد عن المعصية، وتجديد التوبة؛ حتى يكون من الفائزين برِضا الله ﷻ، وليكون يومَ القيامة في درجة عالية في الجنَّة في نَعيم مُقيم.

ثامنًا: المواظبة على الفرائض، خاصَّة الصلوات الخمس؛ فإذا ما حرَص العبد المسلِم على الفرائض خصوصًا المواظبة على الصلوات الخمس في أوقاتها، فإنَّها تذكِّرُه

بالله عز وجل وتجدِّد إيمانه، فإذا أذنب ذنبًا تابَ منه مباشرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله قال: مَن عادى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه"[1]

تاسعًا: الحِرص على النَّوافل، والإكثار من الطَّاعات؛ فإنَّ النوافل تُقرِّب المسلمَ من ربِّه عز وجل وترفع درجته؛ فيكون معلَّقًا بالله عز وجل، دائم التوبة والاستِغفار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله قال: وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يَسمعُ به، وبصره الذي يُبصِرُ به، ويده التي يَبطشُ بها، ورِجله التي يَمشي بها، وإن سألَني لأُعطينَّه، ولئن استعاذني لأُعيذنَّه"[2]

عاشرًا: المداومة على تلاوة القرآن والأذكار، والإكثار من الاستِغفار؛ فإذا كان العبد يَقرأ في كلِّ يوم وردًا من القرآن العظيم، ويَحرص على ذِكر الله عز وجل، ويكثِر من الاستغفار، كان في خيرٍ عظيم، دائم التوبة لله سبحانه وتعالى، صارفًا لنفسه عن المعاصي والمنكرات، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾ آل عمران: ١٣٥

---

[1] رواه البخاري (8/ 105).
[2] رواه البخاري (8/ 105).

الحادي عشر: قِراءة قصص التائبين العائدين إلى الله ﷻ؛ فإنَّ العبد إذا ما رأى حالَ العصاة كيف انقلَبوا بتوبتهم إلى صالحين أبرار، علَتْ همَّته، وجدَّد توبتَه مع الله ﷻ.

الثاني عشر: مُصاحبة الصَّالحين، والبعد عن قُرَناء السوء ومواطِن المعصية؛ فإنَّه يَنبغي على المسلم أن يَحرص على صُحبة أهل الخير، الذين يُذكِّرونه إذا نَسي، ويعينونه إذا ذَكَر، ويقوِّمونه إذا اعوجَّ، ويقودونه إلى الحقِّ وإلى الطريق المستقيم، وأن يَصرِف نفسه عن مواطن المعاصي ورُفَقاء السوء؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل"[1]

الثالث عشر: الدُّعاء والتضرُّع لله ﷻ؛ فيَنبغي على كلِّ مسلم أن يكثِر من الدعاء بالثَّبات على الطَّاعة، فقد كان النبيُّ ﷺ يَفعل ذلك؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أن يقول: "يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك"، فقلنا: يا رسولَ الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله ﷻ يقلبها كيف يشاء"[2]

توبة يرافقها العزمُ الأكيد على تجَنُّب الخطايا والذنوب.

توبة يُصاحبها العمل المخلص، والعبادة الخالصة لله سبحانه وتعالى.

توبة تُحدِث تغيُّراتٍ في حياة المسلم، فتنقله إلى حياة الإيمان والعمل الصالح، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: " قال الله سبحانه وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو

---

[1] مسند أحمد (14/ 142).

[2] مسند أحمد (19/ 160)، سنن الترمذي (4/ 448).

بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة"[1]

ولما كانت التوبة إلى الله ﷻ هي منتهى أمل العبد وأقصى غايته وغاية النهاية؛ لأن التوبة مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول إقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء، والاجتباء للمقربين، ومنزل التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه، ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، والتوبةُ لها فضلٌ عظيم وأجرٌ جسيم ، فهي نعمة كبرى، ومنحة عظمى، شأنها عظيم، ونفعها عميم، لها فضائل لا تحصى، وثمرات لا تعد، ولها أهمية كبرى، وثمرات جليلة، وفضائل عظيمة، وأسرار بديعة، وهي طريق النجاة، وسلم الوصول، ومطلب العارفين، ومطية الصالحين، وهي من أشرف العبادات وأجلّ الطاعات، فالتوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستّار العيوب، وعلاّم الغيوب ﷻ.

ولما كانت حاجتنا إلى التوبة حاجةً ماسَّة، بل إن ضرورتنا إليها مُلِحَّة؛ فنحن نُذْنِبُ كثيراً، وَنُفَرِّطُ في جنب الله ﷻ ليلاً ونهاراً؛ فنحتاج إلى ما يصقل القلوب، وينقيها من رين الذنوب؛ لأن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون؛ فالعبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية، فمن أعظم نعم الله ﷻ أن فتح باب التوبة، وجعله فجراً تبدأ معه رحلة العودة بقلوب منكسرة، ودموع منسكبة، وجباه خاضعة.

"ومن فوائد التوبة أنها من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وسبب في حب الله ﷻ ورضاه لأن الله ﷻ يحب التوابين ويحب المتطهرين، وسعة رحمة الله ﷻ للتائب،

---

[1] سنن الترمذي (5/ 548).

وضعف الإنسان لكون الخطيئة جزءاً منه، عموم وشمول مغفرة الله سبحانه وتعالى ورحمته لكل ذنب تاب العبد منه وإن كان شركاً، حرمة المسلم عرضه وماله فلا تقبل التوبة من حقوق العباد إلا بأن يأخذ حقه أو يعفو، يتجلى الله سبحانه وتعالى على التائب برضوانه وإحسانه، يقبل الله سبحانه وتعالى على التائب أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته، تسبب التوبة ذهاب الضيق وإزالة الهم، الرجاء والعفو والتوبة ما دامت الروح في الجسد إلى طلوع الشمس من مغربها وقبل الغرغرة، وجوب التوبة على العموم وعلى الخصوص والمبادرة بها، والمعاصي سواد والتوبة جلاؤها"[1]

والأمل في عفو الله سبحانه وتعالى موجود، والرجاء معقود والأمة بخير والحمد لله، وإن كانت فيها الأخطاء والذنوب فهناك علام الغيوب سبحانه وتعالى يعفو ويصفح ويتوب، فتُبْ إلى الله عز وجل واستغفرْه من كلِّ ذنب، إنَّه هو الغفور الرحيم.

[1] نظرة النعيم (4/ 1295).

النصيحة العاشرة

والمستغفرين بالأسحار

الاستغفار دواءٌ ناجحٌ وعلاجٌ لجميع الذنوب والخطايا، وهو السبيل الأقرب لنيل رضى الله ﷻ لمن أبعدته ذنوبه عن الطاعة، أو كان يخلط بين الطاعة والذنوب، فالمستغفر يُرضي الله ﷻ لاعترافه بذنبه وصدقه في اللجوء إلى الله ﷻ لمغفرة ما بدر منه من ذنوبٍ وآثام، كما أنه يطلب من الله ﷻ أن يُزيل آثار تلك الذنوب حتى يكون كأنه لم يقترفها، وذلك من عظيم فضل الله ﷻ، وقد كان النبي محمد ﷺ يحثُّ أصحابه رضي الله عنهم ومن معه على كثرة الاستغفار من الخطايا والذنوب صغيرها وكبيرها، ما فعله المسلم بقصدٍ وما وقع منه بطريق الخطأ، حيث كان يقول للمسلمين بقوله ﷺ: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[1]

أن جميع الخلق بحاجة إلى الاستغفار المتواصل حتى إنه كان يُكثر من الاستغفار والتوبة لله ﷻ في اليوم الواحد أكثر من مئة مرة، فإن باقي الخلق أشد حاجةً للاستغفار والتوبة لله ﷻ من بابٍ أولى.

فلا شك أن الاستغفار له أثر عظيم في صلاح العبد وسعادته واستقامة أحواله وتخلصه من الآثام والشرور والفتن، ولذلك كان رسول الله ﷺ يواظب على الاستغفار مائة مرة في اليوم والليلة، وإن الاستغفار يقوي صلة العبد بربه ﷻ ويجدد العهد مع الله ﷻ ويحقق عبوديته؛ لأن حقيقته يقول العبد: **أنا عبدك يا ربي قد أذنبت وقصرت في حقك فاغفر لي ذنبي واسترني وتجاوز عني.**

---

[1] رواه البخاري (8/ 67).

إن الاستغفار يتضمن اعتراف العبد بفقره لمولاه ﷻ وحاجته لرحمته وإحسانه، فعن أبي هريرة ﵁: أنه سمع رسول ﷺ يقول: "إن عبداً أصاب ذنباً فقال يا رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال ثم أذنب ذنباً آخر فقال يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال ثم أذنب ذنباً آخر فقال يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي قال ربه علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقال غفرت لعبدي فليعمل ما يشاء"[1]

إن الاستغفار يمحو الذنوب ويسترها ويطهر العبد من الخطايا والرزايا، فعن أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله ﷻ أنه قال: "يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم"[2]

إن الاستغفار يحقق للعبد الرضا والطمأنينة وراحة البال؛ لأن القرب من الله ﷻ يورث العبد ذلك، قال ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا ۝٣﴾ هود: ٣، وإن الاستغفار يطرد الهم ويزيل الغم ويجعل روح المؤمن في سعادة وسرور وحبور، قال ﷺ: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب"[3]

---

[1] رواه البخاري (9/ 145).
[2] رواه مسلم (4/ 1994).
[3] المعجم الكبير للطبراني (10/ 281).

إن الاستغفار طريق لمحبة الله ﷻ والفوز بمرضاته؛ لأن الله ﷻ يحب التوابين، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ البقرة: ٢٢٢، وإذا استشعر المؤمن هذا المقام أكسبه ذلك سعادة وفرحة وبهجة لا يحيط بها وصف ولا تفسرها كلمات، فإن الاستغفار يهذب النفس ويزكي الروح ويكسبها خشوع وسكينة وهدوء؛ لأنه يطهر القلب من الأدران ويطرد الشيطان ويصقل الروح ويطيب الخاطر ومن واظب عليه عاش لحظات سعيدة من عمره، كما يورث القلب انكساراً والجوارح تواضعاً ويخلص العبد من الكبر والخيلاء؛ لأن المستغفر يشعر بحسرة الذنب قد كسرت قلبه المعصية ويطلب الستر مطأطئ الجناح وهذا المقام ينافي الكبر ويقتضي الإخبات.

إن كثرة الاستغفار يحفظ اللسان من الآثام والعين من الخيانة والجوارح من الذنوب، فهو أعظم دواء وشفاء لمن أسرف على نفسه بالسيئات وصار أسيراً للشهوات وأراد أن يحرر نفسه ويعتقها من عبودية الشيطان، **قال قتادة**: "إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب وأما دوائكم فالاستغفار"[1]

إن الاستغفار يحمل العبد على رحمة الخلق ولين الجانب معهم والتجاوز عن زلاتهم؛ لأن المستغفر يطلب التجاوز والرحمة من المولى ﷿ فلا يليق بحال المستغفر أن يؤاخذ غيره ممن أخطأ في حقه وينزل به العقوبة ولا يسامح، قال رسول الله ﷺ: "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[2]، ومن طمع في رحمة الله ﷿ ومغفرته فليرحم الخلق لتتنزل عليه الرحمات والنفحات.

---
[1] جامع العلوم والحكم (3/ 1173)
[2] مسند أحمد (11/ 33)، سنن الترمذي (4/ 323).

وإن كثرة الاستغفار ولزومه يحل الأزمات ويرفع البلاء وينفس الكرب ويحقق الفرج بعد الشدة، ويجلب الرزق ويبارك فيه ويوسع على العبد في دنياه وله أثر عظيم في تيسير الأمور، قال ﷻ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾ نوح: ١٠ - ١١

إن الاستغفار يزيد المؤمن قوة في بدنه وماله وولده وأهله ويقيه من الآفات والعلل، قال ﷻ: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ هود: ٥٢

إن الاستغفار يمنع من نزول العقوبة على العبد في الدنيا ويدرأ عنه العذاب في الآخرة، قال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنفال: ٣٣، ويستحب الاستغفار للمؤمن في كل ساعة من ليل ونهار ولكنه يتأكد في مواطن:

أولاً: في أوقات السحر، قال ﷻ: ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٧

ثانياً: عند الفراغ من صلاة الفريضة كما ثبت في السنة، والفراغ من الحج.

ثالثاً: عند الوقوع في الذنب، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ النساء: ١١٠

رابعاً: عند حصول الغفلة والتعرض للشبهات والشهوات.

فينبغي للمؤمن أن يغتنم فراغه بالاستغفار ويعود لسانه على المواظبة عليه ويستكثر منه، قال علي بن أبي طالب ﵁: "العجب ممن يهلك ومعه النجاة قيل: وما هي؟ قال الاستغفار"[1]، وقال أيضاً: "يقول ما ألهم الله ﷻ عبداً الاستغفار وهو يريد أن يعذبه"[2]

وقال ابن تيمية ﵁: "إنه ليقف خاطري في المسألة التي تشكل عليّ فاستغفر الله ألف مرة حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل، وقد أكون في السوق أو المسجد أو المدرسة لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي"[3]

الاستغفار طريق النجاة وملاذ العبد المسلم حين تحيط به الخطيئات، إنه أمان المؤمنين الطائعين، وأمان المذنبين الخائفين المستغفرين، يقول عليّ بن أبي طالب ﵁: "كان لنا في الأرض أمانان من عذاب الله ﷻ، وقد رُفع أحدهما وبقي الآخر فتمسّكوا به، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله ﷺ، وأما الأمان الباقي فهو الاستغفار، والله ﷻ يقول: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣ ﴾ الأنفال: ٣٣"[4]، والمسلم مهما حاول أن يبتعد عن المعاصي والذنوب، فلا ينفك إلا أن يلمّ بإثم أو ذنب، أو خطأ أو زلة، فما من عبد إلا وهو خطّاء، والمعاصي كما قيل سلسلة في عنق العاصي لا يفكّه منها إلا الاستغفار والتوبة.

---

[1] فيض القدير (6/ 57)، إحياء علوم الدين (1/ 313).
[2] إحياء علوم الدين (1/ 313).
[3] لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية (4/ 109).

[4] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (4/ 1610)، الكشكول (2/ 97).

وإن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها الاستغفار، فإن رسول الله ﷺ الذي غُفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر، كان سيّد المستغفرين، يُكثر من الاستغفار في الليل والنهار، في الصلوات ووراء الصلوات، وفي سائر الأوقات، فعن الأغرِّ المزَني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليغان[1] على قلبي، وإني لأستغفر الله في كلِّ يوم مائة مرة"[2]، كما كان ﷺ يرغب في الإكثار من الاستغفار لشدّة حاجة العبد إليه في الآخرة، فعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً."[3]

فالذنوب داء والاستغفار دواؤها، فهذا **الربيع بن خيثم** يسأل أصحابه: "أتدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ثم لا تعود"[4]

نعم إن حياة القلب بالذكر والاستغفار والتوبة والإنابة وترك الذنوب، والقلب إذا استنار بنور الطاعة أقبلت إليه وفود الخيرات، وإذا أظلم القلب بظلمة المعاصي والذنوب أقبلت إليه سحائب الشر والبلاء.

وإنّ الاستغفار المطلوب هو ما قُرن به ترك الإصرار، فالاستغفار باللسان دون إقلاع عن الذنب إنما هو توبة الكذابين! فالاستغفار مع الإصرار تهاون؛ إذ ليس من الغريب أن يُذنب العبد، ولكن الغريب أن يتمادى في عصيانه وذنوبه، ويتغافل عن توبته واستغفاره، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟

[1] ليغان: قال أهل اللغة الغين والغيم بمعنى واحد والمراد هنا ما يتغشى القلب قال القاضي قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي شأنه الدوام عليه فإذا أفتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبا واستغفر منه.
[2] مسند أحمد (30/ 224)، رواه مسلم (4/ 2075)، السنن الكبرى للنسائي (9/ 167)، صحيح ابن حبان (3/ 211)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 691)، شعب الإيمان للبيهقي (9/ 249)، المعجم الكبير للطبراني (1/ 302).
[3] سنن ابن ماجه (2/ 1254)
[4] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 108)، صفة الصفوة (2/ 36).

أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ آل عمران: ١٣٥، لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار، **يقول ابن سيرين:** "والله لا أبكي على ذنب أذنبته، ولكني أبكي على ذنب كنت أحسبه هيِّناً وهو عند الله عظيم"، فالذنب كلّما استعظمه العبد المسلم من نفسه صغر عند الله ﷻ وكلما استصغره كبر عند الله ﷻ، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مَرّ على أنفه فطار"[1]

هيا بنا إلى ماء التوبة والاستغفار، نغسل الذنوب، ونطهر القلوب، ونرفع أيدينا لعلاّم الغيوب وستّار العيوب، وغفّار الذنوب، فالذنوب أثقلت كواهلنا، وأوجعت قلوبنا، لنتضرع إليه ونذرف الدموع، فأنين المذنبين المستغفرين أَحَب إليه من وجل المسبِّحين المغرورين، وإن ذنوبنا مهما عَظُمت فإنّ عفو الله ﷻ ومغفرته أعظم وأوسع.

الاستغفار من أعظم العبادات وأجلّ القربات، وفضل الاستغفار عظيمٌ جدًا؛ إذ إنّه سبب لمحو الذنوب والعفو والوقاية من العذاب ودفع البلاء.

والاستغفار واجب على الدوام، إما من معصية، أو من النية بها، أو ترك واجب وتهاون به، أو وسواس الشيطان، أو التقصير أو جهل، ولو خلا من ذلك لم يخلُ من غينه، والناس يتفاوتون في ذلك بين مقل ومستكثر.

فقد جعل الله ﷻ الاستغفار طريقاً للعابدين ومنهجاً للسالكين وواحة للمخبتين،

[1] رواه البخاري (8/ 67).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فهو سنة الأنبياء والمرسلين، ووسيلة الأولياء والصالحين، يلجؤون إليه في كل وقت وحين، وبه يرتقون في مدارج السالكين.

وما من نبي ولا مرسل إ لا وقد استغفر، وما من عابد ولا سالك إلا وقد تاب واستبشر، فها هو آدم عليه السلام وزوجه حواء يبدأون رحلتهم على الأرض بالاستغفار، قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الأعراف: ٢٣

إن للاستغفار والتوبة آثاراً وأسراراً جميلة ورائعة، وهو بلسم وسلّم إلى الطمأنينة والسعادة التي يبحث عنها كثير من الناس، وهو الطريق الممتع الذي من سلكه يكون قد حط رجليه على سفينة النجاة، فالاستغفار مفتح الأبواب، ومغير الأحوال، وجالب الخير، وهو طريق يأخذ بيديك إلى الفلاح، وبه تستدفع النقم والعقوبات العامة، فلابد أن نعلم أن الاستغفار الحقيقي معناه طلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى بمحو الذنوب، وستر العيوب، ولابد أن يصحبه إقلاع عن الذنوب والمعاصي، وأما الذي يقول: أستغفر الله بلسانه، وهو مقيم على المعاصي بأفعاله فهو كذاب لا ينفعه الاستغفار، **قال الفضيل بن عيا ض** رضي الله عنه: "استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين"[1]، **وقالت رابعة العدوية:** "استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير"[2]، يعني: أن من استغفر ولم يترك المعصية، فاستغفاره ذنب يحتاج إلى استغفار.

لنكثر من الاستغفار في الليل والنهار حتى نفوز بالأجر العظيم، فيا بشرى من وجد استغفاراً كثيراً في صحيفته، ويا خسارة من لم يجد شيئاً من ذلك في يوم لا ينفع مال

[1] الأذكار للنووي (1/ 637).
[2] الأذكار للنووي (1/ 637).

ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فعن الزبير بن العوام ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "من أحب أن تسره صحيفته فليكثر فيها من الاستغفار"[1]

فأحرص كل الحرص على أن ترطب لسانك بالإكثار من الاستغفار والتوبة، والهج دائماً بذكر الله ﷻ، فهذا هو طريق النجاح والفلاح في الدنيا قبل الآخرة، **قال بكر بن عبد الله المزني** ﵁: "أنتم تكثرون من الذنوب؛ فاستكثروا من الاستغفار، فإن الرجل إذا وجد في صحفيته بين كل سطرين استغفاراً سره مكان ذلك"[2]، **وقال الحسن البصري** ﵁ : "أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، أينما كنتم؛ فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة"[3]

إن الاستغفار الحقيقي أن نقلع عن الذنوب والمعاصي قولاً وعملاً، ونسارع إلى الجنان من خلال جمع الحسنات والفضائل، ونصبر على البلاء والشدة، وما يأتينا من مصائب ومتاعب في هذه الحياة الدنيا، لأنها دار ابتلاء واختبار، وأن نقدم نية صالحة صادقة أمام الاستغفار، فالاستغفار يؤثر على حسب نية المستغفر، وعلى مدى قربه من الله ﷻ، وعلى قوة قلبه وحضوره وقت الاستغفار، **قال أحد الوعاظ**: "تذكر دائماً أن الاستغفار يؤثر حسب نية المستغفر، تستغفر لطلب مال، لإنجاب ولد، نجاح، توبة، بنية المستغفر يكون الأثر بإذن الله ﷻ، وكذلك يحتاج الاستغفار لنية صادقة ومخلصة لله ﷻ، وأن تدرك معناه وأن تفهم المراد فالنية لها أثرها في حياتك كلها"

[1] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 152).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 230).
[3] جامع العلوم والحكم (3/ 1164).

"ومن فوائد الاستغفار أنه يجلب الغيث المدرار للمستغفرين ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً، ويكون سبباً في إنعام الله ﷻ على المستغفرين بالرزق من الأموال والبنين، وتسهيل الطاعات وكثرة الدعاء وتيسير الرزق، وزوال الوحشة التي بين الإنسان وبين الله ﷻ، المستغفر تصغر الدنيا في قلبه، ابتعاد شياطين الإنس والجن عنه، ويجد حلاوة الإيمان والطاعة، وحصول محبة الله ﷻ له، والزيادة في العقل والإيمان، تيسير الرزق وذهاب الهم والغم والحزن، وإقبال الله ﷻ على المستغفر وفرحه بتوبته، وإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه ﷻ، وإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وهو في ظل العرش، وإذا انصرف الناس من الموقف كان المستغفر من أهل اليمين مع أولياء الله ﷻ المتقين، وتحقيق طهارة الفرد والمجتمع من الأفعال السيئة، ودعاء حملة عرش ربنا ﷻ له"[1]

عليكم بالاستغفار فهو طريق النجاة وانقشاع الظلام وهو طارد للهموم والغموم والأكدار وباب خير لحياة طيبة آمنة مطمئنة فوالله من لزم الاستغفار فتحت له أبواب كل شيء فلا تضيعون على أنفسكم هذا الكنز العزيز

فلنستيقظْ من غفلتنا، ولننفضْ عن كواهلنا تراب زلاّتنا وذنوبنا، ولنقف في محراب التعبّد في ظلمة الليالي نستغفر ربنا من سوء الفعال ونقول:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ ﴾ آل عمران: ١٩٣

[1] نظرة النعيم (2/ 302).

النصيحة الحادية عشر
واذكروا الله كثيراً

إنّ ذكر الله ﷻ هو المهمة العظمى التي خَلَقَنا الله ﷻ من أجلها، وهو الناموس الذي يسير الكون على نسقه ومقتضاه؛ ليكون العبد قانتاً خاشعاً لله ﷻ مسلماً مستسلماً ساجداً ومسبّحاً.

إنّ ذكر الله ﷻ ما هو في حقيقته إلا الطريق السوي الذي يصل بنا إلى الجنّة، وما عداه فما هو إلا شذوذ وانحراف وخروج عن الجادة.

فالذكر حياة الروح، وإنّما تتربى الروح بحسن ذكرها لله ﷻ وكثرته لله ﷻ وتعبّدها له بتحقيق الإيمان والتوحيد والخوف والرجاء.

فالذكر يربي الروح فتصفو النفس ويرقّ القلب، ويتربّى في العبد الضمير الحي الذي يكون له دور كبير في توجيه حياة صاحبه، فتكون الثمرة عبداً ربّانياً راقياً رحمانياً.

وإنّ كثرة الذكر لله ﷻ بشتى صوره من تسبيح وتحميد وثناء واستغفار وصلاة على الحبيب ﷺ وقراءة القرآن، قال النبي ﷺ: "ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشوز، كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن"[1]، وقال ﷺ: "ليس يتحسر أهل الجنّة على شيء إلا على ساعة مرّت بهم لم يذكروا الله ﷻ فيها"[2]

فإن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وتعتريها العلل والأمراض كما تعتري الأبدان، والمرء محاط بنفسه الأمارة بالسوء وهواه والشيطان، فلا غنى له عما يحفظه ويدفع

---

[1] المعجم الكبير للطبراني (13/ 177).
[2] المعجم الكبير للطبراني (20/ 93).

عنه المخاوف ويطمئنه، ألا وإن من أكثر ما يدفع تلكم الأدواء، ويحرز من الأعداء كثرةَ ذكر الله ﷻ؛ فهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، زين الله ﷻ بذكره ألسنة الذاكرين؛ كما زين بالنور أبصار الناظرين.

واللسان الغافل؛ كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء؛ قال ﷺ: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت"[1]

ذكر الله ﷻ هو العبادة السهلة اليسيرة لجميع الأوقات، ومختلف الأحوال والمناسبات، سأل رجل النبي ﷺ عن شيء في الإسلام يتشبث به فقال: "لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله"[2]، وقال أيضاً: "كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"[3]

ذكر الله ﷻ خير أعمال العبد وأزكاها عند ربه ﷻ، قال ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم"؟ قالوا: بلى. قال: "ذكر الله ﷻ."[4]

وأهل السبق إلى الله ﷻ وهم جلوس، هم الذاكرون الله ﷻ كثيراً والذاكرات؛ قال ﷺ: "سبق المفردون"، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: "الذاكرون الله كثيراً، والذاكرات"[5]

[1] رواه البخاري (8/ 86).
[2] سنن ابن ماجه (2/ 1246)، سنن الترمذي (5/ 457)، صحيح ابن حبان (3/ 96).
[3] رواه البخاري (9/ 162).
[4] سنن الترمذي (5/ 459).
[5] رواه مسلم (4/ 2062).

وما عصى عبد ربه ﷻ إلا في لحظة غفلة عنه، يقول ﷻ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ الزخرف: ٣٦، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله ﷻ خنس"[1]

ولقد أمر الله ﷻ بذكره ذكراً كثيراً فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٤١ – ٤٢، وقال ﷻ: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنفال: ٤٥

أثنى على ملائكته بدوام ذكره، فقال ﷻ: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأنبياء: ١٩ – ٢٠، ونوه بمقام الذاكرين له حيث الملهيات وأعظم أجورهم، فقال ﷻ: ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴿٣٧﴾ ﴾ النور: ٣٧، وما من شيء خلقه الله ﷻ إلا ويسبح بحمده، يقول ﷻ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الإسراء: ٤٤

وذِكر الله ﷻ عبادة أهل الجنة التي بها يتنعمون، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "يلهمون التسبيح والتحميد، كما تلهمون النفس"[2]

---
[1] مصنف ابن أبي شيبة (7/ 135).
[2] رواه مسلم (4/ 2180)

والعبادات إنما شرعت لإقامة ذكر الله ﷻ؛ فالذكر فاتحتها، وقوامها وختامها، يقول ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ طه: ١٤، ويقول ﷻ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ الجمعة: ١٠

والحج إنما شرع لإقامة ذكر الله ﷿؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله"[1]، وقال ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا ٢٠٠﴾ البقرة: ٢٠٠

ذكر الله ﷿ فاتحة الدعوة إليه، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ المدثر: ١ - ٣، وهو عدتها وقوامها، يقول ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨﴾ المزمل: ٥ - ٨

وهو تاجها وختامها، يقول ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ النصر: ١ - ٣

---

[1] مسند أحمد (40/ 408)، السنن الكبرى للبيهقي (5/ 236).

وإن أفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وبعث على خشية الله سبحانه وتعالى وطاعته، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴿١٣٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٥

فذكر الله عز وجل قوت القلوب الذي متى فارقها، صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة الديار التي إذا تعطلت عنه صارت خراباً، هو السلاح الذي يقاتَل به قُطاع الطريق، والماء الذي يطفأ به لهب الحريق، به تستدفع الآفات، وتستكشف الكربات، وتهون المصائب والشدائد والملمات.

ذكر الله عز وجل أقوى عدة يقاتل بها الأعداء، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنفال: ٤٥

ذكر الله عز وجل كثيراً علامة براءة قلب العبد من النفاق، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ النساء: ١٤٢

ذكر الله عز وجل سبب لانشراح الصدر وطمأنينة القلب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الرعد: ٢٨، ومَن ذكر الله سبحانه وتعالى في ملأ، ذكره الله سبحانه وتعالى في ملأ خير منه، قال سبحانه وتعالى:

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾ البقرة: ١٥٢، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: "من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ من الناس، ذكرته في ملأ أكثر منهم وأطيب"[1]

إن ذكر الله عز وجل قوة للقلب والبدن، مجلبة للرزق، مشغلة للسان عن الغيبة والنميمة والزور والبهتان، وسبب لإظلال الله عز وجل عبده يوم القيامة؛ ففي حديث السبعة الذين يظلهم الله سبحانه وتعالى: "...ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه"[2]

أنَّ ذكر الله سبحانه وتعالى طمأنينةٌ للقلوب، فهو من أعظم أسباب الفَوْز والفلاح بأعظم المطلوب من كلِّ محبوب، ومن أهمِّ وسائل السلامة من كلِّ مكروه ومرهوب؛ ولهذا أمَر الله سبحانه وتعالى بالإكثار من ذِكره، ووَعَدهم عليه العظيم من فضله وأجره؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ ﴾ الأحزاب: ٤١

وأخبر سبحانه وتعالى أنَّ ذكرَه يُوجِب طمأنينةَ القلوب وخشيتها، ووجلها وإخباتها، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ٣٥ ﴾ الحج: ٣٤ – ٣٥، وأنَّه من أعظم أسباب العصمة والنصر على الأعداء في كلِّ ميدان؛ قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠١، وذِكْرُ الله سبحانه وتعالى يكون بالقلب؛ وهو إيمانه بالله سبحانه وتعالى وخضوعه له، واعتقاده بوحدانيَّته وبتفرُّده سبحانه وتعالى بالربوبيَّة والإلهيَّة، والكمال في

[1] مسند أحمد (15/ 145).
[2] رواه البخاري (2/ 111)، رواه مسلم (2/ 715).

الذات، والأسماء والأفعال والصفات، واستحضاره لعظمة ربه عَزَّوَجَلَّ ومحبته وخشوعه له، وخشيته وخوفه ورهبته منه، وذله واستسلامه له، ورغبته إليه، ورجاؤه إيَّاه، وصدق توكُّله عليه، ويكون بالجوارح والحواسِّ، وهو أداء العبادات العمليَّة، بامتِثال أمره ومباشرة طاعته، واجتناب نهيه والبعد عن معصيته، كلُّ هذا مِن ذِكرِه عَزَّوَجَلَّ.

ويكون ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باللسان تلاوةً لكلامه، وثناءً عليه بما هو أهله، ودعاءً له، وسؤالاً له من فضله، والاستعانة به، والاستعاذة به من سخطه، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ من خلقه، كلُّ ذلك ذِكرٌ.

فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حياة للقلوب، وعبادةٌ للألسنة، وتربية للنُّفوس، سواء كان وردًا مشروعًا، أو دُعاءً مَأثورًا، أو قُرآنًا يُتلَى، أو علمًا يُذاع، أو خيرًا يُؤمَر به، أو شَرًّا يُنهَى عنه، أو نصيحة تُسدَى، أو مشورة تُبذَل، أو فريضة تُؤدَّى، أو معصية تُتَّقَى، فمَن أخَذ به في وقته، وشغَل به نفسه عند مناسبته وسببه، فهو من الذاكرين لله عَزَّوَجَلَّ، الموعودين بالحظوظ الوفيرة، والأجور الكثيرة، فاعمروا أوقاتكم بذِكرِه عَزَّوَجَلَّ، فإنَّ الذكر مَظهَرٌ لشُكرِ نِعَمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمانٌ من الغَفلَة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحَياة للقلوب، وسببٌ لتحصيل خير المطلوب.

إن القلب ملك الجوارح، ولذلك فهو أهم ما يجب الاعتناء به، وللقلوب صدأٌ لا يجلوه إلا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولها أقفالٌ مفتاحها لهج اللسان بحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإدامة العبد لشكره، فالذكر جنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أرضه، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والذكر من أعطيه اتصل، ومن مُنعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه

صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به نار الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علاّم الغيوب، وهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون"[1]، **وقال ابن تيمية** ﷺ: "الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء"[2]

فالذكر يوصل الذاكر إلى المذكور، حتى يصبح الذاكر مذكورًا، زين الله ﷻ به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار المبصرين، وهو باب عظيم مفتوح بين العبد وربه ﷻ ما لم يغلقه العبد بغفلته، ولقد امتدح الله ﷻ عباده المؤمنين الذاكرين فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ ﴾ آل عمران: ١٩٠ – ١٩١.

إن أزكى الأعمال وخير الخصال وأحبَّها إلى الله ﷻ ذكر الله ﷻ، وهو حياة القلوب، فلا حياة لها إلا به، وليس للقلوب قرار ولا طمأنينة ولا هناءة ولا لذة، ولا سعادة إلا بذكر الله ﷻ، وذكر الله ﷻ هو الفرج بعد الشدَّة، واليسر بعد العسر، والفرح بعد الغم والهم، وهو تفريج الكربات، وتيسر الأمور، وتحقق الراحة والسعادة في الدنيا والآخرة، وما عولج كرب ولا أزيلت شدَّة بمثل ذكر الله ﷻ.

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 395).
[2] الوابل الصيب من الكلام الطيب ص 42

وذكر الله ﷻ جالب للنعم المفقودة، وحافظ للنعم الموجودة، فما استجلبت نعمة وما حفظت نعمة بمثل ذكر الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ إبراهيم: ٧،

ذكر الله ﷻ محطُّ الأوزار وتكفير السيِّئات ورفعة الدرجات، وعلو المنازل عند الله ﷻ، فما حُطَّت الأوزار بمثل ذكره ﷻ، قال النبي ﷺ: "ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله ﷻ"[1]

وذكر الله ﷻ غراس الجنة فما غرست الجنة بمثل ذكره، يقول ﷺ: "من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة"[2]

وذكر الله ﷻ هو الطارد للشياطين والمخلِّص من وساوسها وشرورها وكيدها وحبائلها، قال ﷻ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ فصلت: ٣٦

لا ذكر أعظم من ذكر الله ﷻ، ولا شيء يحتاجه العبد أكثر من حاجته لذكره ﷻ، فجنة الدنيا المتمثلة في طمأنينة القلوب وسكونها وأنسها وفرحها لا تكون إلا بذكره ﷻ ومن حاز جنة الطمأنينة في الدنيا فاز بجنة الرحمن ﷻ في الآخرة، قال ﷻ:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ الفجر: ٢٧ - ٣٠

[1] مسند أحمد (36/ 396)، سنن ابن ماجه (2/ 1245)، المعجم الكبير للطبراني (20/ 166)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 673).
[2] سنن الترمذي (5/ 511).

ومن أعرض عن ذكر الله ﷻ عاش حياة الضيق والضنك ولو أحاطت به المواكب، وحفت به المراكب، وملك الدنيا كلها، قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ طه: ١٢٤

ومن نظر في القرآن وجد أن الأمر بكثرة ذكر الله ﷻ تكرر في آياته، وجاء في سياقات عدة، ولم يأتِ في القرآن الأمر بالإكثار من شيء كالأمر بالإكثار من الذكر؛ وذلك لحاجة المرء إليه؛ فهو حياته وسعادته وأنسه؛ وهو عدته في مواجهة الفتن والمحن والابتلاءات، وهو فوزه في الآخرة، فما رتب على الذكر من الأجور لا يحصيه إلا الله ﷻ؛ ولأن الذكر لا يحتاج إلى كثير عمل وشغل واستعداد، فهو تحريك اللسان بالذكر، مع استحضار القلب لما يقول، ويستطيعه العبد في كل الأوقات، وعلى أي حال؛ لأن حركة اللسان والقلب لا يوقفها إلا صاحبها، ولا تعطله عن أعماله الأخرى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: " لا يفرض على عبادة فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ثم عذر أهلها في حال عذر غير الذكر فإن الله ﷻ لم يجعل له حداً ينتهي إليه ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله، فقال: ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴿١٠٣﴾ ﴾ النساء: ١٠٣، بالليل والنهار في البر والبحر في السفر والحضر في الغنى والفقر والصحة والسقم والسر والعلانية وعلى كل حال"[1]، **وقال مجاهد**: "الذكر الكثير أن لا تنساه أبداً."[2]

أكثروا من ذكره ﷻ في بيوتكم ووظائفكم وأسواقكم، وفي كل أحوالكم؛ فإن من أكثر من ذكر الله ﷻ في الأرض أكثر الله ﷻ من ذكره في السماء، فعن أبي هريرة

[1] الدر المنثور في التفسير بالمأثور (6/ 619).
[2] تفسير البغوي (6/ 360).

رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: " يقول الله سبحانه وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"[1]

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفًا"[2]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لأن أقعد مع قوم يذكرون الله منذ صلاة الغداة حتَّى تطلع الشمس، أَحَبُّ إليَّ من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أَقْعُدَ مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، أَحَبُّ إليَّ من أعتق أربعة"[3]، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل"[4]، **وقال ابن القيم** رضي الله عنه: "وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان، وكان من الأذكار النبوية، وشهد الذاكِرُ معانيَهُ ومقاصِدَهُ"[5]

فإن ذكر الله عز وجل نعمة كبرى، ومنحة عظمى، به تستجلب النعم، وبمثله تستدفع النقم، وهو قوت القلوب، وقرة العيون، وسرور النفوس، وروح الحياة، وحياة الأرواح. ما أشد حاجة العباد إليه، وما أعظم ضرورتهم إليه، لا يستغني عنه المسلم بحال من الأحوال، والمسلم الفطن لا يترك ذكر الله سبحانه وتعالى في كل أوقاته، بل يجعل ذكر الله عز وجل رفيقه في كل الأحوال؛ في الشدة والرخاء، في الفرح والترح، في الضيق والفرج.

[1] رواه البخاري (9/ 121)، رواه مسلم (4/ 2061).
[2] الوابل الصيب من الكلام الطيب ص 42
[3] صحيح أبي داود (2/ 698).
[4] شعب الإيمان للبيهقي (2/ 63).
[5] الفوائد لابن القيم ص 192.

"ومن فوائد الذكر أنه يطرد الشيطان ويقمعه، وأنه يرضي الرحمن ﷻ، وأنه يزيل الهم والغم عن القلب، وأنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط، وأنه يقوي القلب والبدن، وأنه ينور الوجه والقلب، وأنه يجلب الرزق، وأنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، وأنه يورثه المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ودار السعادة والنجاة، وأنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله ﷻ كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت، وأنه يورثه الإنابة وهي الرجوع إلى الله ﷻ، وأنه يورثه القرب منه فعلى قدر ذكره لله ﷻ يكون قربه منه، وأنه يورثه حياة القلب، وأنه قوت القلب والروح فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته، وأنه يورث جلاء القلب من صدئه، وأنه يحط الخطايا ويذهبها، وأنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى، وأنه غراس الجنة، وأنه أيسر العبادات وهو من أجلها وأفضلها، أنه ينجي من عذاب الله سبحانه وتعالى"[1]

فاذكروا الله سبحانه وتعالى يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، واستغفروه يغفر لكم، إنه هو الغفور الرحيم، وأكثروا من ذكره سبحانه وتعالى في جميع أوقاتكم وأحوالكم.

---

[1] نظرة النعيم (5/ 2010).

النصيحة الثانية عشر
قم الليل إلا قليلاً

لا شكّ أنّ صلاة قيام اللّيلِ من أعظمِ الطّاعات عند الله ﷻ، وهي كنزٌ عظيمٌ لمن أدركها، تتحصَّلُ فيها الطُّمأنينة والرِّضا، ويحصل فيها العبد على الأجر الوفير والخير الكثير، هي زاد العارفين وملاذ الخائفين، نورٌ في المحيّا ونورٌ في المِمات، وجنّةٌ لمن اعتادها، وراحةٌ لمن ارتادها، كيف لا وهي التي تشهدها الملائكة وتكتبها السَّفرة الكِرام البررة.

إن قيام الليل سُنّة الأنبياء والمرسلين، ودأب الصالحين والمخلصين، فيه يوزع الله ﷻ عطاياه خاصّة الثلث الأخير من الليل، فالذين قاموه وحرموا أنفسهم لذّة النوم وراحة البدن لهم الحظ الأوفر من هذه العطايا والمكرمات، في حين من تكاسل وأخلد إلى النوم وآثر دنياه على آخرته فقد خسر من الخير الشيء الكثير.

إن أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة قيام الليل، وقد حافظ رسولنا ﷺ على قيام الليل، فكان يقومه حتى تتفطّر قدماه ليشكر الله ﷻ على نعمائه وفضله مع أنّ الله ﷻ غفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخّر، حتى استحقّ بذلك أعلى المنازل وأرفع الدرجات في الدنيا والآخرة، وكان ينصح أصحابه بالحفاظ عليه، وعدم التكاسل والفتور في أدائه، فعن عبد الله بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لِي رسول الله ﷺ: "يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل"[1]

ولقد علم العارفون أنَّ قيامَ الليل مدرسةُ المخلصين، ومضمارُ السابقين، وأنّ الله ﷻ إنما يوزّع عطاياه، ويقسم خزائن فضله في جوف الليل، فيصيب بها من تعرض لها

[1] رواه البخاري (2/ 54)، رواه مسلم (2/ 814).

بالقيام، ويحرم منها الغافلون والنَّيام وما بلغ عبدٌ الدرجات الرفيعة، ولا نوَّر الله ﷻ قلباً بحكمة، إلاّ بحظ من قيام الليل.

والسرُّ في ذلك أن العبد يمنع نفسه ملذّات الدنيا، وراحة البدن، ليتعبّد لله ﷻ، فيعوضه الله ﷻ خيراً مما فقد، وذلك يشمل نعمة الدّين، وكذلك نعمة الدنيا، ولهذا **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "وأربعة تجلب الرزق: قيام الليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وتعاهد الصدقة، والذكر أول النهار، وآخره"[1]

وقال أيضاً: "ولا ريب أنَّ الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن، وإذابة أخلاطه، وفضلاته، ما هو من أنفع شيء له، سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان، وسعادة الدنيا، والآخرة، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن، والروح، والقلب"[2]

ولهذا لا تجد أصح أجساداً من قوَّام الليل، ولا أسعد نفوساً، ولا أنور وجوهاً، ولا أعظم بركة في أقوالهم، وأعمالهم، وأعمارهم، وآثارهم على الناس، وقوَّام الليل أخلص الناس في أعمالهم لله عز وجل، وأبعدهم عن الرياء، والتسميع، والعجب، وهم أشدّ الناس ورعاً، وأعظمهم حفظًا لألسنتهم، وأكثرهم رعاية لحقوق الله ﷻ، والعباد، وأحرصهم على العمل الصالح، وكان ﷺ لم يترك هذه السُّنَّة قطُّ في حياته؛ لا في مرض، ولا في كسل، ولا في غيره، وهي سُنَّة قيام الليل؛ فعن عبد الله بن أبي قيس

---

[1] زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم (378/4)

[2] زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم (4/ 226 – 227)

يقول: قالت عائشة رضي الله عنها: "لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً."[1]

فإن قيام الليل هو دأب الصالحين، وتجارة المؤمنين، وعمل الفائزين، ففي الليل يخلو المؤمنون بربهم عز وجل، ويتوجهون إلى خالقهم وبارئهم، فيشكون إليه أحوالهم، ويسألونه من فضله، فنفوسهم قائمة بين يدي خالقها، عاكفة على مناجاة بارئها سبحانه وتعالى، تتنسم من تلك النفحات، وتقتبس من أنوار تلك القربات، وترغب وتتضرع إلى عظيم العطايا والهبات.

فإن قيام الليل عبادة جليله وقربة عظيمة وشريعة ربانية وسنة نبوية وخصلة حميدة ومدرسة إيمانية وخلوة برب البرية سبحانه وتعالى ومع كل هذه الخصال الحميدة والصفات المجيدة فإن هذه الشعيرة الجليلة قل الراغبون فيها وأصبحت عند كثير من الناس نسياً منسياً، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "أتاني جبريل فقال: يا محمد! عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل وعزه استغناؤه عن الناس"[2]

إن قيام الليل من أفضل الطاعات بعد الصلوات المفروضات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل"[3]، وعن صهيب بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

[1] مسند أحمد (43/ 218)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 452)، السنن الكبرى للبيهقي (3/ 21)، مسند أبي داود الطيالسي (3/ 113)، الأدب المفرد للبخاري (1/ 279).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 125)، المستدرك في الصحيحين للحاكم (4/ 324 - 325).
[3] رواه مسلم (2/ 821).

"صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمساً وعشرين"[1]

قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: "ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ السجدة: ١٦ - ١٧ "[2]، وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: "أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن"[3]، وقربه سبحانه وتعالى من عبده الذاكر في جوف الليل هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وقرة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلها.

إن قيام الليل يطرد الغفلة عن القلب، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين"[4]

كما أنها شهود لنزول الرحمن سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ينزل ربنا سبحانه وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟"[5]

---

[1] مسند الفردوس للديلمي (2/ 244)، شعب الإيمان للبيهقي (3/ 173).
[2] سنن ابن ماجه (2/ 1314)، سنن الترمذي (5/ 12).
[3] سنن الترمذي (5/ 569).
[4] سنن أبي داود (1/ 387)، صحيح ابن حبان (6/ 310)، شعب الإيمان للبيهقي (3/ 494).
[5] مسند أحمد (16/ 211)، سنن الدارمي (2/ 929)، رواه البخاري (2/ 53)، رواه مسلم (1/ 521)، سنن الترمذي (5/ 526).

كما أن قيام الليل يورث سكنى غرف في الجنان، فعن علي بن أبي طالب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة لغرفاً يُرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها، فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: هي لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام"[1]

كما أنه تعمل على الفوز بمحبه الله ﷻ، فعن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم - وذكر من بينهم - والذي له امرأة حسناء وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول: يذر شهوته ويذكرني ولو شاء رقد"[2]

قيام الليل سبب لمباهاة الملائكة، فعن ابن مسعود ﵁: عن النبي ﷺ قال: "عجب ربنا ﷻ من رجلين: من رجل ثار من لحافه وفراشه من بين حبه وأهله إلى صلاته فيقول الله لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي هذا قام من بين فراشه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيها عندي وشفقة مما عندي"[3]

كما أن في قيام الليل يستجاب الدعاء، فعن عبادة بن الصامت ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "من تعار[4] من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال: اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له فإن توضأ قبلت صلاته"[5]، فإن أجر القائم على حسب نيته، فعن أبي الدرداء ﵁ عن

---

[1] سنن الترمذي (4/ 673)، الصحيح الجامع (2/ 220).
[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 77).
[3] مسند أحمد (7/ 61)، صحيح ابن حبان (6/ 297)، المعجم الكبير للطبراني (10/ 179)، السنن الكبرى للبيهقي (9/ 276).
[4] تعار: انتبه وهو يسبح أو يستغفر أو يذكر الله ﷻ بأي ذكر.
[5] رواه البخاري (2/ 54).

النبي ﷺ قال: "من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم فيصلي من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه ﷻ."[1]

قيام الليل طريق الصالحين، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة للإثم"[2]

فقيام الليل هو دقائق الليل الغالية، وسَمِّه – إن شئتَ– مدرسة المخلصين، كيف لا وهو جنَّة الله ﷻ في أرضه للمؤمنين؟ الليل هو بداية الدعوات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ المزمل: ١ - ٢، ومنه يَستمد الدُّعاة وقودَ دعوتهم.

في الليل تُسْكَب العَبَرات، وفي الليل يُتَقَرَّب إلى الله سبحانه وتعالى بأحسن الطاعات، الليل للمُذنبين وللذين هم لِما عند ربِّهم ﷻ طامعين، فهو أنيسُ الطائعين، وأمَلُ المذنبين، وبالليل يتمُّ لقاء المحبِّين، الليل يَعشقه الراكعون والساجدون والذاكرون، والذين هم لربِّهم ﷻ مُستغفرون، الليل فيه آيات للذين هم يَسمعون، الليل للذين هم بالخيرات مُسارعون، وهو خلوة التائبين، في الليل أقربُ ما يكون الله سبحانه وتعالى من عباده المؤمنين، بهذا نطَقَ سيِّد المرسلين ﷺ، وفي الليل يَغفر الله سبحانه وتعالى للمُسيئين، ويُعطي المحتاجين والسائلين من خزائن السموَات والأرَضين، ويُجيب المضطرين، الليل فقط يَعرفه المتيقِّظون، ويَغفل عنه أصحاب المجون اللاهون، ولا يَستطيعه إلاَّ عباد الله ﷻ المخلصون، هو كَنز المدَّخرين إلى يوم الدين، وبالليل يُحصَّل الآمانُ

[1] سنن ابن ماجه (1/ 426)، السنن الكبرى للنسائي (2/ 178)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 455)، السنن الكبرى للبيهقي (3/ 22)، سنن النسائي 3/ 258).

[2] سنن الترمذي (5/ 553)، المعجم الكبير للطبراني (8/ 92)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 451)، السنن الكبرى للبيهقي (2/ 707).

للخائفين، في الليل تَجري العيون، ويَتسابق فيه المتسابقون؛ ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]، هو للذين عن النار يَبتعدون، وللجنان يتقرَّبون، قيام الليل فَقِهه سلفُنا الأوَّلون، فأين الذين هم من بعدهم للسِّباق يهرعون، وعن الدنيا وزينتها يَبتعدون، ومن الفتن لا يَقتربون، أصحاب الليل جُنوبُهم عن المَضاجع تَجافَت، وقلوبهم عن مطامع الدنيا تناءَت، وهِمَمهم عن سفاسف الأمور ارْتَفَعت، تَراهم باكين مُخبتين.

هذا هو الليل، أمَّا عن أصحاب هذا الليل وصفاتهم وأحوالهم، فهي كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٨]، فنالُوا بذلك جنات وعيونًا، وما كلُّ هذا إلاَّ لأنهم باتُوا لربِّهم عز وجل سُجَّدًا يتضرَّعون، فالليل هو من سمات الصالحين.

فإنَّ من أفضل الأعمال وأجلِّ الطاعات التي رغَّب فيها الشارع قيامَ الليل، فهو دَأْبُ الصالحين، وتجارة المؤمنين، ففي الليل يخلو المؤمنون بربهم عز وجل، فيشكون إليه أحوالهم، ويسألونه من فضله، فهم عاكفون على مناجاة ربهم عز وجل، يرغبون ويتضرعون إلى واهب الخيرات، وعظيم العطايا والهبات سبحانه وتعالى.

فإن قيام الليل عبادة عظيمة، وسنة جليلة، وصفة كريمة، من اتصف بها كان من الفائزين السعداء، ومن تحلى بها كان من المتقين النبلاء؛ لأنه لا يقدر عليها إلا الموفق الكريم، الذي زكت نفسه، وصفت طويته، وطهرت سريرته، واستقامت

علانيته، لذلك وصف الله ﷻ بها عباده الأخيار الأتقياء، والصالحين من عبادة الأتقياء، الذين اختصهم الله ﷻ لنفسه وأنعم عليهم ﷻ بعبوديته فقال ﷻ:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣ - ٦٤، فما من عبد يفتح الله ﷻ عليه باب قيام الليل إلا فتح له أبواب الرحمات، وهيأ له سبيل البركات، لأنه شأن الصالحين، وأدب أولياء الله ﷻ المتقين، كما ذكر الله ﷻ في كتابه المبين الذي أنزله على سيد الأولين والآخرين ﷺ، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ آل عمران: ١٦ - ١٧، حتى إن الله ﷻ لما أراد إن يبين عظيم منزلة قيام الليل، وأنه مفتاح كل خير للعبد، أول ما أمر الله ﷻ به نبيه ﷺ في صبيحة الوحي قال له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ المزمل: ١ - ٤

وهذا يدل دلالة واضحة جلية على أن قيام الليل فيه أمور عظيمة تكون سببًا في سعادة العبد في ديناه وآخرته.

كما جعل الله ﷻ قيام الليل سببًا في هبات الآخرة، مع أنه سبب في صلاح دين العبد في دنياه، فإنه سبب في هبات الله ﷻ ونعمه وخيره للعبد في أخراه، قال ﷻ:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ الإسراء: ٧٩، فجعل الحق ﷻ المقام المحمود مقرونًا بقيام الليل، وهذا يدل على عظيم ما في القيام، لذا **قال بعض العلماء**: "عجبت من الليل كيف جعل الله ﷻ فيه هذه الخيرات العظيمة!"

إن قيام الليل من أحب الأعمال إلى الله ﷻ، ولما سئل ﷺ عن أفضل الساعات قال: "جوف الليل الآخر"[1]، فهذا يدل على فضل قيام الليل.

إن الليل ميدان أصحاب الهمم العالية، أصحاب العبادات والدعوات أما الذين يحبون الدنيا فهممهم صغار ومطالبهم دنيّة، ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ ﴾ الإنسان: ٢٧، لذلك **قال أحد السلف**: "كيف يرجو النجاة من سوء الحساب من ينام الليل ويلهو بالنهار؟!!"[2]، فماذا نقول لمن قد استغرق الليلَ بلهوه والنهارَ بنومه، نعوذ بالله ﷻ من الخذلان.

قيام الليل وما أدراك ما قيام الليل، إنه سنّة الانبياء والعظماء، والأصفياء، التي تَخَرَجَ فيها صفوةُ الصفوة من الأوّلين، والآخرين، ولو لم يكن في قيام الليل من الفضل إلاَّ أن الله ﷻ ربط به تشريف محمد ﷺ بالمقام المحمود، لكفاه شرفاً وفضلاً، وقد علم العارفون أنَّ قيامَ الليل مدرسةُ المخلصين، ومضمارُ السابقين، وأنّ الله ﷻ إنما يوزّع عطاياه، ويقسم خزائن فضله في جوف الليل، فيصيب بها من تعرض لها بالقيام، ويحرم منها الغافلون والنّيام وما بلغ عبدٌ الدرجات الرفيعة، ولا نوَّر الله ﷻ قلباً

---

[1] مسند أحمد (32/ 177)
[2]

بحكمة، إلاّ بحظ من قيام الليل، فهو من أفضل العبادات التي ترفع الدرجات، وتزيد في الحسنات، وتكفر السيئات، وتقرب من رب البريات ﷻ، فيجد من يصلي قيام الليل ثمار ذلك في نفسه وحياته ومنها:

1. الإخلاص لله ﷻ في الأقوال والأعمال، والابتعاد عن الرياء.
2. التواضع وعدم العجب والكِبر والورع.
3. سعادة النفس والروح والقلب.
4. جلب الأرزاق والخيرات.
5. سعادة الدنيا والآخرة.
6. قوّة البدن ونشاطه وزيادة صحته.
7. الحماية من العديد من الأمراض المزمنة.
8. نور الوجه.
9. نشاط القلب وزيادة إقباله على الطاعات والعبادات.
10. البركة في الوقت والعمل والعمر.
11. التأثير الإيجابي على الناس.
12. أداء الحقوق والواجبات لله ﷻ وللعباد.
13. حفظ اللسان والجوارح.
14. الحرص على العمل الصالح.
15. سبب من أسباب دخول الجنة.
16. سبب من أسباب رحمة الله عزّ وجلّ.
17. تكفير للذنوب والسيئات ورفع للدرجات.

فلْيحرص كل مؤمن على هذه العبادة الجميلة، كلٌّ حسب طاقته، وكن من الذين ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة: ١٦

النصيحة الثالثة عشر
كن من أولوا العلم

العلم هو أجل عمل أنزله الله ﷻ في كتابه وأعظم أجر وصفه الله ﷻ لعباده به النجاة والعلو في الدنيا وأرفع المراتب وأجلها بالأخرة مهما خطت الأقلام من الصحف فلن توفي العلم مقامه فهي تقف منكسرة أمام عظمته ومهما أُلفت فيه الكتب فهي تقف فقيرة أمام عزته، العلم هو أسمى من أن يُعرف وأجل من أن يُوصف وأغنى من أن يُدل عليه فهو أصل كل شيء وأساسه وغرة كل أمر وزمامه، العلم كنز لمن ملكه وحرز لمن حفظه وغطاء لمن فهمه ومنارة لمن علمه وهدى لمن أدركه وسعادة لمن تمسك به وسروراً لمن تعلمه فهو بهجة القلوب وراحته به تسعد النفوس وتتعاون فيما بينها فينتشر العدل في المجتمع ويخيم الأمن فتقل الجرائم، فالعلم مصنع العقول والنور الذي يهتدي به الناس للتقدّم، وهو أساس نموّ الحضارات والدول؛ لأنه يُمهّد الطريق لاستكشاف كلّ ما هو مفيد للإنسان.

العلم رفيع القدر عزيز النفس لا يقبل التكبر ولا يرتضيه فهو كالنهر للمكان العالي لا يستقر عليه ولا يلبث، فمن تواضع رفعه العلم ومن تكبر ذله وأرداه في أسفل، والعلم هو الأدب فمن خطب العلم قبل الأدب زل ومن أراد العلم قبل الأدب لم ينله؛ لأن العلم مهره ثمين لا يمكنه التنازل عنه ولا المساومة فيه، وهو منارة السالكين وهدى السائلين ومدرج السائرين ومهبط الطلاب وملاذهم به تُرفع الجهالة وتنكشف الغياية وتضمحل الظلالة لا مرتع للظلم فيه ولا مسكن الظلمة إليه ولا مأوى للمتكبرين فيه، العلم مدلل يؤتى ولا يأتي صاحبه لا ينظر لمن طلبه وينتظر

من يضحي من أجله كلما كان الطالب مغرماً فيه كلما نهل منها وكلما نهل منه فهو متعطشٌ له لا يصل حد الارتواء ولا الشبع فهو مدلل لا يعطي الطالب كله حتى يبذل للعلم كله.

والعلم أقوى من المعارك بسيوفها وأجل من الرماح بوطأتها تسن فيه الأقلام وتثبت على الأقواس لتنطلق أشد من انطلاق السهام لتصيب الباطل وترديه قتيلاً فينتصر العلم بجهاد الحجة والبيان الذي يزيل كل شبهة فينزعها كما يُنزع الشوك من الصوف ولا يذرها لما لها من أثر خبيث.

فهو البحر في سعته مهما غرفت منه فلن تُنقص منه شيء وهو النهر في اندفاعه فهو يسير بعشق لمن طلبه وضحى من أجله، وهو صيد لمن أدركه وعثر عليه فقيّده وحفظه، وهو الشمس التي تأتي بعد ظلمة لتزيل الباطل وتظهر الحق وهو السماء بعلوه ومكانته فمن حاز العلم ارتفع وارتقى درجة درجة حتى يصل إلى السماء، وهو البئر الذي لا ينضب ولا يملّ من العطاء وهو الأخلاق الحميدة التي تكسب الناس بأفضل ما لديها ليتعاملوا بها، وهو أساس العمل فأي عمل من غير علم ضلالة فقد غضب الله عَزَّ وَجَلَّ لعمل أقوامٍ بغير علم فوصفهم بالضالين عن صراطه المستقيم، فالعلم هو النور والبصيرة للعمل به تزول الحجة وتنتفي الجهالة وترتفع منارة العدل فيسود بين الناس ويصبح من خصائصهم بل العلم ينتشر الأمن ويسود الاستقرار فلا مكان للظلم ولا حاجة به.

العلم هو ميزان الحق وهو ميراث الأنبياء ودرة الأصفياء وربيع القلوب وشفاء الروح وغذاء العقول وبلسم الجروح فهو يمد الجسم بالطاقة لكي يتطور ويصبح إيجابياً والعلم رفعة للدراجات فهو سلم التميز الذي يرتقيه الطالب لكي يصل إلى المعرفة

الصحيحة والمعلومات المفيدة التي تُعينه على قضاء حوائجه واستمرار تقدمه فيدخل سلك التعليم في المجال الذي يطمح إليه دون عناء ومشقة.

إن أجر العالم كبير عند الله ﷻ فهو من يرفع بالعلم الجاهلة ليدلهم إلى الطريق الصواب ويستدلوا به على الله ﷻ خالق كل شيء فهو يُعلم الناس أمور دينهم ويفقههم بها ويحل لهم مسائلهم التي يقعوا بها فلا يذرهم في تخبط ولا حيرة.

العلم أصول وقواعد وفهم صحيح للمبادئ فهو صحيح لا يحمل إلا حقاً ولا يحمل أي شبهة وجلي لا يشوبه شيء، العلم لا يقبل الجهل بكل أنواعه ولا يقبل التخلف بصوره وأشكاله ولا يرضى باليأس بكل مشاعره فهو الهدى لمن أرد النور لمن طلب، والعلم متى طلبته وجدته لا يُستأذن ولا يمنح ولا يُهدى ولا يُباع ولا يُشترى فهو عطاء من الله ﷻ للجميع وحجة على كل من نهل منه أن يبلغه ويعلمه ويبينه ويوضحه.

فالعلم يبني بيوتاً لا عماد لها والجهل يهدم بيت العز والكرم، فالعلم تاج المعرفة ونور الإيمان وحلاوة التقوى به يتفكر العبد بما خلق الله ﷻ في الكون من آيات جليلة ومعانٍ عظيمة لذا يجب على العبد ألا يمل من طلب العلم فإن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم فهنيئاً لك يا طالب العلم.

العلم هو السرّ العظيم الذي يُمسك بيد الأمم والشعوب ليخرجها من جهلها وظلامها إلى حيث نور المعرفة، فهو الأيقونة الخالدة التي تُزين جبين الزمن، والتاج الذي يوضع فوق رؤوس أصحابه ليُكسبهم الهيبة العظيمة، فلولاه لما تطورت الحياة ولما سارت عجلة الإنجازات، فهو صاحب الفضل الكبير في كل ما وصل إليه العالم

من إنجازاتٍ فذة في جميع الأصعدة والمجالات، جاء العلم مثل البلسم الشافي كي يُسهل دروب الحياة أمام جميع الناس.

أن الله ﷻ أمر عباده بالتعلّم وطلب العلم، ووعد من يسلك درباً لالتماسه بالأجر العظيم، وقد جعل الله ﷻ مكانة العلماء كبيرة، كما قال الرسول ﷺ عنهم بأنهم ورثة الأنبياء، وحث الناس على الاجتهاد في طلبه وتخطي جميع العقبات، ولو كان هذا في آخر الدنيا، فالارتحال من أجل طلبه جهادٌ في سبيل الله ﷻ.

مهما جمع الإنسان من مال فلن يُغنيه هذا عن التعلّم؛ لأن التعليم لم يكن في شيءٍ إلا زانه وزاده جمالاً وروعة، فالإنسان الجاهل يظلّ يشعر بالنقص إلى آخر عمره إن لم يدرس ويجتهد ويُحقق لنفسه مكانة عالية، وشتّان بين من يسعى في تحقيق ذاته وتعليمها وبين من يعتبر التعليم شيئاً من الكماليات.

وللعلم مكانةٌ كبيرة في الدّين، وقد أمر الله ﷻ عباده بطلب العلم ورفع درجات العلماء وخصّهم بالأجر والثواب، خصوصًا أولئك الذين يخترعون ما يُفيد البشرية، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ٢٨﴾ فاطر: ٢٨، وهذا دليلٌ على عظم منزلة العلماء وفضلهم على الناس، لهذا جعل الله ﷻ لطالبي العلم مكانة عظيمة، وجعل طلب العلم فريضة، كما سهّل الله ﷻ درب طلّاب العلم وجعله ميسرًا؛ لأنّ طلب العلم من أسمى الأشياء وأكثرها قيمة، فللعلم مكانة دينية ودنيوية ينبغي أن يسعى الجميع لبلوغها، وأن يكونوا ضمن طلبة العلم مهما كان عمرهم وظروفهم، فطلب العلم يكون من المهد إلى اللحد، كما أنّ فضل العالِم أكبر من فضل العابد، بل هو مثل فضل القمر ليلة البدر على الكواكب جميعها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أن العلم هو ذلك السلاح الذي لابد أن يمتلكه كل الناس، لكي يتخلص من الأوهام، فالعلم هو الشافي من كل الأوهام والسموم، وأن الدين الاسلامي دين العلم فقد عرف الله ﷻ بالعلم، وبرفع الله ﷻ الناس درجاتهم بالعلم، قال ﷻ:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ الزمر: ٩، وقال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلم"[1]، ولقد وصى النبي ﷺ بالتعلم والبحث وراء العلم؛ لأنه فريضة نظراً لأهمية العلم والعلماء.

وطلب العلم ليس له سن معين فطلب العلم من المهد الى اللحد، لهذا فإن للعلم مقام عظيم وأهل العلم هم ورثة الانبياء، وفضل العالم على العابد كما بين السماء والارض.

العلم من أجل نعم الله ﷻ علينا؛ منحه الله ﷻ ومدحه وكرم أهله وأجزل لهم العطاء، ورفع لهم الدرجات، فهو هداية ورحمة ونور وعصمة، وسمو ورفعة.

قال ﷻ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴿١١﴾ ﴾ المجادلة: ١١، فما أعظم طلب العلم الشرعي، وما أعلى شأن صاحبه عند الله ﷻ، فكل من في السموات والأرض يستغفر لطالب العلم؛ لأن قام بعمل لا يقوم به إلا المتقون الخائفون من ربهم ﷻ، الذين يعرفونه حق المعرفة، فلذلك هم يتسابقون في ميدان كسب الحسنات، ونيل رضى رب الأرض والسموات ﷻ، ولن يدرك أي مسلم هذه الخصلة العظيمة إلا إذا واظب على طلب العلم الشرعي المستمد من

[1] سنن ابن ماجه (1/ 81)، المعجم الأوسط للطبراني (2/ 289).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكتاب والسنة المطهرة، وجاهد نفسه، وقمع شيطانه، وهجر الدنيا وزخرفها، وتعلق بما عند الله سبحانه وتعالى.

فياله من فضل ما أعظمه، ويا له من أجر ما أوفره، ويا له من ثواب ما أجزله، كيف لا وقد وعد الله سبحانه وتعالى العلماء بتلك العطايا والهبات، فله سبحانه وتعالى أعظم منة وحمد، وله الشكر بلا حد.

فإن العلم من نعم الله سبحانه وتعالى التي أنعم الله عز وجل بها علينا، فهو الخير والهداية والبركة والرفعة، ومدحه الله عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، بل أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بأن يطلب الاستزادة منه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤

فالعلم هو النور الذي يُخرِج الناس من ظلمات الجهل وهو الوسيلة الناجحة للبناء والارتقاء فضلاً عن أنه الطريق الموصل إلى الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده"[1]

إنَّ هذا العلم نورٌ يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب العبد إذا رغب في تحصيله، وسلك سبيله، وأخلَصَ لله عز وجل قصده، واستَفرَغ في طلبه وقتَه وجهدَه، فإذا استَقَرَّ ذلكم النورُ في القلب صلح به القلب، وانشَرَح به الصدر، واطمأنَّت به النفس، فطابَت الأقوال، وصلحت الأعمال، وحسُنَت السَّرِيرة، وجملت السيرة، فصار صاحبُه إمامَ هدًى يُقتَدَى به إلى آخِر الدهر، ولا يعلَم إلا الله سبحانه وتعالى ما له عنده من كرم الذخر وعظيم

[1] رواه مسلم (4/ 2074)، مسند أحمد (12/ 393)، سنن ابن ماجه (1/ 82).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأجر، فتعلَّموا العلمَ تُعرَفوا به، واعمَلُوا به تكونوا من أهله، فما عُبِد اللهُ ﷻ بعد الفرائض بشيءٍ أفضلُ من العلم، قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: " تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله ﷻ خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلم صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار أهل الجنة، والأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والدين عند الأجلاء، يرفع الله ﷻ به أقواماً، ويجعلهم في الخير قادة وأئمة، تقتبس آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى الحيتان في البحر وهوامه، وسباع الطير وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلم، يبلغ بالعلم منازل الأخيار، والدرجة العليا في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، به توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، إمام العمال، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء"[1]

إنَّ الله ﷻ يَرفَع بهذا العلم أقوامًا فيجعلهم قادة يُقتَدى بهم في الخير، ويُهتَدى بهم إلى طريق الجنَّة، يظهر بهم الدين ويعتزُّ بهم، وتُؤثَر عنهم السنن، وتُقمَع بهم البِدَع، ويُهلَك بهم أهلُ الباطل، فهم أئمَّةٌ أحياء وإنْ كانوا تحت الثَّرَى.

فقد مات أرباب الأموال؛ والعُلَماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، وأقوالهم مشهورة، وسِيَرهم مأثورة، فنعم العلم النافع خليل المؤمن، يكسبه الطاعة لربه ﷿ في حياته، وجميل الأحدوثة بعد مماته، عمله

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 238)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

موصول، والدعاء له ما بقي الدهرُ مأمول، ويستغفر له كلُّ شيء، وينتَفِع ما انتَفَع من عمله الحي.

فاطلُبُوا هذا العلم تحصلوا على جليل المنافع، وأربح البضائع، لا سيَّما وقد يسَّر الله ﷻ لكم من فضله سبله، وهيَّأ لكم وسائله، فقد شاع العلمُ في هذا العصر، وذاع وبلَغ ما بلَغ الليل والنهار، وأمكن استماعه من سائر الأقطار، بما هيَّأ الله ﷻ من الأسباب؛ يسير فوق الرياح، ويسمع في معظم البلدان في الغدو والرَّواح، يدخُل خفي البيوت سائر الأوقات، ويسرح مع الناس في الفلوات، تسمع منها الدروس والخطب والعِظات، تعلم بها الفتاوى في الأمور المهمات، فقد والله عظُمَت الحجَّة واتَّضحت المحجَّة.

ويتميز العلم بلذته التي لا تُعادلها أيّ لذة من لذائذ الدنيا الزائلة، حيث **يقول الإمام الشاطبي**: "فإن في العلم بالأشياء لذة لا توازيها لذة؛ إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم والحوز له، ومحبة الاستيلاء قد جبلت عليها النفوس وميلت إليها القلوب، وهو مطلب خاص، برهانه التجربة التامة والاستقراء العام؛ فقد يطلب العلم للتفكه به، والتلذذ بمحادثته، ولا سيما العلوم التي للعقول فيها مجال، وللنظر في أطرافها متسع، ولاستنباط المجهول من المعلوم فيها طريق متبع"[1]

ولقد جعل النبي ﷺ تمنّيَ العلم والتنافس فيه أمرًا شرعيًّا، فقال: "لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسُلِّط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها"[2]

---

[1] الموافقات للشاطبي (1/ 86).
[2] مسند أحمد (7/ 183)، رواه البخاري (1/ 25)، رواه مسلم (1/ 559)، سنن ابن ماجه (2/ 1407).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فإن العِلْمَ يُزَكِّي صاحبه ويرفع قدره ويشعره دوام الغنى بحاجة الناس إليه وإقبالهم عليه، والعالِمُ الصالح العامل السائر على منهاج وطريق الهداية دُرَّةٌ يتيمةٌ في كل زمانٍ ومكانٍ، وخصوصاً هذه الأيام التي زادتْ فيها مرابِحُ الدُّنْيا المقْبلة على الملصقين بالعلم والمتَنَاهِبينَ أماكنَ العُلماءِ غَدْراً وأَشَراً.

العلم خير وأفضل من المال، قال علي بن أبي طالب ﵁ لرجل من أصحابه: يا كميل: "العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق"[1]

ونحن أحوج للعلم أكثر من الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب نحتاجه مرة أو مرتين في اليوم، ولكن العلم نحتاجه على طول العمر، **قال الإمام أحمد** ﵁: "الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه"[2]

يا طالب العلم يكفيك شرفاً أن شهادتك مقرن مع شهادة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ آل عمران: ١٨، **قال ابن القيم** ﵀: "استشهد الله ﷻ بأهل العلم على أجل مشهود به وهو التوحيد وقرن شهادتهم وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه ﷻ لا يستشهد بمجروح"[3]

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 79).
[2] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 440).
[3] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 441).

فطلب العلم أفضل من صلاة نافلة، **قال الشافعي** رضي الله عنه: "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة"[1]

"ومن فوائد العلم أنه به يعرف الله سبحانه وتعالى ويعبد ويوحد، وهو أساس صحة الاعتقادات والعبادات، وطلبه عبادة، وهو طريق الوصول إلى الجنة، ويكسب صاحبه الخشية لله عز وجل، ويكسب صاحبه التواضع للخلق، وينتفع به صاحبه وينتفع به غيره ممن علمه، ويبقى أجره بعد انقطاع أجل صاحبه، ويورث صاحبه أعلى المراتب بعد الأنبياء، ويرفع الوضيع ويعز الذليل ويجبر الكسير، وهو دليل حب الخير للآخرين لحرص صاحبه على إخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم، به توصل الأرحام وتؤدى الحقوق"[2]

فتعلَّموا العلمَ تُعرَفوا به، واعمَلُوا به تكونوا من أهله، فما عُبِدَ اللهُ سبحانه وتعالى بعد الفرائض بشيءٍ أفضلُ من العلم.

[1] مسند الشافعي (4/ 72)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (9/ 119)

[2] نظرة النعيم (7/ 2982).

النصيحة الرابعة عشر
واعملوا الصالحات

يسعى المسلم للوصول إلى رضى الله ﷻ ومحبته، فيقوم بجميع ما أمره الله ﷻ به، ويبتعد عن جميع ما نهى عنه، وإن الأعمال الصالحة التي يمكن للعبد التقرب من خلالها إلى الله ﷻ كثيرةٌ ومتعدّدة، فمنها ما يكون بالفعل الجسدي، ومنها ما يكون بالقول، ومنها ما يكون منشأه القلب، ومنها ما يكون فعلاً ماليّاً مُطلقاً.

يحتاج المسلم في حياته إلى العمل الصالح، واحتياجه إليه أشد من حاجته إلى الهواء والطعام والشراب، فالماء والهواء والطعام هي قِواه في الدنيا، أما العمل الصالح فهو السبيل إلى سعادة القلب في الدنيا، والنجاة في الآخرة، والإيمان بلا عمل صالح هو ادّعاء وافتراء لا يمكن تصديقه، ولا ينفع صاحبه أمام الله ﷯ يوم القيامة ولا ينجيه من عذابه، ولا بد للعمل أن يتّصف بالصلاح حتى يكون مقبولاً عند الله ﷻ، فبعض أهل الملل من يفني حياته في العبادة، ومع ذلك لا تنفعه عند الله ﷻ، وهم الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ ﴾ الكهف: ١٠٤، فهؤلاء يبذلون الجهد وهو ليس بشيء عند الله ﷯؛ لأنه لم يتّصف بالصلاح، فلا بد للمسلم أن يحرص دائماً على أن يكون عمله صالحاً، وقد أقسم الله ﷻ على خسران الإنسان، فقال ﷻ:

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣ ﴾ العصر: ١ – ٣، فلا مُنجّي من الخسران إلا بالعمل الصالح مع الإيمان.

والعمل لا يكون صالحاً إلّا حين يكون موافقاً لشرع الله عز وجل، وحين يريد فاعله به وجه الله سبحانه وتعالى، وعليه فكل عمل مخالفاً لشرع الله عز وجل، وقام به فاعله لغير وجه الله سبحانه وتعالى فهو عمل غير صالح، ويجب توافر هذين الشرطين معاً في العمل دون فقد أحدهما، فهما الركنين الذيْن يقوم عليهما العمل، ولقد أمَر الله سبحانه وتعالى به أنبيائه ورسله عليهم السلام، وما كانوا مأمورين به فهو أمر لجميع البشر كذلك؛ لأنهم القدوة والواسطة بينهم وبين الله عز وجل، ومعرفة العمل الصالح سبب للازدياد منه، ومعرفة ما يتطلبه وما يبطله ويجعله منقوصاً سبب للمحافظة عليه، فمن الناس من يكثر من الأعمال الصالحة وتذهب حسناتهم إلى غيرهم بغيبة أو نميمة أو شتيمة، فالعامل من يكثر من أعماله الصالحة، ويحافظ عليها من النقصان؛ لتنفعه في الآخرة.

إن العمل الصالح هو الغاية والهدف والحكمة من خلق السماوات والأرض، وما فيهما من الحياة والموت، وما على الأرض من زينة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ٧ ﴾ هود: ٧، وعليه فإن المحافظ المستمر على العمل الصالح هو الرابح بالتجارة مع الله سبحانه وتعالى، والمقصّر فيه هو الخائب والخاسر في الدنيا والآخرة، والعمل هو كل ما يقوم به المسلم قاصداً له؛ من نية القلب، وإرادة

الشيء، والميل نحوه، والحركة، والقول، والسكوت، وللعمل الصالح الذي جاء بناءً على الإيمان فضائل وثمرات وأجوراً كبيرة أعدها الله ﷻ لصاحبه، فتنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، ومن ثمرات وفضائل العمل الصالح:

أولاً: الاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين، وتحقيق الأمن، والاهتداء في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا ﴿٥٥﴾ ﴾ النور: ٥٥

ثانياً: الحياة الطيبة، وتكفير الذنوب، والثبات على الحق حتى الممات، ودخول الجنة، ورفعة الدرجات فيها، ومن عظيم فضل الله ﷻ على أهل العمل الصالح، أنهم إن تابوا من ذنوبهم أجزأهم أجراً على هذه التوبة، فيرفع بذلك درجاتهم، وكلما ندموا عليها كتب الله ﷻ لهم الحسنات على هذا الندم.

ثالثاً: الشهادة بالعمل الصالح لصاحبها في الدنيا، وذلك فيه تعجيل البشرى له قبل الآخرة، وهذه الشهادة تعدّ شفاعةً له يوم القيامة فتدخله الجنة.

رابعاً: كلما زاد المؤمن من العمل الصالح رفعه الله ﷻ به درجة عنده، وكلما أنفق نفقة يحتسب بها وجه الله ﷻ وإن كانت واجبة عليه، كتبها الله ﷻ له صدقة، وإن مرض ومنعه مرضه عن القيام بالأعمال الصالحة كتب الله ﷻ عنده الأجر وكأنه قام بما يقوم به دائماً.

خامساً: كرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الجزاء على الأعمال الصالحة؛ فإنه يجزيهم الأجر على أحسن الأعمال، لا على أدناها ولا على أوسطها، ثم يضاعف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكرمه هذا الأجر.

سادساً: دخول الجنة والتمتّع بما فيها من النعيم، واكتساب رضى الله عَزَّ وَجَلَّ، والنظر إلى وجهه الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حينما يعمل المسلم عملاً فإن ما يطلبه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو أن يقبل ذلك العمل، فإن قبله الله عَزَّ وَجَلَّ دلّ ذلك على صحة العمل، **ومن العلامات التي تدل على قبول العمل الصالح عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**:

أولاً: عدم الرجوع إلى الذنب؛ فيكرهه ويكره العودة إليه، وكلما تذكر أنه كان يفعله ندم وحزن، فمن تاب وعقد قلبه على الرجوع إلى المعصية لم تُقبل توبته، وكما **يقول ابن القيم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الفرح بالمعصية دليلٌ على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظَمِ خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررًا عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبكِ على موت قلبه"[1]

ثانياً: الزيادة في الطاعة والثبات عليها؛ فإن من جزاء الحسنة إتباعها بحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة إتباعها بسيئة بعدها، ومن عاش على شيء مات عليه، وبعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة عليه.

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 198).

ثالثاً: طهارة القلب؛ فيتخلّص من كل ما في القلب من أمراض، ويقدّم طاعة الله ﷻ ومرضاته على طاعة ما سواه، ولا يحبّ إلا ما يحبه الله ﷻ، ويعلم أن كل ما يصيبه لم يكن إلا من الله ﷻ، فيرضى ويطمئن، ويوقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

رابعاً: نظر القلب إلى الآخرة، ودوام تذكّر موقف سؤال الله ﷻ والوقوف بين يديه، فيخاف العبد من ذلك، ويحاسب نفسه على كل ما يقوم به سواء كان صغيراً أو كبيراً.

خامساً: إخلاص العمل لله ﷻ، فلا يجعل المؤمن من أعماله شيئاً من أجل البشر.

سادساً: الخوف من عدم قبول العمل؛ فالمسلم يخشى من التقصير وعدم قبول عمله، ويخشى أن يُردّ العمل عليه، فيفتقر إلى الله ﷻ وهو الغني ﷻ، ويسأله التوفيق والقبول دائماً، قال ﷻ واصفاً المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ٦٠﴾ المؤمنون: ٦٠

سابعاً: أن يكون العبد متّصفاً بالتقوى، فيعمل ما أمره الله ﷻ به، ويجتنب ما نهاه عنه، وهذا يدل على رضا الله ﷻ عنه، وتوفيقه له، وقبوله لعمله، فالمؤمن تنهاه صلاته وصيامه وصدقاته عن الفواحش، وتُثمر أعماله الصالحة التقوى والاستقامة والزيادة في الطاعات.

إنّ العبد المسلم بحاجةٍ شديدةٍ إلى العمل الصّالح والإيمان بالله ﷻ، ومن الجدير بالذّكر أنّ الإيمان والعمل الصّالح أمران متلازمان، فلا يصحّ الإيمان بلا عملٍ صالحٍ، فهو البرهان الذي يدلّ على صحة الإيمان، كما أن صلاح العمل من شروط قبوله

عند الله ﷻ، فربما لا ينقطع العبد عن العمل، إلا أنّ عمله لا يُقبل منه شيءٌ، حيث قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ ﴾ الكهف: ١٠٤، لذلك يجب أن تكون الأعمال الصّادرة من العبد أعمالاً صالحةً، وممّا يدل على ذلك أن الله ﷻ أقسم بخسران المسلم، إلّا أنّه استثنى منهم البعض، فقال ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥ ﴾ الانشقاق: ٢٥

ومن شروط العمل الصّالح؛ موافقته لشرع الله ﷻ، مع الحرص على تحقيق الإخلاص بالعمل، بأن يكون خالصاً لوجه الله ﷻ، وبذلك فإنّ كلّ عمل لا يوافق شرع الله ﷻ، أو لم يكن الإخلاص متحققاً به لا يعدّ من الأعمال الصّالحة، فيجب أن يكون العمل مقترناً به موافقة الشّرع والإخلاص دون فقد أحدهما.

العمل هو حصيلة المسلم الذي يخرج به من هذه الدنيا، ويترتب عليه مصير العبد في الآخرة، فإن أحسن فقد فاز، وإن أساء فقد خسر، فقد بيّن ذلك النبي ﷺ فقال: "يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله"[1]

العمل الصالح هو العمل الذي يُحبّه الله ﷻ وتُقرّه الشريعة الإسلامية، وهو العمل الذي يُدخل صاحبه إلى الجنة، ويزيد من حسناته، والعمل الصالح أيضًا هو بذرة الخير التي تنمو وتكبر عندما يسقيها صاحبها بالمزيد من الخير، حتى تصبح شجرة وارفة الظلال تُعطي الثمار والظلال للجميع، لأن الله ﷻ في العمل الصالح، ويمدّ

[1] رواه البخاري (8/ 107)، رواه مسلم (4/ 2273).

يده لمن يعمله ويجزيه الخير كلّه، لذلك ما من شيءٍ يفتح دروب الخير والسعادة ويُيسرها أكثر منه، وقد وصف الله ﷻ من يعملون الأعمال الصالحة بأنهم خير الناس، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾ البينة: ٧، والغاية الأساسية من الأعمال الصالحة هي التقرّب لله ﷻ بنيّة خالصة، وأن تكون هذه الأعمال خالصةً لوجه الله ﷻ، ولا يُقصد بها مراءاة أو تفاخر أو طلبًا للمديح والثناء، فالعمل الصالح يُبارك الله ﷻ فيه؛ لأنه يُقدّم فائدة للآخرين والمجتمع بأكمله، ويُسهم في بناء مجتمع قويّ متكافل، خالٍ من المشاكل، وتسوده المحبة والوئام، ولهذا أمر الله ﷻ به، فالعمل الصالح يبقى ويبقى ذكر أهله إلى ما شاء الله ﷻ، أما العمل الخبيث فإنه يفنى ويكون حجة على صاحبه يوم القيامة.

والعمل الصالح مفهومٌ شاملٌ متكامل، يبدأ من أبسط معاني الخير ولا يمكن حصره في بضعة أعمال، فالكلمة الطيبة التي يُراد بها الخير تُعدّ عملًا صالحًا، وإماطة الأذى عن الطريق كذلك، وغير هذا من الأمور التي لا تستدعي الكثير من العناء والتعب، لكنها تُحدث أثرًا كبيرًا في الحياة، لذلك جعل الله ﷻ فضله كبيرًا، وأهم فضلٍ له أنه يُرضي الله ﷻ، ويزيد من الحسنات ويُكفر الذنوب والخطايا، ويرفع درجة صاحبه في الجنة، كما أنه يُعدّ من الصدقات، وهو طريقٌ للفوز بالسعادة والخير، وينهى عن فعل الفواحش والمنكرات، كما يُقوّي إيمان صاحبه، ويُنقّي قلبه ويشرح صدره، ويمنحه الطمأنينة والسكينة.

وتعد الأعمال الصالحة من أهم ما يتم التقرب به إلى الله ﷻ، حيث يقوم المسلم بأداء هذه الأعمال مع توافر شرط إخلاص النية لوجه الله ﷻ ليتم قبولها، فلا ينبغي أن يحضر في قلب مؤديها الرياء، أو النفاق، أو ابتغاء رضا الناس، كما يجب أن تُؤدَّى هذه الأعمال على الوجه الذي أراده الله ﷻ دون زيادة أو نقصان، وتختلف الأعمال الصالحة في الكيفية التي يقوم المسلم بتأديتها، وتنعكس أهمية العمل الصالح في حياة المسلم من خلال ما يترتب على أداء هذه الأعمال ابتغاءً لمرضاة الله ﷻ.

إن العمل الصالح سفينة النجاة في بحر الدنيا المتلاطم الأمواج المختلط بالفتن والأهواء، وأنيس الوحشة في القبر والقرين بعد أن ذهب الأهل والأصحاب، والمال والبنون، فبالعمل الصالح فاز الصالحون وإليه مطمع الفائزون، وبه تتنزل الرحمات، وتنال البركات، ويحصل الحفظ والرعاية، والأمن والوقاية، بالعمل الصالح يثقل الميزان يوم القيامة يوم لا دينار فيه ولا درهم، العمل الصالح يشفع لصاحبه في الدنيا والآخرة، فثمرة العمل الصالح عاجلة وآجلة، قال ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ ۝١٠ ﴾ فاطر: ١٠، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها: "الكلم الطيب ذكر الله ﷻ والعمل الصالح أداء فرائض الله ﷻ فمن ذكر الله ﷻ ولم يؤد فرائضه رد كلامه، وقال الفراء: "معناه أن العمل الصالح يرفع الكلام الطيب أي يتقبل الكلام الطيب إذا كان معه عمل صالح"[1]، وقال قتادة: "العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر، وإذا ما صرع وجد متكأ"[2]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله

[1] فتح الباري لابن حجر (13/ 416).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 339).

ﷺ أنه قال: "بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله، فادعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها، لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، ولي صبية صغار أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم، حلبت، فبدأت بوالدي، فسقيتهما قبل بني، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، نرى منها السماء، ففرج الله منها فرجة، فرأوا منها السماء، وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم، وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاءها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها، فخذها فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي فقلت: إني لا

أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي، ففرج الله ما بقي"[1]

فهذه أعمال صالحة فعلها الثلاثة ابتغاء وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهذا رجل بلغ في بره بوالديه غايته، وآخر ذُكّر بالله عَزَّوَجَلَّ فتذكر وامتنع وعف نفسه عن الحرام، وثالث حفظ الأمانة وأداها إلى صاحبها وما أثمرت وأنتجت فأزال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم عثرة الدنيا وفرج عنهم كربها.

وأصحاب الأعمال صالحة يجاهدون أنفسهم عليها جهاداً مستمراً أمام شهوات النفس وزينة الحياة الدنيا، ويدفعون عن أنفسهم الرياء والسمعة وداء العجب بما هم عليه من طاعة حتى يجدوا حلاوة ولذة أعمالهم الصالحة، ومن السلف من لم تفته تكبيرة الإحرام أربعين سنة، **قال الشيرازي:** "إذا سمعتم حيّ على الصلاة ولم تروني في الصف الأول، فاطلبوني في المقبرة"[2]

العمل هو كل فعل يفعله الإنسان بقصده من نية القلب وإرادته وميله وحركته وقول اللسان وسكوته، وفعل الجوارح وتركها والحسن الصالح منه ما ابتغي به وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومرضاته من حيث القصد والنية، وكان على وفق الشرع في أصل المشروعية، وتحقق به التأسي بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأداء والكيفية، وما كان بضد ذلك فهو عمل طالح قبيح لكونه شركاً في القصد والنية، أو البدعة في الأصل والكيفية، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل

[1] رواه مسلم (4/ 2099).
[2] سير أعلام النبلاء (16/ 346).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[1]، وقال ﷺ: "من أحدث في أمرنا هذا عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"[2]

فالعمل الصالح ما ابتغي به وجه الله سبحانه وتعالى في النية وكان على وفق الشرع في الأصل والكيفية، وهو الحسن الذي يترتب عليه الثواب الحسن في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى:

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١٢

ومن بركات العمل الصالح للمؤمن أنه كلما ازداد عملاً نال به عند الله سبحانه وتعالى درجة ورفعة، قال ﷺ: "إنك لن تخلف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة"[3]، وأنه كلما أنفق نفقة يحتسبها حتى وإن كانت واجبة عليه فإنها تكون له صدقة، لقوله ﷺ: "إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة"[4]، وقال ﷺ: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في في امرأتك"[5]، وأنه إذا مرض أو شغل كتب له عمله كاملاً، فقال النبي ﷺ: "إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً."[6]، وقال ﷺ: "إذا مرض المؤمن قالت الملائكة يا ربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب عز وجل: اختموا على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت"[7]

---

[1] رواه مسلم (4/ 2289)
[2] رواه البخاري (3/ 184)، رواه مسلم (3/ 1343).
[3] رواه البخاري (5/ 178)، رواه مسلم (3/ 1250).
[4] رواه مسلم (2/ 695).
[5] رواه البخاري (8/ 80)، رواه مسلم (3/ 1250).
[6] رواه البخاري (4/ 57).
[7] مسند أحمد (28/ 553)، المعجم الكبير للطبراني (17/ 284)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 344).

وهكذا يضاعف للمؤمن عمله الصالح، ويضاعف له ثوابه، وينمى له أجره، ويتنوع له الجزاء الكريم عليه فيكون الجزاء عليه كثيراً وكبيراً وكريماً وعظيماً، قال ﷻ:

﴿ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء: ٩، وقال ﷻ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴿١٧٣﴾ ﴾ النساء: ١٧٣، وقال ﷻ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾ المائدة: ٩، وقال ﷻ: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الحج: ٥٠

والعمل الصالح أنواع فأفرضه وأحبه إلى الله ﷻ وأعظمه شأناً عنده أن يؤدي العبد ما افترض الله ﷻ عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ﷻ قال: "وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه"[1]، ولن تسلم للمؤمن فريضته حتى يجتنب ما نهاه الله عز وجل عنه، وحرمه عليه، فالانتهاء عن المنهيات، والكف عن المحرمات هو ثاني أفضل وأعظم وأوجب العمل الصالح، قال ﷻ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ النساء: ٣١، ولن يعصم المرء من المحرمات الموبقات حتى يتقي الشبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، وكمال العمل الصالح

[1] رواه البخاري (8/ 105).

وزينته التقرب إلى الله ﷻ بالنوافل بعد الفرائض، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ﷻ قال: "ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه"[1]، فأصل العمل الصالح أداء فرائض الطاعات، وحفظه باجتناب المنهيات، وكماله باتقاء الشبهات وفعل المستحبات، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: إن رجلاً قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: "تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم"[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أنبئني عن أمر إذا عملته دخلت الجنة، قال: "أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم أدخل الجنة بسلام"[3]، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، قال: "لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام"[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فعد خمساً وقال: "اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك، تكن مسلماً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب"[5]

فالعمل الصالح هو الذي يكون صلاحه في نجاة العبد يوم القيامة، ولا سبيل لمعرفة ذلك إلا بالوحي، وهذا يبين أهمية العلم بالوحي.

---

[1] رواه البخاري (8/ 105).
[2] رواه البخاري (2/ 104).
[3] مسند أحمد (13/ 314)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 176).
[4] سنن ابن ماجه (2/ 1314)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (2/ 447).
[5] مسند أحمد (13/ 458)، سنن الترمذي (4/ 551).

والله ﷻ قد أمر الرسل عليهم السلام بالعمل الصالح، وَأَمْرُ الرسلِ به أَمْرٌ لجميع البشر؛ لأنهم سادة البشر وقدوتهم، والواسطة بينهم وبين الله ﷻ في العلم بالوحي، ومعرفة العمل الصالح الذي يحبه الله ﷻ من عباده ويرضاه لهم، قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ المؤمنون: ٥١، وأمر ﷻ نبيه داود عليه السلام بالعمل الصالح شكراً لله ﷻ على ما حباهم من الخير، وما أعطاهم من الملك فقال ﷻ: ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ سبأ: ١١، وأمر ﷻ نبيه محمداً ﷺ أن يخبر أمته أن من أراد علو المنزلة عنده ﷻ، وعظيم الجزاء، ورفعة الدرجات فليلزم العمل الصالح، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ الكهف: ١١٠، أَيْ: فَمَنْ كَانَ رَاجِيًا مِنْ رَبِّهِ ﷻ يَوْمَ يَلْقَاهُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ وَالسَّلَامَةَ مِنَ الشَّرِّ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا.

فمعرفة العمل الصالح سبب للازدياد منه، ومعرفة ما يبطله وما يُنقصه سبب للحفاظ عليه؛ فإن العبد قد يجتهد في الأعمال الصالحة ولكن حسناتها تذهب إلى غيره ممن اغتابهم أو شتمهم أو ضربهم أو قصر في حقوقهم، أو أكل أموالهم، أو سفك دماءهم، فالعاقل الفطن من يزداد من الصالحات، ويحافظ عليها من النقض والنقص؛ لتبقى له في الآخرة.

والعمل الصالح ينتظم كل عمل جاءت به الشريعة سواء كان أداؤه بالقلب كالمحبة والرجاء والخوف والخشية أو باللسان كسائر أنواع الذكر والأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، أو بالجوارح كالصلاة والحج والجهاد، وقصد ترك المعصية عمل صالح يثاب عليه صاحبه سواء خطرت المعصية في باله فاستبشعها تعظيماً لله ﷻ، أو همَّ بفعلها ثم تركها خوفاً من الله ﷻ، وما قام في قلبه من بغض الكفر والنفاق والمعاصي، وبغض الكفار والمنافقين والعصاة حال عصيانهم فهو عمل صالح يؤجر عليه.

والعمل الصالح كثير، وأبوابه واسعة، وذلك من رحمة الله ﷻ بعباده ولطفه بهم، وكرمه معهم؛ إذ يختار كل عبد ما يناسبه من الأعمال الصالحة، ويلزم من العمل ما يفتح له فيه، بل ويقلب أعماله كلها إلى أعمال صالحة باستحضار النية الطيبة في كل شيء يفعله كاستحضار نية العفة عن السؤال والاستغناء عن الناس في العمل والوظيفة، واستحضار نية النفقة على الأهل والعيال فيما يجلبه لهم، وهكذا في كل عمل يعمله؛ لتكون حياته كلها أعمالاً صالحة ينتقل فيها من عمل إلى عمل آخر حتى يلقى الله ﷻ وقد استودع صحائفه أعمالاً صالحة كثيرة جداً.

فالعملَ الصالح طمأنينتكم في الدنيا، وفوزكم الأكبر في الآخرة، وأخبرنا ﷻ أنَّ مَن اجتهد في العمل الصالح في جميع أيَّامه فهو موعود بالحياة الطيِّبة، والكرامة الخالدة، والحِفظ والرعاية قال ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

﴾ النحل: ٩٧

العمل الصالح هو العمل المرضي عند الله ﷻ، ومنزلة العمل الصالح في الإسلام منزلة عظيمة، ومرتبته مرتبة عالية، والله ﷻ وصف عباده المؤمنين بالإيمان والعمل

الصالح، فكل موضع يُذكر فيه الإيمان يكون مقرونًا بالعمل الصالح، ذلكم أن الإيمان المتجرد من الأعمال الصالحة لا يغني عن صاحبه شيئًا، قال ﷻ: ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ الأنعام: ١٥٨، قال ابن كثير في تفسيره للآية: "لا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك"[1]، فالعمل الصالح قرين الإيمان في كتاب الله ﷻ، في ثمراته وجزائه، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني؛ ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

"ومن فوائد العمل الصالح أنه يثمر خشية الله ﷻ، وطريق موصل إلى محبة الله ﷻ ورضاه، ويورث العفة ويحفظ الكرامة، ويهيئ المجتمع الصالح والفرد الصالح، وسبب سعادة العبد في الدارين، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وصون ماء وجه صاحبه من السؤال"[2]

فاغتَنِموا الأعمالَ الصالحة ما دُمتُم في وقتٍ يمكنكم ذلك، فإنَّ هذه الدار مزرعةٌ لأعمال الآخرة، والثمر المطلوب لا بُدَّ أنْ يُقدم أمام العبد، ليجده في وقت الحاجة، فاعملوا صالحًا في هذه الدار تجدونه مدخرًا لكم في دار القرار

[1] تفسير ابن كثير (2/ 195).
[2] نظرة النعيم (7/ 3051).

النصيحة الخامسة عشر
حاسبوا أنفسكم

أمرنا الله ﷻ بمحاسبة نفوسنا فهي أمانة من الله ﷻ، فإنّ صلاح القلب وسلامته بمحاسبة النفس عن كلّ عمل سيئ قمنا به، فإنّ المحاسبة تكشف للمسلم عن عمله وعيوبه، ممّا يدعوه إلى إصلاح عمله والاستغفار والتوبة لله ﷻ فينجو المسلم من عذاب الله ﷻ، وترك النفس وعدم محاسبتها يؤدي إلى تسهيل وقوع المسلم بالمعاصي وهلاك القلب، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ الحشر: ١٨،

قال ابن القيّم رضي الله عنه: "دلت الآية على وجوب محاسبة النفس، فيقول ﷻ: لينظر أحدكم ما قدَّم ليوم القيامة من الأعمال، أَمِنَ الصالحات التي تنجيه؟ أم من السيئات التي توبقه؟"[1]، **وقال الحسن البصري** رضي الله عنه: "لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه، ماذا أردتِ تعملين؟ وماذا أردتِ تأكلين؟ وماذا أردتِ تشربين؟ وإن الفاجر يمضي قدمًا ما يعاتب نفسه"[2]، **وقال الماوردي:** "محاسبة النفس أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعاله نهارَه، فإن كان محمودًا أمضاه، وأتبعه بما شاكله، وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل"[3]

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

---

[1] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (1/ 84).
[2] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (1/ 78).
[3] أدب الدنيا والدين للماوردي ص 356.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته فينظر: هل العمل موافقٌ لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسنة رسوله ﷺ أم لا؟ فإن كان موافقًا أقدم، وإن كان مخالفًا ترك، ثم ينظر: هل فعله خير له من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني: تركه ولم يقدم عليه، ثم ينظر: فإن كان لله عَزَّوَجَلَّ مضى، وإن كان للجاه، والثناء، والمال من المخلوق ترك.

أما النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أولًا: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الطاعة ستة أمور: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العمل، النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ فيه، متابعة الرسول ﷺ، شهود مشهد الإحسان فيه، شهود منة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، شهود تقصيره فيه، بعد ذلك كله يحاسب نفسه هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

ثانيًا: أن يحاسب نفسه على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئًا تداركه بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحية.

ثالثًا: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا من فعله.

رابعًا: أن يحاسب نفسه على أمر مباحٍ، أو معتادٍ، لم فعله؟ وهل أراد به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ الحاقة:

١٨ "[1]، وقال أنس بن مالك ﷺ: "سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يومًا وقد خرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله لتتقين الله، ابن الخطاب أو ليعذبنك"[2]، **وقال إبراهيم التيمي** ﷺ: "مَثَّلْتُ نفسي في الجنة: آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مَثَّلْتُ نفسي في النار: آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها، وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحًا، قلت: فأنت في الأمنية فاعملي"[3]

قال الغزالي: "عرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله ﷻ لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته"[4]

قال ابن القيم ﷺ: "وأضر ما على المسلم الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويمشي الحال ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه

---

[1] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص 22
[2] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص 23
[3] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص 26، صفة الصفوة (2/ 52).
[4] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 393 – 394).

والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها، وعسر عليه فطامها ولو حضر رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام، وترك المألوف والمعتاد"[1]

فحق على الحازم المؤمن بالله ﷻ واليوم الآخر، أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها، وسكناتها، وخطراتها، وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها يمكن أن يُشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبداً الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه، خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس، وأحمقهم، وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴿٣٠﴾﴾ آل عمران: ٣٠

أن محاسبة المسلم لنفسه على ما فرّطت في جنب الله ﷻ، وتقصيرها في طاعة الله ﷯ هو طريق نجاتها وفلاحها، قال ﷻ في بيان أن الفلاح في محاسبة النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾﴾ الشمس: ٩؛ أي: من زكّى نفسه وألزمها الطاعة والقناعة، وحملها على الانقياد لأوامر الله ﷻ ومخالفة الهوى والشيطان، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ الشمس: ١٠؛ أي: دنَّس نفسه في الآثام والمعاصي، ولم يحاسبها ويأخذ بخطامها، بل أهملها ترعى في مستنقع الرذائل.

وقد بيَّن الله ﷻ أن الجزاء الحسن والمثوبة في العاجل والآجل في محاسبة النفس، فقال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ

[1] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (1/ 82 – 83).

﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النازعات: ٤٠ - ٤١، وعن شداد بن أوس ﵁ عن النبي ﷺ قال: "الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله"[1]

إن النفس الإنسانية مجبولةٌ على حبِّ العاجل، وإيثاره على الآجل، ومطبوعة على إيثار ملذَّات الدنيا وزُخرفِها، على نعيم الآخرة وسرمدها؛ ولذا قال الله ﷻ على لسان امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ يوسف: ٥٣، ولقد كان النبي ﷺ يَستعيذُ بالله ﷻ من شرِّ النفس في خطبة الحاجة فيقول: "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا"[2]

وقد قسَّم علماؤنا النفوسَ إلى **نفس لوَّامة**، وهي: نفس المؤمن التي تلوم صاحبها على ترك الخير وفعل الشر؛ إن قصَّر في الطاعة والخير لامته أنه لم يزدد منه، ولامته في الشر أنه وقع فيه وارتكبه، ثم النفس الأمارة بالسوء، والنفس المطمئنة، وهي التي اطمأنَّتْ إلى ذكر الله ﷻ، وأنست بطاعته، وسعدت بمحبته، وأبغضت معاصيه ومخالفته، واتخذتْ من اتباع رسول الله ﷺ مسلكًا ومنهاجًا وقدوة ومثالاً.

إن حال النفس الإنسانية كحال التاجر مع شريكه، فإن حاسب التاجر شريكه وراقبه على الصادر والوارد، والناتج والعائد، والربح والخسارة، وتعاون الشريك والتاجر، يوشك أن يربح في كسبه وينتج من تجارته، وإن أهمل التاجر شريكه ومَن يعمل عنده، وأهمل مراقبته، ولم يطلع على الصادرات والواردات، يوشك التاجر أن

---

[1] مسند أحمد (28/ 350)، المعجم الكبير للطبراني (7/ 281)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 125).
[2] سنن ابن ماجه (1/ 609)، سنن الترمذي (3/ 405)، سنن النسائي (3/ 104).

يُفلِسَ ويخسَرَ، وكذلك حال المسلم مع نفسه؛ إنْ حاسبها وأوقفها عند حدودها، وأمسك بخطامها وأوردها المرتع الطيب، أفلح وفاز وخفَّ عليه الحساب.

إن محاسبة المسلم لنفسه يجني منها الربح والاستقامة، والوقوف على رصيد الأعمال، ومن فوائد المحاسبة وثمارها أن المحاسبة تكشف للمسلم عيوبَه ومساوئه، وما جنتْه يداه، وربما كشفت له أن ما كان يظنه عملاً مبرورًا هو عمل مردود؛ مما يدعوه إلى تصحيح العمل، وإخلاص الدين لله عز وجل، والتوبة والاستغفار من السيئات، ومن أجل ذلك وصَّى أهلُ العلم والصلاح والتقوى بأن تكون للمسلم ساعة يحاسب بها نفسه على مرِّ الدهر، **قال وهب بن منبه** رضي الله عنه: مكتوب في حكمة آل داود: "حقٌّ على العاقل ألا يَغفُلَ عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويَصدُقونه عن نفسه، وساعة يُخَلِّي فيها بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحل ويَجمُل؛ فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب"[1]

أن المحاسبة تُعرِّفُ العبدَ المسلم رحمةَ الله عز وجل به ولطفَه به، وأنه لو شاء لعجَّل له العقوبة، وأخذه بالذنب، ولكنه أمهله حتى يتوب مما يورثه محبة وإجلالاً لخالقه.

لقد كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم من هذه الأمة، والصالحون من عباد الله عز وجل يتَّخذون محاسبة النفس ولومَها طريقة ومنهاجًا، بالرغم من إتقانهم العمل، وعدم تقصيرهم؛ بل مع شدة خوفهم ووَجَلِهم كانوا يحاسبون أنفسهم على الدقيق من الأعمال، والقليل من الأقوال، واليسير من الأحوال؛ مما يدلُّ على كمال الإيمان، وزيادة الوَجَل والإحسان، وقوة المحبة في النفس والوجدان، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه

---

[1] الخطب والمواعظ لأبي عبيد ص 140.

مخاطبًا مَن كان في عهده، وموجودًا في زمنه: "إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعَرِ، إن كنا لَنعدُّها على عهد النبي ﷺ من الموبقات"[1]، ونحن جمعنا بين التقصير والعصيان، والأمن من دخول النيران، بل ضمان التنعُّم في الجنان مع الحور الحسان، نعوذ بالله من خاتمة السوء والخذلان، مما يدل على وجل الصحابة رضي الله عنهم وخوفهم من عقوبات الذنوب؛ فعن حنظلةَ الأُسَيِّديِّ رضي الله عنه قال: "لَقِيني أبو بكرٍ رضي الله عنه، فقال: كيف أنت يا حنظلةُ؟ قال: قلتُ: نافَقَ حنظلة! قال: سبحان الله ما تقول؟! قال: قلت: نكونُ عند رسول الله ﷺ، يُذَكِّرُنا بالنار والجنة، حتى كأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيْعات، فنَسينا كثيرًا، قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إنا لَنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة، يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: "وما ذاك؟"، قلت: يا رسول الله، نكون عندك تُذكِّرُنا بالنار والجنة حتى كأنا رَأْيُ عينٍ، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيْعات، نسينا كثيرًا! فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده، إنْ لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة"[2]

فلا تغفلوا عن محاسبة أنفسكم قبل يوم الحساب والنقاش، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٧

[1] رواه البخاري (8/ 103).
[2] رواه مسلم (4/ 2106).

إن محاسبة المسلم لنفسه وعلى ما جَنتْه يداه، ودعتْه إليه نفسه مما يعينه على الاستقامة والثبات، ويدعوه إلى الاستزادة من عمل الحسنات، ويحثه على التوبة قبل الممات، ولقد مدحَ الله ﷻ أهل طاعته بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٧ – ٦١، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: "لا يا ابنة الصدِّيق! ولكنهم الذين يصومون ويصلُّون ويتصدَّقون، ويخافون ألا يتقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات"[1]

أن المحاسبة تكون على الفرائض والمحرَّمات قبل النوافل والمكروهات، فينظر المسلم في الفرائض والأوامر الشرعية، فإن وجد أنه قائم بها على أكمل وجه، وأنه مُطبِّق لما أمره الله ﷻ، ممتثل لِما جاء به رسول الله ﷺ، فليحمد الله ﷻ، وليشكره على نعمه، وأنه ممن فضَّله الله ﷻ على كثير من عباده المسلمين، وإن كان هناك تقصير في الصلاة أو الزكاة أو الحج، فليبادر إلى تدارك ما قصَّر فيه، وليَتُبْ مما أخلَّ فيه، وفي باب النواهي الشرعية إن كان قد دنَّس نفسه في المحظورات، وارتكب شيئًا من المنكرات، ودَعَتْه نفسه الأمارة إلى الوقوع في المنهيَّات، فليسارع إلى التوبة والندم والإقلاع عنها قبل أن يُحالَ بينه وبين التوبة، وهكذا ينتقل بعدها إلى النوافل

[1] سنن الترمذي (5/ 327).

والمستحبَّات كنوافل الصلاة القبلية والبعدية، وصلاة الوتر والضحى ونحوها إن كان ممن تركها وأهملها، فيبادر إلى العمل وإن كان يسيرًا قليلاً، وليُمرِّنْ نفسه على محبة الطاعات، والرغبة في الخيرات؛ حتى يألفها، ويحبَّها، وينشرح صدره لها.

كان الأحنف بن قيس ﵁ يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: "حس يا حنيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا"[1]

فحريٌّ بنا أن نستلهم العبر والعظات، والدروس والمهمات، من أئمة الهدى ومصابيح الدجى في الظلمات، والحذر من موافقة النفس الأمارة بالسوء فيما تدعو إليه من محبة العاجل، والسعيد مَن خفَّ عليه الحساب في الآجل، ونحن بمَنٍّ من الله ﷻ وفضله.

يا نفس توبي قبل أن تقولي: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾ الشورى: ٤٤

يا نفس توبي قبل أن تقولي: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ٥٦﴾ الزمر: ٥٦

يا نفس توبي قبل أن تقولي: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ١٠٠﴾ المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠

يا نفس توبي قبل أن تقولي: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ الزمر: ٥٨

[1] إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم (1/ 79)

يا نفس توبي قبل أن تقولي: ﴿ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ المنافقون: ١٠

يا نفس توبي قبل أن تقولي: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ ﴾ الفجر: ٢٤

ويحك يا نفس.. تنشغلين بعِمارة دنياك مع كثرة خطاياكِ، كأنَّك من المخلَّدين، أما تَنظُرين إلى أهل القبور، كيف جمعوا كثيرًا فصار جمعهم بورًا؟! وكيف أمَّلوا بعيدًا فصار أملُهم زُورًا، وكيف بنوا مشيدًا فصار بنيانهم قبورًا!!

ويحك يا نفس.. أما لكِ بهم عبرة، أما لكِ إليهم نظرة؟!

أتظُنِّين أنهم دُعوا إلى الآخرة، وأنتِ من المخلَّدين؟!

هيهات.. هيهات!! ساء ما تتوهمين، ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك.

ويحك يا نفس.. تُعرضين عن الآخرة وهي مُقبلة عليك، وتُقبلين على الدنيا وهي فارَّة مُعرِضةٌ عنكِ!!

فكم من مُستقبِل يومًا لا يَستكمله! وكم من مُؤمِّل لغدٍ لا يبلغه؟!

ويحكِ يا نفس.. ما أعظمَ جهلَكِ! أما تعرفين أن بين يديك جنة أو نارًا، وأنت سائرة إلى أحدهما؟!

فما لك تمرحين وتفرحين، وباللهو تنشغلين، وأنت مطلوبة لهذا الأمر الجسيم؟!

عساك اليوم أو غدًا بالموت تُختطفين.

ويحك يا نفس.. أراكِ تَرَيْن الموتَ بعيدًا، والله عَزَّوَجَلَّ يراه قريبًا، فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليكِ من كل قريب؟ أما تتدبرين؟!

يا نفس.. انظري واعتبري بمن سكن القبور بعد القصور، واعلمي أن الفرصة واحدة لا تتكرر، فإذا جاءت السكرة فلا رجعة ولا عودة.

فأنت في دار المهلة، فجاهدي قبل النقلة، قبل أن تقولي: ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ١٠٠ ﴾ المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠

هلمُّوا.. وأقبِلوا على الله ﷻ.. فإن الله ﷻ يُناديكم ويقول لكم: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ ﴾ الزمر: ٥٣، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " قال الله ﷻ: "يا ابنَ آدم، إنك ما دعوتني ورَجَوتني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغَتْ ذنوبُك عنانَ السماء ثم استغفرتني، غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابن آدم، لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقِيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة"[1]

ومحاسبة النفس من الأمور التي ينبغي أن يحرِصَ عليها العبد المؤمن؛ لئلا تنطلق بهواها كيفما شاءت، فإن حاسَب نفسه اكتشف وجهَ القصور الذي قصَّره تجاه خالقِه والناس، فيتوقف عن مواصلة هذا التقصير، ثم يتخلص منه عن طريق التوبة، وطاعة الله ﷻ، وإعطاء الناس حقوقَهم، والمحاسبة كذلك تكشف للمسلم حصَّته من الطاعة التي قام بها، فيشكر الله ﷻ ويحمده بأن وفَّقه إليها، فيعاودها ثانية وثالثة ورابعة، فالعبد مسؤولٌ ومحاسَب على كل شيء حتى عن سمعه وبصره وقلبه؛

[1] سنن الترمذي (5/ 548).

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ الإسراء: ٣٦

ولمحاسبة النفس أنواع أخرى من اعتبار آخر؛ منها المحاسبة المتقطعة، وهي التي تأتي بين فترات متباعدة، ومنها ما يعقب الخطأ الجسيمَ، ومنها المحاسبة الآنيةُ، وهي أفضلها؛ إذ يحاسب المرء نفسه على كل خطأ تقوم به، وهي النفس اللوَّامة التي أقسم الله سبحانه وتعالى بها، وهذه المحاسبة لا يمكن أن تبدأ دونما الانتباهِ واليقظة لتحرُّكات هذه النفس واتهامها قبل اتهام الآخرين والبحث عن عيوبهم، وهذا هو المدخل لمحاسبة النفس الذي تنبَّه إليه **أبو سليمان الداراني** رضي الله عنه عندما قال له أحد أصحابه: "إن فلانًا وفلانًا لا يقعان على قلبي"، فقال: "ولا على قلبي، ولكن لعلنا أُتينا من قلبي وقلبك، فليس فينا خيرٌ، وليس نحب الصالحين"[1]

فإن العبد المسلِم التقيَّ المشفق من عذاب الله عز وجل يحاسب نفسه دومًا، ويتوب إلى الله سبحانه وتعالى توبة نصوحًا، فإنه بتلك المحاسبة ينجو من عذاب الله عز وجل وغضبه، ويفوز برحمته وغفرانه، وبتلك التوبة يظفر بحب الله عز وجل وجنته، ويمسحُ بها أدران معاصيه وذنوبه.

فما أحوج نفوسنا إلى العناية بها وتطبيقها، ما أكثر عباد الله عز وجل ما يهمل الواحد منَّا نفسه، ويسترسل مع رغباتها وشهواتها، وطلبها لحظوظها ونزواتها، وقل من عباد الله سبحانه وتعالى من يقف مع نفسه محاسباً معاتباً، لائماً لها على تقصيرها وتفريطها، فيبلغ بذلك درجة الأتقياء، ومنزلة الصادقين مع الله سبحانه وتعالى، **قال ميمون بن مهران** رضي الله عنه: "لا

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (9/ 262)

يكون العبد تقياً حتى يكون محاسباً لنفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه"[1]، أي: أنه يلومها ويعاتبها وينظر في أعمالها، فإن كان تقصيرًا تمم وكمل، وإن كان عصياناً تاب واستغفر، وإن كان طاعة لله ﷻ حمد الله ﷻ وداوم على الطاعة، فمحاسبة النفس تقود المسلم إلى كل خير وفلاح ورفعة، وأما إهمالها والاسترسال مع شهواتها وعدم منعها من أهوائها يوقع العبد في الهلكة، والله ﷻ يقول: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١، لما كانت النفس من الأعداء الملازمين للمسلم في ليله ونهاره، وفي حله وترحاله، ولما كانت حاضرة في كل أحواله، تزين له الباطل، وتدعوه إلى الدعة والكسل، وتسعى لإيقاعه في الزلل، لزم أهل العقول والنهى محاسبتها، لإيقافها عند حدها، ومنعها عن زيغها، اتباعاً للتوجيه الإلهي الكريم، والنداء الرباني العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨﴾ الحشر: ١٨، أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ﷻ، واتقوا الله ﷻ تأكيد ثان، واعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير.

---

[1] موارد الظمآن لدروس الزمان (1/ 190).

شبكة الألوكة

كتب عمر بن الخطاب ﵁ إلى بعض عماله: "حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته، وشغله أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة"[1]

فمحاسبة النفس أمر ضروري يعود بالنفع على صاحبه في الدنيا والآخرة، وهكذا كان هدي السلف الأبرار، والسابقين الأخيار، فهذا **الحسن البصري** ﵁ يقول: "إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته"[2]، **وقال ميمون بن مهران** ﵁: "إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاصٍ، ومن شريك شحيح"[3]، **وقال الحسن البصري** ﵁: "المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردت إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدا، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله ﷻ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله"[4]، **وقال مالك بن دينار** ﵁: "رحم الله ﷻ عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 166)
[2] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص 25، موارد الظمآن لدروس الزمان (1/ 190).
[3] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص 26، موارد الظمآن لدروس الزمان (1/ 190).
[4] مصنف ابن أبي شيبة (7/ 188)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 157).

ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله ﷻ، فكان لها قائداً."[1]

فالذي ينبغي على المؤمن العاقل أن يحاسب النفس ويشارطها على حفظ جوارحه: العين، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرجل، ثم مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تذهب رأس المال كله، فمتى أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى.

وما أحوجنا اليوم إلى المحاسبة، ونحن في زمن كثرت فيه دواعي الشهوات، وتعددت المغريات، وتنوعت الملهيات، فالأمر جد، فلا بد من الحزم والإقدام، وقبل الرحيل وفوات الأوان، ومما يعين المرء على تلك المحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً.

إضافة إلى معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الله ﷻ، وصحبة النبيين والأخيار، وخسارتها: دخول النار والحجاب عن الله ﷻ، مع من حجب من الأشقياء والفجار.

النفس بطبيعتها كثيرة التقلّب والتلوّن، تؤثر فيها المؤثّرات، وتعصف بها الأهواء والأدواء، فتجنح لها وتنقاد إليها، وهي في الأصل تسير بالعبد إلى الشرّ، قال ﷻ:

---

[1] محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص 26، اعتلال القلوب للخرائطي (1/ 28).

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ يوسف: ٥٣، ولذا فإن لها خطراً عظيماً على المرء إذا لم يستوقفها عند حدّها ويلجمها بلجام التقوى والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويأطرها على الحق أطراً.

ومن هنا كان لزاماً على كل عبدٍ يرجو لقاء ربّه عَزَّ وَجَلَّ أن يطيل محاسبته لنفسه، وأن يجلس معها جلسات طوالاً؛ فينظر في كل صفحة من عمره مضت: ماذا أودع فيها، ويعزم على استدراك ما فات ويشحذ همّته لسفره الطويل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

"ومن فوائد محاسبة النفس الاطِّلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، ودليل على الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاستعداد للقائه، وتبين للمؤمن حقيقة الربح والخسران، ومحاسبة النفس في الدنيا تريح المؤمن يوم القيامة، وفيه امتثال لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتبعد عن الغفلة، والاستمرار في المعاصي، والذنوب، وتعين المؤمن وتساعده في استدراك ما نقص من الفرائض، والنوافل، وتثمر محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورضوانه، وأنه يعرف بذلك حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، ومن لم يعرف حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدًّا، وأن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها، وتحقيق السعادة في الدارين، ودليل على صلاح الإنسان، والبعد عن مزالق الشيطان، ودليل على الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن خاف من الله عَزَّ وَجَلَّ بلغ المنزلة"[1]

فالبدارَ البدارَ أيها العبد إلى المحاسبة والتوبة، تغسل بهما دنس إثمك، وتمحو بهما ران غفلاتك

[1] نظرة النعيم (8/ 3324)

النصيحة السادسة عشر
احفظ لسانك

يعدّ اللسان من النعم التي أنعم الله ﷻ بها على عباده، حيث قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ البلد: ٨ – ٩، ويجب على المسلم أن يستعمل لسانه بما يُرضي الله ﷻ، وإلّا كان اللسان ابتلاءً له، حيث قال ﷻ: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ النور: ٢٤، فاللسان يُصاب بالعديد من الآفات، وقد حصرها بعض أهل العلم بآفتين؛ فإمّا أن يكون اللسان مصاباً بآفة السكوت عن الحقّ، وإمّا أن يكون مصاباً بالكلام الباطل، وقد تكون إحداهما أعظم وأخطر من الأخرى، فالساكت عن الحقّ كالشيطان الأخرس، يصمت عن كلمة الحقّ والصواب، فهو كالذي يرى المنكر ولا يعمل على تغييره مع قدرته على ذلك، وكذلك المتكلّم بالباطل؛ حيث يتكلّم في المعصية، وما فيه غضب الله ﷻ، ومن الجدير بالذكر أنّ أهل الصراط المستقيم والسويّ لم يُشغلوا ألسنتهم بالكلام الباطل، وإنّما أشغلوها بالكلام الحسن الطيّب، الذي ينالون به الأجر والثواب في الحياة الآخرة.

كيفيّة حفظ اللسان:

يسعى العبد المسلم إلى حفظ لسانه بشتّى ومختلف الوسائل والطرق الممكنة التي تُعينه على ذلك، ومنها:

الوسيلة الأولى: التفكير في الكلام قبل التكلّم به وإخراجه، فإن كان الكلام ممّا ينفع العبد ويحقّق له المصالح يتكلّم به، ولكن إن كان الكلام يضرّه ويُلحق الأذى به

فلا يُقبل منه التكّلم والتحدّث به، وكذلك فإن كان الكلام حسناً ومعروفاً فلا بأس بإخراجه، وإن كان الكلام فيه شرٌّ وضررٌ فلا يتكلّم به، وإن كان العبد جاهلاً بحال الكلام؛ أي إنّه لا يعلم إن كان الكلام شراً أم خيراً فالأفضل له تركه وعدم التحدّث به، وذلك الأولى والأفضل.

الوسيلة الثانية: محاسبة النفس على ما قامت به من الأعمال في الماضي؛ أي أن يحاسب العبد نفسه على الكلمة التي تكلّم بها في مجلسٍ ما، ومحاسبة النفس عليها وعلى المقصود منها؛ أي الرجوع إلى القصد إن كان خيراً أم لا، والتفكير فيها، وتعويد النفس على النطق بكلمةٍ أفضل منها إن كانت غير لائقةٍ في المرات القادمة، وتصحيحها، والاستفادة من ذلك قدر الإمكان.

الوسيلة الثالثة: مصاحبة من يُعين على الأخلاق الحسنة والكلام اللائق الطيّب، ومثال ذلك؛ أن يتّخذ المرء صديقاً له يلفت نظره إلى الأخطاء التي تقع منه، أو الأقوال التي لا حاجة لها، أو التسرّع فيها، وغير ذلك من الأمور غير المقبولة.

الوسيلة الرابعة: تعويد النفس على التكلّم بالكلام الطيب الحسن، حيث حثّ الرسول ﷺ الصحابة رضي الله عنهم على ذكر الله سبحانه وتعالى، فقد قال: "لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله"[1]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الإسراء: ٥٣، فالجدير بالمسلم أن يُعوّد لسانه على ذكر الله عز وجل، واستغفاره، والتحدّث بالكلام الطيب، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتّى يصبح ذلك من عاداته.

[1] مسند أحمد (29/ 226)، سنن ابن ماجه (2/ 1246)، سنن الترمذي (5/ 457)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 672).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الوسيلة الخامسة: استشعار العبد لمراقبة الله ﷻ له، حيث قال ﷻ: ﴿ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠ ﴾ الزخرف: ٨٠،

فعلى المسلم أن يحرص على تقوى الله ﷻ، ويلتزم بالأوامر التي جاءت بها الشريعة الإسلاميّة، والتخلّق بآداب أهل الإيمان، وحفظ اللسان عن الأمور المحرّمة.

اللسان وسيلة شكر النعم التي منحها الله ﷻ لعباده، ولا بُدّ من أن يقترن الشكر باللسان مع قيام العبد بالأعمال التي تُرضي الله ﷻ، وكلّ كلمةٍ يتكلّم بها العبد سيُحاسب عليها، حيث قال الرسول ﷺ: "من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقُلْ خيراً أو ليصمُتْ"[1]، إلّا أنّ العبد قد يصدر منه الكلام الذي يُغضب الله ﷻ. فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه عن السيّء من الكلام، ويُحاسب نفسه قبل النطق بالكلام.

فمما خص الله ﷻ به الإنسان من النعم العظيمة، والآلاء الجسيمة، نعمةُ اللسان التي أقدره بها على البيان عن مكنونات نفسه، وحاجاته وأغراضه، وهي نعمة كبيرة النفع والأثر إن هي سخرت في جوانب الخير ومناحيه، وعظيمة الخطر والضر، متى أضاع العبد أمانتها التي استودعه الله ﷻ إياها.

باللسان ينطق المرء شهادة الإسلام، فيكون من أهل السعادة والإيمان، وباللسان ينطق كلمة الكفر –عياذاً بالله– فيخلع نفسه عن ربقة الإسلام، وباللسان يكسب المرء حسنات تملأ ما بين السماء والأرض، وباللسان يخسر حسنات أمثال الجبال.

اللسان من خصال الإيمان، واستقامة اللسان من خصال الإيمان، فعن أنس بن

[1] مسند أحمد (11/ 191)، سنن الدارمي (2/ 1294)، رواه البخاري (8/ 11)، رواه مسلم (1/ 68).

مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"[1]، ومعنى الحديث أنك لوا انشغلت بإصلاح قلبك وسلامته ولسانك ليس نظيفاً فإنك خاسر، وكذب من أدعى صلاح وصفاء القلب ولسانه ليس نظيفاً، فاللسان ما هو إلا مغرفة يغرف من القلب، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "كم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يسري في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي بما يقول"[2]

وملاك الأمر في حفظ اللسان، فعن معاذ رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار، فأخبره النبي ﷺ بأركان الإسلام، وجملة أمور أخرى ثم قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟"، قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: "كف عليك هذا"، فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟! فقال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"[3]، والحديث يدل دلالة ظاهرة، على أن أكثر ما يدخل الناس النار هو اللسان، فضبط اللسان وكفه، أصل كل خير، ومن ملك لسانه، فقد ملك أمره وأحكمه وضبطه، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رفعه قال: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا"[4]، **ويقول يونس بن عبيد**: "ما رأيت أحداً لسانه منه على بال، إلا رأيت ذلك صالحاً في سائر عمله"[5]

---

[1] مسند أحمد (20/ 343)، شعب الإيمان للبيهقي (1/ 97).
[2] الداء والدواء لابن القيم ص 366
[3] مسند أحمد (36/ 345)، سنن ابن ماجه (2/ 1314)، سنن الترمذي (5/ 12).
[4] مسند أحمد (18/ 402)، سنن الترمذي (4/ 605).
[5] الصمت لابن أبي الدنيا ص 288، صفة الصفوة (2/ 182).

فلا بد من الكلام في الخير، والسكوت عن الشر، وإن كانت السلامة في الصمت أكثر منها في الكلام، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من صمت نجا"[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: "كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع"[3]

وكثيرًا ما مدح الصالحون الصمت عن الشر وعما لا يعني، وسجلوا مواقف تروى في مجاهدتهم لأنفسهم على ذلك، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: "ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان"[4]، ورئي ابن عباس رضي الله عنهما قائماً بين الركن والمقام آخذاً بثمرة لسانه وهو يقول: "ويحك قل خيراً تغنم، أو أمسك عن سوء تسلم"، فقيل له: "يا ابن عباس، ما لك آخذاً بثمرة لسانك؟" قال: "إنه بلغني أن العبد ليس على شيء من جسده بأحنق منه على لسانه يوم القيامة"[5]، **وقال الفضيل بن عياض** رضي الله عنه: "ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان"[6]، وقال أيضاً: "أعرف من يعُد كلامه من الجمعة إلى الجمعة"[7]، **وقال مورق العجلي** رضي الله عنه: "أمرٌ أنا في طلبه منذ عشرين سنة فلم أقدر عليه، ولست بتارك طلبه أبدًا"، قالوا: "وما هو يا أبا المعتمر؟" قال: "الصمت عما لا يعنيني"[8]

---

[1] مسند أحمد (11/ 19)، سنن الترمذي (4/ 660).
[2] مسند أحمد (3/ 259)، سنن ابن ماجه (2/ 1315)، سنن الترمذي (4/ 558).
[3] رواه مسلم (1/ 10)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 195).
[4] شعب الإيمان للبيهقي (7/ 64).
[5] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 327).
[6] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 110).
[7] صيد الخاطر ص 491، الآداب الشرعية والمنح المرعية (3/ 474).
[8] مصنف ابن أبي شيبة (7/ 180)، شعب الإيمان للبيهقي (7/ 75).

أثنى الله ﷻ على صفوة خلقه بطهارة ألسنتهم من اللغو، ووعدهم على ذلك أجراً عظيماً، فقال ﷻ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ ﴾ المؤمنون: ١ - ٣، وذكر ﷻ جملة من صفاتهم الأخرى، ثم ذكر جزاءهم فقال ﷻ: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ المؤمنون: ١٠ – ١١، وقال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢، وذكر ﷻ جزاءهم بعد ذكر باقي صفاتهم فقال ﷻ: ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ الفرقان: ٧٥ - ٧٦، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه، أضمن له الجنة"[1]، وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام وصلى والناس نيام"[2]

اللسان رحب الميدان، واسع المجال، هو ترجمان القلوب والأفكار، آلة البيان وطريق الخطاب، له في الخير مجال كبير وله في الشر باع طويل، فمن استعمله للحكمة والقول النافع، وقضاء الحوائج، وقيده بلجام الشرع، فقد اقر بالنعمة ووضع الشيء

---

[1] رواه البخاري (8/ 100).
[2] مسند أحمد (37/ 539)، المعجم الكبير للطبراني (3/ 301).

في موضعه، وهو بالنجاة جدير، ومن أطلق لسانه وأهمله، سلك به الشيطان كل طريق، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، بل أن جوارح الإنسان كلها مرتبطة باللسان في الاستقامة والاعوجاج.

اللسان هو الميزان الذي توزن به الرجال، وتعرف به أقدارها، ما صلح منطق رجل إلا ظهر ذلك على سائر عمله، ولا فسد منطق رجل إلا عرف ذلك من سائر عمله، ولقد أوصى النبي ﷺ عقبة بن عامر رضي الله عنه حين قال: يا رسول الله! ما النجاة؟ فقال له ﷺ: "أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك"[1]، وقال ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[2]، أي: المسلم الكامل والمسلم الحق.

إن حفظ اللسان طريق إلى الرضوان، وأي نعيم أعظم من أن يرضى الله سبحانه وتعالى عنا، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً."[3]، وقال ﷺ: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله سبحانه وتعالى، ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت،

[1] مسند أحمد (36/ 570)، سنن الترمذي (4/ 605)، المعجم الكبير للطبراني (17/ 270)، شعب الإيمان للبيهقي (7/ 13).

[2] مسند أحمد 39/ 387)، سنن الدارمي (3/ 1785)، رواه البخاري (8/ 102)، رواه مسلم (1/ 65)، سنن الترمذي (5/ 17)، سنن النسائي (8/ 105)، صحيح ابن حبان (1/ 467)، المعجم الكبير للطبراني (13/ 508).

[3] رواه البخاري (9/ 151)، رواه مسلم (4/ 2176).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يكتُبُ الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلَّم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه"[1]

يظن المسلم وهو في الجنة أنه لا يوجد أفضل ولا ألذ من نعيم الجنة، فإذا به يفاجئ بنعيم عظيم، إنه رضا الله سبحانه وتعالى، بل هناك أعظم نعيم وأي نعيم لمن استغل حياته وجوارحه في مرضات الله عز وجل، إنه شيء ما كان يتخيله المسلم، وما كان يخطر بباله أن يُكشف الحجاب يوم القيامة فيرى وجه الله سبحانه وتعالى، إنه نعيم النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى في جنات النعيم، **يقول ابن الأثير**: "رؤية الله سبحانه وتعالى هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله عز وجل الفاخرة، بلغنا الله عز وجل منها ما نرجو"[2]

فالمسلم الحق هو الذي يحذر كل الحذر من لسانه؛ لأنه سوف يحاسب على كل كلمة بل كل لفظ ينطق به لسانه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ق: ١٨، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت"[3]

إن حفظ اللسان نجاة من النيران، فاللسان شأنه عظيم وخطره جسيم، فهو سلاح ذو حدين، فقد يستخدمه العبد في الطعن وانتهاك الحرمات والخوض في الأعراض فيكون سبباً لهلاكه وتعاسته، وقد يستخدمه العبد في قراءة القرآن وذكر الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون سبباً لنجاته وسعادته.

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 108).
[2] جامع الأصول: (10/ 557)
[3] تفسير ابن كثير (7/ 373)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

حفظ اللسان خلق السلف الصالح ﷺ:

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه أي: يجره بشدة- فقال له عمر رضي الله عنه: مه! غفر الله لك، فقال أبو بكر رضي الله عنه: "إن هذا أوردني الموارد"[1]

وقال محمّد بن واسع لمالك بن دينار رضي الله عنهما: "يا أبا يحي حفظ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدّينار والدّرهم"[2]

فمن صفات المؤمنين أنهم يحفظون لسانهم من الخوض في أعراض الناس، ويبتعدون عن اللغو في الكلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢

واللسان سيشهد يوم القيامة بكل ما اقترف، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "إن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر والنظر المحرم، وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركات لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله سبحانه وتعالى، لا يُلقي لها بالاً."[3]، وإذا علم المرء أنه مراقب ومحاسب وتسجل عليه كل صغيرة وكبيرة ينطق بها لسانه أدرك مدى خطورة الكلمة التي ينطق بها، وتأمل فيها طويلاً قبل النطق بها، فإن كانت خيرًا أرسلها وإلا أمسكها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ الانفطار: ١٠ - ١١

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 33)، شعب الإيمان للبيهقي (7/ 57).

[2] إحياء علوم الدين (3/ 111).

[3] الداء والدواء لابن القيم ص366.

واعلموا أن هذا اللسان، سوف يشهد يوم القيامة بكل ما اقترف، قال ﷻ: ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ ﴾ النور: ٢٤

حفظ اللسان، هو عنوان الاستقامة والأساس لصلاح القلب وسائر الأعضاء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"[1]، وحفظ اللسان دليلُ مروءة الإنسان وكمال إيمانه، قال ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء"[2] الصمت فيما لا يعلم الإنسان خيره من شره، ولا نفعه من ضره هو النجاة والسلامة، والأمان والطمأنينة، قال ﷺ: " من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به"[3]

وصوم الإنسان عن الكلام ليس من دين الإسلام وشريعته، قال ﷺ: "لا صمات يوم إلى الليل"[4]، ومن كان سكوتُه وكلامُه لله ﷻ مُخالِفًا هوى نفسِه، كان أجدر بتوفيقِ الله ﷻ له، وتسديدِه في نُطقِه وصمته.

إن حفظ اللسان سبب لعلو المنزلة ورفعة المكانة في الدنيا والآخرة، فالعاقل هو من يقدر لكلماته مواقعها كما يقدر لخطوات رجله مواضعها، العاقلِ هو من يحفظ لسانه إلا عما فيه خير ظاهر ومصلحة راجحة، يقول ﷻ: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ ١١٤ ﴾ النساء: ١١٤، فحِفظُ اللسان عن المآثم والحرام عنوانٌ على استقامة الدين وكمال

[1] مسند أحمد (20/ 343)، شعب الإيمان للبيهقي (1/ 97).
[2] سنن الترمذي (4/ 350)، المعجم الكبير للطبراني (10/ 207)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 57).
[3] المعجم الأوسط للطبراني (6/ 328).
[4] السنن الكبرى للبيهقي (6/ 94).

الإيمان، وحفظَ المرء للسانه وقلةَ كلامه عنوانُ أدبه؛ وزكاءُ نفسه؛ ورجحانُ عقله، **قال علي** ﷺ: "إذا تم العقلُ نقص الكلام"[1]، **وقال بعض الحكماء**: "كلام المرء بيان فضله، وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل"[2]

إن المسلمَ الواعيَ ليحمله عقله ويدفعه إيمانه إلى الاعتناء بحسن اللفظ وجميل المنطق حين يرى المقام يدعو إلى الكلام، وإلا آثر الصمت ولزم الكف طلبًا للسلامة من الإثم، وإن الطَّيِّبَ من القول مطلوبٌ وجميلٌ مع كل أحد من الناس، سواءٌ في ذلك الأصدقاء أو غيرهم؛ حتى مع الأعداء، فهو مع الأصدقاء سببٌ لاستدامة الألفة والمودة، وهو مع الأعداء مما يُذهب وَحَرَ الصدور، ويَسُلّ السخائم والضغائن، ويطفئ الخصومات، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ - ٣٥

إن لِلّسان آفاتٍ عظيمةً، وإن للثرثرة وفضول الكلام مساوئَ كثيرةً، ولذا فمن الحزم والرشاد اجتناب فضولِ الكلام، وحفظ اللسان عن كل ما لا ينفع ولا يفيد في أمر دينٍ أو دنيا؛ إذ بهذا وصى الرسول ﷺ أمته، فعن سفيان الثقفي ﷺ قال: قلت: "يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ قال: فأخذ رسول الله ﷺ بلسان نفسه، ثم قال: "هذا"[3]

[1] ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (2/ 122)، التذكرة الحمدونية (2/ 237)، المستطرف في كل فن مستطرف (1/ 94).
[2] المستطرف في كل فن مستطرف (1/ 33).
[3] مسند أحمد (24/ 145)، سنن الترمذي (4/ 607)، صحيح ابن حبان (13/ 6)، شعب الإيمان للبيهقي (7/ 8).

فاتقوا الله ﷻ واحفظوا ألسنتكم، واقصروا كلامكم على الحسن من القول والجميل من الكلام، وصونوا أوقاتكم واعمروها بذكر الله ﷻ، وكل قول سديد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١

فاتقوا الله ﷻ ولتحفظوا ألسنتكم، وسائر جوارحكم عما حرم الله ﷻ عليكم، ولتذكروا على الدوام قوله ﷻ: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ ق: ١٨

النصيحة السابعة عشر
تصدق ولو بشقة تمرة

إنّ من رحمة الله ﷻ وكرمه على خلقه أن جعل أبواب التقرّب إليه كثيرةً ومتعددةً، وقد حثّ عليها كلّها وجعل بين ذلك تفاوتاً في الفضائل والأجور؛ حتّى يرفع الهِمم، ويحاول كلّ إنسان أن يجتهد ليُصيب أكبر قَدْرٍ ممكنٍ من أبواب الخير، ومن هذه الأبواب باب الصّدقة التي جعلها متفرّعةً إلى عدّة أشكال، فالمسلم يختار منها ما يناسبه ويقدر عليه، قال ﷺ: " كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة"[1]، فرُبّ فقير يتصدّق بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وغنيّ يتصدّق بماله، وصاحب علم يتصدّق بعلمه؛ فالحديث الشريف يدلّ على أنّ كلّ معروف يفعله المسلم ينوي به رضا الله ﷻ صدقة.

والصّدقة ترفع صاحبها إلى أعلى المراتب، فلا شكّ أنّ من يتخلّق بهذا الخلق العظيم، وآثر أخاه على نفسه، وأحبّ لغيره ما يحبّ لولده وزوجه، فسيُكْرم ويتصدّق ولا يبالي بإنفاق المال، طالما أنّه أخرجه في سبيل الله ﷻ، فهي صفة كريمة تُكرّم صاحبها بين الناس وعند الله ﷻ.

فقد اهتم الإسلام بالصدقة بشكلٍ كبيرٍ لما لها من فوائد في الدنيا والآخرة لصاحب الصدقة وللمجتمع الذي يعيش فيه، فالصدقة تقوم على إنفاق العبد مالاً نقداً أو عيناً من غير إجبارٍ أو كراهية وإنما طلباً لرضوان الله ﷻ وطمعاً لما عنده من خيرٍ

[1] رواه البخاري (4/ 56)، رواه مسلم (2/ 699).

كثيرٍ، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾ البقرة: ٢٦٢

أنّ الصدقة من أحبّ الأعمال إلى الله ﷻ، وتدلُّ على نفسٍ مؤمنة بالله ﷻ وتُحبّ عمل الخير، فالصدقة لا تخرج إلّا من شخصٍ لديه حبّ العطاء للآخرين، والرغبة بالأجر والثواب من الله ﷻ، ولهذا خصص الله ﷻ لها الكثير من الأجر والثواب، فهي تُطفئ غضب الله ﷻ، وتجعله راضيًا عن صاحبها، كما أنّها تدفع البلايا وتمحو الذنوب والخطايا، وهي بمثابة النور الذي يدفع بالظلام ويُزيله، لأنّ الصدقة تُدخل الفرح والسرور إلى نفس من يأخذها، وتأخذ عنه حملًا ثقيلًا، وتُساهم في تحسين حياته، خصوصًا إن كانت هذه الصدقة مجزية، وكلما كانت الصدقة أكثر كان ثوابها أكبر، لهذا يجب الحرض على أدائها في كلّ وقت.

ومن فضل الله ﷻ وكرمه على عباده أنْ جعل أبواب الصدقة كثيرة، ولم تقتصر على تقديم الأموال والمواد العينية فقط، بل يُمكن للعبد أن يُقدّم صدقة حتى بالكلمة والابتسامة، فالكلمة الطيبة والنصيحة الصادقة صدقة، وكذلك تبسّم العبد في وجه أخيه المسلم صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، ومساعدة الآخرين بالأعمال صدقة، وغيرها الكثير من أبواب الصدقة المتاح فعلها من قبل الجميع، وقد ورد في فضل الصدقة الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحثّ عليها، بالإضافة إلى ما ورد في القرآن الكريم عن الصدقة وفضلها، حتى أن الله ﷻ ذكر في القرآن الكريم

كيف أن الميّت يتمنى لو تعود الروح إليه ليرجع ويتصدّق، إذ يقول ﷻ: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ ﴾ المنافقون: ١٠، وهذا دليلٌ قاطع على أنّ أكثر ما يتمناه المسلم عند موته من فعل الخير هو الصدقة؛ لأنّها عظيمة الفضل والأجر، ولهذا يجب على كل مسلم أن يحرص على الصدقة في كلّ وقت وقدر استطاعته.

ومن فضل الصدقة أنّها تزيد من التكافل بين أبناء المجتمع، وتقلل الفجوة بين الفقراء والأغنياء؛ لأنها تُتيح إعطاء الأموال من الغني إلى الفقير، وهذا يُحسن من ظروف الآخرين، ويجعلهم أكثر قدرة على تلبية احتياجاتهم، علمًا أن الصدقة لا تكون بالكثرة، إنما يُمكن التصدّق بأي شيءٍ، فالصدقة مهما كانت قليلة إلّا أنّ أثرها كبير لمن يحتاجها، ومن الضروري جدًا التصدّق في كلّ وقت، وإن لم يجد المسلم ما يتصدّق به فيمكن أن يتصدّق دون دفع المال، وذلك بصلاة الضحى التي تُجزئ عن الصدقة، فمجالات الصدقة الكثيرة لم تدع أي حجة لأي مسلم أن يمتنع عنها.

وللصدقة ثواب وأجر كبير يحصل عليه كل متصدق في سبيل الله ﷿ في الدنيا والأخرة حيث أنها تعطي للمسلم أكثر مما يقوم بإنفاقه من المال ولكي يكون الأجر كاملاً يجب أن يكون مال الصدقة حلالاً خالصاً لوجه الله ﷻ وأن يكون الغرض الحقيقي من الصدقة هو مساعدة الأخرين وتنفيذاً لأوامر الله ﷻ وليس بغرض الفخر والتعالي أو الشهرة، ويجب أن تحسن معاملة من تتصدق إليهم، وكذلك من

الأفضل أن تكون الصدقة في السر حتى توفر لصاحبها النية الطيبة والإخلاص لله سبحانه وتعالى.

فإن من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله سبحانه وتعالى الصدقة على الفقراء والمحتاجين, وهي دليل على صحة إيمان العبد بربه عز وجل، ويقينه بأن الرزق بيد الله سبحانه وتعالى وحده، قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴿٢٤﴾ ﴾ سبأ: ٢٤، فالمال ميال بالقلوب وحاجب لها عن رؤية ما ينتظر العبد من جزاء، وحاجب لها عن رؤية ما لله سبحانه وتعالى من نعم ومنن عليه تستوجب الشكر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "في ابن آدم ستون وثلاثمائة سلامى – أو عظم، أو مفصل – على كل واحد في كل يوم صدقة، كل كلمة طيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة، والشربة من الماء يسقيها صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة"[1]

والمؤمن يدرك قيمة التكافل وأنه لا يعيش لنفسه فقط وأن عليه أن يعطي الفقراء والمحتاجين من مال الله سبحانه وتعالى الذي هو مستخلف عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ الحديد: ٧، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر؛ إذ جاء رجل على ناقة له، فجعل يَصْرِفُها يميناً وشمالاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كان عنده فَضْل ظَهْرٍ؛ فليَعدْ به على مَنْ لا ظهر له، ومن كان عنده

[1] أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص 152، المعجم الكبير للطبراني (11/ 55).

فَضْلُ زادٍ؛ فَلْيَعدْ به على مَنْ لا زادَ له"، حتى ظننا أنه لا حَقَّ لأحد منَّا في الفَضْلِ"[1]

والعاقل هو من ينافس في حب الخير، وفي التصدق على المحتاجين، قال ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"[2]، لذا حث النبي ﷺ أمته رجالاً ونساءً على التصدق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: "أما وأبيك لتنبأنه: أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل البقاء، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان "[3]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ - في أضحى أو فطر - إلى المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: "أيها الناس تصدقوا فمرَّ على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار"، فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة ابن مسعود تستأذن عليه، فقيل: يا رسول الله هذه زينب فقال: أي الزيانب؟ فقيل: امرأة ابن مسعود، قال: نعم، ائذنوا لها، فأذن لها، قالت: يا نبي الله إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حلي لي، فأردت أن أتصدق به، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم، فقال النبي ﷺ: صدق ابن مسعود، زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم"[4]

[1] رواه مسلم (3/ 1354)
[2] رواه البخاري (9/ 154)، رواه مسلم (1/ 558).
[3] مسند أحمد (12/ 75)، رواه البخاري (2/ 110)، رواه مسلم (2/ 716)، سنن النسائي (6/ 237)
[4] رواه البخاري (2/ 120).

والصدقة في الإسلام فضلها عظيم وأثرها عميم ولها أخلاق وآداب، فكان من صفات أهل الإيمان واليقين أنهم يؤدون ما عليهم من صدقات وزكوات ابتغاء مرضاة الله ﷻ؛ لأن في ذلك هدى وضياء لهم وسط ظلمات الحياة، فعن أبي الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله، تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو حجة عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها"[1]، **قال النووي:** "معناه أنه يفزع إليها كما يفزع للبراهين، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت له صدقاته براهين في جواب هذا السؤال فيقول: تصدقت به، وقال غيره: معناه أن الصدقة حجة على إيمان فاعلها لأن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها فمن تصدق استدل بصدقته على قوة إيمانه والله أعلم"[2]

وقال القزويني: "الصدقة برهان على جزم المتصدق بوجود الآخرة وما تتضمنه من المجازات؛ لأن المال محبوب للنفوس المنصفة بالخواص الطبيعية فلا يقدر على بذل المال ما لم يصدق بانتفاعها فيما بعد بثمرات ما يبذله وفوزها بالعوض وحصول السلامة من ضرر متوقع بسبب فعل قرنت به عقوبة"[3]

والصدقة سبب في حصول الخير ونزول البركة؛ فالله ﷻ يضاعف لمن أدى حق الله ﷻ في ماله بأضعاف مضاعفه، قال ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي

---

[1] رواه مسلم (1/ 203).
[2] شرح النووي على مسلم (3/ 101).
[3] فيض القدير للمناوي (4/ 290).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ البقرة: ٢٦١ – ٢٦٢، وقال ﷻ: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٧٦، وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: "قال الله ﷻ أنفق يا ابن آدم أنفق عليك"[1]، وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفاً[2]، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً[3] تلفاً[4]."[5]، وعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوباً: الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، فقلت: يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة"[6]

والصدقة سبب في حصول السعادة والوقاية من الأمراض والفتن والأحزان، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾ البقرة:

[1] رواه البخاري (7/ 62).
[2] خلفاً: عوضا عما أنفقه.
[3] ممسكاً: عن الإنفاق.
[4] تلفاً: أتلف ما لديه.
[5] رواه البخاري (2/ 115)، رواه مسلم (2/ 700)
[6] سنن ابن ماجه (2/ 812)، المعجم الأوسط للطبراني (7/ 16)، شعب الإيمان للبيهقي (5/ 189).

٢٧٤، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"[1]

أن الصدقة سبب في انشراح الصدر وسرور النفس، قال ﷻ: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ البقرة: ٢٨٠، وعن أبي هريرة ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع"[2]، **قال الخطابي:** "وهذا مثل ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق، فشبههما برجلين أراد كل واحد منهما لبس درع يستتر به من سلاح عدوه، فصبها على رأسه ليلبسها، والدرع أول ما يقع على الرأس إلى الثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كميها فجعل المنفق كمن لبس درعاً سابغة، فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه، وجعل البخيل كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه، فكلما أراد لبسها اجتمعت إلى عنقه، فلزقت ترقوته، والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح وانشرح لها صدره، وطابت نفسه، وتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدثها بها، شحت بها، فضاق صدره، وانقبضت يداه"[3]

[1] مسند أحمد (12/ 393)، رواه مسلم (4/ 2074)، سنن ابن ماجه (1/ 82)، سنن الترمذي (4/ 34).
[2] رواه البخاري (2/ 115).
[3] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (4/ 544).

الصدقة تدفع غضب الله ﷻ وميتة السوء، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾ البقرة: ٢٥٤، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "صدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر، وفعل المعروف يقي مصارع السوء"[1]

وفي الصدقة تطهير للنفس من الشح والبخل وتطهير للنفوس من الأحقاد والضغائن، قال ﷻ: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ ﴾ التوبة: ١٠٣، وقال ﷻ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ ﴾ التغابن: ١٦ - ١٧

وصاحب الصدقة صاحب يد عليا في الخير يسعد بها في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ ﴾ النحل: ٩٧، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة،

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي (5/ 116).

والتعفف، والمسألة: "اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا: هي المنفقة، والسفلى: هي السائلة"[1]

والمتصدق في ظل صدقه يوم القيامة، فيوم القيامة حينما تدنو الشمس من رؤوس الخلائق ويلجمهم العرق إلجاماً تأتي الصدقة وتظلل صاحبها فالجزاء من جنس العمل فكما أنه أظل الفقير من هجير الحياة بصدقته وأخرج له أحب الأشياء إلى نفسه، فإن الله ﷻ يكافئه بمثل فعله، قال ﷻ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ آل عمران: ٩٢، فعن أبي الخير رضي الله عنه أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كل امرئ في ظل صدقته حتى يفصل بين الناس – أو قال: يحكم بين الناس" قال يزيد: "وكان أبو الخير لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو كعكة أو بصلة أو كذا"[2]

قال ابن الجوزي: "ذكر أن العبد إذا قدم إلى ميزانه وأخرجت سجلات سيئاته أعظم من جبال الدنيا فإذا وجدت له صدقة طيبة تصدق بها لم يرد بها إلا وجه الله ﷻ ولم يطلب بها جزاء من مخلوق ولا رياء ولا سمعة ولا محمدة ولا شكر فإن تلك الصدقة توضع في الميزان بأمر الملك الخلاق فترجح على جميع سيئاته ولو كانت سيئاته مثل وزن الجبال"[3]

ففي الصدقة وقاية من عذاب النار ومن غضب الجبار ﷻ، ولن ينال المغفرة إلا من أحسن العطاء، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ

[1] رواه البخاري (2/ 112)، رواه مسلم (2/ 717).
[2] مسند أحمد (28/ 568)
[3] بستان الواعظين ورياض السامعين ص 51.

وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٥، وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة"[1]، وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته"[2]

وأهل الصدقة يدعون يوم القيامة من باب الصدقة ويمن الله سبحانه وتعالى عليهم بالأجر الكبير والرضوان الأكبر، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾ الحديد: ٧، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ: "أربعون خصلة[3] أعلاهن منيحة العنز[4]، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها[5] إلا أدخله الله بها الجنة"[6]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

[1] رواه البخاري (9/ 148)، رواه مسلم (2/ 703).
[2] المعجم الكبير للطبراني (17/ 286).
[3] خصلة: صفة.
[4] منيحة العنز: أنثى العنز تعطى لينتفع بلبنها ثم ترد.
[5] تصديق موعودها: مصدقا بما وعد الله تعالى عليها من الأجر.
[6] رواه البخاري (3/ 166).

"من أصبح منكم اليوم صائماً؟ قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: فمن تبع منكم اليوم جنازة؟ قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر ﷺ: أنا، فقال رسول الله ﷺ: "ما اجتمعن في امرئ، إلا دخل الجنة"[1]، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "من أنفق زوجين في سبيل الله، نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة"، فقال أبو بكر ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها، قال: "نعم وأرجو أن تكون منهم"[2]

إذن فالصدقة سبب للهداية والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، وحصول الخير والبركة، وسبب للمغفرة وتكفير الذنوب ودفع ميتة السوء، والنجاة من النار وإطفاء غضب الرب ﷻ، وطريق إلى دخول الجنة.

من آداب الصدقة:

أولاً: الصدقة من أفضل الكسب:

قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٧، وعن سعيد بن يسار ﷺ عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت أبا القاسم، ﷺ يقول: "والذي نفسي

[1] رواه مسلم (2/ 713).
[2] رواه البخاري (3/ 25)، رواه مسلم (2/ 711).

بيده، ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، ولا يصعد إلى السماء إلا طيب، إلا كأنما يضعها في يد الرحمن، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه، حتى أن اللقمة لتأتي يوم القيامة وإنها لمثل الجبل العظيم، ثم قرأ:

﴿ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴿١٠٤﴾ ﴾ التوبة: ١٠٤"[1]

ثانياً: الصدقة على الأقارب وعلى من يستحق:

قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ التوبة: ٦٠، وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها، كانت له صدقة"[2]

قام أبو طلحة رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله ﷻ يقول: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ آل عمران: ٩٢، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء[3]، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها[4] عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله ﷺ: "بخ[5]، ذلك مال رابح[6]، ذلك مال رابح، وقد

[1] مسند الشافعي (1/ 100).
[2] رواه مسلم (2/ 695).
[3] بيرحاء: اسم بستان.
[4] أرجو برها وذخرها: أطمع وآمل من الله ﷻ أن يدخر لي أجرها وثوابها لأجده يوم القيامة.
[5] بخ: كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء.
[6] مال رابح: ذو ربح كثير يجنيه صاحبه في الآخرة.

سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين" فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه"[1]

ثالثًا: عدم استقلال الصدقة:

فالمؤمن لا يستقل الصدقة أي لا يعدها قليلة فرب شق تمرة تصدق به أنقذه من النار ورب درهم سبق ألف درهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سبق درهم مئة ألف"، فقال رجل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: "رجلٌ لهُ مال كثير أخذ من عرضه مئة ألف، فتصدق بها، ورجلٌ ليس لهُ إلا درهمان فأخذ أحدهما، فتصدق به"[2]

رابعًا: عدم المن بالصدقة أو الرجوع فيها:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٢ - ٢٦٤، وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول:

---

[1] رواه البخاري (2/ 119)، صحيح مسلم (2/ 693).

[2] سنن النسائي (5/ 59)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 416)، والبيهقي (4/ 181-182)، مسند أحمد (2/ 379)

سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنما مثل الذي يتصدق بصدقة، ثم يعود في صدقته، كمثل الكلب يقيء، ثم يأكل قيئه"[1]

خامساً: إخفاء الصدقة وعدم التفاخر بها:

إن ما يحبط أجر الصدقة التفاخر بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"[2]

فهو حينما أعطى الصدقة فقد أعطاها ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل"، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴿٢٥﴾﴾ الشورى: ٢٥"[3]

سادساً: تعجيل الصدقة وعدم تأخيرها:

فعن أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: "أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت لفلان كذا، ولفلان كذا وقد كان لفلان"[4]، قال الخطابي: "معنى الحديث إن الشح غالب في حال الصحة فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق في نيته وأعظم لأجره بخلاف من أشرف على الموت وأيس من الحياة،

---

[1] رواه مسلم (3/ 1241).
[2] رواه البخاري (1/ 133)، رواه مسلم (2/ 715).
[3] المعجم الكبير للطبراني (9/ 109).
[4] رواه البخاري (2/ 110)، رواه مسلم (2/ 716).

ورأى مصير المال لغيره فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حالة الصحة والشح، ورجاء البقاء وخوف الفقر"[1]، وعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول"[2]

قال ابن القيم رضي الله عنه: "وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه ﷺ وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه، وكان أجود الناس بالخير، يمينه كالريح المرسلة، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه، تارة بطعامه، وتارة بلباسه، وكان ﷺ يأمر بالصدقة ويحث عليها ويدعو إليها بحاله وقوله"[3]

الصدقة ترفع العبد عند الله سبحانه وتعالى درجات، ويظل الله سبحانه وتعالى المتصدق في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ البقرة: ٢٧١، الصدقة تعين العبد على الطاعة وتذلل له سبل السعادة وتهيئ له طرق الخير والرشاد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ الليل: ٥ - ١٠

الصدقة بركة المال وطهرته وزيادته وزكاته، فقد قال النبي ﷺ: "ما نقص مال من صدقة"[4]، وأخبر ﷺ أن المتصدِّق يدعو له ملك من الملائكة فيقول: "اللهم أعط

---

[1] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (6/ 291).
[2] رواه البخاري (2/ 112).
[3] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (2/ 21).
[4] مسند البزار (3/ 243).

منفقاً خلفاً، وأما الممسك الشحيح فإن الملك يدعو عليه فيقول: "اللهم أعطي ممسكاً تلفاً."

الصدقة من أفضل الأعمال وأحب القربات إلى الله ﷻ، يقول النبي ﷺ: "أحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مؤمن تكشف عنه كرباً أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً."[1]

الصدقة تقي صاحبها من البلايا وتحفظه من الكروب والرزايا، يقول النبي ﷺ: "صنائع المعروف تقي مصارع السوء"[2]، ولهذا لما انكسفت الشمس في عهد النبي ﷺ قال لأصحابه: "إن هذه الآيات يرسلها الله سبحانه وتعالى يخوف بها عباده فإذا رأيتم منها شيئاً فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا"[3]

الصدقة سبب من أسباب دخول الجنة وسبب من أسباب النجاة من النار، يقول النبي ﷺ: "اجعلوا بينكم وبين النار حجاباً ولو بشق تمرة"[4]، ويقول: "فاتقوا النار ولو بشق تمرة"[5]، أي ولو أن تتصدقوا بنصف تمرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤ ﴾ البقرة: ٢٧٤

الصدقة تزكي النفس وتهذب الأخلاق وتربي الروح وتطهر النفوس، قال سبحانه وتعالى:﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ

[1] المعجم الكبير للطبراني (12/ 453)، صحيح الجامع (1/ 97).
[2] سنن الترمذي (4/ 339)، المعجم الكبير للطبراني (8/ 261).
[3] رواه البخاري (2/ 34).
[4] المعجم الكبير للطبراني (18/ 303).
[5] رواه البخاري (9/ 148)، رواه مسلم (2/ 703).

﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ التوبة: ١٠٣، ويقول ﷻ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٩﴾ الحشر: ٩

الصدقة فيها انتصار للعبد على الشيطان، فإن الشيطان كما قال ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٨﴾ البقرة: ٢٦٨

الصدقة تقي المسلم من الفتنة في أهله وماله ونفسه وولده، يقول النبي ﷺ: "فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1]

اعلموا أن إمساك المال والشح به والبخل عليه لا يزيده بل يمحقه ويذهب بركته وينزل الغضب على صاحبه، قال ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾ محمد: ٣٨، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

[1] رواه مسلم (4/ 2218).

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ التوبة: ٣٤ - ٣٥

اعلموا أن الصدقة من ذوي الدخل المحدود أعظم أجراً وأكثر بركة من صدقة الأغنياء الميسورين، يقول النبي ﷺ: "أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى"[1]

واعلموا أن خير من توجهون إليه صدقاتكم هم أرحامكم وأقرباؤكم، قال النبي ﷺ: "الصدقة على المسكين صدقة، والصدقة على ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة"[2]

ومن أهم المعايير التي يُقاس بها إيمان المرءِ الصدقةُ، قال النبي ﷺ: "والصدقة برهان"[3]

وهي تجارة عظيمة مع الله ﷻ، وجهاد في سبيل الله ﷯ بالمال، وفيها نجاة للعباد من العذاب الأليم، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ الصف: ١٠ - ١١، ومَنْ أراد تنمية ماله فلينفق منه في سبيل الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ سبأ: ٣٩، وما أنفقه العبد في سبيل الله ﷻ هو الذي يجده أمامه يوم القيامة، وما يُبقيه في الأرصدة فهو مُلْكٌ للورثة، قال النبي ﷺ: "أيكم مال

---

[1] رواه البخاري (2/ 110)، رواه مسلم (2/ 716).
[2] مسند أحمد (26/ 171).
[3] سنن الدارمي (1/ 518)، رواه مسلم (1/ 203).

وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: "فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر"[1]

إن الصَّدقة هي التجارة الرابحة، والصَّدقات الخالصة لله ﷻ هي التجارة الرابحة للعبد في الدنيا والآخرة؛ قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ ﴾ فاطر: ٢٩ - ٣٠، والله ﷻ يجزل العطاء للمُتصدِّقين، قال ﷻ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ البقرة: ٢٦١

قال ابن كثير: "هذا مَثَلٌ ضربه الله ﷻ لتضعيف الثواب لمن أنفَق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، وهذا المثَل أبلغُ في النفوس مِن ذكر عدد السبعمائة؛ فإن هذا فيه إشارةٌ إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله ﷻ لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذَره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنَّةُ بتضعيفِ الحسنة إلى سبعمائة ضعفٍ"[2]

فسارِعْ إلى جمعِ الحسَنات قبل أن يفُوتَ الوقتُ، واعلَمْ أن ميزانَ الحسنات يرجَحُ بحسنةٍ واحدة خالصةٍ لله ﷻ.

[1] رواه البخاري (8/ 93).
[2] تفسير ابن كثير (1/ 529).

وإن الصَّدقة تؤلِّف بين قلوب المؤمنين، فعن النعمان بن بشير ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[1]

قال ابن حجر: قوله ﷺ: "بالسَّهر والحمى"، أما السَّهر فلأن الألم يمنع النوم، وأما الحمَّى فلأن فقد النوم يثيرها"[2]

الصَّدقة تَزيد المال، والصَّدقة الخالصة لله ﷻ هي سبيلُ زيادة المال في الدنيا، والحصول على رضوانِ الله ﷻ في الآخرة؛ قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ سبأ: ٣٩، وعن أبي هريرة ﵁: أن النبي ﷺ قال: "ما نقصت صدقةٌ من مالٍ"[3]، وعن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: "بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمِع صوتًا في سحابةٍ: اسقِ حديقة فلانٍ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حَرَّةٍ، فإذا شرجةٌ (مسيل الماء) من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقته يحوِّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلانٌ، للاسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألُني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول: اسقِ حديقة فلانٍ، لاسمك، فما تصنَع فيها؟ قال: أما إذ قلتَ هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدَّق بثُلثه، وآكُلُ أنا وعيالي ثُلثًا، وأرُدُّ فيها ثُلثَه"[4]

---

[1] رواه مسلم (4/ 1999).
[2] فتح الباري لابن حجر (10/ 439).
[3] رواه مسلم (4/ 2001).
[4] رواه مسلم (4/ 2288).

إن الإكثارَ مِن الصَّدقات يزكي نفس المسلم، ويكسبه محاسن الأخلاق من الجود والكرم، ويطهّره من الشُّح والبخل؛ والصدقة شكر لنعم الله ﷻ على العباد، والصدقة الطيبة الخالصة لله ﷻ ما هي إلا ترجمة عملية لشكر الله ﷻ على نعمه التي لا تُعَد ولا تحصى، إن العبدَ إذا لم يقابل هذه النعم بالشكر فإنها سوف تزول، وبشكرها تدوم وتزداد ويبارك اللهُ ﷯ فيها لعباده؛ قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧ ﴾ إبراهيم: ٧

الصَّدقة مصدرُ سعادة القلب، فما أجمل شعور المتصدق عندما يكون سببًا في مسح دمعة يتيم أو دفع كربة عن فقير! حقًّا إنها سعادة يهَبُها الله ﷯ لعباده المحسنين، المنفقين في سبيله، إن هذه السعادة التي يملأ بها قلب المتصدق لا تقدر بمال، ولو لم يكن للمتصدق إلا هذه الفائدة الجليلة من السعادة الحقيقية، لكفاه ذلك؛ قال ﷻ: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ ﴾ الحديد: ٧

"ومن فوائد الصدقة أنها طهرة للنفس وقربة إلى الله ﷻ، وطريق موصل إلى محبة الله ﷯ ورضوانه، وتثمر سعادة الدين والدنيا، ودليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام، وحفظ الإنسان في ماله وبدنه، ودليل على الزهد، وطاعة لله ﷯ ورسوله ﷺ، وباب من أبواب التكافل الاجتماعي، وتثمر محبة الناس"[1]

[1] نظرة النعيم (6/ 2529).

فالبدار البدار وأدخلوا السرور على أرحامكم وإخوانكم وأقربائكم وأنفقوا من أموالكم فإن الله ﷻ يخلف عليكم بخير مما أنفقتم، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ سبأ: ٣٩

فالبدار البدار قبل أن يأتي أحدنا الموت، قال ﷻ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ المنافقون: ١٠

النصيحة الثامنة عشر
أدِّ الأمانة

الأمانة خُلقٌ كريمٌ من الأخلاق التي حثّ عليها الإسلام وأمر بها عباده المؤمنين، فقد جاء في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾ المؤمنون: ٨، حيث وصف الله ﷻ المؤمنين حين وصفهم بالفلاح والرشاد بأنّهم يحفظون أماناتهم ويوفون بعهدهم بها، فالأمانة تشمل كلّ ما يدخل في حياة المسلم من أمر دينه ودُنياه، فهي أداء الحقوق لأصحابها، والمحافظة عليها، والمسلم الأمين يؤدّي كلّ حقٍ إلى صاحبه، سواء كان هذا الحقّ متعلّقاً بالعباد أو بالله ﷻ أو بنفسه، فيؤدّي حقوق الله ﷻ في العبادات، ويؤدي كل حق لصاحبه من العباد، ويحفظ جوارحه عن الوقوع في الحرام فيكون أميناً على نفسه، والأمانة خُلق عظيم من أخلاق الإسلام، وأصلٌ من أصول بنائه، حملها الإنسان بينما أبت السماوات والأرض أن يحملنها، وقد أمر الله ﷻ عباده بأداء الأمانة، والأمانة صفةٌ من صفات أهل الرسالات، حيث كان كلّ رسولٍ يقول لقومه: ﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٠٧ ﴾ الشعراء: ١٠٧، وما وُصف الرسول ﷺ إلّا بالصادق الأمين، حيث لازمه ذلك الوصف قبل الإسلام وبعده، وفي أشدّ أوقات عداوة قومه له.

ولقد جعل رسول الله ﷺ الأمانة علامةً على إيمان المرء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "لا إيمانَ لمن لا أمانةَ لهُ، ولا دينَ لمنْ لا عهدَ لهُ"[1]، وجعل رسول الله ﷺ نزعها من بين الناس علامةً على فساد الزمان واقتراب الساعة.

[1] مسند أحمد (19/ 375)، صحيح ابن حبان (1/ 422)، المعجم الأوسط للطبراني (3/ 98).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولقد أمر الله ﷻ بأداء الأمانات إلى أهلها؛ حيث قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨

والأمانة من أوصاف المؤمنين الذين نالوا الفلاح في الدنيا والآخرة، ولما وصف الله ﷻ الإنسان بالهلع وشدّة الجزع، استثنى من ذلك المصلّين الذين وصفهم الله ﷻ بعد ذلك بمراعاة الأمانة وأدائها والحفاظ عليها، وعندما يكون كلّ واحدٍ من المسلمين في المجتمع حريصاً على أداء الأمانة؛ تتيسّر أمورهم، وتسير معاملاتهم وحاجاتهم، فالأمانة خلقٌ عظيمٌ يحظى صاحبها بالخلق الكريم، والاهتمام من الناس، فلا يقوى كلّ مسلم على حمل هذا الخُلق والاتّصاف به، فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: "قلت: يا رسول الله ألا تستعملُني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: يا أبا ذر، إنّك ضعيفٌ، وإنّها أمانةٌ، وإنّها يومَ القيامةِ، خزيٌ وندامةٌ، إلا من أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليهِ فيها"[1]

والأمانة من مكارم الأخلاق التي يجب على كل مسلم الاتصاف بها، وهي تُعبّر عن مقدار ما يحمل المسلم في داخله من أخلاقٍ نبيلة وصفاتٍ جميلة؛ لأن فيها حفظٌ لحقوق الناس وعدم التجني عليهم، وسلب أشيائهم، فالمسلم الأمين يفوز برضى الله ﷻ، ويكسب الحسنات والأجر العظيم.

ومن علامات اكتمال إيمان العبد أن يلتزم بكل ما أمر الله ﷻ به ورسوله ﷺ، ولهذا تُعتبر الأمانة من علامات الإيمان التي تُعطي طاقةً روحيةً للنفس لأنها تُشعرها

[1] رواه مسلم (3/ 1457).

بالراحة الكبيرة، كما أنها تضع نوراً في الوجه والقلب، لأن من يؤدي حق الله ﷻ تجاه مخلوقاته يشعر براحةٍ كبيرةٍ لا توازيها راحة.

الأمانة مثل الزهرة اليانعة النضرة التي يفوح عبيرها في كل مكان، ولهذا علينا أن نسقيها دائماً بأن نلتزم بها وأن نكون دوماً عند حسن ظن الآخرين بنا نكون قدوةً حسنةً في المجتمع، والدليل على عظمة الأمانة ومكانتها أن الله ﷻ ذكرها وركز عليها في كثيرٍ من الآيات القرآنية، وكذلك في الأحاديث النبوية الشريفة، فثمارها تُؤتى في نفس اللحظة لأنها تمنع انتشار الخيانة في المجتمع وتجعل النفوس مطمئنةً في القول والفعل والتعامل، لأنها تعلم جيداً أن هناك من يحفظها ويصونها ولا يتجنى عليها.

الأمانة أساس الحياة، ومنطلق النجاح، والطريق السليم للسير، لا يمكن لأي عمل أن يوفق إلا بها بعد الله ﷻ، ولا تستقيم خطط وآمال إلا بإحيائها، حملها ثقيل، وغير أنه لا بد منه، ومسؤوليتها عظيمة، لكنها ضرورة لحياة كريمة، بها نهضت شريعة الإسلام، وعليها قامت معالمه، وعلى ضوئها يعيش الناس، فكيف لو فقدت!!

إنها الأمانة التي ناءت بحملها السموات والأرض والجبال، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢، والأمانة مع ثقلها إلا أنها ليست مستحيلة، بل تتوج بها عباد الله ﷻ الصالحين، حتى وصفهم الله ﷻ بها

فقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٨، والتفت إلى هذا التناغم اللفظي والمعنوي بين الإيمان والأمانة، في قوله ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"[1]

والأمانة ليس لها حدود، ولا ترتبط بعمل دون عمل، ولا بوقت دون وقت، ولا بشخص دون شخص، ويكبر عليها كبير، ولا يستثنى منها غني أو فقير.

ما أعظم الشهادة في سبيل الله ﷻ، يفدي الشهيد دينه ووطنه بروحه غير أنه يحاسب على أمانته، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة، وإن كان قُتل في سبيل الله ﷻ فيقال: أد أمانتك، فيقول: وأنّى أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقه، قال: فتنزل عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين"[2]

وليست الأمانة أمرًا مندوبًا أو نفلاً، بل إن أداءها على وجهها أمر واجب حتمي، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ النساء: ٥٨، وليست الأمانة أمرًا مستغربًا على النفوس لا تعرفها إلا من دينها، بل هي فطرة فطر الإنسان على معرفته، غير أنه مرة يوافقه، ومرة يخالفه، ولكلٍ جزاء، فعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر: حدثنا: "أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من

[1] مسند أحمد (19/ 375)، صحيح ابن حبان (1/ 422)، المعجم الأوسط للطبراني (3/ 98).
[2] تفسير ابن كثير (2/ 298).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القرآن، ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها قال: "ينام الرجل النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[1]، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[2]، كجمر دحرجته على رجلك فنفط، فتراه منتبراً[3] وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً."[4]

ويا لمحبة الله ﷻ لصاحب الأمانة التي يرعاها في نفسه وأهله وعمله ووقته وفي كل شيء، إنها محبة الله ﷻ، لا شيء أغلى منها، لا يستحقها إلا الأمين، قال ﷺ: "من سرّه أن يحبه الله ورسوله فليصدق حديثه إذا حدّث، وليؤد أمانته إذا ائتمن"[5]

إنه الأمانة مقياس العمل الجاد الناجح حينما تقترن بالقوة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦ ﴾ القصص: ٢٦، إنها الأمانة التي كان يودع بها النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم وجيوشه فيقول لهم: "أستودع الله دينكم، وأمانتكم، وخواتم أعمالكم"[6]

إن وراء الأمانة لسؤال ونقاش وجزاء، هكذا تحملها الإنسان، فليؤدها بكل جوانبها وحقوقها، قال النبي ﷺ: " كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته"

[1] الوكت: أثر النار ونحوها.
[2] المجل: التنفط الذي يحصل في اليد من أثر العمل بالفأس ونحوه أو من مس النار وهو ماء يجتمع بين الجلد واللحم.
[3] منتبراً: مرتفعاً.
[4] رواه البخاري (8/ 104)، رواه مسلم (1/ 126).
[5] شعب الإيمان للبيهقي (3/ 110).
[6] السنن الكبرى للنسائي (9/ 189).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال: – وحسبت أن قد قال – والرجل راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته"[1]

والأمانة صفة مميزة لأصحاب الرسالات، ولقد جعل الرسول ﷺ الأمانة دليلاً على إيمان المرء وحسن خلقه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة"[2]

ولقد كانت من آخر وصايا النبي ﷺ في حجة الوداع الوصية بالأمانة فقال: "ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها"، وبسط يديه، فقال: "ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ أسعد من سامع"[3]

للأمانة شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين، ما ثبتوا عليها وتخلقوا بها، وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، وقد حذر النبي ﷺ من إضاعتها والتهاون بها، وأشار إلى أن في إضاعتها انحلال أمر المسلمين.

ولقد جعل النبي ﷺ الأمانة من الإيمان، وحسبك من رفع شأن الأمانة أن كان صاحبها حقيقاً بولاية أمر المسلمين، لأن ولاية أمر المسلمين، أمانة لهم ونصح، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أوصى بأن يكون الأمر شورى بين ستة: "ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لعهدت إليه لقول رسول الله ﷺ له إنه أمين هذه الأمة"[4]

[1] رواه البخاري (2/ 5).
[2] مسند أحمد (11/ 233)، المعجم الكبير للطبراني (13/ 322)، شعب الإيمان للبيهقي (6/ 449).
[3] مسند أحمد (39/ 299).
[4] التحرير والتنوير (9/ 324).

إن الأمانة وصية يتواصى المسلمون برعايتها ويستعينون بالله عز وجل على حفظها حتى إنه عندما يسافر المسلم إلى أي بلد، يقول له إخوانه أو أهله وجيرانه: "استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك"

إن الأمانة فضيلة ضخمة، لا يستطيع حملها الرجال الأهازيل، ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى المثل لضخامتها، فبين أنها تثقل الوجود كله، فلا ينبغي للمسلم أن يستهين بها، أو يفرط في حقها وإلا كان من الجاهلين الظالمين، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٢

الأمانة خصلة سامية، وخلق كريم، وسلوك قويم، دعا إليها الإسلام وحبب فيها، بل وأمر بها، وأعلى منزلة أصحابها، فلنعش جميعاً مع كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لنتعرف على فضيلة الأمانة وأهلها.

الأمانة طريق إلى الفلاح، ولقد جعل الله عز وجل الأمانة سبباً لدخول جنات النعيم، ووصف بها عباده المفلحين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ المؤمنون: ١، ثم ذكر من صفاتهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٨

الأمانة علامة الإيمان لمن أحب الإيمان، فكما أن الأمانة صفة لازمة للأنبياء والمرسلين فهي خصلة راسخة في أفئدة وقلوب المؤمنين؛ ولذلك قال ﷺ: "ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم"[1]

فالإيمان والأمانة صنوان لا يفترقان، فإذا ذهبت الأمانة من قلب ذهب منه الإيمان، فالأمانة تعدل الدنيا وما فيها، ومن رزقه الله ﷻ الأمانة هانت عنده الدنيا وأصبحت لا تساوي شيء، وأصبح متاعها زائل، فالمؤمن إذا عرف حقيقة الدنيا تجده لا يبيع أمانته من أجل شيء زائل وحقير.

فالأمانة رفعت منزلة أصحابها بين الناس فكانوا موضع ثقتهم؛ ولهذا وسدوا أمورهم إليهم، وإن انتشار الأمانة تزيد الثقة والطمأنينة بين أفراد المجتمع، كما إنها تقوي المحبة والأخوة والتعاون بيننا، والأمين يحبه الناس ويحترمونه ويتعاملون معه ويثقون به أما غير الأمين فإنهم يبتعدون عنه، وقد حذرنا رسول الله ﷺ من أن نكون غير أمناء فنصبح من ضعفاء الإيمان أو المنافقين فقال ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"[2]

وتتسع الأمانة في مفهومها لتشمل كل ما يحمله المسلم من أمور الدين والدنيا.

ومن الأمانة أن تنظر إلى حواسك التي أنعم الله ﷻ بها عليك، وإلى جوارحك التي أسداها لك، فتدرك أنها ودائع الله ﷻ عندك فتسخرها في طاعته، وتستخدمها في مرضاته، وتستعملها للجهاد في سبيله، وإن من الخيانة أن تستقوي بها على معصية أو تفتن بها عن طاعة، فأمانة العين تقتضي أن تغض بصرك عما حرم الله ﷻ، وفي

[1] مسند أحمد (39/ 381)، صحيح ابن حبان (11/ 203)، المعجم الكبير للطبراني (18/ 309)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 54)، شعب الإيمان للبيهقي (13/ 454).
[2] رواه البخاري (1/ 16)، رواه مسلم (1/ 78).

المقابل أن تقرأ بها الكتب النافعة لتتعلم أمور دينك ودنياك، قال ﷻ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ ﴿٣١﴾ ﴾ النور: ٣٠ - ٣١، وأمانة اللسان تقتضي أن تكفه عن محرمات الأقوال من كذب وغيبة ونميمة وسخرية واستهزاء، كما أنها تقتضي منك أن تسخره في الدعوة إلى الخير، والتحذير من الشرك، وما أكثر خيانات الألسن ووقوعها في أعراض المسلمين.

ومن معاني الأمانة أن يحرص المرء المسلم على أداء واجبه كاملاً في العمل الذي يناط به، وأن يستنفد جهده في إبلاغه تمام الإحسان، أجل، إنها الأمانة التي يمجدها الإسلام، أن يُخلص الرجل لشغله، وأن يسهر على حقوق الناس التي وضعت بين يديه، فإن استهان الفرد بما كُلّف به - وإن كان تافهاً - سيستشري الفساد في كيان الأمة كلها، ومن أراد الفلاح والفوز والنجاح، فعليه أن يتسلح بهذا السلاح، إنه سلاح الأمانة.

من اشتاق لمرافقة الرسل والأنبياء عليهم السلام في الدرجات العلى، فليتخلق بخلقهم، إنه خلق الأمانة، ومن أراد أن يكون من أولياء الله الصالحين، فليتصف بصفاتهم، ومن صفاتهم الأمانة.

فالأمانة شاملة لعباداتنا ومعاملاتنا وعلاقاتنا الداخلية والخارجية وشؤون حياتنا اقتصاداً وأمناً وتعليماً وتخطيطاً وتنظيماً لشؤون المجتمع كلها أمانة في أعناق الجميع، فليتقي العبد ربه ﷻ فيما يأتي ونذر.

أنَّ الأمانة من أعظم ما به أُمِرْتم، وأنَّ الخيانة من أعظم ما عنه نُهيتم وزُجِرْتم؛ قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ ﴾ الأنفال: ٢٧، فقد أُمِرتم بأداء الأمانة ، ونُهِيتم عن الخيانة فلا تكونوا من الخائنين، وإنَّما حمَّلكم الله ﷻ الأمانةَ إذ كنتم لها مُؤهَّلين، وعليها قادرين؛ فما أعظم شأن الأمانة! بها يثبت الإيمانُ، وعليها تقوم الديانةُ، فهي قرينة الإيمان، ولا يقبل الله ﷻ عبادة الخوَّان.

أدُّوا أماناتكم إلى أهْلها، ولا تخونوا مَن خانَكم مقابلةً للسيئة بمثْلها؛ قال النبي ﷺ: "أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك"[1]

إن الأمانة في الإسلام منظومة شاملة ومتكاملة ومظلة لا تستثني أحداً، وبدون الأمانة لا تستقيم الحياة ولا تستقر الأرض لأهلها بل ستضطرب وتمور موراً. فالأمانة تنظم علاقة العباد بالخالق ﷻ فتؤدى العبادات بالكيفية التي يرتضيها الله ﷻ من عباده، وكذلك تنظم حياة الأفراد فيما بين بعضهم البعض فتحترم الخصوصيات ولا تنتهك الحريات ولا تضيع الحقوق، كما أنها تنظم حياة المجتمعات والشعوب والأمم فتحترم العهود والمواثيق وتسود الضوابط التي معها لا تضيع حقوق الأمم ولا تنتقص هيبتها كبيرة كانت أو صغيرة، قوية كانت أو ضعيفة.

---

[1] مسند أحمد (24/ 150)، سنن ابن ماجه (3/ 1692)، سنن الترمذي (3/ 556)، سنن الدارقطني (3/ 443)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (2/ 53)، المعجم الأوسط للطبراني (4/ 55).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ الأمانة من أجلِّ الأخلاق الإسلاميَّة التي بُنيت عليها شريعةُ الله ﷻ، وبالأمانة تُصانُ الأعْراض والأموال والدِّماء وجميع حُقوق العِباد، وبها يستَقيمُ حال الناس مع الله ﷻ؛ لأنَّ الأمانة تَعُمُّ جميع وظائف الدّين، **يقول القرطبي**: "الأمانة تعم جميع وظائف الدين"[1]

ويقول الكفوي: "الأمانة كل ما افترض الله ﷻ على العباد، فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الدَّين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتمُ الأسرار"[2]

وقال في موضعٍ آخَر: " الأمانة كل ما يؤتمن عليه كأموال وحرم وأسرار فهو أمانة"[3]،

وقال ابن عباس رضِي الله عنهما: المقصود بالأمانة التكاليف"[4]

والأمانة أمان وعلامة على الإيمان، وهي خصلة راسخة في أفئدة المؤمنين، لذلك كانت الأمانة أمانًا وقت الشدة، ووقوع الإنسان في الكروب.

"ومن فوائد الأمانة أنها من كمال الإيمان وحسن الإسلام، ويقوم عليها أمر السماوات والأرض، وهي محور الدين وامتحان رب العالمين ﷻ، وبها يحفظ الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة، والأمين يحبه الله ﷻ ويحبه الناس، ومن أعظم الصفات الخُلُقِيَّة التي وصف الله ﷻ بها عباده المؤمنين، ومجتمع تفشو فيه الأمانة مجتمع خير وبركة"[5]

---

[1] تفسير القرطبي (14/ 253)
[2] الكليات للكفوي (1/ 187).
[3] الكليات للكفوي (1/ 176).
[4] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (8/ 188)
[5] نظرة النعيم (3/ 524).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فاتقوا الله ﷻ، واعلموا أنكم مسؤولون أمام الله ﷻ عما أُوكل إليكم من أعمال، فأنتم مؤتمنون عليها، فكما أنكم لا ترضون التفريط ولا التقصير في مصالحكم الخاصة؛ فكذلك ولاةُ الأمر والمجتمعُ لا يرضون بالتفريط والتقصير في المصالح العامة

النصيحة التاسعة عشر
إلا من أتى الله بقلب سليم

سلامة الصدر، ونقاء السريرة وصفاء النفس من الأمور الدالة على الإيمان والطمأنينة واليقين ومن دوافع العمل الصالح، ومن موجبات الأجر والثواب، وهي صفات تقرِّب صاحبها من الأعمال التي تفتح له أبواب الخير، وتورده مسالك الطريق إلى الجنة؛ لمعرفة أهمية سلامة الدواخل والتصالح مع النفس وخلو الصدور والقلوب من العلل والحقد والحسد وسوء الظنون.

إن سلامة الصدر ونقاءه نتاجه مجتمع متماسك لا تهزه عواصف ولا تؤثّر فيه فتن، سلامة الصدر نعمة ربانية، ومنحة إلهية، ومن أسباب النصر على العدو، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿٦٣﴾﴾ الأنفال: ٦٢ - ٦٣، فائتلاف قلوب المؤمنين من أسباب النصر التي أيد الله ﷻ بها رسوله ﷺ، وسلامة الصدر سبب في قبول الأعمال، قال ﷺ: "تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا، أنظروا هذين حتى يصطلحا"[1]، فانظر كم يضيع على نفسه من الخير من يحمل في قلبه الأحقاد والضغائن.

سلامة الصدر علامة فضل وتشريف، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: "أي الناس أفضل؟ قال: "كل مخموم القلب صدوق اللسان" قالوا: صدوق

[1] رواه مسلم (4/ 1987)

اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غلٍّ ولا حسد"[1]، وصاحب هذا القلب هو الذي ينجو يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله ﷻ بقلب سليم، **قال سعيد بن المسيب** رضي الله عنه: "القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن"[2]، وسُئل ابن سيرين: ما القلب السليم؟ قال: "الناصح لله عز وجل في خلقه"[3]، أي: لا غش فيه ولا حسد ولا غل.

وسلامة الصدر طريق إلى الجنة أيضاً، فقد قال ﷺ: "يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من الوضوء، تكرّر ذلك ثلاث مرات في ثلاثة أيام، فأحب عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يعرف خبيئة هذا الرجل، فبات عنده ثلاثاً فلم يره كثير صلاة ولا صيام فسأله فقال: "ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله ﷻ إياه" فقال عبد الله: هذه التي بلغتَ بك وهي التي لا نطيق"[4]، أفرأيت كيف سمت به سلامة صدره حتى بشِّر بالجنة ثلاث مرات؟!! ولقد راعى سلفنا الصالح هذا الأمر واهتموا به أشد الاهتمام.

إن سلامة القلب كما **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "القلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، ومآل ذلك بأن يعرف الخير والشر فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به"[5]

---

[1] سنن ابن ماجه (2/ 1409).
[2] تفسير ابن كثير (6/ 134).
[3] الهداية إلى بلوغ النهاية (9/ 6122)، إعراب القرآن للنحاس (3/ 289).
[4] مسند أحمد (20/ 124).
[5] مجموع الفتاوي لابن تيمية (10/ 302).

أسباب سلامة الصدر:

أولاً: الإخلاص لله ﷻ، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه مرفوعاً: "ثلاث لا يغل عليهن صدر مسلم إخلاص العمل لله عز وجل ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم"[1]، قال ابن الأثير عن هذا الحديث: "إن هذه الخلال الثلاث تُستصلح بها القلوب، فمن تمسّك بها طهر قلبه من الخيانة والدخل والشر"[2]

ثانياً: الإقبال على الله عز وجل وعلى كتابه الذي أنزله شفاءً لما في الصدور، قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ يونس: ٥٧، فكلما أقبل العبد على كتاب الله عز وجل تلاوة وحفظاً وتدبراً وفهماً صلح صدره وسلم قلبه، فلذا كان الصحابة رضي الله عنهم مصاحف تمشي على الأرض من شدة تطبيقهم لما فيه.

ثالثاً: الدعاء: ومن أسباب سلامة الصدر أن تلهج بدعاء الله ﷻ أن يجعل قلبك سليماً من الغل والضغينة والحقد والحسد، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾ الحشر: ١٠، ومن طرق إصلاح القلب وسلامة الصدر إفشاء السلام بين المسلمين، فعن أبي هريرة

---
[1] مسند أحمد (21/ 60).
[2] النهاية في غريب الحديث والأثر (3/ 381).

﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[1]

رابعاً: الابتعاد عن سوء الظن، فبئس مطية الرجل زعموا، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ۝١٢﴾ الحجرات: ١٢، ولقد قال النبي ﷺ: "إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، كونوا عباد الله إخواناً."[2]، فانظر كيف بدأ بالنهي عن سوء الظن؛ لأنه الذي هو مصدر الشرور كلها المذكورة في الحديث، فطهر قلبك من سوء الظن ما وجدت إلى ذلك سبيلاً.

إن من النعيم المعجل للعبد في هذه الحياة، بل هو جنة الدنيا ولذة العيش، أن يرزق الله ﷻ العبد نعمة سلامة الصدر على كل من عاش معه، أو خالطه، بل على كل أحد! فقلبه أبيض من ثوبه، يرى أن لكل مسلم عليه حقاً!! أما هو فليس له حق على أحد!! ولذا فحياته طيبة مطمئنة! سلّمه الله ﷷ من الأدواء والأدران والأورام التي تنبت في القلب، كالغل والحقد والبغض والعجب والكبر والحسد، وما يتولد عنها من تدابر وتباغض وتقاطع وعقوق، قد جمّله الله ﷻ بابتسامة الرضا والبشاشة وطلاقة الوجه يحبه الناس، لأنه هيِّن ليِّن، رفيق يحب الرفق، لذا فقلبه سَليم ليس كالإسفنجة يمتص كل قذى، يتقرب إلى الله ﷻ بعبادة عجز عنها كثير من المسلمين إلا وهي سلامة الصدر أنه مخموم القلب.

---

[1] رواه مسلم (1/ 74).

[2] رواه البخاري (8/ 19)، رواه مسلم (4/ 1985).

إن سلامة الصدر على المؤمنين لا يدركها ويحصل ثوابها إلا أولو العزم من الرجال، ولذا كانت من أشق ما يجاهد المسلم نفسه عليه، ولقد ضرب الصحابة ﷺ أروع الأمثلة في سلامة القلوب وطهارة الصدور، فكان لهم من هذه الصفة أوفر الحظ والنصيب، فلقد كانوا ﷺ صفاً واحداً يعطف بعضهم على بعض ويرحم بعضهم بعضاً ويحب بعضهم بعضاً كما وصفهم الله ﷻ بذلك، حيث قال ﷻ: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ الحشر: ٩، وكما قال ﷻ في وصفهم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴿٢٩﴾ ﴾ الفتح: ٢٩، ولقد كان لسلامة الصدر عندهم منزلة كبرى حتى إنهم جعلوها سبب التفاضل بينهم، قال إياس بن معاوية بن قرة ﷺ عن أصحاب النبي ﷺ: "كان أفضلهم عندهم أسلمهم صدراً وأقلهم غيبة"[1]، وقال سفيان بن دينار لأبي بشر ﷺ: "أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً، قال سفيان: ولم ذاك؟ قال أبو بشر: لسلامة صدورهم"[2]

إن سلامة الصدر خصلة من خصال البر عظيمة غابت رسومها واندثرت معالمها وخبت أعلامها حتى غدت عزيزة المنال عسيرة الحصول، مع ما فيها من الفضائل والخيرات، فمن فضائل سلامة الصدر أنها صفة أهل الجنة الذين هم خير أهل

[1] مكارم الأخلاق للطبراني ص 338، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (2/ 321).
[2] الزهد لهناد بن السري (2/ 600).

ومعشر، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩، ومن فضائل سلامة الصدر أن صاحبها خير الناس وأفضلهم،

وإن من فضائل سلامة الصدر تدل القلب على الخير والبر والطاعة والصلاح فليس أروح للمرء ولا أطرد للهم ولا أقر للعين من سلامة الصدر على عباد الله ﷻ المسلمين، ومن فضائل سلامة الصدر أنها تقطع سلاسل العيوب وأسباب الذنوب فإن من سلم صدره وطهر قلبه عن الإرادات الفاسدة والظنون السيئة عف لسانه عن الغيبة والنميمة والسوء، وأن فيها صدق الاقتداء بالنبي ﷺ، فإنه ﷺ أسلم الناس صدراً وأطيبهم قلباً وأصفاهم سريرةً.

قال ابن القيم رضي الله عنه: "الفرق بين سلامة الصدر والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعمل به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون عارفًا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لست بخب ولا يخدعني الخب"، وكان عمر أعقل من أن يخدع وأورع من أن يخدع"[1]

وإن من علامات الإيمان سلامة القلب للمؤمنين، وأن يكون قلب المسلم سليمًا؛ لأن صاحب القلب السليم هو الذي ينجو يوم الدين.

فالقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد، والشح الكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله ﷻ، وسلم من كل شبهة تعارض

---

[1] الروح لابن القيم ص 243 – 244.

خبر الله عز وجل، ومن كل شهوة تعارض أمر الله سبحانه وتعالى، وسلم من كل إرادة تزاحم مراد الله عز وجل، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله سبحانه وتعالى.

إن هذه الشريعة جاءت فيما جاءت به إصلاح ذات البين؛ لأجل أن تكون العلاقة بين المؤمنين على أحسن ما يمكن، وأمر الله سبحانه وتعالى بإصلاح ذات البين؛ لأجل حفظ سلامة الصدور، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ الأنفال: ١، وجاءت الشريعة بكل الأمور التي تكفل سلامة صدر المسلم لأخيه، وسلامة الصدر مطلب شرعي, وهي نعمة من النعم التي توهب لأهل الجنة حينما يدخلونها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحجر: ٤٧، فأهل الجنة لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله عز وجل بكرة وعشيًا.

سلامة الصدر، سلامة القلب، طهارته من الغل والحقد للمسلم، هذه راحة ونعمة؛ ولذلك أكدت عليها الشريعة، حتى يعيش الناس في بحبوحة من أمرهم، وفي سلامة وعافية، فإن سلامة صدر المسلم لأخيه من أعظم الأسباب لتحقيق ذلك، وهذه مسألة صعبة ولا شك، فإن المسلم قد يحسن مكابدة الليل، وقيام ساعاته، ولكنه قد لا يستطيع أن يزيل من قلبه كل شيء فيه على إخوانه، ولقد وصف العلماء أخلاق أهل العلم، فقال محمد بن الحسين: "لا مداهن، ولا مشاحن، ولا مختال، ولا حسود، ولا حقود، ولا سفيه، ولا جاف، ولا فظ، ولا غليظ، ولا طعان، ولا لعان، ولا مغتاب، ولا سباب، يخالط من الإخوان من عاونه على طاعة ربه عز وجل،

ونهاه عما يكره مولاه ﷻ، ويخالط بالجميل من لا يأمن شره؛ إبقاء على دينه، سليم القلب للعباد من الغل والحسد، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين، في كل ما أمكن فيه العذر، لا يحب زوال النعم عن أحد من العباد، هذا دأب طالب العالم، والداعي إلى الله ﷻ، والمتمسك بالدين، هذا حاله، وهذا خلقه، لقد أثنى الله ﷻ على الأنصار لأمر مهم في غاية الأهمية قال ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ۝٩﴾ الحشر: ٩، لما فضل المهاجرون على الأنصار"[1]

كانت قلوب الأنصار سليمة لإخوانهم، ولم يعترضوا على تفضيلهم، ولم يحسدوهم على ما آتاهم الله ﷻ من فضله، وإنما كانت الأنصار كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ۝٩﴾ الحشر: ٩، أي: مما أؤتي إخوانهم المهاجرون من الفضل وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ لو كان بهم حاجة مع ذلك يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ، إنها ليست مسألة سهلة أن يكون المسلم دائمًا سليم الصدر لإخوانه، ليس في قلبه غش، ولا حقد، ولا حسد على أحد من إخوانه، إنه أمر بالغ الصعوبة، ولكن يحصل بالمجاهدة، ومن وفقه الله ﷻ له حصل له.

إن الهدية تذهب وحر الصدر، قال النبي ﷺ: "تهادوا تحابوا"[2]، فلو كان بين مسلم وأخيه شيء فأهدى له هدية، فلا شك أن مثل هذه الهدية كفيلة – في الغالب– بإذهاب ما أوغل، فهذه من العلاجات الشرعية.

---

[1] أخلاق العلماء للآجري ص 64 – 65.
[2] المعجم الأوسط للطبراني (7/ 190).

قال ابن رجب عن بعض السلف: "أفضل الأعمال سلامة الصدور وسخاوة النفوس، والنصيحة للأمة وبهذه الخصال بلغ من بلغ لا بكثرة الاجتهاد في الصوم والصلاة أرأيتم كيف شهد النبي ﷺ لرجل من أصحابه بالجنة مع شهادة الرجل على نفسه أنه ليس كثير صلاة فما السر في ذلك؟"[1]

إن المسلم الصادق يعيش سليم القلب مبرءاً من وساوس الحقد والضغينة والكره والبغضاء متى رأى نعمة تساق إلى غيره فرح ورضي بها وأحس بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ فيها وتذكر قول الرسول ﷺ: "اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر"[2]

إن المسلم الحق هو الذي تمتد مشاعر حبه فتغمر ما حوله وتفيض على الآخرين سلاماً وأمناً، والمجتمع المسلم حقاً هو الذي يكون بين أفراده عواطف حب مشترك وعلاقات ود متبادلة يتعاونون ويتراحمون ويدعو بعضهم لبعض.

إن سلامة الصدر فضيلة عظيمة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس فربما لم يحالفه الحظ في الحياة وهنا لا يحقد على غيره ولا يتربص به الشر بل لكلٍ ما قسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له، وأما هدي إبليس فهو الحقد والحسد؛ لأنه لما رأى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر منه حظاً حلف ألا يترك أحداً من بنيه يستمتع، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ ﴾ الأعراف: ١٦ - ١٧

---

[1] تفسير ابن رجب (2/ 397).
[2] السنن الكبرى للنسائي (9/ 8).

وإن سلامة الصدر لترتقي بصاحبها وتحلق به في سماء الفضيلة، وتسافر به من محطة الدنيا ولا ترضى له بغير الجنة محطاً ومنزلاً، **قال ابن رجب**: "أفضل الأعمال سَلَامة الصَّدر من أنواع الشَّحْناء كلِّها.. أنَّ سَلَامة الصَّدر، ونقاء القلب من أمراضه – والتي منها الغِلُّ– صفة من صفات أهل الجنَّة، وميزة من ميزاتهم، ونعيم يتنعمون به يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الحجر: ٤٧"[1]

إن من النعيم المعجل للعبد في هذه الحياة، بل هو جنة الدنيا ولذة العيش أن يرزق اللهُ ﷻ العبد نعمة سلامة الصدر على كل مَن عاش معه، أو خالطه، بل على كل أحد! فقلبه أبيض من ثوبه، يرى أن لكل مسلم عليه حقًّا، وليس له حق على أحد؛ ولذا فحياته طيبة مطمئنة، يحب الخير لغيره كما يحبه لنفسه.

فما أحوجنا إلى صدور سليمة، وقلوب مطمئنة؛ فالقلوب هي منبع المشاعر، ومصدر العواطف، ومحرك الأخلاق، وموجه التصرفات، فإذا صلَحت صلَحت كل الأعمال والأخلاق، وإذا فسدت فسدت كل الأعمال والأخلاق؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلَحتْ صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[2]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جارُه بوائقَه"[3]

---

[1] تفسير ابن رجب (2/ 396).
[2] رواه البخاري (1/ 20)، رواه مسلم (3/ 1219).
[3] مسند أحمد (20/ 343).

فإن سلامة الصدور من صفات أهل الجنة، فلا يَصلُح لسكنى الجنة مَن تلوَّث قلبه بالأدران، بل مَن صفت قلوبهم وطهرت نفوسهم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: "أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا تباغضَ بينهم ولا تحاسد، لكل امرئ زوجتان من الحور العين، يُرى مُخُّ سوقهن من وراء العظم واللحم"[1]

أطهر الناس قلوبًا، وأحسنهم سريرة، وأسلمهم صدورًا أنبياء الله ورسله عليهم السلام، الذين أحبوا الخير لأقوامهم وأممهم، وبذلوا كل غالٍ ونفيس في نصحهم وإرشادهم، وتعليمهم وهدايتهم؛ قال سبحانه وتعالى عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾ الشعراء: ١٠٦ - ١٠٩، وقال سبحانه وتعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ الصافات: ٨٣ - ٨٤، أما نبيُّنا محمد ﷺ فقد منَّ الله سبحانه وتعالى عليه بانشراح الصدر، وسلامة القلب، وطهارة النفس؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ الشرح: ١ - ٤، ففي سلامة الصدر صدق الاقتداء بالنبي ﷺ، الذي كان أسلم الناس صدرًا، وأطيبهم قلبًا، وأصفاهم سريرة، فعن عائشة رضي الله عنها زوج

[1] رواه البخاري (4/ 119).

النبي ﷺ أنها قالت للنبي ﷺ: "هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملَك الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا."[1]، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدمَوْه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: "اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون"[2]

ولا تزال طهارة القلب بالعبد، حتى تكون سببًا له في قبول أعماله الصالحة؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقبَل العمل ما صاحبتْه نيةٌ صالحة، أما أهل الشحناء والبغضاء، فهم موقوفون عن القبول حتى يتم الصلح بينهم.

"ومن فوائد سَلَامة الصَّدر أنَّها سبيل لدخول الجنَّة، فهي صفة من صفات أهلها، ونعت من نعوتهم، وأنَّها تكسو صاحبها بحلَّة الخيريَّة، وتلبسه لباس الأفضلية، وأنَّها تجمع القلب على الخير والبِرِّ والطَّاعة والصَّلاح، فلا يجد القلب راحة إلا فيها، ولا تقرُّ عين المؤمن إلا بها، وأنَّها تزيل العيوب، وتقطع أسباب الذُّنوب، فمن سَلِم

[1] رواه البخاري (4/ 115)، رواه مسلم (3/ 1420).
[2] رواه البخاري (4/ 175).

صدره، وطَهُر قلبه عن الإرادات الفاسدة، والظُّنون السَّيئة، عفَّ لسانه وجوارحه عن كلِّ قبيح، وأنَّ فيها اقتداء بالنَّبي ﷺ وتأسِّيًا به"

أصلحوا قلوبكم، وطهِّروا سرائركم، وتفقدوا بواطنكم؛ فإن مَن صلحت سريرته صلَحت علانيته، ومن طهر قلبه حسن عمله، "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"

النصيحة العشرون
ادعوا ربك تضرعا وخفية

يعدّ الدعاء من العبادات العظيمة، والقربات المحببة إلى الله ﷻ، وهو يعني اللجوء إلى الله ﷻ في السراء والضراء، والاستعانة به، والخضوع له، طمعاً في رحمته والخير الذي عنده، وطلباً لتحقيق الحاجات في الدنيا والآخرة، وفيه يجد العبد راحة القلب، وسكينة النفس والجوارح.

إن الله ﷻ هو الرحيم بعباده فهو الذي خلق الإنسان وجعل له من الأسباب ما يعينه على أن يعيش حياته بكل سلاسة ويسرٍ في طاعته ﷻ، ومن ضمن هذه الرحمة بنا أنّ جعل الله ﷻ لنا الدعاء الذي يقوم به الإنسان بالتوجه إلى الله ﷻ ليطلب منه الرحمة والغفران أو يطلب منه أن يعينه على الدنيا ومغرياتها، فلو تُرك المسلم لوحده في هذه الدنيا الفسيحة لما استطاع الصمود في الدنيا حتى ولو لبرهةٍ قصيرةٍ من الزمن، إذ إنّ الإنسان هو أضعف المخلوقات لوحده، فلذلك يستمد الإنسان الحكيم قوته من الله ﷻ فهو القوي الذي خلق الإنسان والقادر على إعانته في الدنيا والآخرة فيعتبر هذا أول فضل وفائدةٍ للدعاء إذ إنه يمدّ الإنسان بالقوة التي تلزمه كي يقوم بالسير على الصراط المستقيم الذي وضعه الله ﷻ للإنسان.

ولقد بيّن الله ﷻ ورسوله ﷺ فضل الدعاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: ١٨٦،

فالله ﷻ هو أقرب إلى الإنسان من أي مخلوق في الكون فلذلك يكون طلب الإنسان الواعي إلى الله ﷻ وحده وليس لأي مخلوق آخر، ففي هذه الآية بيّن الله ﷻ أنّه قريب إلى الإنسان أثناء الدعاء فهو يجيب الإنسان على الدوام عندما يقوم بدعائه بقلب خاشع متوجه إليه ﷻ، فالدعاء هو من أفضل أنواع العبادة التي من الممكن أن يقوم بها الإنسان فهي تؤنس المؤمن في أحلك الأوقات التي تمر على الإنسان خلال حياته فعندما يطلب الإنسان من الله ﷻ العون عن طريق الدعاء لا يكون هنالك وسيطٌ بينه وبين الإنسان فتأتي الإجابة من الله ﷻ بسرعة لا يمكن تخيلها، فيجيب بها المكروب ويستجيب منها الدعاء ويزيد من حسنات الإنسان عن طريق الدعاء حتى يتمنى الإنسان يوم القيامة أنّ الله ﷻ لم يستجب دعائه في الدنيا وأجلّه له كلّه إلى الآخرة، وحتى يستجيب الله ﷻ للإنسان فلا بد أن يكون الدعاء منطلقاً من قلب خالص النية إلى الله ﷻ وحده ولا يكون مخلوطاً بأي نوعٍ من أنواع الرياء للناس، كما أنّه من المهم أن يتقرب إلى الله ﷻ في جميع الظروف فلا يدعوه في الكرب وينساه في الرخاء، هذا بالإضافة إلى محاولة انتقاء الألفاظ المناسبة للدعاء على قدر الاستطاعة بالإضافة إلى استغلال الأوقات التي يستجيب الله ﷻ فيها الدعاء أكثر من غيرها.

ويقوم الدعاء على أساس التوجه لله ﷻ في مختلف الأوقات والأماكن والحالات بطلب ما يريد، ويجدر بالذكر أن الله ﷻ لا يحب من عبده أن يتوجه لسواه، والمسلم يظل في حاجةٍ مستمرةٍ لعون وقوة ومساعدة الله ﷻ له.

الدعاء من أشرف العبادات وأجلّ الطاعات لا يستغني عنه العبد في حال من الأحوال، وهو صلة بين العبد وربه عز وجل، وكلما كثر رجاؤه بالله سبحانه وتعالى وحسن ظنه به كثر دعاؤه وأعرف الخلق بالله عز وجل أكثرهم دعاءً له.

وهو دليل على كمال افتقار العبد لربه سبحانه وتعالى واستغنائه به ولذلك أمر به الشرع، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر: ٦٠، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ ﴿٥٥﴾ ﴾ الأعراف: ٥٥، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدعاء هو العبادة"[1]

الدعاء هو العبادة، هو اللجوء والتضرع لله عز وجل، هو التوفيق والنجاح والفلاح، هو صلة الوصل بين العبد وربه عز وجل.

الدعـاء شفاء للقلوب وسعادة في الدارين، عندما تدعو تذكر أنك تناجي ملك الملوك ومن بيده ملكوت كل شيء.

فالدعاء طريق النجاة، وسلم الوصول، ومطلب العارفين، ومطية الصالحين، ومفزع المظلومين، وملجأ المستضعفين، به تُستجلب النعم، وبمثله تُستدفع النقم.

ما أشد حاجة العباد إليه، وما أعظم ضرورتهم إليه، لا يستغني عنه المسلم بحال من الأحوال، وهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه، وأمرٌ هذا شأنه حريٌ بالمسلم أن يقف على فضائله وآدابه، وهو سلاح قوي يستخدمه المسلم في جلب الخير ودفع الضر، قال صلى الله عليه وسلم: "من فُتح له منكم باب

---

[1] مسند أحمد (30/ 340)، سنن الترمذي (5/ 211)، السنن الكبرى للنسائي (10/ 244)، صحيح ابن حبان (3/ 172)، المعجم الصغير للطبراني (2/ 208)، المعجم الكبير للطبراني (21/ 150).

الدعاء فتحت له أبواب الرحمة، وما سُئل الله شيئاً يُعطى أحب إليه من أن يُسأل العافية، إن الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء"[1]

وهو سلاح استخدمه الأنبياء عليهم السلام في أصعب المواقف، فها هو النبي ﷺ في غزوة بدر عندما نظر إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر استقبل القبلة ثم رفع يديه قائلاً: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بالدعاء ماداً يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه وقال: "يا نبي الله، كفاك منشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك"[2]، وها هو نبي الله أيوب عليه السلام يستخدم سلاح الدعاء بعدما نزل به أنواع البلاء، وانقطع عنه الناس، ولن يبقَ أحد يحنو عليه سوى زوجته، وهو في ذلك كله صابر محتسب، فلما طال به البلاء دعا ربه عز وجل قائلاً: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴿٨٤﴾ ﴾ الأنبياء: ٨٣ – ٨٤، والدعاء سبب لتفريج الهموم وزوال الغموم، وانشراح الصدور، وتيسير الأمور، وفيه يناجي العبدُ ربّه عز وجل، ويعترف بعجزه وضعفه، وحاجته إلى خالقه ومولاه سبحانه وتعالى، وهو سبب لدفع غضب الله سبحانه وتعالى لقول النبي ﷺ: "من لم يسأل الله يغضب عليه"[3]

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 498).
[2] رواه مسلم (3/ 1383).
[3] سنن الترمذي (5/ 456).

وهو سلاح المظلومين ومفزع الضعفاء المكسورين إذا انقطعت بهم الأسباب، وأغلقت في وجوههم الأبواب، **يقول الشافعي**:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه *** وما تدري بما صنع الدعاءُ

سهام الليل لا تخطي ولكن *** له أمدٌ وللأمد انقضاء[1]

وقال ابن قيم الجوزية رضي الله عنه: "الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن"[2]؛ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدِّين، ونور السماوات والأرض"[3]

الدعاء طاعة لله عز وجل، وامتثال لأمره عز وجل؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٢٩﴾ الأعراف: ٢٩، فالدعاء هو أعلى أنواع العبادة؛ فإنه سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ٦٠﴾ غافر: ٦٠، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ٦٠﴾ غافر: ٦٠، فأفاد بذلك أن الدعاء عبادة، وأن تركَ دعاء الله سبحانه وتعالى استكبارٌ؛ وبذلك يكون في الدعاء سلامةٌ من الكِبْرِ، والدعاء محبوب لله عز وجل، وأكرم شيء على الله عز وجل؛ قال ﷺ: "ليس شيءٌ أكرَمَ على الله عز وجل من الدعاء"[4]

---

[1] ديوان الإمام الشافعي، جمعه محمد عفيف الزعبي، ص 17.

[2] الجواب الكافي لمن يسأل عن الجواب الشافي لابن القيم ص 10.

[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 669).

[4] مسند أحمد (14/ 360)، سنن ابن ماجه (2/ 1258)، سنن الترمذي (5/ 455)، صحيح ابن حبان (3/ 151)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 666).

والدعاء دليل على الإيمان بالله ﷻ، والاعتراف له بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات؛ فدعاء المسلم لربه ﷻ متضمِّن إيمانه بوجوده، وأنه غنيٌّ، سميع، بصير، كريم، رحيم، قادر، مستحقٌّ للعبادة وحده دون مَن سواه، وهو سببٌ لانشراح الصدر؛ ففيه تفريج الهم، وزوال الغم، وسبب لدفع البلاء قبل نزوله، وسبب لرفعِ البلاء بعد نزوله؛ قال ﷺ: "ولا يرُدُّ القدرَ إلا الدعاءُ"[1]، وهو سببٌ في حصول المودة بين المسلمين؛ فإذا دعا المسلم لأخيه المسلم بظَهرِ الغيب استجيبت دعوته، ودل ذلك على موافقة باطنه لظاهره، وهذا دليلُ التقوى والصِّدق والترابط بين المسلمين.

والدعاء مِن صفات عبادِ الله ﷻ المتقين؛ قال ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، والدعاء مفزع المظلومين، وملجأُ المستضعَفين، وفيه سلامة من العجز، ودليلٌ على الكياسة؛ قال رسول الله ﷺ: "أعجزُ الناس مَن عجَز عن الدعاء، وأبخلُ الناس مَن بخل بالسلام"[2]، الدعاء وسيلة لكبر النفس، وعلو الهمة، وبهذا يقطع الطمع مما في أيدى الخَلْق.

إن الله ﷻ يحب أن يُسأل، ويُرغبَ إليه في كل شيء، ويغضب على من لم يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وللدعاء من الدين منزلة عالية رفيعة، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى

[1] مسند أحمد (37/ 111)، سنن ابن ماجه (2/ 1334).
[2] المعجم الأوسط للطبراني (5/ 371)، شعب الإيمان للبيهقي (11/ 193).

كان السلاح سلاحًا تامًا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير"[1]

فالدعاء شفاء للقلوب ومطلب العارفين ومطيّة الصالحين ونيل السعادة في الدارين فاجعل نفسك من الفائزين من عطايا رب العالمين ﷻ، **قال عبدالله الأنطاكي** رضي الله عنه: "دواء القلب خمسة أشياء مجالسة الصالحين وقراءة القرآن وإخلاء البطن من الحرام وقيام الليل والتضرع عند الصبح"[2]، **وقال سفيان بن عيينة** رضي الله عنه: "لا يمنعنّ أحد الدعاء ما يعلم في نفسه من تقصير فإن الله ﷻ قد أجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون"[3]، **وقال المناوي**: "إذا تمنى أحدكم خيرًا من خير الدارين فلْيكثر الأماني فإنما يسأل ربه عز وجل الذي رباه وأنعم عليه وأحسن إليه فليعظم الرغبة ويوّسع المسألة؛ فينبغي للسائل الإكثار ولا يختصر ولا يقتصر فإن خزائن الجود سحّاء ليلاً ونهاراً ولا يفني عطاؤه عز وجل"[4]

فإذا كنت من الموفَّقين باغتنام فرص الدعاء فاعلم أن ذلك من سلامة قلبك وجودة رأيك واعلم إنك لن تخسر شيئًا في دعائك ولن ترجع صفر اليدين، فقد قال رسول الله ﷺ: "ما من مسلم يدعو ليس بإثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث إما تعجّل له دعوته وإما يدّخرها له في يوم الآخرة وإما يدفع عن السوء مثله، قال أحد الصحابة إذاً نكثر يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: الله أكثر"[5]

---
[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص 15.
[2] روح البيان (6/ 46)، تنبيه الغافلين للسمرقندي ص 405.
[3] فتح الباري لابن حجر (11/ 140)، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (7/ 346).
[4] فيض القدير للمناوي (1/ 320).
[5] مسند أحمد (17/ 213)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 670).

وإيّاك ودعوة المظلوم فقد قال معاذ ابن جبل ﷺ بعثني النبي ﷺ لليمن فقال: "اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"[1]، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "إني لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء"[2]

وهناك مواطن لإجابة الدعاء اجتهد فيها، **قال ابن القيم** ﷺ: "إذا جُمع مع الدعاء حضور القلب وصادف وقتًا من أوقات الإجابة السِّتة وهي الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبة وعند صعود المنبر يوم الجمعة حتى تُقضى الصلاة وآخر ساعة من يوم الجمعة وصادف ذلك خشوعًا وخضوعًا في القلب وانكسارًا بين يديه بذل وانكسار ورقة واستقبال للقبلة وكان على طهارة ورفع يديه وبدأ بالحمد والثناء عليه ثم يصلي على رسوله ﷺ ثم يُقدم حاجته بالتوبة والاستغفار ثم يدخل على الله ويلح عليه بالمسألة ودعاه رغبةً ورهبةً وتوسل بأسمائه وصفاته وتوحيده ويُقدم بين يديه صدقة"[3]، **وقال سهل بن عبد الله** ﷺ: "شروط الدعاء سبعة أولها التضرع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال"[4]

ما لنا ندعو الله ولا يستجاب لنا!! **قال إبراهيم بن أدهم** ﷺ: "لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم رسوله ﷺ فلم تتبعوا سنته وعرفتم القرآن فلم تعملوا به وأكلتم نِعمَ الله فلم تؤدوا شكرها وعرفتم الجنة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها

[1] رواه البخاري (3/ 129)، سنن الترمذي (4/ 368).
[2] الفوائد لابن القيم ص 97.
[3] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص 12
[4] تفسير القرطبي (2/ 311).

وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ودفنتم الأموات فلم تعتبروا وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس"[1]

الدعاء سلاح المؤمنين به يدعون ربهم عَزَّوَجَلَّ نداء المستغيثين واستجارات المستجيرين ويزيل همّ المهمومين وينفس الكرب عن المكروبين وقاضي الدَّين عن المدينين وينصر المجاهدين ويُعين المعسرين ويفك أسرى المأسورين، فتح أبواب سماواته وأنزل ملائكته حفظه لعباده وينزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل طالباً عباده بكشف ما بهم من ضُر ويغفر لهم ذنوبهم ويقبل توبتهم ويجيب دعاءهم ويعطيهم سؤالهم.

الدعاءُ هو سلاح المؤمن في وقت الرَّخاء والشدة، وهو عبادة سهلة ميسورة بمقدور كل مسلم سقيم أو معافًى، مسافر أو مقيم، صغير أو كبير، في كل زمان ومكان أن يلتجئ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدعو ويطلب من الله عَزَّوَجَلَّ موقنًا بالإجابة، غير متسرعٍ فيها.

هلمَّ نلهج بالدعاء، والتضرع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونتيقن أن دعوة المؤمن لا ترد! والخير فيما يختاره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له من تعجيل الإجابة، أو يعوضه الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أولى له عاجلاً أو آجلاً، أو بأن يدفع عنه من السوء مثلها، أو يدخر له في الآخرة خيرًا مما سأل؛ فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "ما على الأرض مسلمٌ يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدعوة إلا آتاه اللهُ إياها، أو صرَف عنه من السوءِ مثلها، ما لم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعة رحم"، فقال رجلٌ من القوم: إذًا نكثر، قال: "اللهُ أكثر"[2]

[1] تفسير القرطبي (2/ 312)
[2] سنن الترمذي (5/ 566).

أرفع أكفك إلى السماء وأقرع باب السماء بمفاتيح الدعاء، وقل (يا أرحم الراحمين)، فعن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن ملكاً موكل بمن يقول يا أرحم الرحمين، فمن قالها ثلاثاً، قال له الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل"[1]

الدعاءُ شأنُه في الإسلام عظيمٌ، ومكانتُه فيه ساميةٌ، ومنزلتُه منه عالية، في الدعاء يجد الداعي لروحه غذاء، ولنفسه دواء، يدعم كيانها، ويقوى بنيانها، ويجعلها تتغلب على كل ما يؤثر عليها، فلا يتسرب إليها يأس، ولا يتملكها ضعف.

الدعاء، استعانة من عاجز ضعيف بقوي قادر، استغاثة بملهوف برب رؤوف، فعن سلمَان ﵁ عن النبي ﷺ قال: " إن ربكم حيي كريم، يستحيي من عبده أن يرفع إليه يديه، فيردهما صفراً."[2]

والدعاء عبادة من أجل العبادات وأعظم الطاعات وأنفع القربات، وهو أنيسُ المؤمنِ عند الشدائد، ومسلِّيه عند اشتداد الكُرَبِ ونزولِ المصائب، فما استجلبت النعم بمثله، ولا استدفعت النقم والبلايا بمثله، قال ﷺ: "من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء"[3]، فالدعاء ثمرته مضمونة، وربحه حاصل.

"ومن فوائد الدعاء سرعة الفرج وتفريج الكرب، وإلقاء الهم على الرب ﷻ لحسن الظن بالقرب، وسلاح يتقي به العدو وسوء القضاء، يجلب المصالح ويدفع المفاسد، ويشغل العبد بذنبه وعيبه عن عيب غيره، ومداومة الشعور بالضعف والحاجة فلا يزال يدعو حتى ينال حاجته، ويعد من أجل أنواع العبادة فيقصد لذاته كما يقصد

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 544).
[2] سنن ابن ماجه (2/ 1271)، المعجم الأوسط للطبراني (5/ 31).
[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 729).

لقضاء الحاجة ولدفع المضرة، ويدعو المسلم إلى التعرف على الآداب الشرعية، ويشعر المسلم بأنه في معية الحق دوماً."[1]

فادْعوا الله ﷻ وأنتم موقنون بالإِجابة، ولا تقعدنَّكم عن الدعاء الغفلة، أو الركون إلى ضلال الضالين، وشبه المنحرفين؛ فإنَّ للدعاء أثرَه الواضح الفعَّال، في تحقيق الرغائب وبلوغ الآمال، وحسبك أنه هو العبادة التي تفتح بها أبواب الرحمة؛ إذا توجَّه به العبد إلى ربِّه ﷻ راغبًا راهبًا نال رضاه، وبلغ به فوق ما يتمناه.

قال ﷻ: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ ﴾ الأعراف: ٥٥ - ٥٦

[1] نظرة النعيم (5/ 1944).

النصيحة الحادية والعشرون
ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

إن الأصل الأول الذي وُجد لأجله الإنسان المسلم في الحياة الدنيا هو عبادة الله ﷻ، وتوحيده دون غيره من المخلوقات، قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦، والطريق إلى عبادة الله ﷻ يكون عن طريق الدعوة إلى الإيمان به، لمن أشرك به أو كفر بوجوده، ليعلم أنّ الكُفر أو الشِّرك به باطل، وأنّ الحقّ يكون في اتّباع ما أمر به الله ﷻ، وترك ما كان يعبد الناس من أصنام وأوثان من دون الله ﷻ، والدعوة تكون بالحكمة والموعظة الحسنة وتبادل الأدلّة بالمنطق؛ لتبيين الحقّ ودحض الباطل، قال ﷻ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل: ١٢٥، فينبغي أن تكون الدعوة كما أمر الله ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة.

الدعوة إلى الله ﷻ هي التعريف به وبرسالته، وهي رسالة الأنبياء عليهم السلام جميعاً ووظيفتهم المقدسة، ورسالة الدعاة من بعدهم وهي واجبة واستحق حاملها مدح الله ﷻ والثناء عليه، قال ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ فصلت: ٣٣

تعتبر الدعوة إلى الله ﷻ من أعظم ما يقوم به المسلم من مهام، وهي وظيفة الرسل والأنبياء والدعاة من بعدهم الذين يعدّون أحسن الناس قولاً.

إنّ الدعوة إلى الله ﷻ كما عرّفها **ابن تيمية** رضي الله عنه: "هي الدعوة إلى الإيمان به وما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به وطاعتهم فيما أمروا"[1]؛ فالدعوة تقوم على دعوة النّاس إلى التصديق بالله ﷻ مع قرن ذلك بالعمل الصالح، وهي تتسع لتنتظم بها كل شؤون المسلم اليومية، وعلاقاته مع الناس والكون من حوله، وهناك خصائص للدعوة إليه ﷻ وهناك أساليب وطرق للدعوة.

والدّعوة إلى الله ﷻ هي دعوة إلى العدل والإحسان وإلى كلّ ما يطمئن القلب له من عقائد سليمة متوافقة مع الفطرة التي فطر النّاس عليها، وهي دعوة إلى الصّراط المستقيم الذي أمر باتّباعه الله ﷻ، وهي دعوة إلى خير الأخلاق وأحسن الصّفات والخِصال، وهي دعوة لفعل الخيرات واجتناب السيئات وحفظ الحقوق ونشر المحبة والأخوّة بين النّاس، ولذلك فقد أمر الله ﷻ ورغّب كثيراً للقيام بها في القرآن الكريم والسّنة النبويّة، وأمر الله ﷻ كلّ مسلمٍ بالدعوة إليه، وذلك في كل وقتٍ، وفي كل مكانٍ، لأنّ الإسلام دينٌ يطالب أتباعه بأن يفكروا بالإنسانية كلّها، ويحرصوا على نفع البشرية جمعاء، وذلك من خلال تبليغهم رسالة الله ﷻ الخالدة، دون أن يفرّقوا بينهم في الجنس، أو اللون، أو العرق، أو غيره، والواضح في هذا الزمان أنّ الكون كلّه يغرق في المصائب، والويلات؛ بسبب ابتعاده عن المنهج القويم الذي وضعه له الله ﷻ، ومن هنا تظهر الحاجة إلى أن يأخذ أحدهم بيد هذا العالم، وينتشله من

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (20/ 7).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الوقوع في الهلاك، وذلك من خلال الدعوة إلى الله ﷻ، وهنا بالتحديد تبرز أهمية الدعوة إلى الله ﷻ.

فالدعوة إلى الله ﷻ عمل عظيم، وأجره كبير من الله ﷻ، والدعوة لا تقتصر فقط على العلماء والدعاة، إنّما كل مسلم هو داعية إلى الله ﷻ، يدعو على قدر علمه، ولا يُشترط أن تكون دعوته بالقول فقط، بل يُمكن للمسلم أن يدعو إلى دين ربّه ﷻ بأعماله وسلوكه الحسن وتعامله مع الناس بأخلاقه الراقية، ليكون سبباً في محبتهم لدين الإسلام وترغيبهم في الاندماج معه وبالتالي تطبيق تعاليمه السمحة.

أنّ من يدعو إلى الله ﷻ يُمكن أن يكون سبباً في صلاح كثير من الناس وهدايتهم وتعريفهم بالله ﷻ ليرجعوا على الضلال ويعودوا إلى الحق ويُنقِذوا أنفسهم من العذاب، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بِعِظَمِ أجر الدعوة في كلامٍ ثمينٍ وجّهه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم"[1]

فمقام الدعوة إلى الله ﷻ في الإسلام عظيم، بل هي أساس من أسس انتشارهِ، وركن من أركان قيامه، قال ﷻ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٨، فلولا الدعوة إلى الله ﷻ لما قام دين، ولا انتشر إسلام، وبالدعوة إلى الله ﷻ يُعبَد الله ﷻ وحده، ويهتدي الناس، فيتعلمون أمور دينهم، من توحيد ربهم ﷻ، وعبادته، وأحكامه من حلال وحرام، ويتعلمون حدود ما أنزل الله ﷻ، وبالدعوة إلى الله ﷻ

[1] رواه البخاري (5/ 18)، رواه مسلم (4/ 1872).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تستقيم معاملات الناس، من بيع وشراء، وعقود، ونكاح، وتصلح أحوالهم الاجتماعية والأسرية، وبالدعوة إلى الله ﷻ تتحسن أخلاق الناس، وتقل خلافاتهم، وتزول أحقادهم وضغائنهم، ويقل أذى بعضهم لبعض، وإذا ما قامت الدعوة على وجهها الصحيح، واستجاب الناس لها، تحقق للدعاة وللمدعوين سعادة الدنيا والآخرة، وإذا استجاب الناس للدعوة، وعملوا بالشريعة، حُفظت الأموال، وعصمت الدماء، وصينت الأعراض، فأمن الناس على أنفسهم، واطمأنوا على أموالهم وأعراضهم، وانتشر الخير، وانقطع الفساد، وكل ذلك لا يتم إلا بالدعوة إلى الله ﷿، لذلك كان للدعوة في الإسلام، الحُظوة الكبرى، والقِدْح المعلاّ، والفضل العظيم، وكانت وظيفة الأنبياء الأولى، فالدعوة إلى الله ﷿، شرف عظيم، ومقام رفيع، وإمامة للناس، وهداية للخلق، فضلاً عما ينتظر الداعين في الآخرة من أجر عظيم، ومقام كريم.

إن الدعوة إلى الله ﷻ ضرورة شرعية دل عليها الكتاب والسنة بل لقد نبهت الكتب السابقة قبل نزول القرآن الكريم على أن شعار هذه الأمة هو الدعوة إلى الله ﷿، كما جاء في قوله ﷻ عن مؤمني أهل الكتاب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ

﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ الأعراف: ١٥٧، فقد قدم الله ﷻ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهما أساس الدعوة قدمهما على تشريع الحلال والحرام.

ومما يؤكد أهمية الدعوة إلى الله ﷻ أن الله ﷻ جعلها قسيمة الجهاد في سبيله، قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ التوبة: ١٢٢، فقد سمى الله ﷻ الخروج في طلب العلم لتعلمه وتعليمه نفيراً وجعله مقابلاً للذين ينفرون للجهاد في سبيله، كما أن الله ﷻ جعل الدعوة من وسائل التمكين في الأرض، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ الحج: ٤١

وأعظم فضائل الدعوة على هذه الأمة هي الخيرية المطلقة التي نالت بها قصب السبق على كل الأمم، قال ﷻ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ١١٠﴾ آل عمران: ١١٠؛ لأن نفع الناس وتعليمهم الهدى والخير من أعظم الأعمال التي يحبها الله ﷻ .

وإن من بركة الدعوة إلى الله ﷻ ما يكون لها من آثار طيبة من رجوع إلى الحق والعمل به وانتشار الخير واندحار الشر وأهله وإن أعظم الآثار قاطبة ما يعيشه

المسلمون إلى يوم القيامة من إيمان بالله ﷻ وتوحيد خالص وخروج من الظلمات إلى النور ببركة دعوة النبي ﷺ، ثم أتى الصحابة ﵃ من بعده ﷺ ودعوا إلى الله ﷻ فكانت لدعوتهم آثار عظيمة فإنهم قد نشروا الإسلام شرقاً وغرباً ثم جاء من بعدهم من السلف.

إن الدعوة إلى الله ﷻ يقصد بها كل ما فيه ترغيب في الدعوة إلى دين الله ﷻ والتمسك به، ويجمل ذلك ويوضحه قوله ﷻ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل: ١٢٥، فسبيل الله ﷿ هو الإسلام وهو الصراط المستقيم هو الذي يجب الدعوة إليه لا إلى مذهب فلان ولا إلى رأي فلان، ولكن إلى دين الله ﷿ الذي بعث به محمد ﷺ وعلى رأس ذلك الدعوة إلى العقيدة الصحيحة وتوحيد الله ﷿ بالعبادة والإخلاص له، ويدخل في ذلك الدعوة إلى ما افترض الله ﷻ على العباد من واجبات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله ﷻ الحرام ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ بما شرع الله ﷻ في الطهارة والصلاة والمعاملات والنكاح والطلاق والجنايات والحرب والسلم وفي كل شيء؛ لأن دين الله ﷿ شامل يشمل مصالح العباد والمعاش والمعاد، ويشمل مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال يشمل الأخوة الإيمانية والجمع بين المسلمين والتأليف بينهم.

إذا فالمقصود من الدعوة إخراج الناس من الظلمات إلى النور وإرشادهم إلى الحق حتى يأخذوا به وينجوا من النار ومن غضب الله ﷿ وإخراج الكافر من ظلمة

الكفر إلى نور والهدى وإخراج الجاهل من ظلمة الجهل إلى نور العلم والعاصي من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة المقصود بالدعوة بين شيئاً من أساليب الدعوة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل: ١٢٥، فبين الكيفية التي ينبغي أن يتصف بها الداعية ويسلكها فإنها تكون أولاً بالحكمة والمراد بها الأدلة المقنعة الموضحة للحق وأعظم ذلك الأدلة من الكتاب والسنة وهذا الأسلوب إنما يكون لمن كان طالباً للحق محباً له فإن كان عنده جفاء وشدة فينتقل معه إلى الأسلوب الآخر وهو الموعظة الحسنة وهي الموعظة بالترغيب والترهيب فإن كان معانداً معارضاً فينتقل معه إلى الأسلوب الآخر وهو المجادلة بالتي هي أحسن أي الذي لا يكون فيها غلظة أو فضاضة؛ لأن هذا أقرب إلى الانتفاع بالحق وقبوله وتأثر المدعو.

إن من المعلوم أن للوسائل أهمية كبيرة في تحقيق المقاصد، وإن أعظم مقاصد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى تبليغ رسالة الإسلام ونشر الخير، وإن الوسائل المحققة لهذا المقصد العظيم كثيرة لا حصر لها، لذا كان من الضروري أن يتعرف الناس عموماً والدعاة إلى الله سبحانه وتعالى خصوصاً على أفضل الوسائل لتبليغ دين الله عز وجل لا سيما ونحن نعيش في زمن تطورت فيه الوسائل وأصبح العالم كالقرية الواحدة.

فإن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من أهم الواجبات الإسلامية، وهي سبيل الرسل عليهم السلام وأتباعهم إلى يوم القيامة، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بها في كتابه الكريم وأثنى على أهلها غاية الثناء.

فالدعوة إلى الله ﷻ من أعظم القربات، وأعظم الواجبات، وبها يهدي الله ﷻ أقواماً ضلوا سواء السبيل، وللدعوة وسائل لا بد من توافرها لنجاحها، كما لا بد من وجود صفات مهمة في الداعي إلى الله ﷻ؛ ليكون ناجحاً وموفقاً في عمله، فأخبر الله ﷻ عن الدعوة أنها أحسن الأقوال وأرضاها عنده، وقد رتب الله ﷻ عليها من الفضل العظيم، والأجر الجزيل الشيء الكثير، فإن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أعطاه الراية يوم خيبر: "فوالذي نفسي بيده! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"[1]، فجعل هداية شخص واحد على يديه خيراً له من أن يملك حمر النعم، أي: خير من أن يملك ما في الأرض من الإبل، والمقصود بذلك: أن يتصدق بها في سبيل الله مثلاً.

أن الدعوة إلى الله ﷻ أصل عظيم من أصول الإسلام، ولا شك أن صلاح العباد في معاشهم ومَعادهم متوقف على طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ، وتمام الطاعة متوقف على الدعوة إلى الله ﷻ، وقد أولى القرآن والسنة النبوية هذا الأمر أهمية بالغة، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "وإذا كانت الدعوة الى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء"[2]

فمقام الدعوة إلى الله ﷻ في الإسلام عظيم، بل هي أساس من أسس انتشارِه، وركن من أركان قيامه.

[1] رواه البخاري (5/ 18)، رواه مسلم (4/ 1872).
[2] التفسير القيم لابن القيم (1/ 332)، مفتاح دار السعادة لابن القيم (1/ 154).

وإن طريقَ الدعوةِ إلى الله ﷻ هو طريقُ الجنةِ، الذي تَعِب فيه الأنبياء عليهم السلام، قال ابن القيم رحمه الله: "والطريقُ طريقٌ تَعِب فيه آدم، وناح لأجلِه نوحٌ، ورُمِي في النار الخليلُ، وأُضجِع للذبح إسماعيل، وبِيع يوسف بثمنٍ بخسٍ ولَبِث في السجن بضعَ سنين، ونُشِر بالمنشار زكريا، وذُبِح السيد الحَصُور يحيى، وقاسى الضرَّ أيوبُ، وزاد على المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقرَ وأنواع الأذى محمدٌ ﷺ."[1]، هذا هو منطلق الدعوة إلى الله ﷻ أسلوب وموعظة بالحسنى، وصبر على تألف القلوب، وحمل الناس على الطاعة، فإن هم أطاعوك بذلك فقد شرط طاعة المدعوين، وهذا يعني إقناعهم وحملهم على الحق وإتباعه، ولا يتحقق ذلك من المدعو مهما كان بأسلوب النهر والشزر والغلظة والجبر والإكراه.

صحيح أن للشدة موقعها من الدين وللين موقعه أيضاً، ولكن لا يغلب جانب من هنا على ذلك، ولا من ذلك على هذا، وإنما الدين النصيحة وجوهره حسن الدعوة، وثمرته القبول.

فالدعوة إلى الله ﷻ شأنها عظيم، وهي من أهم الفروض والواجبات على المسلمين عموماً وعلى العلماء بصفة خاصة، وهي منهج الرسل عليهم السلام، وهم الأئمة فيها، فالدعوة إلى الله ﷻ طريق الرسل عليهم السلام وطريق أتباعهم إلى يوم القيامة، والحاجة إليها بل الضرورة معلومة، فالأمة كلها من أولها إلى آخرها بحاجة شديدة، بل في ضرورة إلى الدعوة إلى الله ﷻ والتبصير في دين الله عز وجل والترغيب في التفقه فيه والاستقامة عليه، والتحذير مما يضاده أو يضاد كماله الواجب أو ينقص ثواب أهله ويضعف إيمانهم.

---

[1] الفوائد لابن القيم ص 42.

"ومن فوائد الدعوة إلى الله ﷻ الفوز بالجنة والنجاة من النار، ودلالة الناس على الخير وهدايتهم إليه، ودليل على صلاح العبد واستقامته، وتثمر محبة الله ﷻ ومحبة الناس، والتشبه بالأنبياء والصالحين وسلوك مسالكهم، وفي القيام بها نشر للفضيلة ومحاربة للرذيلة، وبها تصلح الأفراد وتسعد الشعوب، وبها يتقرب العبد من ربه ﷻ ويفوز بمحبته، وباب من أبواب النصيحة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ والمؤمنين لا يفوز بها إلا الصالحون، وتكسب الداعي بركة دعوة النبي ﷺ بأن ينضر الله ﷻ وجهه، وتشرح للعالم كله سبل الإسلام السمحة وترد على الدعاوى الباطلة التي يلصقها المغرضون بالدين الحنيف، وللداعي أجر عظيم يتضاعف بعدد الذين يستجيبون له"[1]

توبوا إلى دينكم وارجعوا إليه، وحققوا الغاية من الدعوة إليه بينكم أولاً، ثم بينكم وبين من حواليكم من الأهل والولد والمجتمعات الإسلامية

إن قطار الدعوة يسير فالحق به تكن من الناجين، وابحث في وسائل الدعوة وخذ منها ما يناسبك

[1] نظرة النعيم (5/ 1960)

النصيحة الثانية والعشرون
اؤمر بالمعروف وانه عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة عظيمة فرضها الله ﷻ على أمة محمد ﷺ، هي حصن الإسلام الحصين، ووثاقه المتين، فما ظهرت أعلام الشريعة في أمة وارتفعت، ولا فشت أحكام الإسلام وانتشرت، ولا خابت مساعي الإفساد واندحرت إلا بقيامها وتحقيقها.

بهذه الفريضة حمى الله ﷻ أهل الإسلام من نزوات الشياطين ودعوات المبطلين، وأذل الله ﷻ بها أهل المعاصي والمبتدعين، وما تحققت تلك الفريضة في أمة ووجدت في مجتمع إلا عم الخير والصلاح، وانتشرت أسباب النجاح والفلاح، وما عطلت في مجتمع وهمش دورها، إلا فشت فيه الضلالة، وشاعت الجهالة، واضمحلت الديانة، فبضعفها يستشري الفساد، وتخرب البلاد، ويهلك العباد، وإذا لم يقم بها عقلاء كل بلد فعلى معالم الإسلام السلام.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناط خيرية هذه الأمة، قال ﷻ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠، ومن اتصف بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، **قال قتادة** رضي الله عنه: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها، رأى من الناس رعة[1]، فقرأ هذه الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ

---

[1] رعة: أي سوء خلق.

﴿ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠،

ثم قال: "من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله ﷻ فيها"[1]

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص صفات صفي الله ﷻ من خلقه محمد ﷺ، قال ﷻ: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٧، وهي من الفوارق بين أهل النفاق وأهل الإيمان، قال ﷻ: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴿٦٧﴾ ﴾ التوبة: ٦٧، وأما أهل الإيمان فقال عنهم ﷻ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿٧١﴾ ﴾ التوبة: ٧١، **يقول الإمام أحمد**: "يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة، ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع، قال الراوي : يا أبا عبد الله وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع ؟ قال: المؤمن إذا رأى أمراً بالمعروف أو نهياً عن المنكر لم يصبر حتى يأمر أو ينهى، فيقولون هذا فضول، والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه، فقالوا: نعم الرجل، ليس بينه وبين الفضول عمل فيصفونه بالكياسة لأنه يصمت عن المنكر وأهله"[2]

لقد كان السلف الصالح يرون من لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر في عداد أموات الأحياء، سئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء قال: "من لا ينكر المنكر بيده

[1] محاسن التأويل للقاسمي (2/ 385).
[2] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للخلال ص 36، موارد الظمآن لدروس الزمان (2/ 139).

ولا بلسانه ولا بقلبه"[1]، وقيل لابن مسعود رضي الله عنه من ميت الأحياء؟ فقال: "الذي لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً "[2]

إن إنكار المنكر ليس وقفاً على أهل الحسبة فحسب بل يتعداهم إلى كل مسلم قادر على ذلك بيده ولسانه، وبحسب المصلحة الشرعية، وأما الإنكار بالقلب فلا يعذر أحد بتركه، قال ﷺ: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[3]، **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "فأما الإنكار بالقلب فيجب بكل حال، إذا لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس بمؤمن كما قال النبي ﷺ: "وذلك أضعف الإيمان"، قال: وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[4]، ودرجة الإنكار بالقلب تستلزم المفارقة بمعنى أن يفارق المنكر بقلبه، ويفارق أهل المنكر ومنكرهم, قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ النساء: ١٤٠

إن الملامة لتزداد حين يترك الأمر والنهي من هو أهل للأمر والنهي وقادر عليه، **يقول ابن القيم** رضي الله عنه واصفاً حال الناس مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "ومن له خبرة بما بعث الله عز وجل به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه رأى قلة ديانة الناس في جانب الأمر والنهي، وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله عز وجل تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسوله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب

[1] شعب الإيمان للبيهقي (10/ 72).
[2] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية ص 11.
[3] رواه مسلم (1/ 69).
[4] مجموع الفتاوي لابن تيمية (28/ 127).

وساكت اللسان شيطان أخرس، كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياستهم فلا مبالاة فيما جرى على الدين، وخيرهم المتلمظ المتحزن، ولو أنه نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله لبدل وتبدل، وجد واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ﷻ ومقت الله ﷻ لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون وهو موت القلب، فإن القلب كلما كانت حياته أتم، كان غضبه لله ﷻ ورسوله ﷺ أقوى وانتصاره للدين أكمل"[1]

الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ شعيرةٌ من شعائر الإسلام، وركيزة من ركائز الدِّين، بهذه الفريضةِ الجليلةِ قامتْ مصالحُ المسلمين، وبهذه العبادةِ العظيمةِ بُعث الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، وعلَّق الله ﷻ الخيرية في هذه الأمةِ المكرَّمةِ بهذه الفضيلةِ حينَ قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ آل عمران: ١١٠، أي إن الخير سيظل فيكم ما دامت فيكم فئة تأمر بالخير وتنهى عن الشر، ولن يتحقق لأمتنا الفلاح إلا بالتناصح وتوجيه بعضنا لبعض لا فيما نحب ونهوى بل حتى فيما نكره ونبغض نتناصح ونتكاتف ونكون أولياءً لبعض.

يقول ابن حزم: "اتفقت الأمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف بين أحد منهم؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ آل

[1] إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم (2/ 121)

عمران: ١٠٤"[1]، ويقول الحسن البصري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: "من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله عز وجل في أرضه وخليفة رسوله ﷺ وخليفة كتابه"[2]، ويقول الإمام القرطبي عند تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ آل عمران: ٢١ " دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجباً في الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة"[3]

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم، وكل واحد من الأمة مخاطب بقدر قدرته، وهو من أعظم العبادات، كما قال ﷺ: "انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: "تأخذ فوق يديه"[4]

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٠٤

فالمفلحون هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر الذين لا تأخذهم في الله سبحانه وتعالى لومة لائم، ولا يصدهم عن قول الحق غضب فلان أو فلان، قال ﷺ: "والذي

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (4/ 132).
[2] رواه الطبري في تفسيره (24/ 118).
[3] تفسير القرطبي (4/ 47).
[4] رواه البخاري (3/ 128).

نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم"[1]

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو دين الرسل وأتباعهم، ومن لم يحب ما أحبه الله ﷻ وهو المعروف، ويبغض ما أبغضه الله ﷻ وهو المنكر لم يكن مؤمنًا، فالذي لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا هو ميت الأحياء.

قال ابن تيمية رضي الله عنه: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فإذا غلب على ظنه أن غيره لا يقوم به تعين عليه، ووجب عليه ما يقدر عليه من ذلك، فإن تركه كان عاصيًا لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وقد يكون فاسقًا، وقد يكون كافرًا"[2]

أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مطلوب منكم جميعًا، وهو واجب على كل قادر عليه، فيجب عليكم أن تأمروا بالمعروف أنفسكم وأولادكم وأزواجكم وإخوانكم وعشيرتكم، وأن تنهوا عن المنكر جميع من ترونه يعمله، وبهذا يكون المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم صور الولاية للمؤمنين فيما بينهم وهو تعبيرٌ عن شدة الحب ورعاية المصالح العاجلة والآجلة، وهو شأن الصالحين من أهلِ الكتاب قبلنا، قال ﷻ: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ

[1] مسند أحمد (38/ 332)، سنن الترمذي (4/ 468)
[2] المستدرك على مجموع الفتاوي لابن تيمية (3/ 204).

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾ آل عمران: ١١٣ - ١١٤، ولقد وعظ الحكيم لقمان ولده بالأمر والنهي فقال ﷻ على لسان لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ لقمان: ١٧

وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أشهر مناقب نبينا الكريم ﷺ وقد قال عنه ربه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ ١٥٧﴾ الأعراف: ١٥٧، ولهذا فمن حسن إتباعنا لنبينا ﷺ أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، ولقد ألهم الله ﷻ المؤمنين أن يعززوا ملكهم بعد التمكين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال ﷻ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ الحج: ٤١

وقد جعل النبي ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكفراً للذنوب، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "فتنة الرجل في أهله وماله وجاره، تكفرها الصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر"[1]

[1] رواه البخاري (4/ 196)، رواه مسلم (4/ 2218).

"ومن فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، وصمام أمن الحياة وضمان سعادة الفرد والمجتمع، ويثبت معاني الخير والصلاح في الأمة، ويزيل عوامل الشر والفساد من حياتها ويقضي عليها أولاً فأولاً حتى تسلم الأمة وتسعد، ويهيأ الجو الصالح الذي تنمو فيه الآداب والفضائل وتختفي فيه المنكرات والرذائل ويتربى في ظله الضمير العفيف والوجدان اليقظ، ويكون الرأي العام المسلم الحر الذي يحرس آداب الأمة وفضائلها وأخلاقها وحقوقها ويجعل لها شخصية وسلطاناً هو أقوى من القوة وأنفذ من القانون، ويبعث الإحساس بمعنى الأخوة والتكافل والتعاون على البر والتقوى واهتمام المسلمين بعضهم ببعض، وهو سبب النجاة في الدنيا والآخرة، وهو سير أفضلية هذه الأمة، وهو سبب للنصر والتمكين في الدنيا"[1]

فاتقوا الله ﷻ ربكم، وامروا بالمعروف، وانهَوْا عن المنكر، ولا تغتروا بكثرة الهالكين والمواقعين للمعاصي، والمجاهرين بها، فكلٌّ سيلقى ما عمل.

[1] نظرة النعيم (3/ 539).

النصيحة الثالثة والعشرون
ففروا إلى الله ﷻ

إن قلوب العباد أوعية لما أُودِع فيها من العلوم، وظروف لما جُعل فيها من المعارف بالأمور، وهي مع ذلك تصدأ إذا أُهملت كما يصدأ الحديد، وتضطرب وتفور كما يفور المرجل، إذا فتحت أبوابها للوساوس والشكوك والشهوات والشبهات، ويعلوها الران إذا تُرِكت نهباً لإبليس وجنوده، حتى إنها لتصير من أثر ذلك معتمة لا تتمكن من الإبصار ومعرفة الحقائق، حتى لو كانت في غاية الوضوح، ويزداد الإعتام كلما بَعُدَ الناس عن ربهم ﷻ حتى تصل إلى درجة الإغلاق التام، قال ﷻ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المطففين: ١٤، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سُقِل قلبه، وإن عادِ زيدَ فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المطففين: ١٤"[1]

فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختمُ من قِبَل الله ﷻ والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر منها مخلص، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تُعرَض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشْرِبَها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا

[1] سنن الترمذي (5/ 434).

تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادّاً كالكوز مجخيّاً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه"[1]

ولا يتمكن العبد من النجاة من ذلك إلا بالفرار إلى الله ﷻ، والرجوع إلى ربه ﷻ، والإنابة إليه، والذل والخضوع والانكسار بين يديه، والاستغفار والتوبة، والاعتماد عليه ﷻ في الأمور كلها، فهو ربه ﷻ ومليكه، وخالقه ورازقه، يعطي ويمنع، وهو على كل شيء قدير.

قلبه بين يديه يقلِّبه كيف يشاء، وهذا هو الفرار إليه الذي طلبه الله ﷻ منّا بقوله ﷻ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ الذاريات: ٥٠، فهو ﷻ الملاذ والملجأ وهو المغيث، ولا ملجأ منه ﷻ إلاَّ إليه، **يقول ابن جرير الطبري**: "فاهربوا أيها الناس من عقاب الله ﷻ إلى رحمته بالإيمان به، واتِّباع أمره، والعمل بطاعته"[2]

والفرار لا يكون إلا إلى الله ﷻ، ولا يكون إلى أحد من خلقه، فإن الله ﷻ هو رب العالمين، وهو الفعال لما يريد، والخلق بأجمعهم لا يقدرون على شيء، إلا ما شاءه الله ﷻ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩ ﴾ التكوير: ٢٩

ومن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه حتى يفر المسلم من نفسه التي بين جنبيه إلى ربه ﷻ وخالقه ومولاه، فراحة المسلم وأنسه وسعادته وأمنه واطمئنانه إنما يكون بالفرار مما سوى الله ﷻ إلى الله ﷻ.

وقد عبر القرآن عن الرجوع إلى الله ﷻ بلفظ الفرار، لبيان الحزم والجديّة والفورية التي ينبغي أن يتعامل بها في مثل هذا الأمر، فهو ليس أمراً على التراخي، فشأن

[1] رواه مسلم (1/ 128).
[2] تفسير الطبري (21/ 549).

المخالفة والمشاققة لله ﷻ ولرسوله ﷺ أمر جلل مخيف حقه أن يُفَرَّ منه، ويُقلَع عنه، بأقصى ما يمكن.

والتعبير بلفظ الفرار يدل على شدة القيود التي تكبل المسلم، أو على شدة المغريات التي تأسره حتى يحتاج إلى الفرار، وإلا فلا يستطيع أن يخرج من دائرة تأثيرها.

كما أن التعبير بالفرار يفصح عن سرعة الإهلاك والعذاب التي تنتظر المتواني أو المتباطئ، فالأمر لا يحتمل الإبطاء في الرجوع إلى الله ﷻ، والمسلم في غالب شأنه لا يفر إلا مما يخاف منه أشد الخوف، ولا قدرة له على دفع ضره وأذاه، ولا يفر إلى شيء إلا إذا كان يجد عنده الأمن والطمأنينة، فكان في هذا التعبير القرآني الموجز: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ الذاريات: ٥٠، أصرح الدلالة على أن الشقاء والبؤس والتعاسة والخسارة الكاملة التي لا ربح بعدها، في البعد عن الله ﷻ والفرار منه إلى غيره، كما أن الخير والفلاح والربح المضمون الذي لا تعقبه خسارة، في القرب إلى الله ﷻ والفرارُ إليه.

والفرار إلى الله ﷻ كما يكون بالعمل بطاعته والتوبة إليه، يكون أيضاً بالهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، ومن دار البدعة أو المعصية إلى دار السنة أو الطاعة، ومن أعدائه إلى أوليائه، فهو متضمن للولاء والبراء والثبات على الدين، **فالأول:** فرار بالقلب، **والثاني:** فرار بالجسد، **والثالث:** فرار بالقلب والجسد معاً، وكل نوع من الفرار مطلوب من المرء كلٌّ على حسب حاله.

والمسلم في حاجة دائمة إلى الفرار إلى الله ﷻ، والاستغفار والتوبة إليه في كل آن وحين.

فبالفرار إلى الله ﷻ والاستغفار والتوبة يُستَنزَل الغيث، ويُستجلَب المال والولد، ويشتد الساعد، وتزيد القوة التي يتمكن بها المرء من فعل ما يريد، قال ﷻ: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ نوح: ١٠ – ١٢، وقال ﷻ: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ هود: ٣، وقال ﷻ: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ هود: ٥٢

والفرار إلى الله ﷻ ليس عملاً قلبياً أو وجدانياً فحسب، ثم ينغلق المرء بعدها على نفسه فلا يكون لذلك الفرار أثر في الواقع، ولكنَّ الفرار مبتدأه من القلب ثم ينساح على الجوارح كلها، فيغمرها فيه، حتى تكون تابعة له تعمل ما يأمرها به، ولا تمتنع منه، كما قال رسول الله ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[1]، وعن أبو هريرة رضي الله عنه قال: "القلب ملك وله جنود، فإذا صَلَحَ الملك صَلَحَت جنوده، وإذا فسد الملك فسدت جنوده"[2]، وجنود القلب هي أعضاء البدن، فإذا كان الفرار انغلاقاً بالنفس عما حولها بحيث لا يؤثر فيها، فهو انسحاب من الحياة وهروب غير محمود، وهؤلاء هم

[1] رواه البخاري (1/ 20)، رواه مسلم (3/ 1219).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (1/ 257).

أصحاب رسول الله ﷺ عندما فروا إلى الله ﷻ غيَّروا وجه الأرض حتى عمَّها التوحيد والعدل بعد أن غلب عليها الشرك والظلم.

ولا يكون الفرار انسحاباً محموداً من الحياة إلا في آخر الزمان، عند غلبة الجهل وفساد الناس، حين لا يجدي العمل والدعوة، فيكون الفرار حينئذ حفاظاً على الدين ورعاية له، قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن"[1]

وقد يقع في ذهن البعض أو الكثيرين أن الفرار إلى الله ﷻ والاستغفار والتوبة لا تكون إلا من العاصي، أو عند الوقوع في المعصية، وهذا وَهْمٌ غير صحيح، بل العبد محتاج إلى ذلك، ولو كان على غير معصية، بل يحتاج إليها مع الطاعة في كل تقلباتها قبل الطاعة وفي أثناء الطاعة، وبعد الانتهاء منها، قال الله ﷻ لعباده وهم في أثناء طاعة من أجلِّ الطاعات، وهي فريضة الحج: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ البقرة: ١٩٩، فأمرهم بالاستغفار وهم يؤدون النُّسُك كما أمرهم ﷻ بالاستغفار بعدما أمرهم بكثير من الأعمال الصالحة والواجبات، فقال ﷻ: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ المزمل: ٢٠، وقد نادى الله ﷻ المؤمنين باسم الإيمان وأمرهم بالتوبة، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا

---

[1] رواه البخاري (1/ 13).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ التحريم: ٨، وهذا النبي ﷺ الذي غفر الله ﷻ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يقول لأصحابه: "يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة"[1]

لقد كان الفرار إلى الله ﷻ هو مصدر القوة والعزة والمنعة التي كان يعيشها المسلمون الأولون، وهو الذي كان سبباً في انتصارهم وظهورهم على من ناوأهم ممن خالفهم وعاداهم، حتى إن أحدهم ليسرع الفرار إلى الله ﷻ، ولو كان في ذلك موته، فعندما قال رسول الله ﷺ في غزوة بدر للمسلمين محرضاً لهم على القتال: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض"، قال عُمير بن الحُمام الأنصاري رضي الله عنه: "يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟" قال: "نعم" قال: "بَخٍ بَخٍ" فقال رسول الله ﷺ: "ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ؟" قال: "لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها" قال: "فإنك من أهلها" فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: "لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة" قال: "فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِل"[2]، إنها صورة واحدة من صور الفرار إلى الله ﷻ ثم تغيَّر الحال وضعف المسلمون، وصار كثير منهم يفرون إلى عدو الله ﷻ وعدو

---

[1] رواه مسلم (4/ 2075).
[2] رواه مسلم (3/ 1509).

المسلمين، مسارعةً فيهم، والتماساً للقوة والعزة منهم، حتى إن منهم من ينصر الكفار على المسلمين من أجل ذلك، وقد نهى الله ﷻ المؤمنين عن هذا المسلك، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ۝١ ﴾ الممتحنة: ١، وبيَّن حقيقة من يسلك هذا السبيل، فقال ﷻ:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢ ﴾ المائدة: ٥٢، فلا عزَّ لنا ولا نصر ولا كرامة إلا أن يكون الفرار إلى الله ﷻ وحده لا شريك له دون ما سواه من خلقه أجمعين.

فالإنسان بطبيعة خلقه ضعيف، وقد شهد عليه خالقه بهذا بقول ﷻ: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨ ﴾ النساء: ٢٨، والإنسان لا يملك لنفسه في أمر الدنيا والآخرة شيئاً، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولقد اعترف بهذا رسل الله عليهم السلام، يقول ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۝١٨٨ ﴾ الأعراف: ١٨٨، فإذا كان رسل الله عليهم السلام على هذه الحال من الافتقار إلى الله ﷻ إذا كانوا متبرئين من حولهم وقوتهم أمام الله ﷻ فكيف سيكون حال غيرهم من الناس؟ وهذا الإنسان الضعيف لا بد أن يلجأ فيما يعرض له من أمور إلى جهة يراها قوية وقادرة على أن تحميه أو توفر له الأمن والاطمئنان، فإلى من يتجه؟ وعلى

من يعتمد؟ هنا يأتينا قول الله ﷻ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ الذاريات: ٥٠، وهذه دعوة من الله ﷻ للفرار إليه، والرجوع والإنابة إلى رحابه.

والناس في فرارهم أنواع وأصناف؛ فمنهم من يفر إلى الناس، ومنهم من يفر إلى نفسه، ومنهم من يفر إلى الشيطان، ومنهم من يفر إلى الذنوب والمعاصي، ظاناً أنها تخلصه مما يعاني من ضنك أو ضيق مادي أو معنوي، أما السعيد والموفق، فهو من يفر إلى الله ﷻ، وينيب إليه، في كل ما يعترضه من أمور.

يفر إلى الله ﷻ إذا خاف من أي شيء؛ لأنه القادر على كل شيء، القاهر لكل شيء، المتعالي فوق كل شيء، فلا شيء يخيفك، ولا أمر يقلقك إلا والله ﷻ أقوى منه، بل إن الإنسان حتى إذا خاف من الله ﷻ يفر إليه، وهذا الأمر لا يكون إلا مع الله ﷻ، فكل شيء إذا خفت منه فررت منه، أما الله ﷻ فإذا خفت منه فررت إليه، فلا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ﷻ، لهذا كان من دعاء الرسول ﷺ عند نومه، وهو ما أمر به أحد أصحابه رضي الله عنه أن يقوله ويجعله آخر ما يقول قبل نومه: "اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة"[1]، فإذا خفت من عذابه فررت إلى رحمته، وإذا خفت من سخطه فررت إلى رضاه.

هذه معانٍ تغيب على الإنسان في غمرة الحياة، فيجد نفسه في كثير من الأحيان فاراً من الله ﷻ لأدنى معضلة أو همّ، ولكنها لا تغيب عن الصالحين الخلّص من

[1] رواه البخاري (1/ 58)، رواه مسلم (4/ 2081).

عباد الله ﷻ، وعلى رأسهم أنبياؤه عليهم السلام، فقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ في دعواته من كل صفة عذاب من صفات الله ﷻ بصفة رحمة من صفاته، ثم يستعيذ به منه خوفاً وفرقاً، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[1]، ويقول ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ الصافات: ٩٩، وهذا نوع من الفرار إلى الله ﷻ، أي ذاهب بعملي وعبادتي وقلبي ونيتي، هذا هو فرار الأنبياء إلى الله ﷻ، وكثير من الناس لا يفكرون في الفرار الحقيقي إلى الله ﷻ في هذه الحياة، ويؤخرون وقت الفرار إلى الله ﷻ حتى إذا قُضي الأمر وفات الأوان أدركوا أنه لا ملجأ إلا الله ﷻ، ولا ملاذ إلا الله ﷻ، يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ القيامة: ٧ – ١٠، ها قد بدأ الإنسان الآن يسأل عن المفر بينما كان في غفلة عنه في غمرة الحياة، فهل ينفعه سؤاله عن المفر في هذه الظروف إن لم يكن فاراً إلى الله ﷻ في دنياه، **يقول ابن كثير** في تفسير هذه الآيات: "﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ يريد أن يفر ويقول: (أَيْنَ الْمَفَرّ)؟ أي هل من ملجأ أو موئل؟ قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ القيامة: ١١ - ١٢، أي لا نجاة، وهذه الآية كقوله ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ

[1] رواه مسلم (1/ 352).

﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ الشورى: ٤٧، أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه، وكذا قال هاهنا: ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه، ولهذا قال: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ أي المرجع والمصير"[1]

هذا فرار من الإنسان، يفر فيه من كل شيء، ولكنه فرار متأخر عن وقته، ثم هناك فرار آخر يفره الإنسان حتى من أقرب الناس إليه، لهول ما يرى من أمور عظيمة، هذا الفرار يكون يوم الحساب، يوم يجمع الله عَزَّوَجَلَّ الخلائق في صعيد واحد لفصل الحساب، في ذلك اليوم العظيم، وذلك الموقف الرهيب، إذا عاينه الإنسان، ووقف عليه، وعاشه بكل حواسه، عند ذلك لا يصبح حتى لصلة القرابة والدم عنده مكان، ما يهمه في ذلك الموقف إلا نفسه وحسب، يفر الإنسان في ذلك الموقف من كل من يمتّون له بصلة في هذه الحياة، يفر حتى من أبنائه وفلذات كبده، ولكن هل ينفع هذا الفرار إن لم يكن الإنسان من الفارين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الحياة الدنيا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ عبس: ٣٤ – ٣٧، فلماذا نؤخر الفرار إلى العزيز الجبار؟ لماذا نؤخر الفرار إلى الواحد القهار؟ هل نحن مغترون بصحتنا وقوتنا التي هي إلى ضعف وزوال؟ أم نحن مغترون بأموالنا التي لن يلحقنا منها شيء إذا متنا؟ أم نحن عالمون بموعد موتنا وانتقالنا عن هذه الحياة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ الذاريات: ٥٠، أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ أن يُبلغ

---

[1] تفسير ابن كثير (8/ 285).

هذا النداء العظيم إلى أمته، أن يفروا إليه ﷻ، يفروا إليه أي: يرجعوا إليه ويتوبوا إليه التوبة الصادقة والشاملة مما يكرهه الله ﷻ إلى ما يحبه، من الكفر به إلى الإيمان ومن الجهل إلى العلم، ومن الظلم إلى العدل، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الانحراف عن صراطه المستقيم إلى الاستقامة عليه ... الخ.

الفرار غالباً لا يكون إلا عند الخوف، عندما يخاف المخلوق ويجد خوفاً هناك يبدأ بالفرار لينجوا مما يخاف، وأذكركم بقول الله ﷻ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ الذاريات: ٥٠، وذلك من خلال:

أولاً: التوبة فما نزلت عقوبة إلا بذنب وما رفعت إلا بتوبة.

ثانياً: اللجوء إلى عبادة الله ﷻ: الجئوا إلى الله ﷻ، واعتصموا به، وتضرعوا إليه، ولا تنشغلوا بالأخبار والأحداث عن عبادة الله ﷻ، فقد قال الرسول ﷺ: "عبادة في الهرج أو الفتنة كهجرة إلي"[1]، الذي يرجع في هذه الأيام إلى عبادة الله ﷻ، إلى إقامة الصلاة، إلى قيام الليل، إلى الصيام، إلى ذكر الله ﷻ، إلى قراءة القرآن، إلى أنواع التقرب إلى الله ﷻ يعصمه الله ﷻ بذلك، كما عصم أصحاب رسوله ﷺ حينما هاجروا من بلدان الشرك إلى دار الإسلام مع رسول الله ﷺ.

ثالثاً: الدعاء: ادعوا الله ﷻ فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، لا نجعل أملنا وظنونا في هؤلاء الذين يسعون بالصلح والمبادرات؛ فإن قليلاً منهم من يخلص لنا ويحبنا، ومن ينصح لنا، وإنما لهم أجنداتهم وأهدافهم، لهم مطامعهم، فلا نعلق آمالنا عليهم، علقوا آمالكم على رب العالمين ﷻ، وادعوه واسألوه يكشف ما

---

[1] المعجم الكبير للطبراني (20/ 213).

بكم من ضر ومن سوء، ويزيل عنكم هذه الفتنة التي تجوس خلال دياركم، وأكثروا من الدعاء؛ فإن الدعاء هو العبادة.

أن معنى الفرار إلى الله ﷻ ألا يشغل العبد فكره أو قلبه بشيء من الدنيا وإنما أن تكون الفكرة المسيطرة على حياته هي طلب الرضوان من الله ﷻ عند ذلك يسخر العبد كل دنياه لله ﷻ فهو إذا عمل فلله ﷻ وإذا أكل فلله ﷻ وإذا شرب فلله ﷻ وإذا أحب فلله ﷻ وإذا أبغض فلله ﷻ، إذا سيطرت هذه الفكرة على أفراد المجتمع يختفي ما يراه العبد من صراع على الدنيا واقتتال عليها وتحولها من وسيلة إلى غاية، ها هو عمرك ينصرم وتطوى صفحته بكل ما حملته وعملت فيه من خير أو شر فإن كنت في سيرك إلى الله ﷻ فيما مضى من عمرك بطيئاً ولم تفر إلى الله ﷻ حق الفرار ففر إليه الآن من هذا المكان المبارك وفي هذا اللحظات الفاضلات اجعل منها نقطة انطلاقك في فرارك إلى ربك ﷻ وخالقك، اجعلها لحظة استجابة لنداء الله ﷻ يوم أن ناداك ففروا إلى الله ﷻ، إلى متى التسويف ؟ إذا لم تفر إلى الله ﷻ الآن وأنت بكامل قوتك وعافيتك فمتى تفر؟ أتفر بعد أن يشيب شعرك وتضعف قوتك وتتراكم على جسدك الأمراض والعلل؟ أتفر إلى الله ﷻ بعد أن تشخص عينك وتشل أطرافك وتصبح جثة هامدة؟ كم من مفرط فرط وفرط حتى فجاءه الموت فقام يصرخ بصوت ملؤه الندم: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ
﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم
بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا

﴿يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ المؤمنون: ٩٩ - ١٠٤

فمَن يَفِرُّ إلى الله ﷻ: "لا يحب إلا الله ﷻ، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا ويرى الله ﷻ فيه، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة، لم يفتقر إلى تنويع الأوراد واختلافها، بل كان ورده بعد المكتوبات واحد؛ وهو حضور القلب مع الله ﷻ في كل حال، فلا يخطر بقلوبهم أمر، ولا يقرع سمعَهم قارع، ولا يَلُوح لأبصارهم لائح، إلا كان لهم فيه عِبرة وفكر ومزيد، فلا محرك لهم ولا مسكن إلا الله ﷻ"[1]

"ومن فوائد الفرار إلى الله ﷻ رضوان الله ﷻ والفوز بالجنة والنجاة من النار، وترك المعاصي والبعد عن الشبهات، وطهارة القلوب وصفاء النفس، وحب الناس والعطف عليهم، ويشعر بالسعادة والفرح دائماً، والبعد عن الدنيا وعدم الانشغال بمباهجها ومآثرها"[2]

فأقول للجميع ما قاله ربهم ﷻ آمراً وموجهاً لما فيه صلاح دينهم ودنياهم:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ الذاريات: ٥٠

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (1/ 350).
[2] نظرة النعيم (7/ 3092).

فروا إليه من كل ما يسخطه ويكرهه إلى ما يحبه الله ﷻ ويرضاه، واستشعروا الخوف منه تزدادون فراراً إليه، وليس هناك من يفر إليه عند الخوف منه إلا الله ﷻ، وإلا فجميع المخلوقات من خاف من شيء منها فر منها ولم يفر إليها.

النصيحة الرابعة والعشرون
تبسمك في وجه أخيك صدقة

الابتسامة هي مفتاح القلوب المغلقة، وسبيلٌ للتعبير عن الحب والصداقة، وهي أسلوب يصل به الإنسان لاحترام الناس وحبهم، وفي ديننا الإسلامي الحنيف، جعل الله سبحانه وتعالى الابتسامة صدقةً يُثاب عليها المسلم، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على عظمة ما تفعله الابتسامة في القلوب، فقد حث الرسول ﷺ على الوجه البشوش المبتسم، الذي يبث الأمل في نفوس الآخرين، ويمنحهم التفاؤل وحب الحياة، فقد قال ﷺ: "تبسمك في وجه أخيك صدقةً"[1]، فيا لها من عظمةٍ، ويا لها من منحةٍ إلهيةٍ، جعلت من الابتسامة سبيلاً للجنة.

والابتسامة تعتبر طريقةً راقيةً لإزالة الحواجز بين الأشخاص، دون أن تُذهب الهيبة، أو تسبب حدوث مشاكل، كما أنها تُذهب غيظ القلوب، وتصلح بين المتخاصمين، وتقرب وجهات النظر، فقد كان الرسول ﷺ بساماً، يدخل إلى بيته مبتسماً، ويلاقي أصحابه بابتسامة، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم مثله أيضاً، يقتدون به وفي أخلاقه السمحة.

ومن روائع الابتسامة أنها تحبب الناس بالشخص الذي يلتزم بها، لأن التجهّم ينفر الناس، ويبث في قلوبهم التشاؤم، ويجعلهم يأخذون طاقةً سلبيةً كبيرةً، على عكس الابتسامة التي تبث الطاقة الإيجابية، لذلك يجب الحفاظ على الابتسامة حتى في أحلك الظروف، وعدم تركها أبداً، كما أن التقطيب والتكشير والعبوس يسبب في تجعد الوجه، وانقباض القلب، وذبول العينين، على عكس الابتسامة التي تزيل همّ

[1] سنن الترمذي (4/ 339).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

القلب، وتشعل الحماسة في النفس والروح، وتعزز من قدرة جهاز المناعة على مقاومة الأمراض، لأن الابتسامة تساهم في إفراز هرمونات السعادة، التي تقوي مناعة الجسم.

والابتسامة أيضاً فيها تسليمٌ ورضى بقدر الله ﷻ، وحسن التوكّل عليه، وحسن الظن به، لأنّ الشخص الذي يسلم أمره لله ﷻ ويبتسم في وجه الحياة يعلم أن كل ما يصيبه هو خير ومنحة من رب العباد ﷻ، أما التقطيب فلن يفيد في أي شيء، وإنما يسبب الشعور بالحزن والكآبة دون أي فائدةٍ ترتجى.

الإنسان العاقل هو الذي يحافظ على ابتسامته، ويوزعها في وجوه الخلق، ليحيي بها الهمم، ويزيل الهم والتعب عن الجميع، ويجب أيضاً أن يبتسم في وجهه في المرآة، في كل صباحٍ ومساء، ليشعر أن على هذه الأرض ما يستحق العيش لأجله، وأن هذه الحياة هي اختبارٌ حقيقي لقدرة الإنسان على عمل دورٍ فاعلٍ فيها، حتى ولو كان هذا العمل بسيطاً، كأن يبتسم في وجه غيره، ليشعل فيهم حب الحياة، والأمل، والتفاؤل.

الابتسامة هي حياة وروح الإنسان المسلم إذ تعطينا النشاط والحيوية وبسببها يقبل الناس عليك، وهي طريقة للتعبير عمّا يجول داخلنا، بطريقة مهذبة، كما أنها تعطي جمالاً للوجه واستقراراً وسلاماً داخلياً، وتُعدّ الابتسامة جواز العبور المجاني إلى القلوب، وهي الزهرة المتفتحة على الشفاه والنابتة من أعماق القلب والصاعدة إلى أعالي الروح، فالابتسامة من الأشياء التي ربط الله ﷻ بينها وبين الحصول على الأجر العظيم وعدّها صدقة يؤجر صاحبها بها بمجرد أن يُظهرها لمن حوله، وهذا إن دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على عظمتها وروعتها والأثر الذي تتركه في النفوس،

شبكة الألوكة

فمجرد رؤية شخص مبتسم يجعل القلب مملوءً بالطاقة الإيجابية، كما أن الابتسامة طريقة مريحة جداً للتخلص من الكثير من الأعباء، فهي حافزٌ مهمٌ وقوي على القيام بالكثير من الأشياء الإيجابية، ومهما قست الظروف ومهما ضاقت الدنيا، يجب أن لا ندع الابتسامة تسقط عن وجوهنا، لأن العبوس من الأشياء المنفرة التي تنشر الطاقة السلبية بين الناس، كما أن الابتسامة لا تُكلف صاحبها سوى أن يرسم على شفتيه حركةً بسيطةً كفيلةً بتغيير الكثير من الأشياء، فهي تفتح لصاحبها الأبواب المغلقة وتُعطي عنه فكرةً بأنه محبٌ للحياة ومقبلٌ عليها، ومن يُحافظ على ابتسامته يُصبح ملهماً للآخرين ومصدراً لفرحهم، فقد كان الرسول ﷺ دائم الابتسام، كما كان منهجه نشر الطمأنينة في النفوس، والابتسامة هي أول الطرق لتحقيق هذا المنهج الرائع، فهي كالشجرة المثمرة التي تُعطي أطيب الثمر دون أن تنتظر أي مقابل، وكالسحابة التي تُمطر كل من تمر بهم بالخير الوفير، فهي رغم أنها مجرد شيءٍ معنوي، إلا أنها تعادل الكثير من الأشياء المادية بل تتفوق عليها.

البعض يدّعون أن الابتسامة تُنقص من هيبة الإنسان، وأن التقطيب يجلب له الهيبة والمنزلة الكبيرة، لكن من يعتقدون هذا هم الغارقين في جهلهم، الذين لا يُميزون بين الغث والسليم، والذين لا يعرفون الصح من الخطأ، فمن يعتقد أن الابتسامة تُسقط هيبته هو حقاً لا يفهم أي فنٍ من فنون الحياة، لهذا يجب أن نعلم أنفسنا أولاً وأطفالنا ثانياً ثقافة البسمة غير المتكلفة وغير المصطنعة، التي ترتسم على الشفاه بعفوية وصدق، والتي تختصر الحياة بكل ما فيها من جمال وتستمد استمراريتها من أعماق القلب، فمن أراد لبسمته أن تدوم عليه أن لا يربطها بأي حدثٍ، بل أن يجعلها قراراً نابعاً من قلبه ولا يستطيع أن يعكره أحد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الابتسامة هي المفتاح الأول لكل القلوب المغلقة، وليس من الضروري أن تكون الابتسامة بالفعل فأحياناً تبتسم الحروف حينما تكتب لأنها تكون من قلوب صادقة، وتبتسم الهدايا عندما تهدى لأنها مليئة بالحب والوفاء.

الابتسامة الحقيقية لا يمكن تزييفها فهي كالذهب عبثاً يحاول المخادعون تقليده ولكن بريق الذهب ليس كأي بريق.

الابتسامة إشراقة روح، وإطلالة نفس، وصورة فؤاد، الابتسامة بلسم الألم ودواء الحزن.

الابتسامة أقصر طريق إلى القلوب وأقرب باب إلى النفوس، الابتسامة المشرقة، أقوى قوانين الجاذبية للقلوب والأرواح، وللابتسامة سحر خلاب يستميل القلوب ويأخذ بالألباب والمبتسمون أحسن الناس مزاجاً وأهنؤهم عيشاً وأطيبهم نفساً.

فالبسمة آية من آيات الله ﷻ ونعمة ربانية عظيمة، إنها سحر حلال تنبثق من القلب وترتسم على الشفاه فتنثر عبير المودة، وتنشر نسائم المحبة وتستلّ عقد الضغينة والبغضاء لتحلّ الألفة والإخاء، **قال سفيان بن عيينة** رضي الله عنه: "البشاشة مصيدة المودة"[1]، وأوصى ابن عمر رضي الله عنهما ابنه فقال: "بنيّ إن البر شيء هيّن وجه طليق وكلام ليّن"[2]، ولقد أرسى النبي ﷺ خلق البسمة والبشاشة وعلّم الإنسانية هذه اللغة العالمية اللطيفة بقوله وفعله وسيرته العطرة فكان ﷺ بسّام الثغر طلق المحيا، يحبه بديهة من رآه، ويفديه من عرفه بنفسه وأهله وأغلى ما يملك! لقد كانت تبسمه لأهله وأصحابه بذراً طيباً آتى أكله ضعفين، خيراً في الدنيا وأجراً في

---

[1] فيض القدير (3/ 226).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (10/ 404).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الآخرة، أما الخيرية العاجلة؛ فانشراح القلب وراحة الضمير، ومنافع صحية أخرى أثبتها الأطباء على البدن، ويتبعها مصالح اجتماعية وشرعية من تأليف القلوب وربطها بحبل المودة المتين وترغيبها لحب الدين، فالبسمة بريد عاجل إلى الناس كافة لا تكلفنا مؤناً مالية أو متاعب جسدية بل تبعث في ومضة سريعة يبقى أثرها الحميد عظيماً في النفوس! والخيرية الآجلة؛ الثواب المثبت في جزاء الصدقة وبذل المعروف، فالتبسم في وجه المسلم صدقة فاضلة يستطيعها الفقير والغني على حدّ سواء، فعن عبد الله بن الحارث ﵁ قال: "ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ"[1]، وقال ﷺ: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق"[2]، تلك الابتسامة التي جعلت جرير بن عبد الله البجلي ﵁ ينتبه لها ويتذكرها ويكتفي بها هدية من الرسول ﷺ فيقول: "ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي"[3]، فهذه الابتسامة المشرقة التي يشرق بها وجه النبي ﷺ أجل عند جرير ﵁ من كل الذكريات، وأسمى من كل الأمنيات، كانت تعلو محياه تلك الابتسامة المشرقة المعبرة، فإذا قابل بها الناس أسِر قلوبهم ومالت إليه نفوسهم وتهافتت عليه أرواحهم.

والابتسامة عبادة وصدقة، وما أكثر ما فرطنا في هذه العبادة وما أكثر ما بخلنا في هذه الصدقة فهي السحر الحلال وهي إعلان الإخاء وعربون الصفاء ورسالة الود وخطاب المحبة تقع على صخرة الحقد فتذيبها، وتسقط على ركام العداوة فتزيلها، وتقطع حبل البغضاء، وتطرد وساوس الشحناء، وتغسل أدران الضغينة، وتمسح

[1] مسند أحمد (29/ 245)، سنن الترمذي (5/ 601)، شعب الإيمان للبيهقي (10/ 395).

[2] مصنف ابن أبي شيبة (5/ 212).
[3] رواه البخاري (4/ 65)، رواه مسلم (4/ 1925).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جراح القطيعة، وإذا كان نبي الله سليمان عليه السلام قد تبسم لنملة صغيرة في وادٍ مترامي الأطراف عندما سمعها تحذر قومها من جيشه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ النمل: ١٩، فما أحوجنا إلى تبسم الأخ في وجه أخيه والجار في وجه جاره في زمن طغت فيه المادة وقلت فيه الألفة وكثرت فيه الصراعات وما أحوجنا إلى تبسم الرجل في وجه زوجته والزوجة في وجه زوجها في زمن كثرة فيه المشاكل الاجتماعية فلا ترى إلا عبوس الوجه وتقطيب الجبين وكأنك في حلبة صراع من أجل البقاء، وما أحوجنا إلى البسمة وطلاقة الوجه وانشراح الصدر ولطف الروح ولين الجانب من عالم رباني منصف يسعى لجمع الكلمة ووحدة الصف.

الابتسامة صدقة، وهي رسالة حب وصدق وإخلاص، تعطيها بلا جهد يُذكر، فتجني من ورائها الكثيرَ من الخير، فالابتسامةُ تحوِّل العدوَّ إلى صديق، وتزيدك قربًا ممن تحب؛ وبذلك يأنس الناس إليك، والابتسامة تقضي على الحزن والكرب، وتؤلف القلوب، وتيسر المهمات؛ فإذا قابلتَ المشكلاتِ بابتسامة فقد قمت بجزء كبير من حلها؛ لأنك تُعِدُّ نفسك داخليًّا لمواجهتها.

الابتسامة عند النعمة شكر، وعند البلاء رضًا بالقضاء، يبتسم النبي ﷺ وهو يقول: "إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرُك"[1]، إنها ابتسامة رقيقة شفافة، تخرج على ملامح وجهه ﷺ، تعبر عن علمه

[1] سنن الترمذي (5/ 501).

وإدراكه لطبائع النفس البشرية، وإن ابتسامة الرضا كثيرًا ما كانت تبدو على وجه رسول الله ﷺ مع كل سلوك يراه فيرضى به، أو يعجبه من أصحابه ﵃، فحينما يرى فقهًا من أصحابه ﵃ في دين الله ﷻ أو يراهم قد اهتدوا إلى أمر شرعي بفطرتهم كان يسعد ويُسَرّ ويفرح ويبتسم.

الابتسامة هي مفتاح القلوب، والطريقة المثلى لإحياء الأمل، وبث التفاؤل بين الناس وإزالة الحواجز من بينهم، والابتسامة صدقة يؤجر عليها صاحبها، وهي مفتاح القلوب، فبالابتسامة تستطيع أن تكسب محبة من يراك، سواء كان يعرفك أم يجهلك، فيها تدخل السرور إلى قلب من يراك، وبها تستطيع أن تخبر من تشاء بما ترغب وتجبره على تقبله بكل سرور، فالابتسامة هي أهم لغة من لغات الجسد التي تتحدث بها دون أن تنطق، والتي تتحدث عنك لمن يراك دون أن يعرفك، لتعطيه ذلك الانطباع الجميل عنك، والذي لن تمحوه الأيام ما دامت هذه الابتسامة ترافقك.

إنَّ الابتسامة شعارٌ من شعائر الأنبياء عليهم السلام، وسُنَّة من سنن المرسلين عليهم السلام، وصفة من صفات المؤمنين، وسِمَة نبيلة من سِمَات النُّبلاء، ولُغة سامية من لُغات الحضارة البشريَّة، فإن أنت لم تفعلها؛ فنفسَك حَرَمْت، وحَظَّك ضيعت، وفُرصَتَك إلى قُلُوب النَّاس أهدرت، وما أملك لك أنْ نَزَعَ الله ﷻ الرَّحمة من قلبك فحَرَمك هذا الفضل العظيم.

"ومن فوائد طلاقة الوجه والابتسامة أنها تثمر المحبة بين المسلمين، وتبعث الاطمئنان في اللقاء بين المسلمين، وتعين على مناصحة الإخوان، وفيها مرضاة للرب ﷻ، وفيها تأس بسيد الخلق ﷺ"[1]

لنتعلم فن التبسم بصدق ولننشر ثقافة الوجه الطلق والسماحة والسعادة بيننا وفي مجتمعاتنا ففي ذلك الضمان الأكيد لحياة سعيدة وعلاقة أخوية مترابطة ولنتأسى بأعظم رسول صلى الله عليه وسلم ولنستشعر الأجر والمثوبة من الله ﷻ

[1] نظرة النعيم (7/ 2701).

شبكة الألوكة

النصيحة الخامسة والعشرون
فاستقم كما أمرت

الاستقامة من أعظم نعم الله ﷻ على عباده، وقد شيبت رسول الله ﷺ حين أنزل الله ﷻ عليه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴿١١٢﴾﴾ هود: ١١٢، وقد حض عليها رسول الله ﷺ في قوله: "قل آمنت بالله ثم استقم"[1]، والاستقامة هي الثبات على دين الله ﷻ، وعدم السير وراء كل ناعق، معناه لزوم الجادة وعدم الميل يميناً ولا شمالاً مع بنيات الطريق، والتزام ما استطاع المسلم أن يقدر عليه من الطاعات، فأحب العبادة إلى الله ﷻ أدومها، والمسلم المستقيم الذي يتذكر الله ﷻ على كل أحيانه، يذكر الله ﷻ في كل الأوقات إذا استفزه الشيطان إلى الوقوع في المعصية بادر إلى التوبة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ الأعراف: ٢٠١، أحواله كلها تقتضي منه خشية وخوفاً من الله ﷻ، وعدم أمن لمكره وإقبالاً عليه وأوقاته في ذلك سواء، إذا عرضت عليه أية فتنة تذكر الله ﷻ فأقلع عنها، هذه هي الاستقامة وهي النعمة العظيمة التي ينبغي أن نسألها الله ﷻ، فإن صفاءُ المرء وهناؤه وتوازنه واستقرارُه إنما يكمن في صِدق انتمائه لدينه وتمسّكه بشِرعةِ ربّه ﷻ وعَضِّه عليها بالنواجِذ، بعيدًا كلَّ البعد عن مزالقِ الانحراف ومكامِن الرِّيَب ونزَعات الميل إفراطًا وتفريطًا، فيحرص المرءُ المسلم بمثل هذا التوازُن أن يحيا حياةً طيبة، مِلؤها حسنُ الاستقامة على الدّين والثبات عليه أمام العواصِف والزّوابع التي تتتابَع حثيثةً بين الفينة والأخرى ليميزَ الله ﷻ بها

[1] مسند أحمد (24/ 141)، السنن الكبرى للنسائي (10/ 380).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الخبيثَ من الطيب، ويجعلَ الخبيثَ بعضَه على بعض، فيركمَه جميعًا، فيجعله في جهنّم.

وحادِي المؤمنِ الصادق وَسطَ هذا الركام من المتغيّرات هو قوله ﷻ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩ ﴾ الحجر: ٩٩، وقولُه ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ ﴾ الأحقاف: ١٣، وعن سفيانَ بن عبد الله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلامِ قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: "قل: آمنت بالله، ثمّ استقِم"[1]، فهذه الوصيّة الجامعةِ تُوضِّح هويّةَ المسلم التي ينبغي أن يحيا ويموتَ عليها، وهي الاستقامة الحقّةُ دونَ عِوَج أو انحرافٍ، الاستقامة الحقّةُ دونَ تخاذُلٍ أو تراجع، الاستقامة الحقّةُ الجامِعة لأركانها وركائِزها الثلاث، وهي استقامة اللسان أخذًا من قوله: "قل: آمنت بالله"، وكذا استقامةُ القلبِ والجوارح أخذًا من قولِه : "ثم استقِم"؛ ذلك أنّ مجرّدَ الادعاءِ باللسان لا يُعَدّ استقامةً أصلاً، كما أنّ الاستقامة بالجوارح والقلبُ خالٍ منها لا يُعدُّ استقامَة أيضًا، ولذا عابَ الله ﷻ قومًا قد ادَّعوا الاستقامة الحقّةَ على الإيمان وأنهم بلَغوا مقامًا أعلى ممّا هم عليه حقيقةً، فقال ﷻ: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ١٤ ﴾ الحجرات: ١٤

أنّ أعظمَ أنواعِ الاستقامة هو استقامةُ المرء على التوحيدِ الخالِص، وذلك في معرفةِ الله ﷻ وعبادتِه وخشيته وإجلالِه ورجائه وخوفِه ودعائه والتوكّل عليه وعدَم الإشراك

[1] مسند أحمد (24/ 141)، السنن الكبرى للنسائي (10/ 380).

به أو الالتِفات إلى غيرِه ﷻ، ولقد فسَّر أبو بكر الصديقُ رضي الله عنه قولَ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ۝٣٠﴾ فصلت: ٣٠ بأنهم الذين لم يلتفِتوا إلى إله غير الله ﷻ"[1]

إنّ الاستقامة على دين الله عز وجل لَذاتُ شأنٍ عظيم، في حين إنها محفوفةٌ بالمخاطِر من كلِّ جانب، ومِن حولها الفتنُ المتلاطمة التي تؤُزّ صاحبَها أزًّا، فيُدَعَّى إلى مواقَعَتها دعًّا، كلُّ ذلك يجعَل الثباتَ على الاستقامة والعضَّ عليها كالقبضِ على الجمر في راحةِ اليد، ولذا كانَ رسول الله ﷺ يكثِر التعوُّذَ بالله عز وجل من ذلك، فكان من دعاءِ النبي ﷺ: "اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون"[2]

فإنّنا حينما نحرِص على الاستقامة والثّبات على الدين لنعلمُ صعوبةَ ذلك وجهادَ النفس فيه وأنَّ بلوغَها حقَّ البلوغ دونَه من الصِّعاب والعقباتِ الشّيءُ الكثير، بيدَ أنّ هذا كلَّه غيرُ معفٍ كلَّ مسلمٍ وكلَّ مجتمع من السعيِ في تحصيلِها وبذل الوُسع والمستطاع في إقامَتِها في واقعِ الحياة، مع استحضار السّداد والمقارَبَة لقولِ النبي ﷺ: "استقيموا ولن تحصُوا، واعلَموا أنّ خيرَ أعمالكم الصّلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلاّ مؤمِن"[3]

والاستقامة من كمال الإيمان وحسن الإسلام، بها ينال المسلم الكرامات ويصل إلى أعلى المقامات، واستقامة القلوب استقامة للجوارح، والمداومة عليها أفضل من كثير من الأعمال الّتي يتطوّع بها، صاحبها يثق به النّاس، ويحبّون معاشرته.

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (2/ 478).
[2] سنن الترمذي (5/ 366).
[3] مسند أحمد (37/ 60)، سنن ابن ماجه (1/ 101).

والاستقامة أعظم الكرامة، ودليل اليقين ومرضاة ربّ العالمين ﷻ، وتحقيق الاستقامة على وجهها يكون بحفظ القلب واللسان، قال ﷺ: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"[1]

فمن صلح قلبه استقام حاله، فلم ينظر ببصره إلى محرم، ولم ينطق لسانه بمأثم، ولم تبطش يده في مظلمة، ولم ينهض بقدمه إلى معصية، والأعضاء كلها تكفر اللسان، وتقول له في مطلع كل صباح: "اتق الله، فإنما نحن بك؛ فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا"[2]

المستقيم لا ينتهك الأعراض، ولا يعتدي على الأراضي والممتلكات، المستقيم لا يكون غاشًّا ولا مضلّلاً، ولا كذّابًا ولا مرائيًا، ولا سارقًا ولا زانيًا، ولا ظالمًا ولا معتَدِيًا، ولا هاتِكًا لحُرمةٍ أو ناقِضًا لعهدٍ.

إن الاستقامة تعني: الاعتدال والتوازن، وإنها في الحكمة والإصابة والسداد، ولقد عرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاستقامة فقال: "أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب"[3]

فالاستقامة أساس للسعادة وسبيل للفلاح والرفعة في الدنيا والآخرة، الاستقامة لزوم لهدي الله ﷻ، وثبات على دين الله ﷻ، ومحافظة على أوامر الله ﷻ، وبعد عن نواهيه ﷷ، فالاستقامة حفظ للأوامر بفعلها، وحفظ للنواهي باجتنابها وتركها، الاستقامة أن يكون نظر العبد إلى الآخرة، طامعاً في ثواب الله ﷻ، خائفاً من

[1] مسند أحمد (20/ 343)، شعب الإيمان للبيهقي (1/ 97).
[2] مسند أحمد (18/ 402)، سنن الترمذي (4/ 605).
[3] رواه الطبري (24 / 115).

عقابه، يعلم أن أمامه جنة وناراً، وحساباً وعقاباً، فيستقيم على طاعة الله ﷻ إلى أن يلقى الله ﷻ وهو راض عنه غير ساخط.

والاستقامة مطلب عظيم، ومقصد جليل، ولا بد فيها من مجاهدة للنفس، واستعانة بالله ﷻ، فأن أعظمَ خصال أهل الإيمان وخلال أهل الإسلام الاستقامةُ على دين الله ﷻ، فإن الله ﷻ قد أمر نبيه ﷺ بالاستقامة وأمر بها عباده المؤمنين قال ﷻ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ ١١٢ ﴾ هود: ١١٢، وقال ﷻ: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ٦ ﴾ فصلت: ٦، ورتب ﷻ على الاستقامة عظيم الثواب وجميل المآب، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ ﴾ الأحقاف: ١٣، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ ﴾ فصلت: ٣٠، لا تخافوا ولا تحزنوا أي لا تخافوا مما أنتم قادمون عليه فإنكم قادمون على سعادة ونعيم ولا تحزنوا على ما أنتم مفارقوه من أهل وأولاد فإنهم في حفظ الله ﷻ وكنفه ورعايته.

والاستقامةُ حقيقتها لزوم دين الله ﷻ وسلوك صراطه المستقيم وعدم الانحراف عنه ذات اليمين أو ذات الشمال وهي تتعلق بالأعمال والأقوال والأحوال والنيات بأن تكون لله ﷻ وبالله ﷻ وعلى أمر الله ﷻ، وخالصة لله ﷻ مخلصة، وبالله ﷻ مستعينة، وعلى أمر الله ﷻ متبعاً وملتزماً، فهذه حقيقة الاستقامة التي رُتِّبَ عليها الثوابُ العظيم والأجرُ الجزيل في الدنيا والآخرة.

وأصل الاستقامة استقامةُ القلب على أمر الله ﷻ وخشيتُه من الله ﷻ ومراقبته لله ﷻ وحفظُه لأوامر الله ﷻ، فإذا استقام القلب على ذلك استقامتْ الجوارح لأن القلب ملك الأعضاء فإن استقام استقامت وإن اعوج وانحرف اعوجت وفي هذا يقول ﷺ: "ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[1]، ثم إن من أعظم ما ينبغي أَن ترعى استقامته ويحفظ بعد القلب اللسان، قال النبي ﷺ: "إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا"[2]، فإن الواجب على المؤمن أن يجاهد نفسه مجاهدة تامة على الاستقامة على أمر الله ﷻ محافظاً على ذلك تمام المحافظة مخلصاً بذلك أعماله كلَّها لله ﷻ مبتعداً تمام الابتعاد عن الأمور التي تجنح به عن طريق الاستقامة ثم اعلموا أن العبد مهما جد واجتهد في المحافظة على الاستقامة فلا بد أن يقع في شيء من الخطأ والتقصير، وبقدر ما يسير العبد مستقيماً على الصراط المستقيم في الحياة الدنيا بقدر ما يسير على الصراط المضروب على متن جهنم والموصل إلى الجنة، والذي هو أدق من الشعرة وأحد من السيف، فالناس على حسب استقامتهم في هذه الدنيا، فمن استقام في هذه الدنيا على الطريق المستقيم فسوف بمشيئة الله ﷻ يستقيم ويسير السير المعتدل نحو جنة رب العالمين ﷻ.

[1] رواه البخاري (1/ 20)، رواه مسلم (3/ 1219).
[2] مسند أحمد (18/ 402)، سنن الترمذي (4/ 605).

قال ابن رجب: "والاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدِّين القويم مِن غير تَعريجٍ عنه يَمنة ولا يَسرة، ويشمل ذلك فعْلَ الطاعات كلّها، الظاهرة والباطنة، وترْك المنهيّات كلِّها كذلك، فصارتْ هذه الوصيّة جامعةً لخِصَال الدِّين كلِّها"[1]

ويقول ابن القيم رضي الله عنه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ ﴾ يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه عز وجل له كما لا سبيل له إلى عبادته بمعونته فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته"[2]

وقال ابن القيم رضي الله عنه أيضاً: "والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"[3]، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة، وهي السداد والإصابة في النيات والأقوال والأعمال"[4]

"ومن فوائد الاستقامة أنها من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وبها ينال الإنسان الكرامات ويصل إلى أعلى المقامات، واستقامة القلوب استقامة الجوارح، والمداومة عليها أفضل من كثير من الأعمال التي يتطوع بها، وصاحبها يثق به الناس ويحبون معاشرته، والاستقامة أعظم الكرامة، ودليل اليقين ومرضاة رب العالمين سبحانه وتعالى"[5]

---

[1] تفسير ابن رجب (2/ 263).
[2] الفوائد لابن القيم ص 19.
[3] رواه مسلم (4/ 2171).
[4] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 105)
[5] نظرة النعيم (2/ 319).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فاستقم كما أمرت والحذر من وساوس الشيطان الرجيم؛ فإبليس يوسوس للمرء تدريجياً حتى يغويه ثم يتبرّأ منه، قال ﷻ: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ ﴾ هود: ١١٢

النصيحة السادسة والعشرون
والكاظمين الغيظ

شرع الإسلام للعبد أن يعاقِب بمثل ما عوقِب به، وقد أرشده لما هو أفضل من ذلك كظم الغيظ، والغيظ هو شعور بالغضب الشديد إزاء إساءة أو تصرف صدر من الغير، حيث إنّ كظم الغيظ يحتاج إلى مجاهدة عظيمة فهو شديد على النفس البشريّة، ولكن إذا عوّد المرء نفسه مرّة تلو الأخرى على حبس غيظه صار الأمر سهلاً في المرات القادمة، ولكظم الغيظ فوائد شتى لذا فقد وجّه الله ﷻ عباده إلى التحلّي بهذه الصفة الجليلة حيث قال ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤، فكظم الغيظ خلق كريم من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام وحث الناس على الاتصاف بها، فهو حبس الغيظ والغضب وإمساكه وضبط النفس وعدم إنفاذ العقوبة للمسبّب له مع القدرة على ذلك، بل العفو والصفح عنه، والدفع بالتي هي أحسن، ووصف الله ﷻ المتقين الذين يستحقون الجنة في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ آل عمران: ١٣٤ ؛ فجعل من صفاتهم أنهم يكظمون الغيظ، ويعفون عمن ظلمهم، **قال الشنقيطي:** "وقد دلت هذه الآية على أن كظم الغيظ، والعفو عن الناس؛ من صفات أهل الجنة،

وكفى بذلك حثاً على ذلك، ودلّت أيضاً: على أن ذلك من الإحسان الذي يحب الله ﷻ المتصفين به"[1]، **وقال الطبري** في قوله: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ يعني: والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، يقال منه: "كظم فلان غيظه" إذا تجرعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها، وأصل ذلك من كظم القربة، يقال منه: "كظمت القربة" إذا ملأتها ماء، و"فلان كظيم ومكظوم" إذا كان ممتلئاً غماً وحزناً؛ ومنه قول الله ﷻ: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ يوسف: ٨٤، يعني: ممتلئ من الحزن، ومنه قيل لمجاري المياه: "الكظائم" لامتلائها بالماء؛ ومنه قيل: "أخذت بكظمه" يعني: بمجاري نفسه"[2]، **وقال قتادة**: "قوم أنفقوا في العسر واليسر، والجهد والرخاء، فمن استطاع أن يغلب الشر بالخير فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فنعمت والله يا ابن آدم الجرعة تجترعها من صبر وأنت مغيظ وأنت مظلوم"[3]، **وقال القطان**: "أي: الذين يمسكون أنفسهم عن الانتقام مع القدرة عليه؛ ثم أردف ﷻ بميزة عظيمة أخرى وهي قوله: ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴿١٣٤﴾ ﴾ أي: الذين يتجاوزون عن ذنوب الناس، ويتركون مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك، وتلك منزلة من ضبط النفس، وملك زمامها؛ قلَّ من يصل إليها، وهي أرقى من كظم الغيظ، إذ ربما كظم المرء غيظه على الحقد والضغينة فالله ﷻ يريدنا أن نكظم غيظنا، ونعفو عن الناس، وننسى إساءتهم"[4]

---

[1] أضواء البيان للشنقيطي (5/ 487).
[2] تفسير الطبري (6/ 57).
[3] تفسير الطبري (6/ 58).
[4] تفسير المراغي (4/ 71).

فينبغي على من ابتلي بمن يجهل عليه؛ أن يعفو ويصفح، ويكظم غيظه؛ لينال بذلك الأجر العظيم من الله ﷻ؛ مستشعراً في ذلك ما أمره الله ﷻ ورسوله ﷺ به، وليكن له في سلفنا الصالح ﷺ الأسوة والقدوة فقد **ذكر القرطبي** عن **ميمون بن مهران** رضي الله عنه: "أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة، وعنده أضياف، فعثرت، فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي استعمل قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ ﴾ ، قال لها: قد فعلت، فقالت: اعمل بما بعده: ﴿ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾، فقال: قد عفوت عنكِ، فقالت الجارية: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾، قال ميمون رضي الله عنه: قد أحسنت إليكِ، فأنت حرة لوجه الله ﷻ"[1]، وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: "من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله ﷻ على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيّره الله ﷻ من أي الحور العين شاء"[2]، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله فينتقم لله بها"[3]

وقال الألوسي في بيان الفرق بين الغضب وكظم الغيظ: "قيل: إن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة، ولا كذلك الغيظ، وقيل: الغضب ما يظهر على الجوارح والبشرة من غير اختيار، والغيظ ليس كذلك، وقيل: هما متلازمان؛ إلا أن الغضب يصح

[1] تفسير القرطبي (4/ 207).
[2] مسند أحمد (24/ 398)، سنن ابن ماجه (2/ 1400)، سنن الترمذي (4/ 656).
[3] رواه البخاري (4/ 189)، رواه مسلم (4/ 1813).

إسناده إلى الله ﷻ، والغيظ لا يصح فيه ذلك، والمراد والمتجرعين للغيظ الممسكين عليه عند امتلاء نفوسهم منه؛ فلا ينقمون ممن يدخل الضرر عليهم، ولا يبدون له ما يكره، بل يصبرون على ذلك مع قدرتهم على الإنفاذ والانتقام، وهذا هو الممدوح"[1]

فحقيقة كظم الغيظ، هي حبسه ورده في الجوف، مع القدرة على الإيقاع بالمعتدي، قال النبي ﷺ: "ومن كظم غيظاً، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضى يوم القيامة"[2]

وكظم الغيظ فضيلة، ولكن الله ﷻ يحب أن يرتقي المؤمن إلى مقام من الفضيلة أسمى، هو مقام العفو عن الناس، فقد يكظم المسلم الغيظ ويبقى الحقد والضغينة دفيناً في قلبه، ويتحول إلى عداوة خفية، لذلك جمع الله ﷻ في وصف المؤمنين والمحسنين الذين يحبهم بين كظم الغيظ والعفو عن الناس، ليحرضهم على الارتقاء إلى هذا المرتقى السامي من الفضائل الخلقية، وحين يشيع خلق العفو عن الزلات والهفوات تصفو القلوب ويسود الإخاء والسلام بين العباد.

وذكر الله ﷻ من صفات المؤمنين في آية أخرى أنهم يغفرون إذا ما غضبوا، وينتصرون إذا أصابهم البغي، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ

---

[1] روح المعاني للألوسي (2/ 272 – 273).
[2] المعجم الكبير للطبراني (12/ 453).

﴿سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الشورى: ٣٧ - ٤٠، والفرق بين الكبائر والفواحش -مع أن جميعهما كبائر- أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه، ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾﴾ فصلت: ٣٤ - ٣٥ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ ﴿٣٨﴾﴾ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه، ومن الاستجابة لله عز وجل، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفهما على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ من النفقات الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

إن من طبيعة النفس الإنسانية أنها لا تطمئن ولا تهدأ إلا بذكر الله ﷻ والإنابة إليه والأنس بقربه وطاعته، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾ الرعد: ٢٨، ويهدي الذين تسكن قلوبهم بتوحيد الله ﷻ وذكره فتطمئن، ألا بطاعة الله ﷻ وذكره وثوابه تسكن القلوب وتستأنس، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "وههنا سر لطيف، وهو أن الله ﷻ، جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان كمالاً، إن لم يحصل له فهو في قلق واضطراب وانزعاج بسبب فقد كماله الذي جعل، وجعل كمال القلب ونعيمه وسروره ولذته، في معرفة الله ﷻ ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والأنس به، فإذا عدم القلب ذلك كان أشد عذاباً واضطراباً، ولا سبيل له إلى الطمأنينة بوجه من الوجوه، ولو نال من الدنيا وأسبابها ومن العلوم ما نال، إلا بأن يكون الله ﷻ وحده هو محبوبه وإلهه ومعبوده، وغاية مطلوبة"[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[2]

قال ابن عطيَّة: "كَظم الغَيْظ: ردُّه في الجَوْف إذا كاد أن يخرج مِن كَثْرَته، فضبطه ومَنَعَه، الغَيْظ: أصل الغَضَب، وكثيرًا ما يتلازمان، ولذلك فسَّر بعض النَّاس الغَيْظ بالغَضَب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغَيْظ: فعل النَّفس، لا يظهر على الجوارح. والغَضَبُ: حالٌ لها معه ظهورٌ في الجوارح، وفعلٌ ما ولا بدَّ، ولهذا جاز إسناد

[1] الروح لابن القيم ص 222 – 223.
[2] رواه البخاري (8/ 28)، رواه مسلم (4/ 2014).

الغَضَب إلى الله ﷻ، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يُسْند إليه ﷻ غيظٌ"[1]

يحرص الشيطان دائمًا عند المنازعات والخصومات على أن يثير غيظ بني آدم وغضبه؛ لأن ذلك يُسَهِّل سيطرته عليهم، ويدفعهم بذلك إلى شرورٍ غير متوقعة، وكان إبليس يعرف ذلك عن آدم عليه السلام وذريته منذ بداية الخليقة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به[2]، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف[3] عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك"[4][5]، ومن هنا كان من سُنَّة الرسول ﷺ أن يمنع كيد الشيطان بكظم الغيظ وعدم إنفاذه، والترغيب في ذلك بالمنزلة العالية يوم القيامة.

هناك الكثير من الآيات القرآنية العظيمة التي تحث المسلم على تحمل الأذى وأجره العظيم من الله ﷻ جزاء لما فعل، والكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي توضح عظمة كظم الغيظ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من جرعة أعظم أجراً عند الله، من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله"[6]، والحديث يوضح أن أعظم الأجر عند الله ﷻ في كظم الغيظ لله عز وجل.

كما أن كظم الشخص غيظه عند ظلمه من أخر يجعله الأقوى ويغلب الشيطان وشيطان صاحبه، فعن أنس رضي الله عنه قال: أنَّ النَّبي ﷺ مرَّ بقوم يصطرعون، فقال: "ما هذا؟ فقالوا: يا رسول الله، فلانٌ الصَّريع، لا ينتدِب له أحدٌ إلَّا صرعه، فقال رسول

[1] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (1/ 509).
[2] يطيف به: قال أهل اللغة طاف بالشيء يطوف طوفا وطوافا وأطاف يطيف - إذا استدار حواليه.
[3] فلما رآه أجوف: الأجوف صاحب الجوف وقيل هو الذي داخله خال.
[4] لا يتمالك: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه وقيل لا يملك نفسه عند الغضب والمراد جنس بني آدم.
[5] رواه مسلم (4/ 2016)
[6] سنن ابن ماجه (2/ 1401).

الله ﷺ: "ألَا أدلُّكم على من هو أشدُّ منه؟ رجلٌ ظلمه رجلٌ، فكظم غيظه فغلبه، وغلب شيطانه، وغلب شيطان صاحبه"[1]، فكان النبي ﷺ يكظم غيظه ويعفو عن المسيء إليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيّ فجبذه بردائه جبذة شديدة نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثّرت بها حاشية الرّداء من شدّة جبذته، ثمّ قال: يا محمّد مر لي من مال الله الّذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثمّ أمر له بعطاء"[2]

وللسلف الصالح والصحابة رضي الله عنهم كثير من الأثار الواردة عنهم في كظمهم للغيظ وعدم رد الإساءة للمسيء، فقد جاء غلام لأبي ذرّ رضي الله عنه وقد كسر رجل شاة له فقال له: من كسر رجل هذه؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك فتضربني فتأثم، فقال: لأغيظنّ من حرّضك على غيظي، فأعتقه"[3]، **وذكر ابن كثير** في سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن رجلاً كلمه يومًا حتى أغضبه، فهم به عمر رضي الله عنه، ثم أمسك نفسه، ثم قال للرجل: أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا؟ قم عافاك الله، لا حاجة لنا في مقاولتك"[4]

"ومن فوائد كظم الغيظ أنه دليل قوة النفس وقهر شهوة الغضب، ودليل تقوى الله عز وجل وإيثار وعده بالجنة، وكاظم الغيظ يأمنه الناس فيألفونه ويقتربون منه ولا يتحاشونه، وكظم الغيظ يشيع بين الناس جو الصفاء والوداد والحب والإخاء، ودليل الصبر والعفو، وفيه عظم الثواب يوم العرض على رب الأرباب سبحانه وتعالى، والجزاء من

---

[1] مسند البزار (13/ 475)، مكارم الأخلاق للطبراني ص 329، كشف الأستار عن زوائد البزار (2/ 439).
[2] رواه البخاري (4/ 94)، رواه مسلم (2/ 730).
[3] مختصر منهاج القاصدين ص 183.
[4] البداية والنهاية لابن كثير (12/ 698).

جنس العمل من ضيق على نفسه حين الغضب وسع الله ﷻ في ثوابه، ومن كظم غيظاً ملأ الله ﷻ قلبه رجاء يوم القيامة، وكظم الغيظ عاقبته سكن الإيمان في النفس"[1]

فمن المهم علاج النفس من أدرانها وعللها، وقد نهانا الإسلام عن الغضب الشديد والانفعال الزائد، فهي عامل مسبب لكثير من الأمراض النفسية والعصبية، والتي من الممكن أن تتطور إلى أمراض عضوية، وقد وضع الإسلام – عبر تعاليمه – نظامًا محكمًا من القيم مثل: الصبر والرفق والعفو عند المقدرة والخشوع والخضوع لله ﷻ، والترابط والتراحم بشكل متوازن؛ تربية للنفوس، قال ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤

﴾ آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤

[1] نظرة النعيم (8/ 3244)

النصيحة السابعة والعشرون
قل آمنت بالله

الإيمان من أعظم النّعم التي منّ الله ﷻ بها على عباده، فبه يَسْعَدُ المرء ويعيش مطمئنَّ القلب في الدنيا والآخرة، جاء جبريل عليه السلام وسأل النبيّ ﷺ عن الإيمان قائلاً: "أخبرني عن الإيمان؟ قال: الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صَدَقتَ"[1]، ولا يكتمل إيمان المسلم ما لم تتحقّق عنده الأركان الستّة.

الإيمانُ هو تصديق قلبيّ يقيني بوجود الخالق ﷻ، وأنه ﷻ هو الوحيد المستحق للعبادة، وأنه صاحب الأمر والنهي الواجب طاعته والتزام أوامره، والاعتقاد بربوبية الله عز وجل، وألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، والإيمان بأنّ نبيَّ الله محمداً هو رسول الله وخاتم النبيين، وقبول واتباع كلّ ما جاء به من الأحكام الشرعية، وما تحدّث به من الأمور الغيبية، فالإيمان هو معنى جامعٌ لكلّ أعمال الإنسان اعتقاداً وقولاً وسلوكاً، فهو كما عرّفه العلماء قول باللسان، وتصديق بالجَنان، وعمل بالأركان، وهذا الإيمان عند عقيدة أهل السنّة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

نعمة حلاوة الإيمان ولذة الطاعة والإحسان، نعمة لا يدركها ولا يعرف قيمتها إلا من ذاقها وأحس بها وعاش معها، ولذة لا يستشعر أثرها إلا من تذوق طعمها وأنس بوجودها، وحلاوة الإيمان تسري سريان الماء في العود، وتجري جريان الدماء في العروق، فيأنس بها القلب وتطمئن بها النفس، فلا يحس معها المرء بأرق ولا قلق

[1] رواه مسلم (1/ 36).

ولا ضيق، قال ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ الأنعام: ١٢٥ – ١٢٧، لذا حينما جاء خباب بن الأرت رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يشكو ظلم قريش للمستضعفين من المسلمين، قال له في إيمان الواثق بربه ﷻ الذي ذاق حلاوة الإيمان به والثقة بما عنده من عزة ونصر: "قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[1]

لذا فقد وجدنا بلال بن رباح رضي الله عنه يطبق حلاوة الإيمان تطبيقاً عملياً حينما كان يعذب من قبل قريش بعد إعلان كلمة التوحيد وكان يعذب في رمضاء مكة حيث إنه سئل كيف صبرت يا بلال؟ قال: "مزجت حلاوة الإيمان بمرارة العذاب فطغت حلاوة الإيمان على مرارة العذاب فصبرت"[2]

[1] رواه البخاري (9/ 20).
[2] المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (2/ 622).

يقول ابن تيمية ﷺ: "فإن المخلص لله ﷻ ذاق من حلاوة عبوديته لله ﷻ ما يمنعه من عبوديته لغيره، إذ ليس في القلب السليم أحلى ولا أطيب ولا ألذ ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ﷻ ومحبته له وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله ﷻ فيصير القلب منيباً إلى الله ﷻ خائفاً منه راغباً راهباً."[1]

ولقد أخبرنا النبي ﷺ أن للإيمان طعماً وحلاوة لا يحسها ولا يتذوقها إلا من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فعن عامر بن سعد عن العباس بن عبد المطلِب رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً."[2]، وأن هذه الحلاوة لا بد لها من أصول وشروط، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار"[3]، وعن الوليد بن عبادة بن الصامت رضي الله عنهما قال: "أوصاني أبي رحمه الله فقال: يا بني أوصيك أن تؤمن بالقدر خيره وشره؛ فإنك إن لم تؤمن أدخلك الله النار، قال: وسمعت النبي ﷺ يقول: "أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: القدر، قال: فكتب ما يكون وما هو كائن

[1] العبودية لابن تيمية ص 123، الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 203)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (10/ 215).
[2] رواه مسلم (1/ 62).
[3] رواه البخاري (9/ 20)، رواه مسلم (1/ 66)

إلى أن تقوم الساعة"[1]، يا بني إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من مات على غير هذا فليس مني"[2]

ومن المشاهد التي رأها النبي ﷺ ليلة المعراج مشهد مشاطة ابنة فرعون، تلك المرأة المؤمنة التي ذاقت حلاوة الإيمان فهانت في عينيها الدنيا بما فيها وبمن فيها، وتحملت التعذيب والقتل بنفس راضية مؤمنة، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: " لما كانت الليلة التي أسري بي فيها، أتت علي رائحة طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها"، قال: " قلت: وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم، إذ سقطت المدرى من يديها، فقالت: بسم الله، فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله، قالت: أخبره بذلك قالت: نعم، فأخبرته فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك رباً غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله، فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد، وتدفننا، قال: ذلك لك علينا من الحق"، قال: "فأمر بأولادها فألقوا بين يديها، واحداً واحداً، إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، كأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمه، اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فاقتحمت"، قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: "تكلم أربعة صغار: عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون"[3]

---

[1] مسند أحمد (37/ 381)، سنن الترمذي (5/ 424).
[2] سنن الترمذي (4/ 457)، مسند أحمد (3/ 317)، سنن أبي داود (3/ 890).
[3] مسند أحمد (5/ 30).

وحلاوة الإيمان لا يحسها ولا يعايشها أي أحد، كما أنها لا تباع ولا تستجدى، يقول إبراهيم بن أدهم ﵁ من شدة سروره بتلك النعمة: "لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف"[1]، وقال بعض العارفين: "مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبَّة الله ﷻ ومعرفته وذكره"[2]، وكان ابن تيمية ﵁ يقول: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة"[3]، وقال أيضاً: "ليس للقلوب سرور ولا لذَّة تامة إلا في محبة الله ﷻ والتقرُّب إليه بما يحبه، ولا يمكن محبَّة إلا بالإعراض عن كلِّ محبوبٍ سواه"[4]، وقال مطرف بن عبد الله الشخير ﵁: "أتيت عمران بن حصين ﵁ يوماً، فقلت له: إني لأدع إتيانك لما أراك فيه، ولما أراك تلقى، قال: فلا تفعل، فو الله إن أحبه إليّ أحبه إلى الله، وكان عمران بن الحصين ﵁ قد استسقى بطنه، فبقي ملقى على ظهره ثلاثين سنة، لا يقوم ولا يقعد، قد نقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته، فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء، فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال: لم تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة، قال: لا تبكِ فإن أحبه إلى الله ﷻ، أحبه إلي، ثم قال: أحدثك حديثاً لعل الله أن ينفع به، واكتم علي حتى أموت، إن الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم علي فأسمع تسليمها، فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة، إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة، فمن يشاهد هذا في بلائه، كيف لا يكون راضياً به؟!"[5]

---

[1] صفة الصفوة (2/ 335).
[2] الوابل الصيب من الكلم الطيب ص 48.
[3] الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي ص 34.
[4] مجموع الفتاوي لابن تيمية (32/ 28).
[5] الرضا عن الله بقضائه لابن أبي الدنيا ص 86، إحياء علوم الدين (4/ 349).

وهذا خالد بن الوليد ﷺ فارس الإسلام وليث المِشَاهد يقول – حين ذاق طعم الإيمان وخالط بشاشة قلبه–: "والله ما ليلة تهدى إليَّ فيها عروس، أنا لها محب، أبشَّر فيها بغلام، بأحب من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد، في سرية في المهاجرين أنتظر فيها الصبح لأغير على أعداء الله"[1]

الإيمان هو المقبول عند الله ﷻ دون سواه، وهو عصمة للمسلم في الدنيا، وحفظ له في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله"[2]

من رضي بالله ﷻ رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فقد ذاق طعم الإيمان وحلاوة الحياة، فعاش مطمئناً، ومات آمناً، لرحمة الله ﷷ راجياً.

وإذا تمكن الإيمان من النفوس، وخالطت بشاشته القلوب خرج الإنسان من ظلمات الجهل والشك والخرافة إلى نور الإيمان واليقين، وشرح الله ﷻ صدره، ويسَّر أمره، وأصلح له شأنه، فأصبح من أولياء الله ﷷ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والإيمان من أجَلِّ نعم الله ﷷ على العباد، ومعناه التصديق والاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ هو رب كل شيء ومليكه، وخالقه ومدبره، وأنه وحده الذي يستحق العبادة؛ من صلاة وصوم ودعاء ورجاء، وخوف وذل وخضوع، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المنزه عن كل عيب ونقص، **يقول الحسن البصري** رضي الله عنه: "ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن هو ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال"[3]

---

[1] فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (2/ 814)، جامع المسانيد والسنن (2/ 593).
[2] رواه البخاري (2/ 105)، رواه مسلم (1/ 51).
[3] شعب الإيمان للبيهقي (1/ 158).

فإن الإيمان إذا تمكن من النفوس، وخالطت بشاشته القلوب ظهرت نتائجه من خلال الأعمال، فإن الإيمان قول وتصديق وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان، ومما يؤكد ذلك أعظم التأكيد قَرْنُ الله ﷻ في كتابه العزيز في مواضع عديدة بين الإيمان والعمل الصالح؛ بل لا تكاد تجد آية في كتاب الله ﷻ تدعو إلى الإيمان إلا وتذكر العمل الصالح معه؛ مما يدل على أن مجرد التصديق أو النطق وحده لا يكفي.

الإيمان يحمل صاحبه على مكارم الأخلاق، وجميل السجايا والصفات، فيحب للناس ما يحب لنفسه، ويعيش مع إخوانه في العقيدة آلامهم وآمالهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، ويخاف الله ﷻ ويتقيه ويعظمه عن لا يكون أهون الناظرين إليه، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ الأنفال: ٢ - ٤

الإيمان كلمة عظيمة تحمل في طياتها الحياة السعيدة والمستقبل المشرق، وتكتنز بين جنباتها العزة والرفعة والسيادة والريادة، تلك الكلمة التي تعدّ سفينة النجاة من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، هذه الكلمة السامية ليست عبارة تقال باللسان، وإنما هي معتقدات صحيحة وأعمال صالحة ابتغاء وجه الله ﷻ.

إنها تعني التصديق الجازم بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والعمل الصادق الذي يتلو هذا الاعتقاد، قال ﷻ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة: ١٧٧

إن الإيمان جهاد صادق للنفس على امتثال أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه والوقوف عند حدوده والبحث عن الحق والسؤال عنه للتمسك به والتزامه، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ النور: ٥١، وهو حقائق ومعانٍ تنتج أعمالاً صالحة وسلوكاً مستقيماً.

فالإيمان درجة رفيعة في بنيان الإسلام الشامخ يصل إليها المسلم بصفاء قلبه من كل ما يعارض ما يجب اعتقاده واستقامة جوارحه على أوامر الشرع، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ الحجرات: ١٥

إن الإيمان هو الحياة، فلا طعم للحياة بلا إيمان مهما اتسعت ورحبت وأينعت، فمن رزق الإيمان عرف العيش الهنيء والراحة النفسية والاستقرار الروحي وأحس لذة الاطمئنان وانشراح الصدر وسلامة البال، وإذا تغلغل الإيمان في القلوب ثبت المسلم على دينه وأحبه وأحب كل ما جاء به، ورآه أعظم نعمة عليه وصار محالاً لديه أن يبيعه بالدنيا وما فيها، قال هرقل لأبي سفيان ﵁ في أسئلته عن النبي ﷺ عندما كان أبو سفيان في الشام قبل أن يسلم: "وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد"[1]

قال ابن حجر: "أن عمر بن الخطاب ﵁ وجه جيشاً إلى الروم وفيهم عبد الله بن حذافة ﵁ فأسروه فقال له ملك الروم: تنصر أشركك في ملكي فأبى، فأمر به فصلب وأمر برميه بالسهام فلم يجزع، فأنزل وأمر بقدر فصب فيها الماء وأغلى عليه وأمر بإلقاء أسير فيها فإذا عظامه تلوح فأمر بإلقائه إن لم يتنصر فلما ذهبوا به بكى قال: ردوه فقال: لم بكيت؟ قال: تمنيت أن لي مائة نفس تلقى هكذا في الله ﷻ، فعجب فقال: قبّل رأسي وأنا أخلي عنك فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبّل رأسه فخلى بينهم، فقدم بهم على عمر ﵁ فقام عمر فقبل رأسه"[2]

فانظروا ماذا يصنع الإيمان.

إذا رسخ الإيمان في القلوب هانت على صاحبه آلام الجسد إذا كانت من أجل الله ﷻ، وحينما يستقر الإيمان في القلب تقل الدنيا وتصغر في عين صاحبه، فلا

[1] رواه البخاري (1/ 19).
[2] الإصابة في تمييز الصحابة (4/ 52).

يقدم على الآخرة شيئاً من الدنيا يذهب إيمانه أو يضعفه، فلو ذهبت دنياه كلها وبقي له دينه فلا يبالي، ولقد ترك المهاجرون في مكة أموالهم وتجاراتهم وأهاليهم ودنياهم كلها ثم خرجوا بالإيمان، فعن صهيب رضي الله عنه قال: "خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه وكنت قد هممت بالخروج معه فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه، ولم أكن شاكياً فقاموا فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريداً ليردوني فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلون سبيلي وتفون لي؟ فتبعتهم إلى مكة فقلت لهم: احفروا تحت أسكفة الباب فإن تحتها الأواق واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحول منها يعني: قباء، فلما رآني قال: يا أبا يحيى، ربح البيع ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام"[1]

وحينما يكون القلب معموراً بالإيمان تثبت النفوس أمام البلايا والمحن من مرض أو فقر أو تشريد، وعندما يزيد الإيمان في القلوب يغدو صاحبه منصفاً للناس من نفسه، فيكون مع الحق أينما كان، لا يتعصب لجنسه أو لونه أو عرقه أو قبيلته أو وطنه أو حزبه أو جماعته في الباطل؛ لأن الإيمان يفرض عليه التوجه مع الحق أينما مضت ركائبه، قال عمار بن ياسر رضي الله عنه: " ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار"[2]

[1] المعجم الكبير للطبراني (8/ 31)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (3/ 452)، دلائل النبوة للبيهقي (2/ 522).
[2] رواه البخاري (1/ 15).

إن المسلم إذا زاد حظه من الإيمان فسيخاف الله ﷻ من أن يقع في معاصيه، ويخاف الله ﷿ أن يؤذي عباده بقول أو فعل، قال ﷻ عن ابني آدم: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ ﴾ المائدة: ٢٨، وقال رسول الله ﷺ: "الإيمان قيد الفتك[1] لا يفتك مؤمن"[2]

إن المسلم لما يرتقي إلى درجة الإيمان تستريح به نفسه، ويسعد به أهله وقرابته، وينعم به مجتمعه الذي يعيش فيه؛ لأن أعماله وأقواله وأحواله وفق شريعة الله ﷿ التي هي سعادة الدنيا والدين، قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيباً، ولا تضع إلا طيباً."[3]، ولا يعني هذا أنه معصوم من الأخطاء، لكنه إذا أخطأ أقلع وعاد إلى حالته السابقة من الخير.

فما أحسن الحياة بالإيمان والمؤمنين، وما أسعد المجتمع بالصلاح والمصلحين، وما أنعم العيش بالتقوى والمتقين، قال ﷻ: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ ﴾ النحل: ٩٧، فالإيمان وحقيقته هو ذلك الخلق القويم ينبعث من ذات النفس البشرية بفطرتها وتصديقها وانقيادها، فترى صاحب هذه النفس الإنسانية المؤمنة سباقاً إلى فعل الخيرات، مقيماً لأحكام دينه وشرائعه من غير تنطع وغلو،

[1] الفتك: أي: يمنع من الفتك الذي هو القتل بعد الأمان غدراً، أي كما يمنع القيد من التصرف، يمنع الإيمان من الغدر.
[2] مسند أحمد (3/ 41)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 392).
[3] السنن الكبرى للنسائي (10/ 145)، المعجم الكبير للطبراني (204/19).

يتجاوز الحد المشروع له، ترى صاحب هذه النفس البشرية المؤمنة إيمانًا حقيقيًّا خالصًا تراه بارًّا بوالديه، وواصل رحمه، تراه ممتثلاً فعل الواجبات، وممتثلاً ترك المحرمات، محسنًا إلى الفقراء والأيتام، بارًّا بكل مسلم، ليِّنًا في غير ضعف، قويًّا في غير تجبر وظلم، يتقي الله ﷻ حيثما كان، يتقي الله ﷻ في السر والعلن، تراه متحليًا بصفات المؤمنين التي حض عليها القرآن الكريم.

فهو صادق للحديث، يؤدي الأمانة، محبًّا للعدل في قوله وفعله، يدعوه إيمانه إلى التحلي بكل خلق كريم؛ كالحياء والكرم، والصبر والشجاعة، والقوة في الجهر بالحق، والحرص على إفشاء السلام على من عرف وعلى من لا يعرف، والحرص على طيب الكلام، والتفاني في خدمة المجتمع المسلم بكل ما يستطيع، والنصيحة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

"ومن فوائد الإيمان الرضا بالقضاء والصبر على البلاء إذ كله من عند الله ﷻ، وبذل كل معروف ومحبوب للرب الخالق ﷻ وترك كل مكروه له ﷻ، وسلامة النفس من أمراضها والسكينة والرضا في القلب، والطاعة الكاملة مع الحب الغامر لمن كان سبباً لكل خير وهو الرب العظيم ﷻ، وما فات في الدنيا يعوض في الآخرة، وحب ما يحبه الله ﷻ من النبيين والصالحين والأعمال والأخلاق وبغض ما يبغضه الله ﷻ من الأشرار والمفسدين والأعمال والأخلاق لأن من أحب أحداً أحب ما يحبه وأبغض ما يبغضه، والتسليم الكامل لشرعه بل هوى نفس المؤمن وراحة فؤاده في تحكيم شرعه في القليل والكثير والعظيم والحقير، وشرط قبول الأعمال، ونيل الرضا والحب والإنعام من الله ﷻ، والحياة الطيبة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، والفطنة والحذر من لوازم الإيمان، والإيمان ينجي من دخول النار

ومن البقاء فيها، والإيمان الكامل يستلزم العمل الصالح، والإيمان هم التطبيق الفعلي للإسلام فمن أسلم بلسانه لابد أن يصدق بقلبه ويعمل بجوارحه حتى يكون مؤمناً، يولد الإيمان الحقيقي حلاوة في القلب تجعل صاحبها لا ينفك عن تحصيل أسبابها، ويجعل النفس مطمئنة راضية قانعة بما يقدره الله عز وجل ويقضيه عليها ولها"[1]

فيا أيها المسلم، جدد إيمانك وحافظ عليه من كل ما ينقصه، واعلم أنه كنزك فاحرسه، وسعادتك فاحرص عليه، وحياتك فعش من أجله، فإن فعلت فقد ربحت الدنيا والآخرة.

[1] نظرة النعيم (3/ 748 – 749)

النصيحة الثامنة والعشرون
واعبد ربك حتى يأتيك اليقين

المؤمن من يَستشعر وجود الله ﷻ معه في حياته كلّها بحركاته وسكناته، في فرحه وحزنه، وشدّته ورخائه، فيوقن حق اليقين أنّ الله ﷻ مدبر الأمور ومسيّرها، كل شيء في الكون يَسير بحكمة الله ﷻ وأوامره بدقة تامة، ولهدفٍ مُعيّن قد يعرفه الإنسان وقد يجهله ويبقى السبب الحقيقي في علم الغيب عند الله ﷻ، أمّا إن كان سبب الحدوث مَجهولاً فإنّ المؤمن الحق يبقى على يقين بأنّ الله ﷻ لا يُدبّر لعباده إلا ما كان فيه خيرٌ لهم، قال النبي ﷺ: "عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له"[1]، شعور اليقين هو شعورُ الراحة المطلقة للمرء، فهو يَطمئن لما تمّر به حياته ولِما يحدث معه، لا يَقلق من غده ولا مُستقبله، فيشعر بأنّ الله ﷻ بجانبه يرعاه برعايته ويُدبّر له الأمر وييسّر له الرزق، ويدفع عنه المكروه، فإن أصابه فرحٌ أو خيرٌ حمد الله ﷻ على ما أعطاه وشكره لكرمه ونِعمه، وإن أصابه مكروهٌ حمد الله ﷻ وصبر على ما ابتلاه يقيناً منه أنّ أجر ذلك الصبر سيخبئه الله ﷻ له إلى يوم القيامة؛ لأن البلاء من الله ﷻ اختبارٌ للصبر، ودفعٌ للذنوب، ورفعٌ للدرجات، وقد قال الله ﷻ في وصف أهل اليقين والتقوى والإيمان: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ

---
[1] رواه مسلم (4/ 2295).

﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ البقرة: ٣ - ٥ البقرة: ٣ - ٥

فاليقين هو الطمأنينة في القلب واستقرار العلم فيه، وبذلك فإنّ اليقين له قسمان رئيسيان هما العلم التام الذي لا ينافيه شك، والعمل بذلك الشيء وذلك العلم اليقيني الذي يدفع إلى عدم معصية الله ﷻ علماً تاماً بأنّه هو وحده الخالق المدبّر وأنّه وحده له الأمر والحكم، ولا تجب الطاعة المطلقة إلا له.

اليقين هو العلم بأنّ حكم الله ﷻ هو خير الأحكام وأفضلها وأكملها وأصدقها، وأتمها وأعدلها، وأنّ الواجب على كل مكلّف الانقياد له، مع الرضا والتسليم التام بكل الحوادث التي تمر بالمسلم، وذلك تصديقاً لقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ المائدة: ٥٠

اليقين هو التصديق الجازم الذي تستقرّ معه النفس وتطمئن، وأنه شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وصفة من صفات أهل التقوى والإحسان، وهو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل، **قال البيهقي:** "اليقين هو سكون القلب عند العمل بما صدق به القلب فالقلب مطمئن ليس فيه تخويف من الشيطان ولا يؤثر فيه تخوف فالقلب ساكن آمن ليس يخاف من الدنيا قليلاً ولا كثيراً."[1]، **وقال ابن القيم** رضي الله عنه: "لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه"[2]،

"والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها

[1] الزهد الكبير للبيهقي ص352.
[2] الطب النبوي لابن القيم ص 160، زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (4/ 197).

طمأنينة ضميره، فالآيات لا تنشىء اليقين، إنما اليقين هو الذي يدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيئ القلوب للتلقي الواصل الصحيح"[1]

ولأهمية اليقين فقد نبه الله ﷻ نبيه ﷺ إلى الركون إلى أهل الشك ومن ليس لديهم اليقين الكامل بالله ﷻ، قال ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ الروم: ٦٠، كما أمره بمداومة العبادة حتى يأتيه اليقين التام بلقاء ربه ﷻ والفوز بمرضاته، قال ﷻ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ الحجر: ٩٨ - ٩٩، واليقين عده البعض الإيمان كله، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله"[2]، **وقال ابن القيم** رحمه الله: "اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يُمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية، وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال، وبقوتهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تُفتتح بالمحبة واليقين، وهما يثمران كل عمل صالح، وعلم نافع، وهدى مستقيم"[3]

عن الحسن أن أبا بكر رضي الله عنه خطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: "أيها الناس إن الناس لم يعطوا في الدنيا خيراً من اليقين والمعافاة، فسلوهما الله ﷻ"[4] وعن عمر رضي الله عنه قال إن أبا بكر رضي الله عنه خطبنا، فقال: إن رسول الله ﷺ قام فينا عام أول، فقال: "ألا

---

[2] السّنة لعبد الله بن أحمد (1/ 374)، شعب الإيمان للبيهقي (1/ 150)
[3] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 374).
[4] مسند أحمد (1/ 212).

إنه لم يقسم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين، ألا إن الصدق والبر في الجنة، ألا إن الكذب والفجور في النار"[1]

ولهذا **قال أبو بكر الوراق** رضي الله عنه: "اليقين ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عُرف الله سبحانه وتعالى، وبالعقل عُقل عن الله سبحانه وتعالى"[2]، فاليقين من أعمال القلوب التي لا بد للمسلم أن يحرص عليها ليحصل لقلبه الحياة الحقيقة وتستقيم جوارحه.

واليقين شعبة من شعب الإيمان وهو ضد الشك والريب وهو شرط من شروط الشهادتين، وهو الاعتقاد الجازم بعلم وطمأنينة واستقرار نفس، بكل ما جاء في الوحيين، لذا فإن اليقين يدفع بالمسلم إلى العبودية الكاملة لله عز وجل، ويعينه على إخلاص النية له سبحانه وتعالى، واتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو شرط من شروط التوحيد فلا إيمان مع الشك أو التردد؛ لأن الإيمان لا يُقبل إلا باليقين ولا تصح العبادة إلا به، وهو من أعظم أسباب حياة القلب وطمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة، فاليقين يزيل الريب والشك والسخط، وهو من أسباب قوة الإيمان وزيادته، وبه تنال الإمامة في الدين، **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين" ثم تلا قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة: ٢٤، وهو المحرك للأسباب المعينة على العبادات والطاعات"[3]

---

[1] مسند أحمد (1/ 219).
[2] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (5/ 398).
[3] مجموع الفتاوي لابن تيمية (28/ 153).

فاليقين في الله ﷻ من الأعمال الإيمانية التي ينبغي أن ترسُخ في قلب كلِّ عبْدٍ مسلم، وكما هو معلوم في الدين فاليقين من صفات أهل التقوى والإحسان، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ لقمان: ٤ - ٥ ، وللأسف كثيرٌ هم من يغفُلون عن هذا الأمر إمَّا جهلًا أو تناسيًا، **قال البيهقي**: " اليقين هو سكون القلب عند العمل بما صدَّق به القلب، فالقلب مطمئنٌّ ليس فيه تخويف من الشيطان، ولا يُؤثِّر فيه تخوُّف، فالقلب ساكنٌ آمنٌ ليس يخاف من الدنيا قليلًا ولا كثيرًا، فإذا همَّ القلب ببابٍ من الخير لم يخطُر بقلبه قاطعٌ يمنعُه ولا يُضعِفُه عمَّا نوى من الخير، سكن قلب الموقن ورسخ فيه حتى صار كأنه طُبع عليه وجُبِل عليه جَبْلًا، وإنك لا تصل إلى نفعٍ إلَّا بالله ﷻ، ولا يكون إلا ما شاء الله ﷻ، واعلم أن الخلق لا يملكون لأنفسهم شيئًا ولا يقدرون عليه إلا بالله ﷻ، ليسكن قلب الموقن إلى الله ﷻ دون خلقه، فلا يرجو غير الله ﷻ ولا يخاف غيره، وزال عن قلبه جميع الخلق من أن يرجوَ منهم أحدًا أو يخافه، أو يتَّكِل عليه، أو على ماله، أو على بَدَنه، أو على احتياله، فلمَّا عرف ذلك، عزَّ وقوي واستغنى بالله ﷻ في كل شيء دون ما سواه"[1]

فاليقين من شُعَب الإيمان العظيمة التي ينبغي تدريب القلب عليها بعلْمٍ راسخٍ، وقد أمرنا ﷻ أن نعبُدَه حتى يأتينا اليقين، وألَّا نميل إلى من أُصيبوا بالشكِّ وقلَّة اليقين

[1] الزهد الكبير للبيهقي ص352.

بربِّهم ﷻ؛ حيث قال ﷻ: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر: ٩٨ - ٩٩

إن أصحاب اليقين المتَّقين فعلًا هم الذين يؤمنون حقَّ الإيمان بأنه ﷻ هو راعيهم ومُدبِّر شؤونهم، وإن أصابهم مكروهٌ علِموا أنه ابتلاءٌ واختبارٌ لهم منه ﷻ؛ فصبروا واحتسبوا الأجْرَ عليه إلى يوم القيامة، وإن اليقين درجة عليا من درجات العلم، توصل صاحبَها إلى الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، الذي لا يزول بتشكيك مشكِّك، ولا ترددِ ظانٍّ، وليس المسلمون على درجة واحدة في اليقين بحسن فعل رب العالمين ﷻ، بل تفاوتت درجاتهم فيه، وظهر التمايز بينهم في كماله ونقصانه، وبرهن على ذلك الاختلافِ علواً وانخفاضًا أعمالُ الباطن والظاهر؛ فمن كان أكثرَ يقينًا كان أكثر توكلاً، وأخلصَ عملاً، وأسبق خيراً، وأقل همًّا، وأكثر لله ﷻ حبًّا، وأشدَّ إقبالاً على عمل الآخرة، وإعراضًا عن ملهيات الدنيا.

إن اليقين بَرْدُ نعيمٍ؛ يعمر قلب من أكرمه الله ﷻ به؛ فهو الزاد المغذي لذلك القلب بالإيمان والعمل الصالح، **يقول الحسن البصري** رضي الله عنه: "صدق الله ورسوله! باليقين طُلِبت الجنة، وباليقين هُرب من النار، وباليقين أديت الفرائض، وباليقين صُبِر على الحق"[1]، واليقين نورٌ مشرقٌ يفتح للبصيرة رحابة الانتفاع بالقرآن وآيات الكون، كما قال ﷻ: ﴿ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الجاثية: ٢٠، وقال ﷻ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الذاريات: ٢٠،

[1] السنن الصغير للبيهقي (1/ 15).

وجمال الشريعة وإتقان نظْمها لا يتبدّى إلا بمنظار اليقين، قال ﷻ: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة: ٥٠، واليقين مركبُ التوكل الذلولُ الذي يكون به الظفر بالبغية، قال ﷻ: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ إبراهيم: ١٢، وهو كذلك سبيل الغنى الحقيقي الذي لا يصل إليه همُّ الفقر أو وهمه، **قيل لأبي حازم** رضي الله عنه: ما مالُك؟ قال: "الثقة بما في يد الله عز وجل، والإياس عما في أيدي الناس"[1]، **وقال ابن رجب**: "فمن حقق اليقين؛ وثق بالله ﷻ في أموره كلها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاءً وخوفاً، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك كان زاهداً في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإن لم يكن له شيء من الدنيا، كما قال عمار: كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى، وكفى بالعبادة شغلاً[2]."[3]

واليقين زاد الصبر الذي لا ينفد؛ ولذا كان أهل اليقين هم أعظم الناس ثباتاً أمام الفتن والخطوب؛ لما فاقوا به غيرهم من الصبر والثقة بحسن العاقبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٣ "[4]، **يقول ابن**

[1] المجالسة وجواهر العلم للدينوري (3/ 337)
[2] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 136) مرفوعاً
[3] جامع العلوم والحكم لابن رجب (2/ 859).
[4] رواه البخاري (6/ 39).

تيمية ﵁: "ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به، ويتنعم به، ويغتذي به؛ وهو اليقين"[1]، **وقال أبو حازم** ﵁: " كيف أخاف الفقر، ولمولاي ما في السموات والأرض وما فيهما وما تحت الثرى؟!"[2]

إن أهل اليقين من أهل العلم هم أئمة الناس وقادتهم في الحق، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، وعليه فلا عجب أن كان اليقين موطن راحة وسرور وقرة عين لا تنقطع، يقول ابن مسعود ﵁: "إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط"[3]، **وقال عمر بن عبد العزيز** ﵁: "ما تركتني هذه الدعوات ولي سرور في غير مواقع القضاء والقدر؛ اللهم رضّني بقضائك، وبارك لي في قدرك؛ حتى لا أحبّ تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت"[4]، **ويقول عبدالقادر الجيلاني**: "ترد علي الأثقال الكثيرة، ولو وضعت على الجبال تفسخت، فأضع جنبي على الأرض، وأقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ الشرح: ٥ - ٦، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني"[5]

صفة عزيز نوالها، ومطمع تتوق إليه كلُّ نفس عاقل لبيب، هي طريق قلَّ سالكوه، وإنها الحادي في المهامه، والمؤنس في وحشة الأثرة، وهي القوة في زوبعة الضَّعف، والرِّيِّ في ذروة العطش، هي قبس في ظلمة، وكثرة في قلَّة، من اتَّصف بها بلغ عنان السماء وإن كان مضطجعًا على فراشه، للمتدثر بها من الهيبة والوقار والرِّفعة ما لا يفتقر معه إلى حسب أو نسب أو جاه، فلا هي بالمال تُشترَى، ولا بالقوة

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (28/ 153).
[2] القناعة والتعفف لابن أبي الدنيا ص 49.
[3] شعب الإيمان للبيهقي (1/ 384).
[4] مجموع رسائل ابن رجب (1/ 176).
[5] سير أعلام النبلاء (20/ 447).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تُكتسب، هي صفةٌ وخصلةٌ حضَّ عليها نبيُّنا وقُدوتُنا ﷺ، ولا يأمرُنا إلا بما هو خير؛ فقد قال ﷺ: " وسلوا الله اليقين والمعافاة، فإن الناس لم يعطوا شيئاً أفضل من المعافاة"[1]، إنه اليقينُ الذي يستقرُّ معه العلمُ بالله عز وجل؛ فلا ينقلِبُ ولا يحُول، ولا يتغيَّرُ في قلبِ الموقِن؛ بل تغشاه طُمأنينةُ القلبِ على حقيقة الشيء، وتحقيق الإيمان بالغيب الغابِرِ والحاضر والمستقبل، بإزالةِ كلِّ شكٍّ أو ريبٍ في جنب الله سبحانه وتعالى، ويُحقِّقُ المرءُ في ذلك من خلال يقينه جميعَ مراتبِ اليقين المشهورة، وهي: علمُ اليقين، وعينُ اليقين، وحقُّ اليقين.

فاليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد؛ فمن عاشَ بلا يقينٍ ففيه من صفاتِ الميت بلا روحٍ، فلا بُدَّ للمُؤمنِ من اليقين في خبر الله سبحانه وتعالى، فيُوقِنُ المرءُ بكل ما أخبرَ به سبحانه وتعالى، وبكل ما أخبرَ به رسولُه ﷺ، ويُؤمنُ بأمر الله سبحانه وتعالى ونهيه وأمرِ رسولِه ﷺ ونهيِه؛ ليشعُر بالرِّفعةِ والغِبطةِ بأن يصِلَ درجةً فيه قد سبقَه إليها خيارُ أمةِ محمدٍ ﷺ بعده.

فاليقينُ ليس اقتِناعًا عقليًّا مُجرَّدًا فحسبُ؛ بل لو كان الأمرُ كذلك لما احتاجَ إليه النبي ﷺ وهو أكملُ الناس عقلاً، وأنقاهم لُبًّا قبل بعثتِه ﷺ، ومع ذلك قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الشورى: ٥٢ – ٥٣، ومن هذا المنطلَق؛ سألَ هِرقلُ أبا سفيان رضي الله عنه قبل

[1] شعب الإيمان للبيهقي (6/ 437).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إسلامه: "هل يرجِعُ أحدٌ -أي: من أتباع النبي ﷺ- عن دينه سخطةً له بعد أن يدخل فيه؟" قال: "لا"، قال: "وكذلك الإيمان إذا خالطَت بشاشتُه القلوبَ لا يسخطُه أحدٌ"[1]

ومعلومٌ أن الإيمانَ إذا لامسَت بشاشتُه القلبَ ارتفعَ بصاحبِه إلى درجةِ اليقين التي لا يعقبُها سخَطٌ على شيءٍ من دين الله ﷻ.

أن اليقينَ بالله ﷻ قد أوصلَ عبادَه الراسِخين في العلمِ إلى أن يقولوا عن دين الله ﷻ وأمرِه ونهيه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ آل عمران: ٧، لا يُمارُون في ذلك، ولا يُجادِلون في حقيقته، ولا ينكُثون عنه، ولا يُؤمنون ببعضِه ويكفُرون ببعض قال ﷻ: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ النور: ٤٩ – ٥٠، فارتِضاءُ شرع الله ﷻ بحذافِيره على أكمل وجهٍ هو أساسُ اليقين بالله ﷻ الذي لا يقبَلُ التجزئِةَ والتبعيضَ، ولقد كان من دُعاءِ النبي ﷺ: "ومن اليقين ما تُهوِّنُ به علينا مصائبَ الدنيا"[2]، أي: هب لنا من اليقين ما نرضى به على كل بلاء ومصيبة لك فيها حكمة؛ لئلا نسخَطَ شيئًا من أمرك وقدرك، وألا نرتدَّ على أعقابنا بمجادلتنا في الاستسلام لشرعك.

إن يقينَ المؤمن كالنور من فوقه النور يضيء في سمائه على الدوام؛ لأنه يدرك أن اللهَ ﷻ يرى مكانه، ويسمع نجواه، ويعلم بلواه وأزيز صدره المفعم باليقين، ليدرك أن

---

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (10/ 648).
[2] السنن الكبرى للنسائي (9/ 154).

ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه ما ابتلاه إلا ليعافيه، وما أخذ منه إلا ليعطيه، وما نقص منه إلا ليزيده، يأخذ بيده في المضايق، ويطوِي له الطريق إذا جدَّ به المسير، وفي نهاية النفق المظلم ضوء ساطع، وللأقفال مفاتيح، وللظمآن مورد، وفي المحن منح، وبعد التَّرح فرح، وتحت الرُّغوة اللَّبن الصريح، وما الدُّنيا إلا كسراب بقيعة، وأنَّ مردَّنا إلى الله ﷻ، وأنَّ الآخرة هي دار القرار.

"ومن فوائد اليقين أنه يزيد المسلم من ربه ﷿ قرباً وحباً ورضى، واليقين هو لب الدين ومقصوده الأعظم، ويزيد العبد خضوعاً واستكانة لمولاه ﷻ، ويورث التوكل على الله ﷻ والزهد فيما عند الناس، ويكسب صاحبه العزة والرفعة ويباعده عن مواطن الذلة والضعة، وباليقين يتبع النور فيسلك طريق السلامة إلى دار السلام، ويضع صاحبه دائماً في موضع الإخلاص والصدق، وضابط قوي يرقب العلاقة بين المسلم وربه ﷿ ويجعلها تلتزم خط السلامة والأمان حتى يصل إلى دار الرضوان، والمسلم لا يدرك مناه في الآخرة إلا إذا كان متصفاً بصفة اليقين"[1]

فيا أيها المسلمون، اليقينَ اليقينَ بحسن فعل رب العالمين ﷻ، فما عند الله ﷿ خير للمؤمنين، واختيارُ الله ﷻ لعبده المؤمن خير من اختيار العبد لنفسه، فمن نال هذه الدرجة فما أحسن حالَه، وما أنعم مآلَه!

وهكذا فَلْنُرَبِّ أنفسنا وأجيالنا على ما ذكَرْنا، وألَّا نترك مجالًا للشيطان أو النفس ليُربك يقيننا بالله ﷻ، فإذا أصابتنا نِعْمةٌ حمدنا الله ﷿ كما هو معلوم، وإنْ أصابنا مكروهٌ أو مرضٌ فلنُطوِّعِ جوارحنا، ولنُعلِّق قلبَنا بالله الكريم ﷻ أولاً، ثم نلتمس الأسباب التي شرعها لنا ﷻ

[1] نظرة النعيم (8/ 3730).

النصيحة التاسعة والعشرون

فاعبده واصطبر لعبادته

يُعدّ توحيد الله ﷻ، وتقديسه، وتنزيهه الغاية الرئيسيّة التي خُلِق الإنسان من أجلها؛ فقد خلق الله ﷻ الإنسان بقصدِ عبادته وتوحيده، وإقامة تعاليم هذا الدين العظيم؛ فقد قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ - ٥٧، فالله ﷻ لا يحتاج عبادة عباده أبداً، بل هم من يَحتاجونه في جَميع أحوالهم، فينبغي أن تقوم عبادة العبد لله ﷻ على ثلاثة أصول؛ هي: محبة الله ﷻ، والخوف من عقابه، ورجاء ثوابه، أما محبة العبد لله ﷻ فتكون في محبة جميع ما يُحبه الله ﷻ من الطاعات بأنواعها، وكُره كل ما يكرهه من أبواب المعاصي، ومحبة رسله وأنبيائه عليهم السلام، ومحبّة أوليائه المؤمنين، أما الخوف من عقاب الله ﷻ فيكون خوفاً بلا إفراطٍ ولا تفريط حتى لا يَصل العبد إلى درجة القنوط واليأس من رحمة الله ﷻ، ولا يكون بعيداً عنه لا يخاف عقابه ولا يرجو جنّته، أما الرجاء فيجب أن يكون رجاءً بلا إفراط ولا تفريطٍ أيضاً كي لا يَتعلّق العبدُ بسعة رحمة الله ﷻ مع إصراره على معصيته، ولا يبتعد عن رجائه حتى يُعطّل الرجاء بالكليَّة.

والعبادة اسمٌ جامع لكلّ ما يُحبّه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة، وقد **عرّفها ابن تيمية** رضي الله عنه بأنّها: "طاعة الله ﷻ المتمثّلة بامتثال ما أمر به وأخبر به عنه الرّسل والأنبياء"[1]؛ فالغاية التي يُحبّها الله ﷻ هي العبادة وهي الغاية

[1] العبودية لابن تيمية ص 38 - 40

التي خلق الله ﷻ الخلق لأجلها؛ ولأجلها أرسل الله ﷻ رسله، فقد كان قولهم عليهم السلام إلى أقوامهم يتلخّص في آيةٍ واحدةٍ؛ هي قول الله ﷻ: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴿٥٩﴾ ﴾ الأعراف: ٥٩، إنّ الإنسان لا يعبد الله ﷻ لأنّه ﷻ محتاجٌ لهذه العبادة، فهو غنيٌّ، وإنّما يعبد الإنسان الله ﷻ لأنّه هو المحتاجُ لهذه العبادة؛ فالإنسان مكوَّنٌ من جسمٍ وهو الجزء الماديّ، ومن الروح وهي الجزء التي لا يعلم سرّها إلّا الله ﷻ، وكما يحتاج البدن إلى الغذاء والعناية فإنّ الروح أيضاً بحاجةٍ إلى الغذاء والطاقة التي تتقوّى بها، ويكمن سرّ توازن الإنسان في انسجام الرّوح والجسد معاً؛ فإن أعطيت كليهما ما يستحقّه من الغذاء كان الإنسان في أقوى حالاته كما كان الرسل عليهم السلام والصحابة رضي الله عنهم، أمّا من يشبعون لذاتهم وهم بعيدون عن الله عز وجل فهم أشقى الناس، وغالباً ما يعانون من العديد من الأمراض النفسيّة وتكثر بينهم حالات الانتحار المرتفعة، بينما تجد المؤمن المواظب على عبادة الله ﷻ أسعد الناس حتى لو كان أفقرهم.

العبادة في الإسلام كما في غيرها من الأُمم السَّابقة هي الغاية من بِعثة الأنبياء والرُّسل عليهم السَّلام، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأنبياء: ٢٥؛ فالعبادة هي اسمٌ شاملٌ لجميع ما يفعله العبد من الأقوال والأفعال في السِرّ والعلانيّة بشكلٍ جماعيٍّ أو فرديٍّ من قِبل الرَّجل أو المرأة بحيث تنال هذه الأقوال والأعمال حبّ الله ﷻ ورضاه ومباركته لها.

العبادة بما أنّها أقوالٌ وأفعالٌ يُحبّها الله ﷻ ويرضى عنها؛ فهي شاملةٌ محيطةٌ بالإنسان في حياته اليوميّة؛ فالعاقل من كان قوله وفعله ممّا ينال به رضا الله ﷻ؛ فنرى شموليّة العبادة في كافّة ما نفعل كالصَّدقة، والمساعدة، ومحبّة الآخرين، وفي اتباع آداب الطَّعام والسَّلام ودخول المنزل والخروج منه وغيرها، واجتناب الظُّلم وتحرّي العدل والحقّ والكسب الحلال، وفي حُسن معاملة الزَّوجة والأبناء والإنفاق وغيرها الكثير من الأمثلة في المعاملات اليوميّة.

خلق الله ﷻ الجنّ والإنس لعبادته؛ لأنّه مستحقٌّ لهذه العبادة وليس لأنّه في حاجة العبادة من مخلوقاته؛ فالله ﷻ الغنيّ عنّا ونحن الفقراء إليه؛ فالعبادة التي يحصد نتائجها ويقطف ثمارها هو العابد وليس المعبود، وهي الغاية التي من أجلها خُلِق الإنسان، والوسيلة التي من خلالها تستقيم حياته، ويحصل على رضا الله ﷻ والسعادة في الدنيا والآخرة، لذلك يجب على الإنسان أن يعلم علمَ اليقين أنّ حياته دون إسلام ودون عبادة هي عبثٌ يودي به إلى الجحيم، وعلى كلّ مسلم أن يسعى لمعرفة مفهوم العبادة وكيفيّتها، ومن ثَمّ أدائها على وجهها الصحيح ليحقّق غايةَ وجوده، **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "العبادة اسم جامع لكل ما يحبّه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال، والأعمال؛ الباطنة والظاهرة"[1]، والعبادة هي الخضوع والتذلل لآخر بقصد تعظيمه، ويحرم هذا الخضوع إلا لله ﷻ، وهي أعلى مراتب الخضوع لله ﷻ والتذلّل له، فخلق الله ﷻ النّاس من أجل تحقيق غاية عظيمة ومهمّة جليلة وهي عبادة الله ﷻ في الأرض، فالنّاس لم يخلقوا عبثاً، ولم يتركوا سدى وحاشا لله ﷻ من ذلك،

[1] العبودية لابن تيمية ص 44.

وإنّما كان خلقهم لتحقيق الاستخلاف الشّرعي في الأرض بكلّ ما يتضمنه من مظاهر عبوديّة وخضوع للواحد الأحد، الفرد الصمد ﷻ.

فالعبادة هي الخضوع والتذلّل لله ﷻ، وهي ما يفعله المكلّف على خلاف هوى نفسه بقصد تعظيم ربّه ﷻ، وهي اسمٌ لكُلّ ما يحبّه الله ﷻ ويرضاه من قولٍ أو فعلٍ أو عملٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، والعبادة في الإسلام لا تقتصر على الصلاة والزكاة والحجّ والصيام؛ وإنّما تشمل إفراد الله ﷻ بالطاعة والخضوع له وتعظيمه، وتُقسم باعتبار نفعها إلى نفعٍ ذاتيٍّ؛ كالصلاة والصيام وتلاوة القرآن الكريم، وإلى نفعٍ متعدٍ؛ كالزكاة والنفقة، وتُقسم العبادات إلى عباداتٍ قلبيّةٍ وهي أساس الأعمال؛ كالخضوع والاستعانة والمحبّة والخوف والرجاء والتوكّل ونحوها، وعباداتٍ لسانيّةٍ تؤدّى باللسان؛ كالتحميد والتهليل والاستغفار وذكر الله ﷻ وتلاوة القرآن، وعباداتٍ بدنيّةٍ؛ كالصلاة والصيام والطواف والحجّ ونحوها، وعباداتٍ ماليّةٍ؛ كالصدقة والزكاة والنفقة ونحوها.

فحقيقة العبادة هي كمال الذل مع كمال المحبة لله ﷻ، ونهاية الخضوع والانقياد والاستسلام والتواضع والخوف والخشية والإنابة والرجاء والإذعان للعزيز المنان ﷻ، كما أن حقيقة العبادة انقياد النفس الأمارة لأحكام الله ﷻ وصورته وقالبه الإسلام ومعناه وروحه الإيمان ونوره الإحسان، وهذه العبادة تدور رحاها على خمس عشر قاعدة؛ كما **يقول ابن القيم** رحمه الله: "ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على: القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه. والأحكام التي للعبودية خمسة:

واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح"[1]

فالعبادة غير مقتصرة على الصلاة، أو الصدقات، وليست مقتصرة على المسجد فقط، بل الإنسان عبد لله ﷻ في المسجد وفي البيت وفي العمل، وفي السفر وفي الحضر، وفي كل مكان وزمان هو عبد لله ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢، ويتضح ذلك من خلال معرفة أن الحياة كلها يمكن أن تكون محلاً للعبادة ما دامت غايتها إرضاء الله ﷻ، وذلك بفعل الأوامر، واجتناب النواهي، بل بفعل الخير والكف عن الشر، ولقد تفضل ﷻ على عباده، ومنحهم لذة في العبادة لا تضاهيها لذة من لذائذ الدنيا الفانية، وهذه اللذة تتفاوت من شخص لآخر حسب قوة الإيمان وضعفه، قال ﷻ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ النحل: ٩٧، وهذه الراحة والطمأنينة والسعادة؛ تكون بعبادة الله ﷻ وحدَه، وتعلُّق القلب به، ودوام ذكره ﷻ، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "والإقبال على الله ﷻ والإنابة إليه والرضا به وعنه، وامتلاء القلب من محبته واللَّهَج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته؛ ثواب عاجل، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة"[2]

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 129).
[2] الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص 48.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الباعث الأساسي للعبادة هو استحقاق الله ﷻ، لذلك فنحن نعبد الله ﷻ لأنه مستحق للعبادة تحقيقاً للغاية التي من أجلها خلق الإنس والجن، قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ الذاريات: ٥٦، فهو المستحق الوحيد للعبادة لعموم سلطانه على الكون وعظيم فضله على الخلق أجمعين، ومع ذلك يجب أن نعلم أن الله ﷻ غني عن العالمين، فالعبادة لا تزيده ولا تنقصه مثقال ذرة؛ لأنه غني بذاته غنى مطلقاً، فلا يحتاج إلى شيء مما في الوجود بل كل ما في الوجود محتاج إليه، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥ ﴾ فاطر: ١٥، وعليه فإن ثمرة العبادة إنما ترجع إلى الشخص العابد نفسه؛ إذ هو المحتاج إلى الله ﷻ والمفتقر إليه استعانة وتوكلاً، قال ﷻ: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ١٥ ﴾ الإسراء: ١٥

والعبادة في الإسلام حق واجب من حقوق الله ﷻ على عباده؛ فعن معاذ رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار يقال له عفير، فقال: "يا معاذ، هل تدري حق الله على عباده، وما حق العباد على الله؟"، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا"، فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس؟ قال: "لا تبشرهم، فيتكلوا"[1]

[1] رواه البخاري (4/ 29)، رواه مسلم (1/ 58).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والعبادة في الإسلام تشمل حياة الإنسان كلها؛ أقواله وأفعاله، حركاته وسكناته، ظاهره وباطنه، علاقاته الأسرية والاجتماعية والدولية، إنها حق لازم على العبد حتى يموت، قال ﷻ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الحجر: ٩٩

والعبادة في الإسلام أشرفُ المقامات، وأعلى المراتب، شرُفتْ بها ملائكة الله ﷻ، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأنبياء: ١٩ – ٢٠،

وشرُفَ بها الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، كما قال ﷻ عنهم: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الصافات: ١٧١ - ١٧٣، وقال ﷻ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ ص: ٤٥، وأفضلُ الرّسل وأشرفُ الأنبياء نبينا محمد ﷺ شرّفه ربه ﷻ بوصف العبودية في مقام التكريم والتشريف، فقال ﷻ عنه في مقام الإسراء والمعراج: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ الإسراء: ١، وقال ﷻ عنه في مقام نزول القرآن: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ الفرقان: ١

فبالعبادة تسمو الرّتب، وبالعبادة يترقى العبد في مدارج السالكين، ويلتحق بعباد الله ﷻ المنَعّمِين، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ﴾ النساء: ٦٩

العبادة في الإسلام لها مقاصد وغايات، فيها منافع ومصالح للعباد في الدارين، قال ﷻ: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧ ﴾ النحل: ٩٧

العبادة في الإسلام غايتها وقاية النفس والأسرة والمجتمع من كل الآفات والمهلكات، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾ البقرة: ٢١، لعلكم تتقون الله ﷻ بامتثال أمره واجتناب نهيه، وتقون أنفسكم مما يضرها ويهلكها في الدنيا، ومما لا تطيق تحمّله من العذاب المهين في الدار الآخرة، ومن تأمل في أمهات العبادات في الإسلام وجدها تهدف إلى تزكية النفس وتحليتها بكل فضيلة، وتطهيرها وتخليتها من كل رذيلة.

فالعبادة في الإسلام طريق إلى مغفرة الذنوب ومحو السيئات، ورفع الدرجات؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر"[1]، ويقول ﷻ: ﴿

[1] رواه مسلم (1/ 209).

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ طه: ٧٥ - ٧٦

والعبادة في الإسلام طريق الفوز والفلاح، وسبيل النجاة من عذاب الله ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ المؤمنون: ١ - ١١، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فصلت: ٣٠، فكل ما في العبادة يعود بالنفع على العباد في دنياهم وفي أخراهم، ويهدف إلى جلب المصلحة للعباد، ودرء المفسدة عنهم، والمشقة في العبادة غير مقصودة، والتعب فيها ليس غاية، والحرج فيها مرفوع، قال ﷻ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ المائدة: ٦، وقال ﷻ:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ النساء: ١٤٧، فإنَّ للعبادة في الإسلام منزلةً رفيعةً، ومكانةً جليلة، تجعل الحديثَ عنها في غاية الأهمِّيَّة، ولا يُستثنى مِن ذلك زمانٌ أو مكانٌ أو إنسانٌ؛ فإنَّ اللَّهَ ﷻ هو الرَّزَّاق ذو القوة المتين، **قال ابن جرير:** "أي: لعبادتنا والتَّذلُّل لأمرنا"[1]

أن العبادةَ هي الغايةُ من الوجود الإنسانيّ، ولا تكونُ للحياةِ أية أهمِّيَّة ما لم تكن جميعُ مظاهرِها مُعبِّرةً عن معاني التَّذلُّل والخُضوع لله ﷻ وليستِ العبادة كما يَتصوَّرُ أكثرُ النَّاس منحصرةً في الشَّعائر التَّعبديَّة فقط، بل إنَّ دائرةَ العبادات تتسع لتشملَ جميعَ حركاتِ الإنسان، وتستوعب كلَّ جوانب الحياة.

وللعبادةِ آثارٌ على الفرْدِ والمجتمع؛ بعضُها عاجلة، تتمثل في: تَزكيةِ النَّفْس، ونَشْرِ الخيرِ والفضيلة بين النَّاس، وأخرى آجِلةٌ يلقاها العبدُ يومَ القيامة، عندَ ربِّه عَزَّ وَجَلَّ في جنَّات النَّعيم، يومَ لا يَنفع مالٌ ولا بَنونَ، إلاَّ مَن أتى الله بقلبٍ سليمٍ.

"ومن فوائد العبادة أنها تفيد رفعة المكان والمكانة، وفيها عظم الثواب ورضا رب الأرباب عَزَّ وَجَلَّ، وهي دليل اليقين وعلامة الدين، وثوابها سكن الجنة وهي أعظم منة، ودليل التوكل وعلامة التعقل، وعلامة التوفيق من الله ﷻ، والملائكة تحف العابد بأجنحتها وتحفظه، وتتكاثر حوله الرحمات وهي أعظم الهبات، وصورة لشكر العبد المنعم عليه وعلامة رضاه عن النعم، وحسن العبادة يثمر حسن الظن بالله ﷻ،

[1] تفسير الطبري (21/ 554).

والتوفيق في سؤال القبر، وتثمر الصبر والصبر يثمر حسن العوض، وتثمر حب الناس مما يثمر حسن الذكر وحسن الثواب بالأثر"[1]

فلنتق الله ﷻ جميعًا، ولنجعل لنا محطة للتزود إلى السفر إلى الله ﷻ، ولنواصل العبادة لله ﷻ بعد في كل الأوقات والأزمان

[1] نظرة النعيم (7/ 2789)

النصيحة الثلاثون
أحسنوا الظن بربكم ﷻ

حسن الظن بالله ﷻ هو شعور يسكن قلب العبد، فحسن الظن بالله ﷻ رغم تشعبه كمفهوم إلا أنه قد يتلخص برضى العبد بما أعطاه الله ﷻ، والتوكّل عليه، وحسن ظن العبد بربه ﷻ هو أن يظن العبد بأن الله ﷻ يرحمه، ويعفو عنه، بالإضافة إلى اعتقاده بما يحق بجلالة الله ﷻ، وما تقتضيه أسماؤه الحسنى، وصفاته العليا من ظن الإجابة، والمغفرة، والقبول، وإنفاذ الوعد، والمجازاة، الأمر الذي يؤثر على حياة المؤمن، بحيث تصبح على الوجه الذي يرضى الله ﷻ عنه، حيث إن حسن الظن من العبادات التي لا يتم التوحيد إلا بها، فهو من واجبات التوحيد الرئيسية.

إنّ إحسان الظنّ بالله ﷻ منَ الأمور التّعبدية التي تدّل على سلامة إيمانِ العبدِ ويقينه برحمة الله ﷻ، وقد جاءت كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة مُذكّرةً بأهميته ومُبشّرةً بفضله، ذلك أنّ المسلم الذي يحسنُ الظنّ بالله ﷻ يعيش متفائلاً بكلّ ما هو قادم وراضياً به طالما أنّه من الله ﷻ.

وحسن الظن بالله ﷻ هو أنْ يوقنَ العبدُ بربّه ﷻ خيراً ورحمةً وإحساناً في كل ما يقعُ عليه من أفعالٍ وأقدارٍ في الدنيا والآخرة.

إنّ حسن الظن بالله ﷻ يعني اعتقاد ما يليق بالله ﷻ من أسماء وصفات وأفعال، واعتقاد ما تقتضيه من آثار جليلة، كاعتقاد أنّ الله ﷻ يرحم عباده المستحقين، ويعفو عنهم إنْ هم تابوا وأنابوا، ويقبل منهم طاعاتهم وعبادتهم، واعتقاد أنّ له ﷻ

الحِكَم الجليلة فيما قدَّره وقضاه، ولا شكّ في أنّ العبد المسلم ينظر إلى حُسن الظنّ بالله ﷻ على أنّه مُعينٌ له على عبادة الله ﷻ؛ فحسن الظنّ بالله ﷻ والعبادة في قناعة المسلم متلازمان، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، وحسن الظنّ بالله ﷻ هو رجاء بالله ﷻ يقود صاحبه للعمل الصالح ويشحذ همّته للعبادة والتّطلع لما عند الله ﷻ من فضل، ومخطئٌ من اعتقد أنّ حسن الظن بالله ﷻ يغني عن العمل والعبادة، ومن اعتقد ذلك فقد أساء لنفسه وأساء الظنّ والأدب مع الله ﷻ؛ فالذي يجاهر بالمعاصي ولا يستقيم على فعل الطاعات فهو عاجزٌ لا يدرك حقيقةَ حُسن الظنّ بالله ﷻ، وفي تأكيد هذا المعنى **يقول ابن القيم** رضي الله عنه: "وكثير من الجهَّال اعتمدوا على رحمة الله ﷻ وعفوه وكرمه، وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند"[1]، ولذلك يجدر بالعبد أنْ يوثّق صلته بالله ﷻ، وأنْ يُدرّب نفسه على حسن الظن بمولاه ﷻ بكلّ ما يرجوه ويؤمّلهُ من خيري الدنيا والآخرة، موقناً حقاً أنّه ﷻ معه، يدبّر أمره، وينيرُ دربه، ويبارك عمله، ويدّخر له الخير عند لقائه ﷻ.

فإن حسن الظن بالله ﷻ عمل قلبي عظيم المنزلة والأثر في الدين وله عاقبة حسنة، والعبد مفتقر إليه في سيره لربه ﷻ ومكابدته لأمور معاشه وتعامله مع صنوف الخلق، قال ﷻ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ البقرة: ١٩٥، **قال سفيان الثوري** رضي الله عنه: "أي أحسنوا بالله ﷻ الظن"[2]، وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: "أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيراً فله وإن ظن شراً فله"[3]، وكان

---

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص 28.
[2] تفسير سفيان الثوري (1/ 59).
[3] صحيح ابن حبان (2/ 405).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سعيد بن جبير رضي الله عنه يقول: "اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك"[1]، وحسن الظن بالله عز وجل حقيقته أن يظن العبد بالله عز وجل خيراً ورحمة وإحساناً في معاملته ومكافئته ومجازاته أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة وهذا يتحقق في مقامات:

المقام الأول: إذا دعا ربه عز وجل أن يقبل دعائه، قال صلى الله عليه وسلم: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة"[2]

المقام الثاني: إذا تقرب إلى الله سبحانه وتعالى بعمل صالح أن يتقبل الله عز وجل عمله ويرفعه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴿١٠﴾ ﴾ فاطر: ١٠

المقام الثالث: أن يقبل توبته إذا أذنب وتاب فأناب، وقد تضافرت النصوص بهذه الحقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ التوبة: ١٠٤

المقام الرابع: أن يوقن بوعد الله سبحانه وتعالى ونعيمه الذي أعده الله سبحانه وتعالى لعباده الصالحين المستقيمين على طاعته وشرعه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾ الزلزلة: ٧

المقام الخامس: أن يوقن بحسن لقاء الله سبحانه وتعالى وستره وتجاوزه عنه وهو في سياق موته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل"[3]، وقال ابن عباس

---

[1] مصنف ابن أبي شيبة (7/ 202)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (4/ 274).
[2] سنن الترمذي (5/ 517).
[3] رواه مسلم (4/ 2206).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

رضي الله عنهما: "إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن بالله ﷻ وإن كان حياً فخوفوه بربه واذكروا له شدة عقابه"[1]

المقال السادس: عند نزول البلاء وضيق الحال، **قال بعض السلف**: "استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله ﷻ في كشفها فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج"[2]

وحسن الظن يكون صحيحاً مقبولاً من المؤمن إذا كان العبد منيباً إلى الله ﷻ مقبلاً على طاعته محسناً في عمله، أما إذا كان العبد مسيئاً في عمله متجاوزاً لحدود الله ﷻ في سائر حاله فهذا سيء الظن بالله ﷻ وإن تظاهر بحسن الظن؛ لأن حسن الظن يحمل على حسن العمل وسوء الظن يحمل على سوء العمل، **قال الحسن البصري** رضي الله عنه: "إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل"[3]، وقال النبي ﷺ: "حسن الظن من حسن العبادة"[4]، **وقال الخطابي**: "إنما يحسن بالله ﷻ الظن من حسن عمله فكأنه قال أحسنوا أعمالكم يحسن ظنكم بالله ﷻ فإن من ساء عمله ساء ظنه، وقد يكون أيضاً حسن الظن بالله ﷻ من ناحية الرجاء وتأميل العفو والله ﷻ جواد كريم لا آخذنا الله ﷻ بسوء أفعالنا ولا وكلنا إلى حسن أعمالنا برحمته"[5]

ومن أعظم ما يعين المؤمن على حسن الظن بربه ﷻ معرفته بواسع رحمة الله ﷻ وكرمه وجوده وعظيم إحسانه بالخلق مهما أذنبوا وقصروا في طاعته، قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: "يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني

[1] العاقبة في ذكر الموت ص 145.
[2] الفرج بعد الشدة للتنوخي (1/ 154).
[3] مصنف ابن أبي شيبة (7/ 187)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 144).
[4] مسند أحمد (16/ 238)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 285)، شعب الإيمان للبيهقي (2/ 324).
[5] معالم السنن للخطابي (1/ 301).

غفرت لك ولا أبالي"[1]، ومما يعين أيضاً النظر في قصص الفرج بعد الشدة ومعية الله ﷻ ومعونته ونصرته وتوليه لأهل الحسن بالظن بالله ﷻ.

فينبغي للمؤمن أن يكون حسن الظن بالله ﷻ عظيم الرجاء به موقناً بحسن جزائه وعطائه وإحسانه وموافاته بالآخرة يسوقه حسن ظنه إلى حسن عمله والاستكثار من العمل بأسباب الرحمة والإحسان والبعد عن معصيته وأسباب مقته وليكن وثوقه بحسن ظنه أعظم من الوثوق بحسن عمله؛ لأنه سيقدم على رب كريم رحيم ودود بعباده واسع العطاء عظيم الصفح والتجاوز رحمته سبقت عذابه ورضاه سبق سخطه، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "والله الذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئاً خير من حسن الظن بالله ولا يحسن عبد الظن بالله عز وجل إلا أعطاه الله ظنه"[2]

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه: "والله لو خيرت بين محاسبة الله ﷻ إياي، وبين محاسبة أبوي، لاخترت محاسبة الله ﷻ، وذلك لأن الله عز وجل أرحم بي من أبوي"[3]

قال ابن القيم رضي الله عنه: "إن حسن الظن يحمل صاحبَه على العمل، وإن الغرور يشجع صاحبَه على المعاصي، قال: ولو أن رجلًا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه منها ما ينفعه، فأهملها، ولم يبذرها، لم يحرثها، وأحسن ظنه بأنها يأتي من مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقي وتعاهد الأرض، لعدَّه الناس من أسفه السفهاء"[4]، وواضح أن هذا المعنى في غاية الصحة عندما يكون المرء في حالة الصحة، أما عند المرض، واقتراب الأجل، فالتوبة، والإنابة، واستحضار معاني صفات الرحمة والمغفرة هي الأمور اللازمة، والله ﷻ أعلم.

[1] سنن الترمذي (5/ 548).
[2] حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا ص 96، شرح صحيح البخاري لابن بطال (10/ 99).
[3] شرح السنة للبغوي (14/ 3889)، سير أعلام النبلاء (7/ 449).
[4] الداء والدواء لابن القيم ص 86.

قال ابن القيم رضي الله عنه: "ولا ريب أن حسن الظن بالله سبحانه وتعالى إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه عز وجل، أنه يجازيه على إحسانه، ولا يخلف وعده، ويقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه عز وجل، وهذا موجود في الشاهد فإن العبد الآبق المسيء الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجامع وحشة الإساءة إحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه عز وجل أطوعهم له"[1]

فحسن الظن يأتي بالفأل الحسن بالفلاح والنجاح، وسوء الظن يأتي بالتشاؤم والطيرة، والهزيمة والفشل، **قال الخطابي**: "والفرق بين الفأل والطيرة؛ أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله عز وجل، والطيرة إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه"[2]، فحسن الظن من العبد المؤمن يجعله يتفاءل ولا يتشاءم، فالفأل عنده في كل ما يسمعه من كلام، أو يراه من أفعال، حتى لو سبق السوءُ إلى سمعه وبصره، قال خيرًا، ونطق طيبًا صالحًا، لقوله صلى الله عليه وسلم: " لا طيرة، وخيرها الفأل"، قالوا: وما الفأل؟ قال: "الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم"[3]

فحسن الظن بالله عز وجل ثمن الجنة، ومن الأمور التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل"[4]، **قال النووي**: "معنى تحسين الظنِّ باللهِ سبحانه وتعالى: أن يظنَّ أنَّ الله سبحانه وتعالى يرحمه، ويرجو ذلك؛ بتدبر الآيات والأحاديث الواردة

---

[1] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص 25.
[2] غريب الحديث للخطابي (1/ 183).
[3] رواه البخاري (7/ 135)، رواه مسلم (4/ 1745).
[4] رواه مسلم (4/ 2206).

في كرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعفوه، وما وعد به أهل التوحيد، وما سيبدلهم من الرحمة يوم القيامة، هذا هو الصواب في معنى الحديث، وهو الذي قاله جمهور العلماء"[1]

إنَّ حُسْنَ الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرتبط ارتباطاً كبيراً بنواحٍ عقدية وسلوكية، فهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد **جعل ابنُ القيم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ أحد درجات التوكل، فقال: "الدرجة الخامسة: حسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ، والتحقيق: أنَّ حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه"[2]

وينبغي أن نعلم أن حسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ والرجاء بمغفرته ومثوبته لا يكونان إلا ممن أخلص النية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأحسن العمل، أما من أعرض عن ربه عَزَّ وَجَلَّ، وبارز الله عَزَّ وَجَلَّ في معصيته، وتعدّى على حدوده، وأمِنَ من مكره وسخطه وعقوبته، ثم زعم بأنه يحسِنُ الظن بربه عَزَّ وَجَلَّ، فما أتعسه، وما أكذبه! فأيّ حسن ظنٍ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذاك الذي يرجوه ويأمله؟ كيف يحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هو شارد عن الله عَزَّ وَجَلَّ، غارق في معصيته؟! كيف يحسن الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ من أساء العمل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل.

وحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكون مع انعقاد أسباب النجاة، أما مع انعقاد أسباب الهلاك فهو تَمَنٍّ وعجزٌ واتباعُ هوى، فالكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأمانيّ، وفي ذلك **يقول الحسن**

[1] المجموع شرح المهذب للنووي (5/ 108).
[2] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 121).

البصري ﷺ: "إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم من حسنة، يقول أحدهم: "إني أُحسن الظن بربي" وكذب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل"[1]، ويقول أيضاً: "إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً."[2]

المؤمن يحسن الظن بربه ﷻ في حياته كلها وعند مرضه واحتضاره وقرب موته، إن مرض فمرضه كفّارة لذنوبه، أو إعلاء لدرجته؛ وإن أصابته شدة أو محنة أو بلاء أيقن بأن الأمور كلما اشتدت وضاقت فإن الفرج من الله ﷻ قريب.

قال قتادة: "من استطاع أن يموت وهو حَسَن الظن بربه فليفعل: فإن الظن اثنان، ظنٌّ ينجي وظنٌّ يُردي"[3]، وعن أنس بن مالك ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: "كيف تجدك؟" قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ﷻ ما يرجو وآمنه مما يخاف"[4]

إن حسن الظن بالله ﷻ عبادة قلبية جليلة لا يتم إيمان العبد إلا به؛ لأنه من صميم التوحيد وواجباته، وحسن الظن بالله ﷻ هو ظنّ ما يليق بالله ﷻ واعتقاد ما يحق بجلاله وما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا مما يؤثر في حياة المؤمن على الوجه الذي يرضي الله ﷻ، تحسين الظن بالله ﷻ أن يظن العبد أن الله ﷻ راحمه وفارج همه وكاشف غمه، حقاً إنه مسلك دقيق ومنهج وسط بين نقيضين لا يسلكه إلا من وفقه الله ﷻ وجعل قلبه خالصاً له ﷻ، لذلك ينبغي أن يكون سمة لازمة يتجلى في حياة المؤمن وعند احتضاره وقرب موته.

---

[1] تفسير القرطبي (15/ 353).
[2] المعجم الأوسط للطبراني (1/ 181).
[3] تفسير القرطبي (15/ 353).
[4] سنن الترمذي (3/ 302).

وليكن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد كان في كل مواقفه مهما اشتد عليه الخطب وعظم عليه الكرب يملأ قلبه حسن الظن بربه ﷻ، وما أجملها من كلمة قالها لأبي بكر رضي الله عنه، عندما كانا في الغار وقد أحاط بهما المشركون وأحدقت بهما الأخطار، كلمة سكبت في قلب صاحبه الأمل والسكينة والثقة بالله ﷻ: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما"[1]، فأنزل الله سبحانه وتعالى سكينته عليه وأيده بنصره، أما سلفنا الصالح فكانوا غاية العمل مع غاية الخوف من الله سبحانه وتعالى، رجاء بلا إهمال، وخوف بلا قنوط.

"ومن فوائد حسن الظن أنه طريق موصل إلى الجنة، ودليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، ويولد الألفة والمحبة بين المسلمين، يهيئ المجتمع الصالح المتماسك ويحقق التعاون بين أفراده، وبرهان على سلامة القلب وطهارة النفس، وعلامة على حسن الخاتمة، ولا يأتي إلا عن معرفة قدرة الله ﷻ ومدى مغفرته ورحمته، ويحافظ على أعراض المسلمين"[2]

لنزرع حسن الظن بالله سبحانه وتعالى والثقة به في قلوبنا، ونسقيه بصالح أعمالنا ودموع عيوننا وسجدات جباهنا...

فطوبى لمن جعل بكاءه في الدجى شفيعاً لزلاته وغفلاته، وسطر بماء الدمع حسن ظنه بخالقه سبحانه وتعالى، ربنا ما أقل زادنا لطول سفرنا، ولكن حسن ظننا بالتوكل عليك ورجاءنا بالصفح والعفو منك أشعرنا بالأمن من سخطك ومقتك، وبشرنا بغفرانك ورحمتك وحلمك وكرمك

---

[1] رواه البخاري (6/ 66)، رواه مسلم (4/ 1854).
[2] نظرة النعيم (5/ 1608).

النصيحة الحادية والثلاثون

اخشع لله ﷻ

الخشوع هو الانخفاض والسّكون، وهو تذلّلُ العبد وخضوعُه واستكانتُه لله ﷻ، ومحلّه القلب، وله أثرٌ سلوكيّ يظهر على الجوارح، يتمثل في تعظيم العبد لحرمات الله ﷻ، والامتثال لأوامره، والانقياد لأحكامه، والبكاء من خشيته، فالخشوع في الصّلاة هو قيام القلب بين يدي الله ﷻ بخضوع وذلّ.

الخشوع هو قيام القلب بين يديّ ربّ العالمين ﷻ بخضوع وذلّ، فأصل الخشوع اللين والرّقة في القلب، إلى جانب خضوعه، وانكساره، فإذا خشع القلب تبعه خشوع لجميع الجوارح والأعضاء، فمحل الخشوع هو القلب، واللسان هو المعبر عنه، فمتى اجتمع ذلك في قلب المسلم فقد تحقّق الخشوع ليذوق لذته، كما وأنّه توفيق من الله ﷻ للصادقين في عبادته، والمخبتين، والمخلصين له، والعاملين بأوامره، والمنتهين بنواهيه، فمن لم يخشع قلبه بالخضوع لأوامر الله ﷻ خارج الصلاة، لا يتذوّق لذّة الخشوع في الصلاة وذلك لعدم امتثاله لأوامر الله عزّ وجلّ.

أما الخشوع فقد **عرّفه ابن القيم الجوزية** رضي الله عنه بقوله: "قيام القلب بين يدي الربِّ بالخضوع والذلِّ، والجمعية عليه، والخشوع الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع، فمن علاماته أنّ العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد، والخشوع خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب"[1]

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 516).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والخشوع محلّه القلب؛ فإذا خشع القلب ظهرت علاماته وآماراته وآثاره على بقية الجوارح، أما إذا خشعت الجوارح فقط ولم يخشع القلب، فهذا يسمى بخشوع النفاق؛ أي أن يخشع الجسد وجوارحه، ولا يخشع القلب.

فالخشوع هو لين قلب العبد، وخضوعه، ورقّته، وسكونه، وحضوره وقت تَلَبُّسه بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فتتبعه جميع الجوارح والأعضاء ظاهراً وباطناً؛ لأنّ الجوارح والأعضاء تابعة للقلب، وهو أميرها، وهي جنوده.

فالخشوع ما هو إلا ثمرة لصلاح القلب واستقامة الجوارح ولا يحصل ذلك إلا بمعرفة الله عَزَّ وَجَلَّ، والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ومعرفة أمره والعمل به، ومعرفة نهيه واجتنابه، والإيمان برسول الله ﷺ واتباعه، ثم اقتران ذلك كله بالإخلاص، لذلك فإن مرد أسباب الخشوع كلها إلى هذه الأمور، فهو حالة في القلب تنبع من أعماقه؛ مهابةً لله عَزَّ وَجَلَّ وتوقيراً، وتواضعاً في النفس وتذللاً، ولينٌ في القلب ورقة؛ تورث انكساراً وحرقة، فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر، والوجه والجبين، وسائر الأعضاء والحواس، إذا سكن القلب وخشع خشعت الجوارح والحركات، ولقد كان من ذكر النبي ﷺ في ركوعه: "خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي وعصبي"[1]، وحينما رأى سعيد بن المسيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة قال: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"[2]

إن القلب إذا خشع، سكنت خواطره، وترفعت عن الإرادات الدنيئة همته، وتجرد عن اتباع الهوى مسلكه، ينكسر ويخضع لله عَزَّ وَجَلَّ، ويزول ما فيه من التعاظم والترفع

[1] رواه مسلم (1/ 534).
[2] مصنف ابن أبي شيبة (2/ 86).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والتعالي والتكبر، فالخشوع سكون واستكانة، وعزوف عن التوجه إلى العصيان والمخالفة، والخاشعون والخاشعات هم الذين ذللوا أنفسهم، وكسروا حدتها، وعودوها أن تطمئنَّ إلى أمر الله ﷻ وذكره، وتطلبَ حُسنَ العاقبة، وَوَعْدَ الآخرة، ولا تغترَّ بما تزيِّنُه الشهواتُ الحاضرة، والملذاتِ العابرة.

أن الخشوع يتفاوت في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له؛ وبحسب تعظيمها له، وبمقدار هذا التفاوت يكون تفاضل الناس في القبول والثواب؛ وفي رفع الدرجات؛ وحط السيئات، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خمس صلوات افترضهن الله على عباده من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، فأتم ركوعهن وسجودهن وخشوعهن كان له عند الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له عند الله عهد إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه"[1]

الخشوع عبارة عن حضور القلب وسكون الجوارح لله ﷻ، قلب حاضر يعي ما يقول؛ لأنه ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها، فالمصلي الذي لا يعي ما يقول، لسانه يتكلَّم وقلبه غافل؛ فهذا مصلٍّ بلا خشوع، يقرأ آيات القرآن لا يتدبر في معانيها، يركع ويسجد لا يتأمل ولا يتمعن في معاني القيام بين يدي الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا كان الخشوع عبارة عن قلب حاضر، وأما الجوارح: فاليد ساكنة، والبصر ساكن، والسمع ساكن، والقلب ساكن، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ الرعد: ٢٨، فالأعضاء كلها في حالة من الخشوع، في حالة من السكون، في حالة من الطمأنينة بين يدي الله ﷻ، أما كثرة الحركة في الصلاة، كثرة

[1] مسند أحمد (37/ 377).

حركة العين، كثرة استخدام حاسة السمع، فيتشتت الذهن في العبادة فخرج عن دائرة الخشوع بين يدي الله ﷻ.

الخشوع أن تتواصل، وأن تكون مع مولاك ﷻ، وأن يكون ربك ﷻ معك؛ لتربح الدنيا والآخرة، فالخشوع هو لين القلب ورقته، وسكونه وخضوعه، وانشغاله بعبادته، وبهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ المؤمنون: ١ - ٢: "الخشوع في القلب، وأن تُلين كنفك للمرء المسلم، وألا تلتفت في صلاتك"[1]

وقال ابن رجب: "أصل الخشوع الحاصل في القلب، إنما هو من معرفة الله ﷻ، ومعرفة عظَمته، وجلاله، وكماله؛ فمَن كان بالله ﷻ أعرفَ، فهو له أخشَعُ"[2]

الخشوع هو قيام القلب بين يدي الله ﷻ بالخضوع والذل، والجمعية عليه، **قال ابن رجب**: " وأصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته فَإِذَا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء؛ لأنها تابعة له"[3]

والهيبة من الله ﷻ وخوفه وتعظيمه ومحبته ورجاؤه كلها توجب الخشوع حال الوقوف له ﷻ في الصلاة، فيتذكر العبد تقصيره في حق الله ﷻ، في مقابل عظمته وقدرته ﷻ، وتتابع نعمه عليه، ويتذكر أن كل شيء يطلبه فهو بيد الله ﷻ، وكل شيء يخافه فلا عاصم له منه إلا الله ﷻ، ويتذكر أن سعادته في الدنيا وفوزه في الآخرة هو

[1] الزهد والرقائق لابن المبارك ص 403.
[2] تفسير ابن رجب (2/ 11).
[3] مجموع رسائل ابن رجب (1/ 290).

إلى الله ﷻ، ويتذكر ما ينتظره من ظلمة القبر وأهوال القيامة، فلا منجاة له إلا بالله ﷻ، فيقف حين يقف في صلاته بقلب يعي ذلك كله ويستحضره.

والخشوع نوعان: خشوع حقيقي ومحله القلب، وخشوع متصنع ومحله الجوارح، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع"[1]، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطئ رقبته فقال يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب"[2]، وقال بن القيم رضي الله عنه: "والفرق بين خشوع الإيمان وخشوع النفاق أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله عز وجل بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء فينكسر القلب لله عز وجل كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله ﷻ وجناياته هو فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح، وأما خشوع النفاق فيبدو على الجوارح تصنعاً وتكلفاً، والقلب غير خاشع فالخاشع لله عز وجل عبد قد خمدت نيران شهوته وسكن دخانها عن صدره فانجلى الصدر وأشرق فيه نور العظمة فماتت شهوات النفس للخوف والوقار الذي حشي به وخمدت الجوارح وتوقر القلب واطمأن إلى الله ﷻ وذكره بالسكينة التي نزلت عليه من ربه فصار مخبتاً له، وأما التماوت وخشوع النفاق فهو حال عند تكلف إسكان الجوارح تصنعاً ومراءاة ونفسه في الباطن شابة طرية ذات شهوات وإرادات فهو يخشع في الظاهر وحية الوادي وأسد الغابة رابض بين جنبيه ينتظر الفريسة"[3]

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 521)، الخشوع في الصلاة لابن رجب ص 13، مسند الفردوس للديلمي (2/ 204).

[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 296)، الكبائر للذهبي ص 144.

[3] الروح لابن القيم ص 232 – 233.

ومن طلب الخشوع وسعى إليه، وصدق مع الله ﷻ فيه، واجتهد في تحصيله، هدي إليه، لقوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ العنكبوت: ٦٩، وقال ﷻ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ الحديد: ١٦

إن من أهم العبادات الواجبة على المسلم في حياته الدنيا هي الخشوع لله ﷻ، بحيث يُسيطر هذا الخشوع على حياة المسلم، فيكون بحالة خضوع وتذلل وانكسار دائمٍ لله ﷻ، والخشوع يُعد من أصعب العبادات، ويحتاج إلى تركيز من قِبل الشخص، ولا يأتي إلا من خلال أقصى حالات التأمل، والتفكر المتعمق، والخشوع ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى تدرّب وتمرّن، حتى يدخل الإنسان تدريجياً بحالة الخشوع الدائمة، والتي ستسيطر عليه سائر يومه، وسائر حياته، **يقول ابن القيم** رضي الله عنه: "الخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه، وقيل الخشوع: الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد"[1]

والخشوع والسكينة والتذلل بين يدي الرب ﷻ من أسباب دخول الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... وذكر منهم " ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه"[2]، وعن ابن عباس رضي الله

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 516).
[2] رواه البخاري (1/ 133)، رواه مسلم (2/ 715).

عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله"[1]

الخشوع من صفات الأنبياء عليهم السلام ومن صفات عباد الله الصالحين، قال ﷻ: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٠، وقال ﷻ في صفات المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٥

وأثنى على المؤمنين من أهل الكتاب ومدحهم بخشوعهم لله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٩

---

[1] سنن الترمذي (4/ 175).

والخشوع من أسباب قبول الأعمال ومغفرة الذنوب، فعن عثمان ﵁ قال: "من توضأ وضوئي هذا ثم يصلي ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشيء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه"[1]، وقد قال ﷻ بعد أن ذكر جملة من صفات أهل الإيمان التي منها الخشوع، قال ﷻ: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ الأحزاب: ٣٥، فالأجر العظيم حاصل لهم بما يقومون به من أعمال صالحات والتي من أهمها الخشوع، وعن عثمان بن عفان ﵁ عن النبي ﷺ قال: "ما من امريء مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله"[2]

والخشوع من أسباب نزول الملائكة والسكينة، فالسكينة والخشوع في تلاوة القرآن الكريم من أسباب نزول الملائكة الكرام مصداق ذلك، فعن أسيد بن حضير ﵁: "بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكتت فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكتت الفرس ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحي قريباً منها فأشفق أن تصيبه فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدث النبي ﷺ إلى أن قال- قال: وتدري ما ذاك. قال لا قال: "تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم"[3]

---

[1] رواه البخاري (3/ 31).
[2] رواه مسلم (1/ 206).
[3] رواه البخاري (6/ 190).

يقول ابن حجر: "وفي الحديث منقبة لأسيد بن حضيرﷺ، وفضل قراءة سورة البقرة في صلاة الليل، وفضل الخشوع في الصلاة، وأن التشاغل بشيء من أمور الدنيا ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير فكيف لو كان بغير الأمر المباح"[1]

"ومن فوائد الخشوع أنه يورث الخوف والرهبة من الله ﷻ، ومظهر من مظاهر الإيمان وحسن الإسلام، ودليل على صلاح العبد واستقامته، وإعلان العبودية لله ﷻ ونبذ ما سواه، تكفير الذنوب وتعظيم الأجر، والنجاة من العذاب والعقوبة، والفوز بالجنة، والخشوع يرفع صاحبه يوم القيامة، والخشوع يؤدي إلى غض البصر وخفض الجناح، والخشوع يبعد القسوة من القلب، والخشوع في الصلاة يؤدي إلى الفلاح، ومن خشع قلبه لا يقربه شيطان"[2]

فاتقوا الله ﷻ؛ واحفظوا صلاتكم، وحافظوا عليها، واستعيذوا بالله ﷻ من قلب لا يخشع، فقد كان من دعاء نبيكم محمد ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها"[3]

---

[1] فتح الباري لابن حجر (9/ 64).
[2] نظرة النعيم (5/ 1837).
[3] رواه مسلم (4/ 2088).

النصيحة الثانية والثلاثون

عليك بخشية الله ﷻ

إنّ من صفات المؤمنين المتّقين استشعارهم لعَظَمة الله ﷻ والخشية والخوف منه، فهم يخشون الله ﷻ في السّر والعلن، ويخافون كذلك من اليوم الذي يردّون فيه إلى ربّ العالمين ﷻ فيقفون أمامه للحساب والمساءلة، ولذلك فهم يتحرّون في أعمالهم وأقوالهم ما يرضي الله ﷻ ويتجنّبون ما يغضبه من الأعمال والأقوال، وإنّ الخوف من الله ﷻ يتّضح جليّاً حين يسْهُل على المسلم ارتكاب ذنبٍ ما، فحينئذٍ يتبيّن المسلم التقيّ من المسلم ضعيف الإيمان، فيتميّز المسلم التقيّ صاحب الإيمان القويّ بتغلّبه على شهوات نفسه ونزواتها ويستطيع طرد وساوس الشّيطان؛ لأنّ خشية المسلم من الله ﷻ غلبت رغبته وشهوته في إتيان الحرام، بينما يكون الإنسان ضعيف الإيمان مستسلماً للمعاصي والآثام وغير آبهٍ بما تجنيه يداه من محرّمات، ولذلك كان الخوف من الله ﷻ وخشيته هي من صفات المؤمنين المتقين، ولا شكّ بأنّ الخشية من الله ﷻ هي جزء من الإيمان، والإيمان يزداد وينقص كما أكّد على ذلك علماء العقيدة، ووُجدت العديد من الطرق الّتي تساعد المؤمن على زيادة إيمانه وتقواه وزيادة خشيته من الله ﷻ.

خشية الله ﷻ هي من عبادات القلوب وإنّما هي أجلّ عبادات القلوب؛ إذْ تجعل المسلم يكفّ عن ارتكاب الحرام ويجتنب النّواهي التي نهى عنها الله ﷻ، وامتدح الله ﷻ أهل خشيته وذكرهم في القرآن الكريم؛ حيث قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ ﴾ المؤمنون: ٥٧، وخشية الله ﷻ هي خوف القلب

ووَجله من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحسابه ووعيده في الآخرة، لكنّ حال الخائف من ربّه عَزَّ وَجَلَّ يختلف عمّن يخاف النّاس، فمَن خاف أحداً من البشر هرب منه، لكنّ من خاف الله عَزَّ وَجَلَّ عاد إليه والتجأ إليه ليجد عنده الأمان والسّكينة؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ ﴾ الذاريات: ٥٠، فالفرار مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكون فراراً إليه بالتزام طاعته والقيام بالعبادات والتكاليف التي أمر بها، وأحوال العباد تختلف من حيث خشيتهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقام من أعلى المقامات وصفة من أسمى وأعلى الصفات، بل هي شرط من شروط الإيمان، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ ﴾ التوبة: ١٣، والخشية خلق لا يتصف بها إلا عباد الله المتقين وأوليائه المحسنين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾ الأنفال: ٢، **قال الطبري**: "ليس المؤمن بالذي يخالف الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويترك إتباع ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وَجِل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفَرَقًا من عقابه"[1]

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى

[1] تفسير الطبري (11/ 27).

﴿ ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر: ٢٣،

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: "كيف تجدك؟، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: "لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف"[1]

وضرب لنا ﷻ مثلاً طيباً في الخشية من الله ﷻ عند سماع آياته فقال: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر: ٢١، فالخشية من الله ﷻ هي ميزان الأعمال وزينتها، وهي سداها ولحمتها، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "الوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مُترادفة"، وقيل الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره والخشية أخصّ من الخوف"[2]، **وقال المناوي:** "الخشية تألم القلب لتوقع مكروه مستقبلاً، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله ﷻ وهيبته ومنه خشية الأنبياء"[3]

وبعضهم قيّد الخشية بما كان في حق الله ﷻ، والخوف في حق الآدميين، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٩، والخشية من الله ﷻ فضلها عظيم ومكانتها عالية وسامقة، فقد وصف الله ﷻ بها عبادة المؤمنين الصالحين فقال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ

[1] سنن الترمذي (3/ 302).
[2] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 507 – 508).
[3] التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص 155.

وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ فاطر: ١٨، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٧ - ٦١

ولقد ضرب رسول الله ﷺ أروع الأمثلة في حسن الخشية من الله ﷻ، وهو الذي خاطبه ربه ﷻ فقال له: ﴿ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ ﴿٣٧﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٧، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً فقال: "ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه، فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية"[1]

فإن خشية الله ﷻ من أجل أعمال القلوب التي تقوم عليها العبادة وتكف المؤمن عن ركوب المعاصي واستباحة المحرمات والاستهانة بشرع الله ﷻ وشعائره.

ولقد أثنى الله ﷻ على عباده تخلقهم بالخشية فقال ﷻ: ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴿١٥٠﴾ ﴾ البقرة: ١٥٠، ووالله ما استعان العبد على دينه بمثل الخشية من

[1] رواه مسلم (4/ 1829).

الله ﷻ، وخشية الله ﷻ تعني انزجار قلب المؤمن ووجله وخوفه وهربه من سخط الله ﷻ وغضبه وعقوبته ووعيده في الآخرة، **قال سعيد بن جبير** رضي الله عنه: "الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل"[1]

ومنشأ الخشية لله ﷻ تكون من جلال الله ﷻ واتصافه بالقوة والانتقام والغضب ممن عصاه، قال ﷻ: ﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ التوبة: ١٣، وتكون من عذابه وعقوبته ووعيده في الآخرة، قال ﷻ: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ ﴾ الزمر: ١٣

وخشية الله ﷻ توقد قلب المؤمن وتجعله حذراً من الوقوع في الغفلة والوقوع في الشبهات وتجعل نفسه لوامة على التقصير وتحمله على شدة محاسبة النفس والبعد والهروب من المهلكات والموبقات، **قال إبراهيم بن سفيان** رضي الله عنه: "إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها"[2]

وإذا خلا القلب من الخشية والخوف أظلم وسكنت فيه شياطين الإنس والجن وصار خاوياً من الخير لا يسمع الحق ولا ينزجر بالزواجر ولا ينتفع بموعظة ويستبيح أقبح الجرائم كشربة الماء، **قال أبو سليمان الداراني** رضي الله عنه: "ما فارق الخوف قلباً إلا خرب"[3]، ومن أعظم أحوال الخشية خشية الرب ﷻ في الغيب عند استتار المؤمن من أعين الخلق وخلوته بربه ﷻ، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ ﴾ الملك: ١٢، فخشيته ﷻ بالسر أجل وأعظم من

[1] تفسير ابن كثير (6/ 482)، توفيق الرحمن في دروس القرآن (3/ 561).
[2] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (2/ 577).
[3] الرسالة القشيرية (1/ 254).

الخشية بالشهادة؛ لأنها خالية من الرياء لا يشوبها شرك وتصنع للخلق ولا يوفق لها إلا كامل الإيمان، والخشية الحقة هي التي تربي القلب حتى لا يفرق بين معصية وأخرى، فلا ينظر إلى صغر المعصية، ولكن ينظر إلى عظمة من عصى، قال الله ﷻ يحصر المنتفعين بالذكرى: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ طه: ٢ – ٣، وقال ﷻ: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ النازعات: ٤٢ – ٤٥، وقال ﷻ: ﴿ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ الأعلى: ٩ – ١٠، إن المنتفعين بالذكرى المستفيدين من النذارة والبشارة هم أهل الخشية والمراقبة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ فاطر: ١٨

فأهل الخشية هم السعداء في الدنيا، الفائزون في الآخرة، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النور: ٥٢، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ البينة: ٧ - ٨

فإن الخشية من الله سبحانه وتعالى سمة من سمات عباده الصالحين، ومنزلة سلكها الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون والصحابة والتابعون؛ فهي دليل معرفة الله عز وجل وتقديره، حق قدره، ودليل الإيمان الصادق والعبادة الخالصة، قال سبحانه وتعالى عن المؤمنين: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الطور: ٢٥ - ٢٨، فبين الله سبحانه وتعالى أن إشفاقهم وخشيتهم من الله سبحانه وتعالى في الدنيا كان سببًا لنجاتهم من عذاب جهنم يوم القيامة.

أن الخشية من الله سبحانه وتعالى هي تألُّم القلب واحتراقه وخوفه من الله سبحانه وتعالى بسبب توقع العذاب يوم القيامة، وإنما يخشى الله سبحانه وتعالى من طالع حقيقة نفسه، وما انطوت عليه من النقائص والعيوب، ثم عرف قدر ربه عز وجل وجلال وجهه وسلطانه، وما يستحقه من الطاعة والعبادة والإجلال.

وكلما كانت معرفة العبد بالله عز وجل أكمل كان له أخشى وأخوف؛ لذلك فقد كان أخشى الناس لله عز وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أعرف الناس به، وأعلم بقدره وجلاله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية"[1]

أنَّ خشية الله سبحانه وتعالى هي ثمرة إيمانك ويقينك، فكلما صفا إيمانك، وعلا يقينك، ازداد خوفك من الله سبحانه وتعالى، وخشيتك له، وفاض أثر ذلك على قلبك، وظهر على جوارحك وصفاتك وأفعالك، بالطاعة والخضوع والبكاء والخشوع.

[1] رواه البخاري (10/ 437).

فخشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي ما أثمر ترك المعاصي والشهوات، وأوجب النظر في خطر العاقبة، ومراقبة النفس ومحاسبتها ومجاهدتها في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أتقى الناس لله عَزَّ وَجَلَّ، وأخوفهم منه، "فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ سورة الطور حتى بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ الطور: ٧، فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه"[1]

إن من خشي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حق الخشية لابد أن تظهر علامات ذلك على حاله، وجوارحه، وأفعاله، فلا تراه إلا خاشعًا ضارعًا مستكينًا باكيًا، كلما تفكر في العذاب، وقّافًا عند حدود الله عَزَّ وَجَلَّ، سبّاقًا إلى الطاعات، فارًّا من المعاصي والسيئات، والخشية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أقوى الأسباب التي تجنب المرء الحرص على الدنيا، لأن الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يورث في القلب الفزع من العقاب والعذاب، ولا يكون ذلك إلا لمن كان زاهدًا في الدنيا مقبلاً على الآخرة، **قال سفيان الثوري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباءة، قال: وكان من دعائهم: اللهم زهدنا في الدنيا، ووسع علينا منها، ولا تردها عنا، فترغبنا فيها"[2]

أن خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي النجاة من سخطه وعقابه، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله، حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله، ودخان جهنم"[3]، فالنجاة من النار هي الثمرة اليانعة للخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يجمع على العبد خوفين، فإذا خافه في الدنيا أمنه يوم القيامة، كما أنه لا يجمع

---

[1] تفسير ابن كثير (6/ 430).
[2] تفسير سفيان الثوري (17/1).
[3] مسند أحمد (16/ 330)، سنن الترمذي (4/ 555)، سنن النسائي (6/ 12)، السنن الكبرى للنسائي (4/ 274).

على عبده أمنين، فإذا أمنه في الدنيا، أخافه يوم القيامة، فمن سلك سبيل النجاة امتطى مركب الخوف والخشية، ولازم طاعة الله ﷻ في السر والعلن، وأقام صرح الاستقامة في الظاهر والباطن، وعاش مع خوفه راجيًا ثواب الله ﷻ، محسنًا الظن به، متوكلاً عليه، منيبًا إليه.

أن خشية الله ﷻ تورث النضرة في الوجه، والحلاوة والمهابة والشرف، فلا تجد صاحبها إلا شريفًا عفيفًا، طيب الملبس والمطعم، بعيدًا عن الشبهات والمحرمات ومصارع السوء، مشتغلاً بخاصة نفسه، وبما ينفعه في آخرته ومعاده، وهذا ما يجعله مقبولاً عند الله عز وجل محبوبًا بين الناس طيب السمعة رفيع المنزلة، يشار إلى تقواه وورعه ومكانته بالبنان، ويغبطه كل إنسان، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ليس شيء أحب إلى الله ﷻ من قطرتين، وأثرين: قطرة دموع من خشية الله،، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله ﷻ، وأثر في فريضة من فرائض الله ﷻ"[1]

"ومن فوائد الخشية الفوز بالجنة والنجاة من النار، والأمن من الفزع الأكبر، وتثمر محبة الله عز وجل وطاعته، وسبب سعادة العبد في الدنيا والآخرة، ودليل هداية القلب، والبعد عن الوقوع في المعاصي والذنوب"[2]

أقبل على الله ﷻ بالخشية والتضرع والبكاء، واجعل لنفسك من عذابه وقاية باجتناب ما حرم، وفعل ما أمر، وسر به إلى الله ﷻ بجناحي الرجاء والخوف،

[1] سنن الترمذي (4/ 190)، المعجم الكبير للطبراني (8/ 235).
[2] نظرة النعيم (5/ 1856).

فكلما أصبت طاعة رجوته، وكلما هممت بمكروه خشيته، ومن خاف الله ﷻ في الدنيا أمنه الله ﷻ يوم القيامة ومن أمن عذابه في الدنيا أخافه الله ﷻ يوم القيامة فلا يجمع الله ﷻ على عبده أمنين وخوفين، فهنيئاً لمن خافه حق الخوف وخشي من عقوبته وغضبه في الدنيا ليفوز بأمنه يوم القيامة والموفق من فتح عليه باب الخشية والإنابة وأغلق عليه باب الأمن والغفلة وطول الأمل

وكل مؤمن بالله ﷻ مستقر في قلبه خشية الله ﷻ في الأصل ولا يمكن خلو قلبه من ذلك ولكن أهل الإيمان يتفاوتون في درجات الخوف

شبكة الألوكة

النصيحة الثالثة والثلاثون
من توضع لله ﷻ رفعه

التواضع سرّ كل توفيق ورفعة، وهي صفة من صفات عباد الرحمن، وخلق من أخلاق أولياء الله ﷻ، ولقد بشّر النبي ﷺ أهل التواضع بالرفعة، حيث قال ﷺ: "ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو، إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"[1]، كما يجب الابتعاد عن خصلة الكبر، والتي هي صفة من صفات الكفار التي أبعدتهم عن الهداية، بالإضافة إلى أنها صفة من صفات إبليس، والتي طُرد بسببها من رحمة الله ﷻ، فالشخص المتواضع يكون محبوباً بين الناس، وقريباً من رسول الله ﷺ يوم القيامة، **وقد صدق من قال**: "إن التواضع من خصال المتقي وبه التقي إلى المعالي يرتقي"[2]

التواضع هو الاستسلام للحقّ، وترك الاعتراض على الحكم، **قال الجنيد** رضي الله عنه عن التواضع: "إنه خفض الجناح للخلق، ولين الجانب لهم"[3]، **وقال الرازي**: "إنَّه ترك التمييز في الخدمة"[4]، **أما الفضيل بن عياض** رضي الله عنه فقال عن التواضع: "تواضع المؤمن بأن يخضع للحق، وينقاد له، ويقبله ممن قاله"[5]، وبالتالي فإنَّ التواضع هو تهذيب للطباع الإنسانية، والنزعات الفطرية، والحد من كبر النفس، والغرور.

التواضع من أروع الأخلاق التي يجب على كل شخصٍ الاتصاف بها، فالتواضع من الأخلاق الإسلامية التي أمرنا الله ﷻ بالتحلي بها، كما أمرنا الرسول ﷺ بأن

[1] رواه مسلم (4/ 2001).
[2] موارد الظمآن لدروس الزمان (4/ 152).
[3] الرسالة القشيرية (1/ 278).
[4] الرسالة القشيرية (1/ 280).
[5] دليل الداعية ص 56.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

نتصف فيه وألا نتصرف بغرورٍ وتكبر مع الآخرين، فالتواضع لم يكن في شيءٍ إلا زانه، وما نُزع من شيءٍ إلا شانه، كما أنه يمنح صاحبه الكثير من الهيبة ويُكبرّه في عيون الناس، لأن من يتواضع لله ﷻ يرفعه الله ﷻ، قال ﷺ: "إن الله أوحى إلى أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد"[1]

فالتواضع من القيم الرفيعة التي تنشر الخير بين أفراد المجتمع، ويُمكن إبرازه في العديد من مظاهر الحياة كالحفاظ على الابتسامة عند رؤية الآخرين وإظهار البشاشة في حضورهم وعدم العبوس والتقطيب في وجوههم، ومعاملة الآخرين بلطفٍ كبير، وتوقير الكبير والعطف على الصغير، والعطف على المساكين والفقراء وتجنب احتقارهم أو إظهار التفاخر أمامهم، وردّ السلام على الناس، واحترام آراء الآخرين، وغير ذلك الكثير من الأشياء التي يتصف بها الشخص المتواضع.

ومن الأدلة الكثيرة على عظمة التواضع أن الله ﷻ ذكره في القرآن الكريم على لسان لقمان الحكيم، حيث أوصى ابنه بأن يكون متواضعاً وأن لا يتصرف بتكبرٍ وخيلاء مع الناس، قال ﷻ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ لقمان: ١٨، لذلك يُعتبر التواضع من الأخلاق الواجب التجمّل بها، لأن من يتصف به ينال الأجر الكبير والثواب العظيم من الله ﷻ، ولا يكون التواضع في الأفعال فقط، بل يكون بالأقوال أيضاً، فمن يُظهر تفاخره بين الناس بما يملك، ويُقارن بينه وبين الآخرين بطريقةٍ تُشعرهم بالنقص، هو في الحقيقة لا يتصرف بتواضع وإنما يدّعيه فقط، فمن أراد أن يكون

[1] رواه مسلم (4/ 2198).

نقي السريرة ويتصرف بما يُرضي الله ﷻ فيجب أن تكون أفعاله وأقواله جميعها خالصةً من أي ذرة كِبرٍ مهما صغرت؛ لأن الله ﷻ حرّم دخول الجنة على من كان في قلبه ذرة واحدة من التكبر والغرور؛ ولأن الله ﷻ طيبٌ ولا يقبل إلا الطيب، يجب علينا جميعاً أن نتصف بما أمرنا، ولهذا علينا أن نكون متواضعين، فالإنسان المسلم مخلوقٌ من طين، وقد ساوى الله ﷻ بين عباده جميعاً بغض النظر عن جنسهم ولونهم ومظهرهم، وجعل ميزان التفاضل الوحيد بينهم هو التقوى، لذلك لا يحقّ لأي أحدٍ أن يتكبر على أحد أو أن يُعامله بطريقةٍ يُشعره بأنه أفضل منه قدراً أو قيمة.

والتواضع هو تذلل في القلب وافتقار يكسب الجوارح خضوعاً وسكوناً فيجمل صاحبه على احترام الناس وتقديرهم وحسن التعامل معهم على حدٍ سواء لا يفرق بينهم في التعامل ما داموا مسلمين ولا ينظر إليهم باعتبارات خاصة، ويحمل صاحبه أيضاً على قبول الحق مهما كان من أي شخص ولو كان أدنى منه منزلة، **قال الحسن** رضي الله عنه: "هل تدرون ما التواضع، التواضع: أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً."[1]، ووصف الله ﷯ عباده الذين هداهم للإيمان، فقال ﷻ: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ المائدة: ٥٤، **قال ابن الحاج**: "من أراد الرفعة فليتواضع لله ﷯؛ فإن العزة لا تقع إلا بقدرِ النزولِ، ألا ترى أن الماءَ لما نزلَ إلى أصلِ الشجرةِ صعدَ إلى أعلاها فكأن سائلاً سأله: ما صعدَ بِكَ

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 342).

هنا -أعني في رأس الشجرة- وأنت تحت أصلها؟ فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه"[1]

فالتواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين، ودليل محبة رب العالمين ﷻ، وهو الطريق الذي يوصل إلى مرضاة الله ﷻ وإلى جنته، وهو عنوان سعادة العبد في الدنيا والآخرة، وهو السبيل الذي يقربك من الله ﷻ، ويقربك من الناس، وهو السبيل للفوز بحفظ الله ﷻ ورعايته وعنايته، وهو الطريق لحصول النضر والبركة في المال والعمر، وهو السبيل للأمن من عذاب الله ﷻ يوم الفزع الأكبر، وهو دليل على حسن الخلق وقائد إلى حسن الخاتمة.

فالتواضع صفة محمودة وسبيل لنيل رضا الله ﷻ، وقد جعل الله ﷻ سنّة جارية في خلقه أن يرفع المتواضعين لجلاله ﷻ، وأن يذل المتكبرين المتجبرين، أمّا الذي يسلك مسلك المتكبّرين، فقد باء بشؤم العاقبة؛ يقول ﷻ: ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ الزمر: ٧٢، فالتواضُع خُلُق عظيم، وسِمة من سِمات أهل الإيمان، وصفةٌ من صفات أهل الرحمن؛ قال ﷻ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ الفرقان: ٦٣، التواضع يرفع الله ﷻ به صاحبه في الدنيا والآخرة، والتواضع من الأخلاق المثالية والصفات العالية، فالمسلم متواضع في غير مذلة ولا مهانة، والمتعالون في الأرض يطبع الله ﷻ على قلوبهم ويعمي أبصارهم، فلا يستشعرون قدرة الله ﷻ

[1] بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية (2/ 227).

القاهرة فوقهم ولا ينتفعون بآيات الله ﷻ الباهرة من حولهم، يقول ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ غافر: ٣٥

التواضع من سيماء الصالحين، ومن أخص خصال المؤمنين المتقين ومن كريم سجايا العاملين المخبتين، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ المائدة: ٥٤، وقال الله ﷻ لنبيه ﷺ والخطاب عام له ولأمته: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ الشعراء: ٢١٥، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ لقمان: ١٨

إن التواضع لا ينقص قدرَ صاحبه، ولا ينزله عن مكانته، بل يرفعه، ويعلي شأنه، ويحببه إلى الخلق، قال رسول الله ﷺ: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"[1]، وقال أبو بكر رضي الله عنه: "وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع"[2]

لِزامًا على كل مسلم التزامُ التواضع لإخوانه المسلمين؛ فلقد أمر الله ﷻ به رسولَه ﷺ، والأمرُ للرسول ﷺ أمرٌ لأمته ما لم يَرِد تخصيصٌ؛ بأن يتواضَع لرعيَّته، وأمر الرعية أن يتواضعوا لولي الأمر في حدوده؛ قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ٥٩﴾ النساء: ٥٩

[1] رواه مسلم (4/ 2001).
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 343)

التواضع دليل على طهارة النفس وسلامة القلب من أمراض التكبّر والخيلاء، ويمثل خلق التواضع ركناً مهماً في تكوين شخصية المسلم وسلوكه؛ لأنّ التواضع في جوهره دعوة عملية إلى المحبّة والمودّة والترابُط، ووسيلة لتحرير القلوب من أغلال الحسد والكراهية، وهو صفة محمودة وسبيل لنيل رضا الله ﷻ، وقد جعل الله ﷻ سنّته جارية في خلقه أن يرفع المتواضعين لجلاله، وأن يذل المتكبرين المتجبرين.

التواضع صفة من صفات المؤمنين والمؤمنات، وقد حَثّ رسول الله ﷺ على الالتزام بها، وحَضّ المؤمنين على الابتعاد عن التكبر، الذي ينتهي بصاحبه إلى الدَّرْك الأسفل من النار؛ لأنّ التواضع في غير مَذلّة ولا مَهانة خلق يليق بالعبد المسلم، أمّا الكبر فهو ليس له، ولا ينبغي لمثله لأنّ الكبر صفة من صفات الربوبية، ولا يليق بالعبد الفقير إلى مَولاه ﷻ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله ﷻ: الكبرياء ردائي، والعَظَمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار"[1]

التواضع خلق حميد، وجوهر لطيف، يستهوي القلوب، ويستثير الإعجاب والتقدير، وهو من أخص خصال المؤمنين المتقين، ومن كريم سجايا العاملين الصادقين، ومن شيم الصالحين المخبتين، وهو هدوء وسكينة ووقار واتزان، وبشاشة وجه، ولطافة خلق، وحسن معاملة، بتمام التواضع وصفائه يتميز الخبيث من الطيب، والأبيض من الأسود، والصادق من الكاذب، وما تواضع أحد لله ﷻ، إلا رفعه الله ﷻ.

قال المناوي في شرحه للحديث: "وما تواضع عبد من المؤمنين رقًّا وعبودية لله ﷻ في الائتمار بأمره، والانتهاء عن نهيه، ومشاهدته لحقارة نفسه، ونفي العجب عنها، إلا رفعه الله ﷻ في الدنيا بأن يثبت له في القلوب بتواضعه منزلة عند الناس ويجل

[1] مسند أحمد (15/ 211)، صحيح ابن حبان (12/ 486).

مكانه، وكذا في الآخرة على سرير خلد لا يفنى ومنبر ملك لا يبلى، ومن تواضع لله ﷻ في تحمل مؤن خلقه كفاه الله ﷻ مؤنة ما يرفعه إلى هذا المقام، ومن تواضع في قبول الحق ممن دونه، قبل الله ﷻ منه طاعاته، ونفعه بقليل حسناته وزاد في رفعة درجاته وحفظه بمعقبات رحمته من بين يديه ومن خلفه"[1]، **وقال عبد الله بن المبارك** رضي الله عنه: "رأس التواضع أن تضع نفسك عند من هو دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل"[2]

فالتواضع يجعل الحياة سلسة لا يوجد بها حقد أو كره، أو طغينة لأي شخص آخر، ولهذا فدعانا الله ﷻ أن نكون متواضعين لله ﷻ، وأن مهما حصل الإنسان على نعم كثيرة في حياته فمثواه هو التراب الذي خلق منه، فلا داعي أن نكون متكبرين على الآخرين فالحياة فانية، وكل خطوة نخطوها سنحاسب عليها.

فالتواضع هي قاعدة من يتبعها ويجعلها مثال حياته سيسير على أي شيئاً أخر سيكون مندرج تحت تلك القاعدة، وسيكون سهلاً ويمكن الوصول إليه بكل سهولة ويسر، ولذلك فيجب أن نقدم النصيحة لمن يحتاجها، يجب أن نقف ونمد أيدينا لمن يحتاج المساعدة فمهما أعطانا الله ﷻ فهو أعطاه لنا حتى نكرم به غيرنا، فديننا الإسلام يحث دائماً على العطف والصدقة للفقراء والمحتاجين.

"ومن فوائد التواضع أنه خلق كريم من أخلاق المؤمنين ودليل محبة رب العالمين ﷻ، وهو طريق موصل إلى مرضاة الله ﷻ وإلى جنته، وهو السبيل إلى القرب من الله ﷻ

---

[1] فيض القدير للمناوي (5/ 503).
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 342).

ومن ثم القرب من الناس، والتواضع عنوان سعادة العبد في الدارين، ويحب الله ﷻ المتواضعين ويكلؤهم برعايته ويحيطهم بعنايته، والمتواضعون آمنون من عذاب الله ﷻ يوم الفزع الأكبر، وهو دليل على حسن الخاتمة وعلى حسن الخلق، والتواضع يؤدي إلى حصول النصر والبركة في المال والعمر"[1]

ألا ما أعظمَ الإسلام وما أجلَّه، وهو يدعو المسْلمينَ إلى التَّواضع كعنصرٍ حيويٍّ وفعَّال في تمامِ الشَّخصية واتِّساق جوانبِها، وما يكونُ لذلك من ثمراتِ البرِّ والمرحمة واللينِ والرِّفق، التي تأخذُ سبيلَها إلى سلوك النَّاس وحياتِهم وتعامُلِهم

[1] نظرة النعيم (4/ 1268).

النصيحة الرابعة والثلاثون

احمد ربك ﷻ

الحمد لله ﷻ هو الثناء الكامل على الله ﷻ بذكر فضائله وخصاله وأفعاله الحسنة وأسمائه الحسنى مع التذلل والخضوع والمحبة أما الثناء وذكر الفضائل بلا محبة لغرض الدنيا فمجرد مدح للمخلوق ولا يليق بالخالق ﷻ ولا يترتب عليه الثواب الأخروي، **قال ابن القيم** رحمه الله: "فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه"[1]

والحمد يتضمن إقرار العبد بغنى الله ﷻ وكماله وافتقاره إلى هدايته ونعمه فقلبه موقن أن المنعم والمتفضل هو الله ﷻ.

والحمد لله ﷻ من أطيب الكلام لقوله ﷺ: "أحب الكلام إلى الله ﷻ أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا يضرك بأيهن بدأت"[2]

والله ﷻ يحب المدح، قال ﷺ: "ولا أحد أحب إليه المدح من الله"[3]

والحمد لله ﷻ يكون بسبب حدوث النعمة وبدونها فهو مشروع في سائر الأحوال وهو خاص بآلة اللسان أما الشكر فمحله عند حدوث النعمة ويكون بالقلب واللسان والجوارح فبين الحمد والشكر عموم وخصوص.

والله ﷻ مستحق للحمد المطلق؛ لأنه الخالق والمالك والمدبر والرازق حقيقة والمتفضل على أوليائه وأعدائه بجميع أنواع النعم ولأن له الكمال المطلق في جلاله وجماله فهو محمود بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يقضي ﷻ ولا يقدر ولا يحكم ولا يختار ولا يفضل إلا أمراً محموداً لا نقص فيه ولا عيب بوجه من الوجوه.

---

[1] بدائع الفوائد لابن القيم (2/ 93).
[2] السنن الكبرى للنسائي (9/ 312).
[3] رواه البخاري (9/ 120)، رواه مسلم (4/ 2114).

والله ﷻ من أسمائه الحميد لكثرة محامده وكثرة من يحمده من الخلائق، قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ ﴾ الشورى: ٢٨، فله الحمد حمداً كثيراً بعدد خلق السموات والأرض وما شاء ربنا ﷻ مما لا يحصيه إلا الله ﷻ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قال "سمع الله لمن حمده، قال: "اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد"[1]

قال القرطبي: "فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الحمد على الإطلاق إنما هو لله ﷻ وأن الألف واللام للاستغراق لا للعهد، فهو الذي يستحق جميع المحامد بأسرها، فنحمده على كل نعمة وعلى كل حال بمحامده كلها ما عُلِم منها وما لم يُعلَم... ثم يجب عليه أن يسعى في خصال الحمد وهي التخلق بالأخلاق الحميدة والأفعال الجميلة"[2]، **وقال ابن القيم** رحمه الله: "فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله ﷻ على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه به فهو حمد له وثناء وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني به عليه خلقه، فله الحمد أولاً وآخراً حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده"[3]

---

[1] مسند أحمد (18/ 344)، سنن الدارمي (2/ 829)

[2] صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال (2/ 258).

[3] طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص 132.

الحميد سبحانه وتعالى اسم من أسماء الله عز وجل الحسنى ومعناه: "هو المحمود في شرعه وأمره ونهيه، وهو المحمود في كل المخلوقات بلسان الحال والمقال في كل الأحوال"، **قال أبو جعفر بن جرير**: معنى "الحمد لله" الشكر لله عز وجل خالصًا دون سائر ما يُعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذّاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرًا."[1]، **وقال القرطبي**: "أثنى الله سبحانه وتعالى بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره؛ بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ النجم: ٣٢، وقال صلى الله عليه وسلم: "احثوا في وجوه المداحين التراب"[2]"[3]، **وقال أيضاً**: "فمعنى الحمد لله رب العالمين أي سبق الحمد مني لنفسي أن يحمدني أحد من العالمين وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعلة، وحمدي الخلق مشوب بالعلل، قال علماؤنا: فيستقبح من المخلوق الذي لم يعط الكمال أن يحمد نفسه ليستجلب لها المنافع ويدفع عنها المضار، وقيل: لما علم سبحانه وتعالى عجز عباده عن حمده، حمد نفسه بنفسه لنفسه في

[1] تفسير الطبري (1/ 135).
[2] مسند أحمد (39/ 246)، المعجم الكبير للطبراني (20/ 239).
[3] تفسير القرطبي (1/ 135).

الأزل؛ فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده، ألا ترى سيد المرسلين ﷺ كيف أظهر العجز بقوله: " لا أحصي ثناء عليك[1]"[2]

الحمد هو الثناء والامتنان لرب العالمين ﷻ، والشكر على نِعَمه الكثيرة، وآلائه الجسيمة، مبتغى ومنتهى الشكر لله ﷻ، فيحبُ أن نَحمد الله ﷻ ونُثني عليه في ابتداء وانتهاء كل أقوالنا وأفعالنا؛ فالثناء على الله ﷻ يكون بذكر أسمائه الحسنى وصفاته العُلى، وأفعاله العظمى، وذكر آلائه ونعمه على عباده، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله، أقطع"[3]

وأن نجعل الألسنَ مُعطَّرة ومُبتهِجة بذِكر وحمد الله ﷻ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إذا مات ولدُ العبد قال الله ﷻ لملائكته: قبضتُم ولد عبدي؟! فيَقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟! فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حِمدَكَ، واسترجَع، فيقول الله ﷻ: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسمُّوه بيت الحمد"[4]

الحمد لله ﷻ أن هدانا إلى الإيمان، وأنزل القرآن على نبيّنا ورسولنا خاتم المرسلين؛ قال ﷻ: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ ﴾ الكهف: ١، الحمد لله ﷻ كلمةٌ من أحسن الكلمات التي يُعمر بها الجَنان، وينطق بها اللسان، وتسمعها الأذنان، وتخطُّها للحقِ البَنان.

---

[1] رواه مسلم (1/ 352).
[2] تفسير القرطبي (1/ 135)..
[3] سنن ابن ماجه (1/ 610)، السنن الكبرى للبيهقي (3/ 295).
[4] سنن الترمذي (3/ 332).

والحمد لله سبحانه وتعالى من أطيب ما تعطرت بلفظه الأفواه، واستراحت به النفوس، وكثرت به الأجور، وارتفعت به المنزلة عند الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله سبحانه وتعالى عبارة تحمل في حروفها المضيئة إشراق النفس وامتلاءها بشكر المنعم سبحانه وتعالى، الذي أعطى فأجزل، ورزق وتفضَّل.

والحمد لله عز وجل تعبير عن صبر النفس ورضاها بما نزل عليها من المكاره، موقنة بأن الله سبحانه وتعالى في قدره الذي نزل عليم حكيم، لا ينزل على عبده المؤمن إلا ما وافق حكمته وعلمه ورحمته، وكان بالمؤمنين رحيمًا.

إن الحمد الله سبحانه وتعالى كلمة تختصر كلمات الثناء والشكر، والتعظيم والصبر، فما أحسنها وهي تخرج من قلب صابر، أو لسان ذاكر، أو عبد شاكر، وما أجملها أن تكون حقيقة قلبية لا جملة لسانية فحسب، فأصدق الحمد ما نطق به القلب قبل أن يفوه به اللسان.

الحمد لله سبحانه وتعالى هي أول الكلام ونهايته، وأول الخلق وخاتمته، قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ الأنعام: ١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥ ﴾ الزمر: ٧٥، وأول سورة في ترتيب المصحف الشريف مبدوءة بالحمد، وبها افتتحت خمس سور من القرآن: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وما ذلك إلا لفضل هذه الكلمة وعظم مكانتها.

إن الحمد الله ﷻ تعني الثناء على الله ﷻ لصفات كماله، ونعوت جلاله، وآيات جماله، والثناء عليه لإحسانه لعبده، وجميل فعاله به، مع حبه وتعظيمه ﷻ.

فقد أمر الله ﷻ بحمده على تنزهه عن النقائص، فقال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ الإسراء: ١١١، وأمر بحمده على نعمة إيضاحه لعباده الدينَ الحق إيضاحًا بيّناً، فقال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ النمل: ٩٣

والحمد لله ﷻ على نعمة الخلق والإيجاد، قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ الأنعام: ١، والحمد لله ﷻ على إمداده عباده بالنعم البدنية الحسية التي بها يعيشون، قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ الفاتحة: ٢، فالرب هو المربي لعباده المصلح لشؤونهم بنعمه ﷻ، والحمد لله ﷻ على إمداده عباده بالنعم المعنوية التي تصلح أرواحهم، وتهديهم إلى الصراط المستقيم بنور الوحي المبين، قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ الكهف: ١، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴿٤٣﴾﴾ الأعراف: ٤٣

إن حمد الله ﷻ عبادة شريفة أمر الله ﷻ بها، ودعا عباده إليها؛ ليأجرهم عليها، ويحفظ نعمه عليهم بها، كما حث عليها رسول الله ﷺ في سنته على العموم وعلى الخصوص، مبينًا عظم الثواب الحاصل من قولها بصدق وإخلاص.

فحمد الله ﷻ من أحب الكلام إليه، والحمد لله ﷻ لها ثواب يملأ ميزان الحسنات يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ: "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن – أو تملأ – ما بين السماوات والأرض"[1]

وقول الحمد لله ﷻ من الأعمال الصالحة التي هي خير من الدنيا وما فيها؛ لما فيها من الأجر العظيم الذي لا تساويه الدنيا؛ قال رسول الله ﷺ: "لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس"[2]

والحمد لله ﷻ من الأعمال الصالحة التي يبقى لصاحبها أجرها، وتقيه عذاب النار؛ قال رسول الله ﷺ: "خذوا جُنتكم من النار قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مقدِّمات، ومعقِّبات، ومجنِّبات، وهن الباقيات الصالحات"[3]

إن الحمد لله ﷻ مع الإيمان سبب لدخول الجنان، قال رسول الله ﷺ: "لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر"[4]

---

[1] رواه مسلم (1/ 203).
[2] رواه مسلم (4/ 2072).
[3] صحيح الجامع الصغير (1/ 612)
[4] سنن الترمذي (5/ 510).

والحمد لله ﷻ سبب لنيل رضوان الله ﷻ إذا قال المسلم ذلك عند كل أكلة وكل شربة، قال رسول الله ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها"[1]

إن حمد الله ﷻ إذا أكثر منه العبد المؤمن فصار ديدنه في السراء والضراء كان من أفضل عباد الله ﷻ يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: "أفضل عباد الله ﷻ يوم القيامة الحمَّادون"[2]

إن المؤمنين تلذذوا بقولهم: "الحمد لله" وآثاره عليهم في الدنيا، ويستمر تلذذهم به في الجنة، غير أن حمد الله ﷻ منهم كان في الدنيا عبادة، ولكنه في الآخرة صار تلذذاً وتنعمًا، قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ القصص: ٧٠ ، فمما يحمدونه في الجنة: حمدهم له ﷻ على إذهاب الحزن عنهم، قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ فاطر: ٣٤، ومما يحمدونه نعمة تحقق وعده لهم بدخول الجنة والنجاة من النار، قال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الزمر: ٧٤، وحينما ينالون النعيم في كل موطن في الجنة يكون الحمد آخر دعائهم؛ شكراً لله ﷻ على ما مكنهم في الجنة من ذلك النعيم، حتى

[1] رواه مسلم (4/ 2095).
[2] المعجم الكبير للطبراني (18/ 124).

يصير التحميد كالنفَس منهم هناك، قال ﷻ: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾ يونس: ١٠، وقال رسول الله ﷺ: "إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس"[1]

إن حمد الله ﷻ عبادة مشروعة على الدوام؛ لكونها ثناء على الله ﷻ الذي كمل في ذاته وصفاته وأفعاله، ولأن نعمه لا تزال بعباده متصلة غير منفصلة، بل صار الحمد عملاً دائمًا من أعمال بعض العبادات لا ينفك عنها؛ كالصلاة والحج، ففي الصلاة نجد حمد الله ﷻ من جملة أدعية الاستفتاح، وهو ذكر للرفع من الركوع، قال رسول الله ﷺ: "إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد"[2]، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: "اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد"[3]

والحمد كذلك ذكر في الركوع والسجود، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: "سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي"[4] وفي الحج كذلك فإن من شعاره: الحمد، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إني لأعلم كيف كان النبي ﷺ يلبي: "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك"[5]

---

[1] رواه مسلم (4/ 2181).
[2] رواه البخاري (1/ 158)، رواه مسلم (1/ 306).
[3] رواه مسلم (1/ 347).
[4] رواه البخاري (1/ 158)، رواه مسلم (1/ 350).
[5] رواه البخاري (2/ 138).

إن المسلم يحمد الله ﷻ في جميع أحواله في ضرائه وسرائه، فمتى أصابه ضر أو نزل به حزن، أو آلمه مصاب فإنه يحمد الله ﷻ؛ لأن ذلك بقدر الله ﷻ وقضائه، وفي ذلك خير للمسلم أجراً ومثوبة، وصقلاً للنفس من كبريائها، ورداً لها من شرودها عن ربها ﷻ؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى ما يحب قال: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال"[1]، وهذا يدل على حسن الظن بالله ﷻ، وأنه لم يأتِ بالمكروه إلا لخير علمه لعبده فيه وأراده به، فكأنه قال: "اللهم لك الخلق والأمر تفعل ما تريد، وأنت على كل شيء قدير"[2]، قال عمر بن الخطاب ﷺ: "ما ابتليت ببلية إلا كان لله ﷻ علي فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أحرم الرضا، وإذ لم تكن أعظم، وإذ رجوت الثواب عليها"[3]، **وقال الغزالي**: "لا شدة إلا وفي جنبها نعم لله ﷻ، فليلزم الحمد والشكر على تلك النعم المقترنة بها"[4]

هو الله ﷻ المتفرِّد بالثناء والحمد، المستحقُّ للعظمة والمجد، خلقَنا في هذه الحياة لنكون له عبدًا، وكلُّنا لهُ عبد، جلَّت قُدْرته، وكَمُلَت صفاته، وتقدَّست أسماؤه، وحقَّ علينا ولاؤه، ففاتحة الكتاب استهلتْ بالحمد، وهي القصد الأسمى لكل قصد. الحمد لله ﷻ كلمةُ مباركة، وهي ثناء في دعاء، ودعاء في ثناء، تجري على الألسنة بسهولة ويسر، وهذا من فضل الله ﷻ على عباده، الكلمة التي اختارها الله ﷻ فاتحةً لكتابه العزيز، لأن أسرارها وكنوزها لا تنفد، **يقول** "والحمد لله، هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله ﷻ، فإن وجوده ابتداء ليس

---

[1] سنن ابن ماجه (2/ 1250).
[2] فيض القدير للمناوي (5/ 88).
[3] فيض القدير للمناوي (2/ 133).
[4] مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (8/ 260).

إلا فيضاً من فيوضات النعمة الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء، وفي كلّ لمحة، وفي كل لحظة، وفي كل خطوةٍ تتوالى آلاء الله ﷻ وتتواكب وتتجمع، وتغمر خلائقه كلّها، وبخاصة هذا الإنسان، ومن ثم كان الحمد لله ابتداء، وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي"[1]

يقول ابن القيم رحمه الله: "الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه"[2] الرب الإله المحمود في الدنيا والآخرة، المحمود قبل أن يخلق وبعد ما يخلق، وبعد إفناء الخلق وبعد بعثهم، قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ القصص: ٧٠

والحمد لله ﷿ هي أفضل الدعاء، وسرّ ذلك أنها متضمنةٌ للثناء على الله ﷿، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله"[3]

الأعمال لها تأثير كبير في تقريب العبد من ربه ﷿ أو إبعاده عنه، وبعض الأعمال أشد تأثيراً من البعض الآخر، فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض"[4]، ما أعظم هذا الفيض، وما أجزل هذا العطاء والكرم الذي لا يمكن مجرد تصوّره، كلمةٌ واحدة تملأ الميزان بالثواب والعطاء، تجده موفراً يوم توزن الأعمال، كم بين السموات والأرض من مسافات هائلة لا يعلم مداها إلا الله ﷻ؟ مسافاتٌ

---

[2] بدائع الفوائد لابن القيم (2/ 93).

[3] سنن الترمذي (5/ 462)، سنن ابن ماجه (2/ 1249)، صحيح ابن حبان (3/ 126)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 681).

[4] رواه مسلم (1/ 203).

ليست بالأمتار، بل بمئات الملايين من السنين الضوئية، سبحان الله والحمد لله تملآن هذه المسافات، إن هذا العطاء لا يقدر عليه إلا من يعطي بغير حساب.

"ومن فوائد الحمد إنه من أعلى مقامات الإيمان، ومحبة الله ﷻ ونصرته، وجلب النعم المفقودة والمحافظة على الموجودة، مجاورة العبد ربه ﷻ في أعلى مقامات الجنة، غفران الذنوب وستر العيوب، مجاورة الحمادين سعادة لمن جاورهم وجالسهم، وانشغال الإنسان بذكر الله ﷻ عن الغيبة والنميمة وعن كل ما يسخط الله ﷻ، قوة البدن وعافيته، وأفضل من عتق الرقاب والصدقة بحر المال، ويجعل العبد دائماً مطمئناً لقضاء الله ﷻ ويوصله لمقام الرضا، وينفي عن العبد صفة المعترض على قضائه المهمل لشكر نعمائه، والحمد من أجمل الصفات التي تحلى بها رسول الله ﷺ وأوصى بها أمته"[1]

علينا بحمد الله ﷻ بجميع الظروف والأحوال التي نتعرض لها، ولا ننسى فضل الله ﷻ ورحمته علينا، وحمد لله ﷻ وشكره هي من أقل الأمور التي يقدمها العبد لربه ﷻ، فإذا كان المرء يشكر شخصاً غيره قدم له معروفاً معين، فالأولى أن يتوجه بالشكر إلى خالقه ومولاه الذي يتغمده بنعمه، وليعلم أن شكره لتلك النعمة سبب لوجودها وعدم زوالها بل وزيادتها منه ﷻ

فحمد الله ﷻ صدقًا من القلب واللسان يزيد الإيمان، ويأتي بالثواب الذي يثقل الميزان، ويغفر الذنوب، ويجلب النعم، ويصرف النقم، ويورث صاحبه الاطمئنان، ويوصله إلى محبة الله ﷻ ورضوانه

[1] نظرة النعيم (5/ 1781).

النصيحة الخامسة والثلاثون

اشكر ربك عز وجل

لا ريب أن نعم الله سبحانه وتعالى على عباده كثيرة لا تحصى؛ إذ إن إحصاءها خارج عن مقدور البشر؛ مصداقًا لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾ النحل: ١٨، وكثرة النعم من المنعم، والإنسان لا يمكنه أن يُؤدي حقها إلا بالشُّكر عليها ومن هذه النعم أنه سبحانه وتعالى أحسن إلينا بإتمام فريضة الصيام، ثم إقامة شعيرة صلاة العيد في يومٍ أعظمَ اللهُ سبحانه وتعالى قدرَه.

الشُّكر اعتراف بالمنعم والنعمة، بل هو سبب من أسباب حفظ النعمة وزيادتها، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾ إبراهيم: ٧، يُسأل **وهيب بن الورد** رضي الله عنه عن ثواب شيء من الأعمال، كالطواف ونحوه، فيقول: "لا تسألوا عن ثوابه، ولكن سَلُوا ما الذي على مَن وُفِّقَ لهذا العمل من الشُّكر، للتوفيق والإعانة عليه"[1]

فمن العبادات العظيمة التي ينعم الناس بثمرتها في العاجل والآجل شكر الله سبحانه وتعالى على ما أولى من نعم، والشكر نصف الدين.

شُكر الله سبحانه وتعالى صفةٌ من صفات عباد الله عز وجل المؤمنين الذين قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣ ﴾ سبأ: ١٣؛ فالشُّكر هو دليل معرفة عظيم النِّعمة أو النِّعم التي وُهبتها من الله سبحانه وتعالى، وقد سمّى الله سبحانه وتعالى نفسه بالشَّكور أي كثير الشُّكر؛

---

[1] لطائف المعارف لابن رجب ص 221.

فالأولى أنْ يشكر العبد ربّه عَزَّوَجَلَّ وقد نزل العذاب بالأُمم السابقة عندما تكبروا وتناسوا شُكر ما أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عليهم من المال والصِّحة والجاه والبنون والتمكين في الأرض؛ فالشُّكر هو مفتاح الزِّيادة من الخيرات وهو وعدٌ ربانيٌّ جاء بصريح اللفظ: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۝٧ ﴾ إبراهيم: ٧

وتعدّ صفة شكر النعم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أعظم صفات المؤمنين حقاً، ذلك أنّ المؤمن دائم التأمّل في نعم ربّه عَزَّوَجَلَّ، وإذا بلغ العبد في نفسه حقيقة الشكر أصبح راضياً بكلّ قضاءٍ كتبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أو عليه، فيرضى ويفرح بما آتاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويصبر على ما منعه، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له"[1]، ويتحقّق الشكر لله عَزَّوَجَلَّ في القلب بخضوعه واستكانته، واللسان بثنائه واعترافه، والجوارح بانقيادها وطاعتها، كما ذكر أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر بالشكر ونهى عن ضده وأثنى على أهله، ووعد أهله بأفضل الأجر والثواب، وجعله سبباً للحفاظ على نعمه، ويُبنى أساس الشكر على خمسة أمور وقواعد: خضوع العبد الشاكر لربه عَزَّوَجَلَّ، وحبّ العبد لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمداومة على الثناء والشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واعتراف العبد بنعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفضله عليه، وعدم استعمال النعم فيما يكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والشكر شطر الدين؛ لأن العبد تكون حاله إما ضراء فيصبر وإما سراء فيشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والشكر سببه حصول النعم واندفاع النقم فإذا وقع ذلك شرع في مقابل ذلك شكر العبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١١٤

[1] رواه مسلم (4/ 2295).

﴾النحل: ١١٤، ولذلك يشرع للعبد سجود الشكر إذا حصلت له نعمة أو تجددت كما ثبت في السنة، والشكر هو المجازاة على الإحسان بالثناء على المحسن وحقيقة الشكر هي اعتراف المؤمن بحصول النعمة من المنعم واقراره بذلك باللسان واستعمال النعمة في طاعة الله عز وجل، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "وكذلك حقيقته في العبودية وهو ظهور أثر نعمة الله سبحانه وتعالى على لسان عبده: ثناء واعترافاً وعلى قلبه شهوداً ومحبة وعلى جوارحه انقياداً وطاعة"[1]

وقد **ذكر القرطبي** في تفسيره لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ البقرة: ١٥٢، أن شكر العبد لله سبحانه وتعالى ثناؤه عليه بذلك إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه وتعالى للعبد ثناؤه عليه بطاعته له؛ إلا أن شكر العبد نطقٌ باللسان، وإقرارٌ بالقلب بإنعام الرب عز وجل مع الطاعات"[2]

وقال المناوي: "الشُّكر شُكران: شُكر باللسان وهو الثناء على المنعم، والآخر شُكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النِّعمة بقدر الاستحقاق، والشُّكور الباذل وسعه في أداء الشُّكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقادًا واعترافًا."[3]

الشكر هو ظهور أثر نعمة الله سبحانه وتعالى على لسان عبده، ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "الشكر يتعلّق بالقلب، واللسان، والجوارح"[4]، **فالشكر بالقلب**: هو الاعتراف بالنِّعم للمُنعِم، وأنها منه، وبفضله، **والشكر باللسان**: الثناء بالنعم، وذِكرها، وتَعْدادها، وإظهارها، قال

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 234).
[2] تفسير القرطبي (2/ 172).
[3] التوقيف على مهمات التعاريف ص 206- 207
[4] عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص 149.

ﷻ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾ الضحى: ١١ ؛ والله ﷻ يرضى عن العبد إذا حمده على النِّعم، قال النبي ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها"[1]، **والشكر بالجوارح**: ألاَّ يُستعان بالنعم إلاَّ على طاعة الله ﷻ، وأنْ يحذر من استعمالها في شيء من معاصيه، قال ﷻ:

﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ سبأ: ١٣

فإن الشكر لله ﷻ هو رأس العبادة، وأصل الخير، وأوجبه على العباد؛ فإنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة، خاصة أو عامة إلا من الله ﷻ، وهو الذي يأتي بالخير والحسنات، ويدفع الشر والسيئات، فيستحق أن يبذل له العباد من الشكر غاية ما يستطيعون، وعلى العبد أن يسعى بكل وسيلة توصله وتعينه على الشكر.

إن شكر الله ﷻ على نعمه واجب على كل مسلم ومتعين على كل مؤمن وهو السبيل لبقاء النعم ودوامها، كما أن عدم الشكر سبب زوالها واضمحلالها، **وقال سليمان التميمي**: إن الله ﷿ أنعم على عباده بقدر طاعتهم وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم، فقالوا: كل شكر وإن قل: ثمن لكل نوال وإن جل، فإذا لم يشكر المرء عرض النعمة للزوال"[2]، وقيل أيضا: "الشكر قيد للنعم الموجودة وصيد للنعم المفقودة"[3]، وقيل أيضا: "كفران النعم بوار وهو وسيلة إلى الفرار، وكانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النِّعم الموجودة، ويسمونه الجالب لأنه يجلب النعم المفقودة"[4]، وقيل أيضا: "النعمة إذا شُكرت قرَّت وإذا كفرت فرَّت"[5]

---

[1] رواه مسلم (4/ 2095).
[2] الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 316).
[3] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (2/ 282).
[4] غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (2/ 282).
[5] فقه الأدعية والأذكار (1/ 279).

إن الشكر عبادة من العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ﷻ، ومما يدل على أهمية هذه العبادة وعظيم ثوابها: أن الله ﷻ أوقف الجزاء في كثير من الأعمال الصالحة على المشيئة، فقال ﷻ في الإغناء: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ التوبة: ٢٨، وقال ﷻ في المغفرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء: ٤٨، وقال ﷻ في التوبة: ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ التوبة: ١٥

إن الشكر أعلى منازل السالكين إلى الله ﷻ، ولن يكون كذلك حتى يبنى على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وألا يستعملها فيما يكره.

ولقد أمر الله ﷻ عباده بشكره، فقال ﷻ: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ البقرة: ١٥٢، لا ليتكثر بشكر العباد من قلة، ولا ليتمنع بهم من هلاك وشدة، ﷻ هو الغني عن عباده وهم الفقراء إليه، يقول ﷻ: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ النمل: ٤٠

فالعبد إنما يشكر ربه ﷿، حين يعترف قلبه بنعم الله ﷻ عليه محبة وتعظيماً، حين ينطق لسانه تحدثاً بنعم الله ﷻ؛ حمداً له وشكوراً، والعبد إنما يشكر ربه ﷿، حين

تنقاد جوارحه لأمر الله ﷻ طاعة وامتثالاً، والشاكر لربه ﷻ حقاً، من لا يستعين بنعم الله ﷻ على معاصيه، ولا يتعدى بها على حدوده ومناهيه، وما من عمل يعمله الإنسان إلا وهو شاكر فيه لنعم الله ﷻ أو كافر لها، يقول ﷻ: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ الإنسان: ٣

أمر الله ﷻ نبينا ﷺ بشكره، فقال ﷻ: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ الزمر: ٦٦، فكان أشكر الناس لربه ﷻ، يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه ويقول: "أفلا أكون عبداً شكوراً."[1]

وإذا آوى إلى فراشه لينام يحمد ربه ﷻ ويشكره ويعلم أمته فيقول: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي"[2]، وإذا أفاق من نومه فكذلك يقول: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور"[3]،وكلما أصبح أو أمسى، يحمد ربه ﷻ ويشكره فيقول: "اللهم ما أصبح بي – أو أمسى بي – من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر"[4]

الشكر وصية الله ﷻ للإنسان أول ما عقل، يقول ﷻ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ لقمان: ١٤، والشكر أيضاً وصية النبي ﷺ لمن أحب، قال

[1] رواه البخاري (8/ 99)، رواه مسلم (4/ 2171).
[2] رواه مسلم (4/ 2085).
[3] رواه مسلم (4/ 2083).
[4] السنن الكبرى للنسائي (9/ 8).

لمعاذ ﷺ: "إني أحبك؛ فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"[1]

والشكر نصف الإيمان، قال ﷺ: "الإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر"[2]

والشكر طريق العبودية لله ﷻ، يقول ﷻ: ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾ البقرة: ١٧٢

والشكر طريق لنيل محبة الله ﷻ ورضوانه، يقول ﷻ: ﴿ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ٧ ﴾ الزمر: ٧، ومن رزق الشكر رزق الزيادة من النعم.

والشكر أمان من العذاب، ونجاة من العقاب، يقول ﷻ: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧ ﴾ النساء: ١٤٧

الشكر سبب لنيل الأجر العظيم الذي لا تحده حدوده، والجزاء الأوفى الذي لا تقيده قيود، يقول ﷻ: ﴿ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ ﴾ آل عمران: ١٤٥، فأطلق الجزاء إطلاقاً من غير تقييد ولا تحديد.

"ومن فوائد الشكر أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام إذ أنه نصف والنصف الآخر الصبر، واعتراف بالمنعم والنعمة، وسبب من أسباب حفظ النعمة بل المزيد، ولا يكون باللسان فقط بل اللسان يعبر عما في الجنان وكذلك يكون بعمل الجوارح والأركان، وكثرة النعم من المنعم لا يمكن أن يؤدي الإنسان حقها إلا بالشكر عليها،

[1] سنن النسائي (3/ 53).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (12/ 192).

ويكسب رضا الرب ﷻ ومحبته, والإنسان الشكور قريب من الناس حبيب إليهم، وفيه دليل على سمو النفس ووفور العقل، والشكور قرير العين يحب الخير للآخرين ولا يحسد من كان في نعمة"[1]

فالشكرَ الشكرَ على نعم الله ﷻ الظاهرة والباطنة، ما قل منها وما كثر، فبالشكر تدوم النعم وتزيد، وبالجحود تفنى وتبيد، وقد يخلفها العذاب والنقمة، والندم والحسرة، قال ﷻ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ النحل: ١١٢

واعلموا أنه لن تتغير نعم الله ﷻ بالذهاب أو القلة إلا إذا غيّرنا ما بأنفسنا من الشكر إلى عدمه، قال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال: ٥٣

---

[1] نظرة النعيم (6/ 2419).

النصيحة السادسة والثلاثون

تعرف على ربك عَزَّ وَجَلَّ

إنّ أعظم هدف وُجد له الإنسان في هذه الحياة هو عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن مستلزمات عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التعرّف عليه والذي يكون نتاج محبة الإنسان لخالفه عَزَّ وَجَلَّ، والذي لا يقتصر على عبادته وفق الشعائر التعبديّة المعروفة بل يتعدى ذلك ليشمل كل جوانب الإنسان في الحياة، سواء نحو خالقه بشكل مباشر، أم نحو البشر كنوع استقامة في السلوك مرتبط بشكل مباشر بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومحبته وخشيته في الوقت ذاته، وهناك سبل يمكن للإنسان أن يقوم بها ليحقق في نفسه معاني العبودية الحقّة والمحبّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وما في ذلك من تعرّف حقيقي على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إن القلوب إذا لم يحركها حادي معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ وتعظيمه، فإن العطب سيتمكن منها، والران سيكسوها، فأي شيء يريده قلب لم يتعرف على الله عَزَّ وَجَلَّ.

إن الحياة المادية إذا استغرقنا فيها وابتعدنا عن تذكير القلوب بهذا المعنى المهم وهو معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإننا ولا شك سنستجلب الهموم والغموم، ونبتعد عن التوفيق، بل وعن لذة الحياة، فأي لذة في حياة من لم يتعرف على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أو غفل عن سبل معرفته عَزَّ وَجَلَّ، **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي شيء عرف من لم يعرف الله عَزَّ وَجَلَّ ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاته العلم بالله عَزَّ وَجَلَّ والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وماله بعد الوصول إليه"[1]، **وقال ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والعلم بالله عَزَّ وَجَلَّ يراد به في الأصل نوعان:

---

[1] هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم (2/ 591).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أحدهما: العلم به نفسه، أي بما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام، وما دلت عليه أسماؤه الحسنى، **والنوع الثاني** يراد بالعلم بالله ﷻ: العلم بالأحكام الشرعية"[1]

وقال ابن القيم رضي الله عنه: "ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره هو الله ﷻ الذي لا إله إلا هو رب العالمين، وقيوم السماوات والأرضين، الملك الحق المبين، الموصوف بالكمال كله، المنزه عن كل عيب ونقص"[2]، وقال رضي الله عنه أيضاً: "فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته أيضاً، فإن العلم من أفضل العبادات"[3]

ومعرفة الله سبحانه وتعالى والعلم به أصل كل علم ومعرفة، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "فالعلم بالله ﷻ أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته"[4]

لا سعادة للعبد ولا صلاح في هذه الدنيا إلا بمعرفة الله ﷻ، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "لا سعادة للعباد ولا صلاح لهم، ولا نعيم إلا بأن يعرفوا ربهم ﷻ ويكون وحده غاية مطلوبهم، والتعرف إليه قرة عيونهم، ومتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالاً من الأنعام، وكانت الأنعام أطيب عيشاً منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل"[5]

---

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (3/ 333).
[2] مفتاح دار السعادة لابن القيم (1/ 86).
[3] مفتاح دار السعادة لابن القيم (1/ 178).
[4] مفتاح دار السعادة لابن القيم (86/1).
[5] الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة لابن القيم (1/ 366).

فأول الفتوح معرفة الله ﷻ، وإن ترسيخ هذه المعرفة في قلوب الناس لهو وضع حجر الأساس الذي لا تعصف به الحوادثُ، ولا تؤثر فيه المتغيرات، وتربية المجتمع بهذه الطريقة هو الحل لمعضلاتنا، والدواء لمشكلاتنا، وهو مصدر قوتنا وطريق عزنا، وهل عمارة القلوب إلا بمعرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته؟ وهل عمارة المجتمعات إلا بعمارة القلوب؟ وهل ينصرنا الله ﷻ إلا إذا عرَفناه وعبدناه وشكرناه؟

فإن معرفة الله ﷻ هي العلم به المتوصل إليه بتدبر وتفكر، فمعرفة العبد بربه ﷻ هي العلم الخاص الذي يتوصل إليه بتدبر وتفكر في أسمائه وصفاته وآياته ومخلوقاته فإن الخلق لا يحيطون بالله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠ ﴾ طه: ١١٠، فإن العبد يعرف ربه ﷻ ولا يعلمه ذلك؛ لأن العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً والله ﷻ يقول عن نفسه: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ الأنعام: ١٠٣، وقال رسول الله ﷺ: "والله إني أخشاكم وأتقاكم"[1]، فلما كان ﷺ أعلم بالله ﷻ كان لله ﷻ أتقى ومنه أخوف وله أرجى وإنما كان ﷺ بالله ﷻ أعرف لما أنزل الله ﷻ عليه من الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم وإلا فإنه ﷺ لم يرَ ربه ﷻ بعيني رأسه كما قال ﷺ: "رأيت نورا"[2]، وقال أيضاً: "واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا"[3]

[1] رواه البخاري (7/ 2)
[2] رواه مسلم (1/ 161).
[3] مسند أحمد (37/ 423)

إن معرفة الله ﷻ هي أساس الإيمان به والتصديق برسله عليهم السلام وما أرسلوا به وهي وسيلة التوحيد الذي هو حق الله ﷻ على العبيد وهي تورث السكينة والطمأنينة إلى الله ﷻ والرضا به رباً ومعبوداً، وتجلب محبة الله ﷻ والذل له وتعظيمه وخشيته والانقياد بالطاعة والذل في الحاجة وهي توجب طيب العيش وسعادة الأبد، فإن من عرف الله ﷻ في الرخاء عرفه الله ﷻ في الشدة فثبته عند البلاء والشكر عند الرخاء ولهج بذكر الله ﷻ والضراعة إليه في سائر الأناء فإنها ينبوع المحبة وأصل التقوى وجماع السعادة في الدنيا والآخرة.

إن معرفة الله ﷻ ومعرفة أسمائه الحُسنى وصفاته العظيمة باب شريف من العلم له الأثر البالغُ على من اعتنى به وفَهمه؛ يقول ﷺ: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، مَنْ أحصاها، دخل الجنة"[1]

فأيُّ لذَّة تقارب لذَّة معرفة الله ﷻ؟ وأي مَعرفة تعدل معرفة الله ﷻ؟

فهي حياة القلب، وأُنسه وسعادته، بل لا تحلو الحياة ولا تَصفو إلَّا بمعرفة الله ﷻ، وعلى قَدر المعرفة تكون السعادة؛ فاللذَّة التامَّة، والفرح والسرور، وطيب العيش والنعيم، إنما هو في مَعرفة الله ﷻ وتوحيده، والأنس به، والشوق إلى لقائه، واجتماع القلب والهم عليه.

فكم سعادة مَن عرف الله ﷻ رازقًا حافظًا، غنيًّا كريمًا، رحيمًا رقيبًا، سميعًا بصيرًا، قريبًا شكورًا ودودًا، يجيب دعوة المضطر، ويَكشف السوءَ، له الملك، يعلم السرَّ وأخفى، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق،

[1] رواه البخاري (3/ 198)، رواه مسلم (4/ 2063).

ويميت ويُحيي، ويقدر ويقضي، ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرَّك ذرَّة إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلَّا بعلمه!

وقد تعرَّف ﷻ لخلقه بأسمائه وصفاته، وآلائه ونعمه، وأفعاله وحكمه وقضائه، وأمره ونهيه؛ قال ﷻ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ٢٥٥﴾ البقرة: ٢٥٥

ومن ذا يصِف أو يشف عن حقيقة معرفة الله ﷻ؛ فمهما وصَف أو كشَف فلا مُنتهى لمعرفته، والقلوب فيها تجول وتَصول، وتختلف الأحوال من قلبٍ لقلب ومن وقت لوقت، وتفاوتُ الأحوال فيها لا يعرفه إلَّا مَن القلوب بيده.

قال ابن تيمية رضي الله عنه: "إنَّ في الدنيا جنَّة؛ مَن لم يدخلها، لا يَدخل جنَّةَ الآخرة"[1]

فيا باحثًا عن وصفة سَعادة لا مرارة فيها، وعن ساعة راحة لا ضَنك معها، وعن حياة هنيَّة لا ملَل منها؛ عليك بفَسيح جنَّة معرفة الله ﷻ، فابحث عن طريقها، واعقد العزمَ على السَّير فيها، وابذل لأجلها راحةَ بدنك ولبَّ شغلك، ولن تصِل إلى منتهاها فلا تستطل الطريق، لكنَّك ستذوق حلاوتَها من أول خطوة تخطوها.

معرفة الله ﷻ أبرَد من ثلج على حرِّ قلب في جوف صحراء في ظهيرة صيف، وأصفى من لبن في أنظَف كوب من أنقى زجاج لِغليل.

تعرَّف على الله ﷻ لتسعد بحياتك، وتعيش قريرَ العين مرتاحَ البال، مهما كان وضعك المادِّي أو مستواك المعيشي، فهي غنًى لمن كان فقيرًا، وعافية وأي عافية لمبتلى، وأُنس مهموم، وأمان خائف، ونور بصيرة.

---

[1] المستدرك على مجموع الفتاوي (1/ 153)

تعرَّف على الله ﷻ يَعرفك، تعرَّف عليه في السرَّاء يعرفك في الضرَّاء، تعرَّف عليه في الفرح يعرفك في الحزن، تعرَّف عليه في الرَّخاء يعرفك في الشدَّة، تعرَّف عليه شابًّا قويًّا يعرفك شيخًا ضعيفًا.

تعرَّف على الله ﷻ واعرف حقَّه عليك وواجبك نحوه، تعرَّف على الله ﷻ معرفةً تدلُّك عليه وتقرِّبك منه، فتزداد تعظيمًا وحبًّا، وطاعة وعبودية.

وحتى تبلغ منزلةَ المعرفة؛ عليك بمداومة النَّظر والتأمُّل في كلام الله ﷻ، فتتجلَّى لك صفاتُه المثلى وأسماؤه الحسنى، فتعرِّفك بربّك ﷻ تعريفًا لا تجده في غيره، يشفي عليك، ويَروي ظمأ غليلك، ويشبع نهمة فؤادك.

"ومن فوائد معرفة الله ﷻ أن معرفة الله ﷻ هي أساس الإيمان به والتصديق برسله وما أرسلوا به، ومعرفة الله ﷻ تورث السكينة والرضا وتبعد عن العبد السخط والغضب، والعارف بالله ﷻ من أطيب الناس عيشاً، والمعرفة بالله ﷻ تورث محبته ﷻ، ومعرفة الله ﷻ هي جماع السعادة في الدنيا والآخرة، ومن عرف الله ﷻ في الرخاء عرفه الله ﷻ في شدته وأنقذه منها، والمعرفة في قلب المؤمن سراج ينير طريقه أما معرفة المنافق التي يعقبها إنكار فإنها تجعل قلبه منكوساً، العارفون بالله ﷻ يوم القيامة يهديهم ربهم ﷻ بإيمانهم فيتبعونه عندما يأتيهم في صورته التي يعرفونها، والعارفون بالله ﷻ لهم أوفر حظ من نور اليقين وأصحاب اليقين هم الفائزون في الدنيا والآخرة، والمعرفة تورث الخوف من الله ﷻ وتؤدي إلى الخشية منه والبعد عن معاصيه، ومن ثمرات المعرفة الإقبال على الله ﷻ، وقلب العارف يزداد نوراً على نور"[1]

[1] نظرة النعيم (8/ 3456 - 3457)

اتقوا الله ﷻ واعرفوه ﷻ بتدبر معاني أسمائه وصفاته وآثارهما في أنفسكم وغيركم من مخلوقاته، اعرفوا ربكم ﷻ بآياته ومخلوقاته فإنها آثار لأسمائه وصفاته ودلائل قاطعة على تفرده ﷻ بأنواع كمالاته وتنزهه عن النقائص والعيوب ومماثلة مخلوقاته وأنه ﷻ غني بذاته عن جميع مخلوقاته وأن الخلائق كلها فقيرة مضطرة إليه صامدة لها معتمدة عليه في جميع حاجاتها عليه ومخلوقة له ومصيرها حتماً إليه ولا إله حق سواه له الأسماء الحسنى والصفات العلى والمثل العليا فلا تضربوا الأمثال لله ﷻ، فلا تعبدوا إلا إياه فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فلا خالق غيره ولا شريك له في أسمائه ولا مثل له في صفاته ولا ند له في إلهيته وعبادته

النصيحة السابعة والثلاثون

وأسلموا لله ﷻ

الإسلام هو المنهج الذي وضعه الله ﷻ للناس كي يستقيموا عليه، وتكون حياتهم مبنيةً عليه، والذي بيّنه رسوله ﷺ لهم، وإنّ للإسلام مجموعة من المبادئ والأُسس التي يجب على الإنسان حتى يكون مسلماً بحق الالتزام بها؛ ويُطلق على هذه المبادئ والأسس أركان الإسلام، وقد بيّنها رسول الله ﷺ في كثير من النّصوص والأحاديث الصّحيحة، وقد اتّفقت جميع المذاهب الإسلاميّة على هذه الأركان، فكلّ إنسان يؤمن بهذه الأركان يُعتبر مسلماً تامَّ الإسلام، ومن يكفر بأيّ ركنٍ من هذه الأركان فكأنما كفر بها جميعها.

الإسلام هو الخضوع لله ﷻ والانقياد التامّ لأوامره، والاستسلامُ لله ﷻ برغبةٍ اختياريّة للفردِ وليس قسراً، فجوهرُ الإسلام هو الخضوعُ الاختياريّ للمسلم وبناءً عليه يكون الثوابُ والعقاب، كما أنّ الإسلامَ منهجٌ ربانيّ كامل أنزله الله ﷻ على نبيه محمّد ﷺ وأمره بتبليغ هذا الدين الذي يحتوي على الأنظمة والقوانين الإلهيّة التي تقتضي مصلحةَ العباد في الحياة، فوضحَ الرسول ﷺ أحكامَ هذه العقيدة، وأخلاقَها، وآدابَها، وعباداتِها من خلال القرآن الكريم والسنّة النبويّة، وبناءً على اتّباع هذه الأحكام يكون الجزاءُ يومَ القيامة.

فالإسلام هو الإقرار بالتوحيد مع التصديق، والعمل بشريعة الله ﷻ، وقد عرّفهُ بعض علماء الإسلام بأنّه: "التعبّد لله ﷻ بالتزام شريعته التي أنزلها على رسله، منذ خلق الكون إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها، ويشمل ذلك الاستسلام لله

ﷻ ظاهراً وباطناً، فالإسلام عقيدةٌ، وعملٌ، وقولٌ، ومن الجدير بالذكر أنّ الأنبياء كلّهم، ومنهم: نوح، وموسى، وعيسى، وإبراهيم عليهم السلام، جاءوا بالدعوة إلى الإسلام، وقد دلّت على ذلك الكثير من آيات القرآن الكريم.

ويُعرّف الإسلام بالمعنى الخاص بأنّه: شريعة الله ﷻ التي أنزلها على نبيه محمّد ﷺ، ليختم بها رسالته، وينسخ بها الأديان السابقة، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران: ٨٥، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٩، فمن اتبع رسالة محمّد ﷺ يُسمّى مسلماً، ومن رفضها يسمى كافراً، لأنّه لم يستسلم لله ﷻ وإنّما اتبع هواه.

الإسلام تلك النعمة العظمى التي أنعم الله ﷻ بها علينا، دين يشمل حياة المسلم كلها، ويستغرق جميع جوانب الحياة، صغيرها وكبيرها، ومعنى الإسلام واسع وعميق، **يقول الغزالي**: "ليس الإسلام طلقة فارغة تحدث دوياً ولا تصيب هدفاً، إنه نور في الفكر، وكمال في النفس، ونظافة في الجسم، وصلاح في العمل، ونظام يرفض الفوضى، ونشاط يحارب الكسل، وحياة فوارة في كل ميدان"

الإسلام هو الدِّين الذي ارتضاه الله ﷻ لخَلقِه، فهو رسالة الأنبياء والمرسَلين، وهو نهج الأولياء والصالحِين.

الإسلام دين الفِطرة، قال ﷻ: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾ الروم: ٣٠، وقال ﷻ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ ﴾ الأعراف: ١٧٢، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة ﷺ: "واقرؤوا إن شِئتُم: ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ٣٠ ﴾ الروم: ٣٠"[1]، فالإسلام هو دِين الفِطرَة، الذي تَستَشعِر النفسُ في تعاليمه السَّعادة، والأمن والأمان، والسَّكينة والطُّمأنينة، والحَياة الطيّبة.

والإسلام دِين الله ﷻ ونِظامه الذي ارتَضاه لعباده، وأَوحى إلى أنبيائه بتبليغه للناس؛ قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ ﴾ آل عمران: ١٩، وقال ﷻ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ

[1] رواه البخاري (2/ 94)، رواه مسلم (4/ 2047).

﴿ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ الشورى: ١٣، وقال ﷻ: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ البقرة: ١٣٢، وقال ﷻ: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١٢، فالإسلام هو دين الله ﷻ الذي ارتضاه الله ﷻ لهذه البشرية، فالخير في اتِّباع تعاليمه، وتطبيق أحكامه؛ قال ﷻ: ﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ فصلت: ٣٣، فالإسلام هو الدين عند الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران: ٨٥

فالإسلام هو الاستسلام والإذعان لله ﷻ وحده فمن أسلم قلبه ووجهه لله ﷻ فهو المسلم، والإسلام هو الخضوع والقبول بما جاء به محمد ﷺ.

فالإسلام إذن منهج شامل متكامل يشمل جميع مناحي الحياة، فلا ينبغي أن نقصر الإسلام على جزء دون جزء، ولا ينبغي أن نأخذ من الإسلام ما يوافق هوانا ونترك منه ما يخالف هوانا.

الإسلام نظام شامل لجميع شؤون الحياة وسلوك الإنسان، فالمسلم لا يجوز له نهائيًّا أن يَسمح لغير الإسلام أن ينظِّم ولو جانبًا واحدًا من جوانب حياته؛ يقول الله ﷻ: ﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن

﴿يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾ البقرة: ٨٥ .

فالإسلام هو الاستسلام والانقياد والخضوع لله ﷻ، وأنّ المسلم يُسلّم أمره كُله لله ﷻ، والإسلام ديانة إبراهيمية سماوية إلهية وآخر الديانات السماوية، وهو دين الأنبياء جميعاً، قال ﷻ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ آل عمران: ٦٧، وأتم الله ﷻ هذه الرسالات السماويّة ببعثة النبي محمد ﷺ، بواسطة الوحي جبريل عليه السلام الذي كان يرسله الله ﷻ إلى النبي محمد ﷺ إلى حين وفاته.

المسلمون يؤمنون بأنّ عبادة الله ﷻ وعدم الشرك به فرض عليهم، مع تصديق الرسول محمد ﷺ، والإيمان بالقرآن الكريم وقراءته وتدبره واتباعه من الواجبات على كل من يؤمن بالدين الإسلاميّ، ويكون ذلك بعد نطق الشهادتين، ويُصبح المرء مُسلماً حقاً مع أداء الفروض الواجبة والمفروضة عليه.

الإسلام هو الدين الرئيس عند الله ﷻ، والإسلام هو الاستسلام والانقياد لله عز وجل، وهذا الاستسلام يكون بالتوحيد والطاعة والإخلاص كلَّ الإخلاص في هذه الطاعة، ولقد جاء رسول الله ﷺ بهذا الدين العظيم، ونشره بين الناس، وقاتل هو والصحابة رضي الله عنهم من أجل هذا الدين، حتَّى وصل إلى الناس وانتشر في الأمصار، وكان هذا الدين شاملًا لكلِّ جوانب الحياة التي قد يتعرَّض إليها الإنسان، فلم يترك بابًا إلَّا وطرقه، ولم يترْك حكمًا إلَّا وفصَّل به وشرَّع فيه، ، فالإسلام جاء إلى الناس

بالقرآن والسنة، فأحكامه في القرآن وتفصيله في السنة حتَّى يتبيَّن للناس، ولا يقعَ الناس في حيرة من أمور دينهم، وهذه رحمة الله سبحانه وتعالى لعباده أجمعين.

"ومن فوائد الإسلام أنه عصمة المال والدم والعرض، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده، وتحقيق العدالة الاجتماعية والرحمة والمساواة، والقضاء على النظم الوضعية والمناهج الإلحادية، وحفظ كرامة الإنسان وحقوقه ومكتسباته، ويورث هداية القلب، والفوز بالجنة والنجاة من النار، وحصول الألفة والمحبة والتآخي بين الناس، ومصدر العزة والسعادة في الدارين، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور فيعز الناس بالذل إلى الله سبحانه وتعالى فيحصلون على شرف العبودية له، ويحصل صاحبه ومتبعه على كمال الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة، والإسلام يحقق الأمان في المجتمع فيعيش كل فرد آمناً من أذى أخيه قولاً وفعلاً، والإسلام يحقق التكافل بين الناس فيأخذ غنيهم بيد فقيرهم وقويهم بيد ضعيفهم ويصبح الجميع إخوة متحابين، والإسلام يورث التواضع ويكسو المسلم ثوب العزة"[1]

فاتقوا الله سبحانه وتعالى وأسلموا له، واجعلوا شعاركم ديني الإسلام ولا أبتغي غير الإسلام ديناً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران: ٨٥

[1] نظرة النعيم (2/ 348).

النصيحة الثامنة والثلاثون

تفكروا في خلق الله ﷻ

التفكر عبادةٌ عظيمةٌ، وهي عبادة الأنبياء عليهم السلام، ودرب الأتقياء، نورٌ لمن تفكّر، وطريقٌ موصلةٌ للخالق ﷻ، من تبحّر فيها وجد الآيات الباهرات، وجميل المعجزات، وقدرة الله ﷻ والدقة المتناهية، ويعجز العقل عندها ويستسلم لمولاه ﷯ وينصاع، ويؤمن بتفرّده بالألوهية والربوبية.

الكون وما ذرأ الله ﷻ فيه من مخلوقاتٍ مصدرٌ من مصادر العلم والمعرفة، ينهل منه العبد فينتفع بما عرفه، سواءً في الجانب العلمي أو الجانب الإيماني، فهناك صلةٌ وثيقةٌ تربط الإنسان بالكون، وتجعله ينسجم معه، فالكون كتابٌ مفتوحٌ بين يديه يقرأ من خلاله، بل ويشاهد الإبداع الرباني وإتقانه، وكانت عبادة التفكر دأب النبي ﷺ حتى قبل بعثته ونبوته، حيث كان يخلو بنفسه في غار حراء بعيداً عن الضوضاء ليتفكر في هذا الكون العظيم، ومن استشعر عظمة هذه العبادة وعلِم أسرارها تفكر في كل صغيرة وكبيرة يبصرها، ورأى فيها العبر ونِعَم الله ﷻ، فلا شيء خُلِق في هذا الكون عبثاً، ويشير التفكر إلى إطلاق العقل، وإعماله؛ من أجل التأمل في آيات الله ﷻ في الشرع، والكون، وكل شيء، مع معرفة العظة، والعبرة من كل شيء حولنا، حيث يبعد الشخص عن الناس، ومشاغل الحياة، ويختلي بنفسه ويعتزل لبعض الوقت، ويترك حياة الترف التي يعيش فيها، ويقوم بالتدبر والتفكر.

فعبادة التفكر هي عبادة الأنبياء عليهم السلام ودرب الأتقياء ونور وبرهان للاهتداء فيها العبرات والعظات وبحر من الخيرات وفيها اليمن والبركات.

وقد ورد في التفكر فضل عظيم في الكتاب والسنة والآثار، قال ﷻ في سياق مدح المؤمنين: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١

واعتنى السلف بهذه العبادة الجليلة وكان لهم فيها أحوال، **قال أبو سليمان الداراني** رضي الله عنه: "إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة"[1]، **وقال الحسن البصري** رضي الله عنه: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة"[2]، **وقال أيضاً**: "الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك"[3]، **وقال سفيان بن عيينة** رضي الله عنه: "الفكرة نور يدخل قلبك"[4]

إن الله ﷻ تعبدنا بأنواع العبادات الظاهرة والباطنة والفعلية والقولية والبدنية والمالية والعامة والخاصة فشرع هذا التنويع ليتحقق كمال التأله لله ﷻ ويندفع السآمة عن المكلف ويتجدد الشوق والرغبة في العمل، والتفكر التي تتعلق بالقلب ولا يستعمل فيها اللسان وباقي الجوارح فهي عبادة صامتة.

والتفكر إعمال العقل في أسرار ومعاني الآيات الشرعية والكونية عن طريق التأمل والتدبر وملاحظة وجه الكمال والجمال ومشاهدة الدقة وحسن التنظيم والسنن الكونية والتماس الحكمة والعبرة من وراء ذلك.

ومن التفكر المحمود النظر والتأمل والتدبر في مقاصد الشارع في أحكامه وعلل التشريع والتماس الحكمة التي بنيت عليه الأوامر والنواهي الشرعية فإن هذا الباب

---

[1] تفسير ابن كثير (2/ 162).
[2] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (6/ 271).
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 109).
[4] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (7/ 306).

عظيم النفع ومن أعمل فكره فيه واستفرغ جهده وكان أهلاً تكون لديه ملكة فقهية وقدرة على الاستنباط وإعمال القياس الصالح في موضعه وزال عنه كثير من إشكالات العلم واعتراضات الجهال.

ومن أعظم ما يعين العبد على التفكر الخلوة عن الخلق واعتزالهم والبعد عن شواغل الدنيا وعلائق الترف ومجالس اللهو بحيث يكون القلب مستجمعاً للفكرة محلاً صالحاً للعبرة تؤثر فيه الحكمة.

ومع بيان فضل هذه العبادة وعظيم أثرها في زيادة الإيمان واليقين والتأله إلا أن كثيراً من الناس اليوم غافلاً عنها معرضاً عن العمل بها لشغله بالدنيا وقلة علمه وطول أمله ودخوله في الأماني الكاذبة، قال ﷻ: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ يونس: ٩٢، **قال السعدي**: "يخبر ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠، وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها"[1]، **وقال ابن كثير**: قال الحسن عن عامر بن عبد قيس قال : سمعتُ غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : "إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان: التفكر"[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة والقلب ساه"[3]، **وقال وهب بن منبه** ﷺ: "ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، ولا فهم امرؤ قط إلا علم، ولا علم امرؤ قط إلا عمل"[4]

---

[1] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 161)
[2] تفسير ابن كثير (2/ 163).
[3] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (1/ 361).
[4] تفسير ابن كثير (2/ 184).

التفكر عبادة يُثاب عليها العبد، **قال عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه: "الفكرة في نعم الله أفضل العبادة"[1]، **وقال السعدي**: "التفكر عبادة، من صفات أولياء الله العارفين"[2]

والتفكر من أفضل ما أنفقت فيه الأوقات، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "فأحسن ما أُنفقت فيه الأنفاسُ التفكر في آيات الله سبحانه وتعالى وعجائب صُنعه"[3]

وقال ابن الجوزي: "سرنا على طريق خبير فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري فصار يعرض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها فصحت بالنفس: ويحكِ اعبري إلى البحر وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر تشاهدي أهوالاً هي أعظم من هذه، ثم اخرجي إلى الكون، والتفتي إليه، فإنك ترينه بالإضافة إلى السماوات والأفلاك كذرة في فلاة، ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حول العرش، وتلمحي ما في الجنان والنيران، ثم اخرجي عن الكل، والتفتي إليه، فإنك تشاهدين العالم في قبضة القادر الذي لا تقف قدرته عند حد، ثم التفتي إليك، فتلمحي بدايتك ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية، وليس إلا العدم، وفيما بعد البلى، وليس إلا التراب"[4]

والمعرفة بعظمة الله عز وجل تجعله يجاهد نفسه في عدم عصيانه، **قال بشر بن الحارث الحافي** رضي الله عنه: "لو تفكر الناس في عظمة الله سبحانه وتعالى لما عصوه"[5]

والتفكر عبادة عظيمة قد غفل عنها الكثير وربما استهانوا بها، فالبعض يظن أن العبادة محصورة في أعمال الجوارح وجهِل أو تجاهل أنّ للقلب كذلك أعمال يُتعبّد

---

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 425).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي (1/ 161).
[3] مفتاح دار السعادة لابن القيم (1/ 214).
[4] صيد الخاطر لابن الجوزي ص169.
[5] تفسير ابن كثير (2/ 163)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (8/ 337).

بها، وقد يكون عمل قلبيّ أفضل من بعض أعمال الجوارح، قال أبو الدرداء ﷺ: "تفكر ساعة خير من قيام ليلة"[1]، **وقال لقمان الحكيم**: "إنّ طول الوحدة ألهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة"[2]

فإن التفكر من أعمال القلوب العظيمة وهو مفتاح الأنوار ومبدأ الإبصار وشبكة العلوم والمفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله ولكن جهلوا حقيقته وثمرته وقليل منهم الذي يتفكر ويتدبر وقد أمر الله ﷻ في التفكر والتدبر، وأثنى على المتفكرين فقال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩١

وقال عطاء ﷺ: "انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله ﷺ: "زر غبّاً ؛ تزدد حبّاً"، قال ابن عمير ﷺ: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله ﷺ، قال فبكت، وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي ثم قال: ذريني أتعبد لربي ﷻ فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى أتاه بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: "لقد أنزلت عليّ الليلة آيات ويلٌ لمن قرأها ولم يتدبر فيها، ﴿ إِنَّ

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (1/ 208)، شعب الإيمان للبيهقي (1/ 261).
[2] تفسير ابن كثير (2/ 162).

فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ

﴿١٩٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"[1]

التفكر في خلق الله ﷻ، فإن فيه من العجائب والغرائب الدالة على حكمة الله ﷻ وقدرته وجلاله شيء يهون الناظرين والمتفكرين والموجودات منقسمة إلى أشياء معروفة و غير معروفة، ومجال العلم التجريبي والدنيوي أن يكتشف الأشياء غير المعروفة وهي موجودة مما خلق الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ يس: ٣٦

إن من أعظم العبادات وأفضل الطاعات وأقرب القربات التفكر في خلق الله ﷻ؛ لأنه يزيد الإيمان ويرسخ اليقين ويجلب الخشية والتعظيم، **يقول الحسن البصري** رضي الله عنه: "إن من أفضل العمل الورع والتفكر"[2]

تفكر في نفسك، قال ﷻ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢١، تفكر في مبدئك خلقت من نطفة من ماء مهين من ماء دافق مستقذر لو مرت عليه ساعة من الزمن وتعرض للهواء الخارجي لفسد وتغير، ولو تأملنا القرآن الكريم لوجدنا أن الله ﷻ كرر ذكر النطفة والعلقة والمضغة في كثير من الآيات في كتابه وذلك ليدعونا إلى أن ننظر في مبدئنا ونتفكر في منشأنا ونتأمل في أنفسنا، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ

[1] صحيح ابن حبان (2/ 386).
[2] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (1/ 30).

مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ ﴿٥﴾ ﴾ الحج: ٥، بل إن الله ﷻ ذكر البنان وهو ما يسمى اليوم بالبصمة أو علم البصمات هذا العلم الذي أبهر المتخصصين وأدهش عقول الآخرين ذكره الله ﷻ في كتابه العظيم، فقال ﷻ: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ القيامة: ٣ - ٤

ولعبادة التفكر والاعتبار في الإسلام أهمية عظمى، وتظهر هذه الأهمية لمن أدرك أن وسيلة التفكر هي مناط التكليف، فلا تَفكُّر إلا بالعقل، ولا تكليف على مَن فقد عقله.

وهذه العبادة العظيمة تنعدم أو تقل كثيرًا حينما تغلب الماديات على حياة الناس؛ فينشغلون باللهو والترف، مع أن هذه العبادة تقرب إلى الله ﷻ وتظهر حقيقة الدنيا ومتعها وزخرفها.

عبادة التفكر من أعظم العبادات التي حُرِمها كثير من الناس بأسباب المعاصي والمحرمات، التي بها قست القلوب أن تلين لذكر الله ﷯؛ فصار من مظاهر ذلك التكاسلُ والتقاعسُ عن الطاعةِ والعبادة، والفرائض والواجبات.

إنَّ التفكُّر في خلْق الله ﷻ وما أودَعه الله ﷻ في الكون الواسع من بديع الصُّنع والإحسان، وجمالِ الخلق والإتقان، ومن صِفات المتَّقين الذَّاكرين، الذين استنارت

قلوبهم بنور القرآن المبين، وانشرحَت صدورهم بمعاني الحقِّ والإيمان واليقين، وقد أكثر الله ﷻ من لفْتِ الأنظار، وتوجيهِ الأبصار إلى قضيَّة التفكُّر والاعتبار؛ لما له من الأثر البليغ في زيادة الإيمان، وقوَّةِ اليقين وبلوغِ درجة الإحسان، فقال ﷻ:

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

آل عمران: ١٩١

إن التفكُّر وإعمال العقل في كثير من الأمور والمسائل، كثيرًا ما يكون داعيًا إلى حسن الفِعال، وحسن المآل، والنجاة من الشرور والفتن، وحِفظ الدِّين والنفس عن مواطن الهلاك والغي؛ لأن الشرع دعانا إليه في كثير من النصوص القرآنية والنبوية؛ لأن فيه حياةً للقلب والنفس، بإحياء المعاني الإيمانية والشرعية؛ فهو عبادة نافعة جامعة، وإذا بلغ التفكُّر بالقلب والنفس مبلغًا فإن له أثرًا بيِّنًا في إيقاظ القلب وهدايته؛ لأن التفكُّر لا يقف عند نوع بعينه، بل يتعدَّد ويختلف؛ **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "والنظر إلى المخلوقات العُلوية والسُّفلية على وجه التفكُّر والاعتبار، مأمورٌ به مندوب إليه"[1]، وفي قوله ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴿١٤٦﴾ ﴾ الأعراف: ١٤٦، **قال الحسن البصري** رضي الله عنه معناه: "أمنع قلوبهم التفكر في أمري"[2]

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (15/ 343).
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 424).

بكى **عمر بن عبد العزيز** ﵁ يومًا بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال: "فكَّرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرةٌ لمن اعتبر إن فيها مواعظ لمن ادَّكر"[1]

التفكُّر سياحة نورانية ورياضة إيمانية؛ ينطلق فيها القلب في وعي، والعقل في يقظة معًا بعيدًا في ساحات الإيمان بلا قيد من جواذب الأرض وقيود الشهوات؛ ليجتمعا على التقاط الحكمة والمعرفة وتحقيق معاني الإيمان والترقي في درجات العبودية.

والتفكُّر فرصة عظيمة لاكتشاف مساحة بعيدة شديدة العمق في النفس الإنسانية يصعب الوصول إليها في غير تلك الأجواء النفسية الصافية التي تمتزج فيها أنوار التدبر مع صفاء النفس حتى تصل إلى حقائق العبودية بما فيها من ضَعْف وعَجْز وذلة وعَوَز، ومشاهدة كمالات الربوبية بما فيها من كمال وجمال وجلال.

ويكفي في شرف التفكُّر، وعظيم قَدْره، ومسيس حاجة المؤمنين عامة والدعاة الربانيين له خاصة؛ أن أصول أعمالهم ورأس مالهم الذي عليه تُبنى ربانيتهم من تلاوة، وقيام، وعِلْم، وذِكْر، لا تكمل ولا تثمر بدون نوع تفكُّر يسري فيها كسريان الروح في الجسد؛ فيستجلي به العبد من التلاوة مقاصد الرب ﷻ من كلامه، ويفجر به معاني العبودية في قيامه، ويستعين به على تحقيق مقصد العلم من العمل، **يقول ابن القيم** ﵁ حين يصف التفكُّر وعظيم شرفه: "تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة؛ فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى

[1] تفسير ابن كثير (2/ 163).

المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة"[1]

التفكُّر في عَظَمَة الله ﷻ وواسع قدرته وعظيم بطشه وشديد انتقامه يُورِث القلب خوفًا مزعجًا وخشية تحول بينه وبين شهوات نفسه وأهوائها؛ فالأثر النوراني لهذا التفكُّر يعرقل عمل الشهوات في القلب ويدفع أهواءها على حسب قوة الوارد من أنوار التفكُّر؛ فتُسْلَب الشهوة من عاجل لذتها فما يتبقى منها إلا سوء عاقبتها.

التفكُّر يكشف للقلب ما حُجب عنه بسبب الذنوب من معاني الإيمان، ويجلب كلُّ نوع من أنواع التفكُّر للقلب مشهدًا من مشاهد الإيمان وحقيقة من حقائقه؛ فتظل معاني الإيمان وحقائقه من يقين وخشية وحب ورجاء وتوكُّل وإنابة تلوح للقلب في جَوْلات التفكُّر، وكلما كان التفكُّر في حضرة من القلب وحضور من العقل كانت حقائق الإيمان أكثر وضوحًا وأشد تأثيرًا.

حينما تستمر جَولات التفكُّر وتتنوع دوائرها؛ فإن ذلك يُورِث القلب رقةً وإخباتًا لما ينطبع فيه من مشاهد العَظَمَة والقدرة والقهر التي تطرد دواعي الكبر والعُجْب وتستنبت بذور الذل والتواضع، ومن مشاهد العفو والرحمة والإحسان والجود ما يستمطر أسباب الحياء والشكر؛ فيندفع مع كل مشهد من مشاهد التفكُّر وكل جَوْلة من جَولاته باعث من بواعث الشر ويستجلب باعثًا من بواعث الخير، ولا يزال القلب في ميدان التفكُّر يدافع الشر ويستجلب الخير حتى يبلغ من الرقة ما يكون معه على حال كريمة قريبًا من الله ﷻ قريبًا من رحمته.

---
[1] مفتاح دار السعادة لابن القيم (1/ 183).

والتفكُّر وإن كانت حاجة الجميع إليه ملحَّة إلا أن الدعاة هم من أكثر أصناف الخلق حاجة إليه؛ لما يُمثِّله التفكُّر في حياة الدعاة من مَعِين روحي وعقلي يمدهم بكثير من مقومات بنائهم الذاتي ونجاحهم الدعوي.

إن لحظات التفكُّر الصافية التي يجتمع على القلب فيها من معاني الإيمان وحقائقه ومقامات العبودية، تمد الداعية بجزء كبير من زاده الروحي الذي يؤهل الداعية لاستحقاق مدد الله ﷻ من العون والنصرة.

والتفكُّر يوفر للداعية من اليقين وحُسْن الفهم عن الله ﷻ ما ينسكب على أخلاقياته صبرًا جميلاً مع المدعوين وحُسْنًا في الخُلُق يثبِّت المودة في قلوبهم، وما يبدو منه من هدوء نَفْس وجميل سَمْت أسبغته عليه جلسات التفكُّر يفتح قلوب المدعوين على مصراعيها لدعوته ويُلْزِمهم طِيب المعشر.

فالتفكُّر مرآة تعكس بنور البصيرة خبايا النفوس وعيوبها؛ وفي جلسات التفكُّر الصافية البعيدة عن تزيين الشيطان وحظوظ النفس يصل الداعية لمساحات واسعة يصعب الوصول إليه في منظومته النفسية ونفوس من حوله من تلامذته ومحبيه بما اختبأ فيها من طبائع وأخلاقيات ومواطن ضعف ومكامن قوة؛ حتى إذا قام ليضع خطة نهوضه وخريطة سيره؛ فعن بينة يسير وعن بصيرة ينطلق.

التفكر أصل الخير، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "أصل الخير والشر من قبل التفكر؛ فإن مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض، وأنفع الفكر الفكر في مصالح المعاد وفي طرق اجتلابها وفي دفع مفاسد المعاد وفي طرق اجتنابها، ورأس هذا القسم الفكر في آلاء الله ﷻ ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه وصفاته من كتابه

وسنة نبيه ﷺ وما والاهما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخستها وفنائها أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قصر الأمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجد والاجتهاد وبذل الوسع في اغتنام الوقت, وهذه تعلي همته وتحييها بعد موتها وسفولها وتجعله في واد والناس في واد, وبإزاء هذه الأفكار الرديئة التي تجول في قلوب أكثر الخلق كالفكر فيما لم يكلف الفكر فيه، ولا أعطي الإحاطة به من فضول العلم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرب سبحانه وتعالى مما لا سبيل للعقول إلى إدراكه"[1]

التفكر كسبب من أسباب زيادة الإيمان **يقول ابن القيم** رضي الله عنه: "أنفع الدواء أن تشغل قلبك بالفكر فيما يعنيك دون ما لا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك؛ فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي لا تبتعد ولا تقترب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك إلا بها، وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئا خسيساً لم يكن في سائر أمره إلا كذلك"[2]

تفكروا في مخلوقات الله سبحانه وتعالى التي خلقها الله سبحانه وتعالى دلالة على ذاته وعلى كمال صفاته وعظيم آياته فإن التفكر فيه عبرة لمن اعتبر، يقول النبي ﷺ: "تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله"[3]

[1] الفوائد لابن القيم ص 198.
[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ص 86.
[3] صحيح الجامع الصغير (3/ 49).

"ومن فوائد التفكر أنه طريق موصل إلى رضوان الله ﷻ ومحبته، وانشراح للصدر وسكينة للقلب، والتفكر يورث الخوف والخشية من الله ﷻ، والتفكر يورث الحكمة ويحيي القلوب، وكثرة الاعتبار والاتعاظ من سير السابقين، والتفكر قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد ونهضة الأمم"[1]

مهما تكن من مشاغل وعوائق تمنع القلب من الإقبال على التفكُّر بهمة، وتعيق النفس عن الاجتماع عليه بنشاط؛ فإن فوائد التفكُّر وعظيم حاجة النفس البشرية إليه، تدفع دفعًا لمصارعة الواقع بمشاكله ومدافعة ضغوطاته؛ لابتكار حلول لتجاوُز تلك التحديات، والأخذ ولو بنصيبٍ قليل من عبادة التفكُّر التي قد يؤدي فواتها إلى إحداث شَرْخٍ واسعٍ في حقيقة العبودية

[1] نظرة النعيم (4/ 1078).

النصيحة التاسعة والثلاثون
تفاءلوا بالخير تجدوه

التفاؤل هو النور الذي يضيء لنا طريقنا في الظلماء، ويساعدنا بأن نعيش حياة ملؤها المحبة، ويجعلنا نحقق أحلامنا وآمالنا، وأن ننظر للحياة بعيون عاشقة وحالمة بما هو أفضل بحياة كريمة هانئة كلها أنوار ورضا بقضاء الله ﷻ وقدره، بعيدة كل البعد عن اليأس والتشاؤم.

التفاؤل هو الأمل والفرح المستقبلي والنظرة الإيجابية لكل شيء، هو قدرتنا على تحمّل مصاعب اليوم أملاً منا بغدً أفضل، هو وجهة النظر في الحياة والتي تبقي الشخص ينظر إلى العالم كم كان إيجابي، أو تبقي حالته الشخصية إيجابية، والتفاؤل هو النظير الفلسفي للتشاؤم.

المتفائلون عموماً يعتقدون بأن الناس والأحداث جيدة أصلاً، وأكثر الحالات تسير في النهاية نحو الأفضل وهو عبارة عن ميل أو نزوع نحو النظر إلى الجانب الأفضل للأحداث أو الأحوال، وتوقع أفضل النتائج.

التفاؤل هو شعور داخلي وهو النظر إلى الجانب الأفضل لما يدور حولنا من أحداث وأحوال ونتمنى أفضل النتائج، والتفاؤل يبقي الشخص إيجابياً وصاحب فلسفة جميلة في الحياة، والتفاؤل عكس التشاؤم، والشخص المتفائل دائماً ما يكون بحالة من الراحة والطمأنينة، ولا يعتقد أن نهاية الأشياء هي نهاية العالم، فليس الكون هو ما ترى عيناك لكن الكون الخاص بك هو ما تصنعه أنت بيديك وبعقلك لتنجز

وتحقق ما تتمناه، وسلاحك الأول هنا التفاؤل ومحاربة أعداء الأمل بابتسامة، وقوة وبها تحقق نجاحك وأملك في الحياة.

التفاؤل يُشعل في القلب فتيلَ الحياة ويجعل لها معنى، فالأملُ هو جزء من التفاؤل وتابع له، لأنّ الأمل يأتي كنتيجة طبيعية للتفاؤل، وحين يتفاءل الشخص يشعر بأنّه يأمل في فِعل الكثير من الأشياء، ويرى في الحياة ألوانها الورديّة التي تُعيد له الشغف والإقبال على العمل والطموح وتحقيق الأهداف، كما أنّ التفاؤل يُساند الإنسان في حياته، وينتشل من الأحزان، ويُساعد في بذل جهده لتحقيق غاياته، يستطيع الإنسان أن يحيا بالأمل والتفاؤل، وأن يجعل لحياتِهِ معنى فيهما، بشرط أن يكون أمله مبنيًّا على أسسٍ سليمة، وأن يكون تفاؤله نابعًا من إيمانٍ مطلق بأنّ كل شيء بأمر الله ﷻ، وأنّ الحياة لا بدّ أنّ يكون لها جانبها المشرق الذي لا يزول، حتّى وإن غرقت أحيانًا في الظلام الدامس، وعلى الإنسانِ أن يُفتش عن بصيص الأمل والتفاؤل في كلّ تفاصيل حياته، وأن يصنعَ لنفسِه كيانًا يكون بمثابة منارة للتفاؤل والأمل، وأن يتجنّب الأشخاص السلبيّين الذي يسرقون طاقة الأمل والتفاؤل ويزرعون النفس بالسلبية، لأنّ هؤلاء أعداء الحياة، ولا يُحبون أن يرَوْا غيرهم يتنعمون بالأمل أو التفاؤل، لأنّهم يعلمون جيدًا ماذا يعني أن يكون الإنسان صاحب رؤية مليئة بالأمل ومزينة بالتفاؤل.

الأمل والتفاؤل منهجٌ رباني ونبوي، إذ أنّ الله ﷻ أمر عباده بأن يظنوا الخير دائمًا ويتأملون فيه، وأمرهم أن يكونوا متفائلين؛ لأنّ هذا من علامات التوكل على الله ﷻ ، على عكس التشاؤم واليأس الذي يُشير إلى عدم اليقين وعدم حسن الظن بالله ﷻ، كما أنّ التفاؤل هو المدخل إلى الفرح والسعادة، لأنّه يُشعر صاحبه أن

السعادة قادمة بإذن الله ﷻ، وأن في كلّ شيء جانبٌ مضيء يجب البحث عنه، وأن مع العسر لا بدّ وأن يأتي اليسر، فالأمل والتفاؤل مثل شجرتين مثمرتين لا تمنحان إلا طيّب الثمر.

يستطيع الإنسان أن يكون صاحب أمل وتفاؤل بأن يتجنّب السوداوية في التفكير، وأن يبحث عن أسباب السعادة ويُفتش عن الحل بدلًا من التفكير في المشكلة، وعليه أن يسعى بكلّ ما فيه لتحقيق أهدافه والعمل عليها بالجدّ والاجتهاد، لأنّ النجاح وتحقيق الأهداف يغذي الأمل ويزيد من التفاؤل ويحافظ على فتيلهما مشتعلًا، لهذا على كلّ شخص أن يكون وفيًا في حق نفسه، وأن يمنحها جرعة من حب الحياة والأمل وجرعة من التفاؤل والسعادة في كلّ صباح، وأن يُقنع نفسه بأن القادم دائمًا سيكون الأجمل.

يُعتبر التفاؤل مشكاة النور التي تقود المسلم نحو طريق النجاح والفلاح بين ظلمة وعتمة ما قد يعتريه من عقبات وهموم، فالتفاؤل هو الذي يمنح المسلم الطاقة الإيجابية لتجاوز مشكلاته وتحقيق النجاح للوصول إلى أهدافه، إذ يجعله ينظر للعام بنظرة إيجابية بعيداً عن التفكير السلبي في نظرته للحياة.

التفاؤل هو سر مكنون وكنز مدفون بين ضلوع الناجحين، فلن تجد متشائماً ناجحاً، ولا متطيراً يتقدم نحو أهدافه، بل إنك لو نظرت إلى معظم الناجحين وأبرز الموهوبين لوجدت أنهم واجهوا صعوبات في الحياة ولكنهم تجاوزوها عن طريق الفأل الصالح والتفاؤل بما هو قادم فقدموا وتقدموا على بصيرة وأمل بأن الله ﷻ سيغير الأحوال، فمن قلب المحنة تولد عزائم العمل إذا كان التفاؤل موجوداً.

بالتفاؤل يحييا المسلم حياة كريمة ذات معنى بشرط أن تبنى على أسس سليمة ويكون التفاؤل نابع من الإيمان المطلق بأن الله ﷻ قادر على كل شيء، وأن الحياة لابد وأن يكون لها الجانب المشرق الذي يزول، فإن غرق الإنسان المسلم أحياناً بالظلام الدامس، يضع في نفسه دوماً بصيص الأمل والتفاؤل في جميع تفاصيل الحياة، ويصنع لنفسه كيان يعد منارة للتفاؤل والأمل، وتجنب الأشخاص السلبيين الذين يسرقون الطاقة الكامنة في النفس ويزرعون بالنفس السلبية فهم أعداء للحياة ولا يحبون رؤية غيرهم متفائلين، لأنهم يعلمون جيداً ماذا يعني أن يكون الإنسان المسلم صاحب رؤية مليئة بالتفاؤل.

والتفاؤل يوحد قوة الروح وقوة الجسد، ومن استقرار الروح تزدهر الصحة النفسية التي ترتبط غاية الارتباط بقدرة الشخصية على التوافق مع نفسها ومجتمعها الذي تعيش فيه، وهذا يؤدي إلى التمتع بحياة هادئة سوية، مليئة بالحماس، وخالية من الأسى والاضطراب والتشاؤم.

التفاؤل يعني أن يرضى المرء عن نفسه، وأن يتقبل ذاته، كما يتقبل الآخرين، وتغيب عن سلوكياته اضطرابات التوافق الاجتماعي أو السلوكيات الشاذة، بل يسلك في تصرفاته السلوك المعقول المتسم بالاتزان والمتصف بالإيجابية والقدرة على مواجهة المواقف ومجابهة المشاكل التي تقابله في مختلف نواحي حياته.

التّفاؤل يعني انشراح القلب وتوقّع الخير، وفوائده لا تحصى، فهو يقوي العزم، ويبعث على الجدّ، ويُعِين على إدراك الهدف؛ وهو يجلب الطّمأنينة وسكون النّفس، وفيه اقتداء بالنبي ﷺ ، قال ﷺ: "سدّدوا وقاربوا، وأبشروا"[1]

[1] رواه البخاري (8/ 98)، رواه مسلم (4/ 2171).

والتفاؤل يُمكِّن المسلم مِنْ إدارة أزمته بثقة وهدوء فيحصل الفرج بعد الشّدّة، كما أنَّه يقوى الروابط بين الناس، فالمتفائل يحبّ من يبشّره ويستأنس به، وفيه إحسان الظّنّ بالله ﷻ، وحُسْن الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ العبادة.

ما أجمل التفاؤل في زمن الشدائد، فهو يحيي الآمال في جوف الآلام، ويسكب طعم لذة الفرج بعد ظمأ التعب والأرق، ويعيد الحياة المشرقة والابتسامة الناصعة.

التفاؤل سنة نبوية، وصفة إيجابية للنفس السوية، يترك أثره على تصرفات المسلم ومواقفه، ويمنحه سلامة نفس وهمة عالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الهمة والعمل، والتفاؤل ما هو إلا تعبير صادق عن الرؤية الطيبة والإيجابية للحياة، وهو نور في الظلمات، ومخرج من الأزمات والكربات، وهو سلوك نفسي حث عليه النبي ﷺ بقوله وفعله، وهو مقرون بالإيمان بالله ﷻ، ومعرفته بأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ لأن المؤمن يستشعر معية الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ التوبة: ٤٠، كما يعرف ربه ﷻ بأسمائه الحسنى وأنه أرحم الراحمين، قال ﷻ: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يوسف: ٦٤، لطيف بالعباد، قال ﷻ: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ الشورى: ١٩، وسعت رحمته كل شيء، قال ﷻ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ الأعراف: ١٥٦، وغيرها من صفات الله ﷻ الحسنى التي تجعل المؤمن في تطلع للأمل، وتوقع للخير، وانتظار دائم للفرج، وهذه كلها تصب في معنى التفاؤل الذي أمر به وحث عليه رسول الله ﷺ بقوله وفعله، وربَّى عليه

أصحابه ﷺ، ولم يكتفِ النبي ﷺ بتحقق هذه السمة لديه في شخصه، بل كان يربي أصحابه ﷺ عليها ويعلمهم إياها، ففي أشد المواقف وأصعبها كان ﷺ يغرس في نفوس أصحابه ﷺ الضعفاء والمضطهدين التفاؤل والأمل، وعدم اليأس، واليقين بموعود الله ﷻ ونصره لعباده المؤمنين، فعن عدي بن حاتم ﷺ قال: "بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل، فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي! هل رأيت الحيرة؟، قلتُ: لم أرها، وقد أنبئت عنها، فقال: إن طالت بك حياة لترين الظعينة –المرأة– ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله، قلتُ في نفسي: فأين دعّار طيئ –قطاع الطريق– الذين سعروا في البلاد؟!، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلتُ: كسرى بن هرمز؟! قال: كسرى بن هرمز!!، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه"، قال عدي ﷺ: "فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه"[1]، وعن خَباب بْنِ الأَرَتِّ ﷺ قال: "شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟، قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه،

---

[1] رواه البخاري (4/ 197).

ولكنكم تستعجلون"[1]، **قال ابن حجر**: "يحتمل أن يريد صنعاء اليمن، وبينها وبين حضرموت من اليمن أيضاً مسافة بعيدة نحو خمسة أيام، ويحتمل أن يريد صنعاء الشام والمسافة بينهما أبعد بكثير"[2]

التفاؤل من القيم العظيمة التي ينبغي أن يحافظ عليها المسلم؛ لأنه يعطيه دافعاً للعمل والتقدم خطوات إلى الأمام في سيره نحو هدفه الذي ينشده، فالمتفائل عنده أمل في المستقبل أن تكون حاله فيه خيراً من يومه، بأن يعوض فيه ما فاته، أو يتجاوز فيه العقبات والمحن، أو يحقق من المصالح والمنافع ما ليس في حوزته اليوم؛ أما المتشائم فهو يرى المستقبل مظلماً حالك السواد، لا يجد فيه نقطة ضوء واحدة ولا بصيص أمل، فإن كان يعاني من المصاعب والمتاعب لم يجد سبيلاً للخروج منها، أو كان يريد أن يحقق شيئاً من المنافع والمصالح لم يجد سبيلاً للوصول إليها، فيدفعه هذا للقعود عن العمل والحركة، إذ ما الفائدة منهما والأمل معدوم!

ومن أول خطوات النجاح التفاؤل، وأجمل ما قيل فيه قولُ النبي ﷺ: "لا طيرة، وخيرها الفأل"، قال: وما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم"[3]

إذًا التفاؤل هو الخطوة الأولى من خطوات النجاح؛ حيث يبعث في القلب الأملَ، ويزرع في النفس الثقةَ، ويشدُّ حبال العزيمة، فتزداد نفسُه طمأنينةً وراحة؛ مما يزيد حيويَّتها ونشاطها، فتندفع لبذل أكبرِ طاقةٍ لديها، وكان رسولُ الله ﷺ دائمًا يحبُّ التفاؤلَ، ومِن ذلك تفاؤله في الأسماء، "جاء حسيل بن خارجة وعبد الله بن نعيم الأشجعي فقال رسول الله ﷺ لحسيل: يا حسيل امض أمامنا حتى تأخذ بنا صدور

[1] رواه البخاري (4/ 201).
[2] فتح الباري لابن حجر (6/ 619).
[3] رواه البخاري (7/ 135)، رواه مسلم (4/ 1745).

الأودية حتى تأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان، فقال حسيل: أنا أسلك بك، فانتهى به إلى موضع له طرق، فقال: يا رسول الله إن لها طرقاً تؤتى منها كلها، فقال رسول الله ﷺ: "سمّها لي"، وكان رسول الله ﷺ يحبّ الفأل الحسن والاسم الحسن، ويكره الطّيرة، والاسم القبيح، فقال: لها طريق يقال لها حزن، وطريق يقال لها: شاش، وطريق يقال لها حاطب، فقال رسول الله ﷺ: "لا تسلكها"، قال: لم يبقَ إلا طريق واحد يقال له: مرحب، فقال رسول الله ﷺ: "أسلكها"[1]

إن التفاؤل دواء بلا أعراض، وشفاء لكثير من الأمراض، لا تصلح الحياة إلا به، ولا يستريح المسلم إلا بسلوك طريقه، ولا طريق أقرب للفرج من طريقه.

التفاؤل يجعل من الحياة رحبةً فيْحاء، وروضةً غنّاء، ويزرع في القلوب البهجة، وعلى الشفاه البسمة، وعلى الوجوه النضرةَ والإشراق.

التفاؤل ثقةٌ بالله عز وجل ورضاء بقضائه وقَدَره، يولِّد همَّة عالية وعزيمة ونشاطًا مُتجددًا، المسلم المتفائل متوكِّلٌ على الله سبحانه وتعالى، يعلم أنَّ كلّ شدّة فرجُها آتٍ، يتوقّع الخيْرَ، يبتسم للحياة، ويحسن الظنَّ بالله سبحانه وتعالى الذي بيده مقادير الأمورِ، ويعلم أنَّ الرحيم سيجعلُ بعْدَ العُسْر يُسْرًا، وبعد الضيق فرجًا، وبعد الحُزْن سرورًا، وأنى لِمَن يرجو رحمةَ الله سبحانه وتعالى، ويتعلّق بحبْلِ الله عز وجل المتين أن يُحبَطَ أو يستسلم للشدائد والْمِحَن؟!
قال رسولُ الله ﷺ: "إنّ حُسنَ الظنِّ بالله من حُسْن عبادة الله"[2]

[1] سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (5/ 117 – 118).
[2] سنن الترمذي (5/ 583).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التفاؤل هذه الصفة النبيلة والخُلق الحميد، الذي كان نبينا ﷺ يتمثَّله أمام أصحابه ﷺ واقعًا معاشًا، ولذا كان ﷺ يحضُر معه التفاؤل في أموره وأحواله كلها، في حِلِّه وترحاله، في حربه وسِلمه، في جوعه وعطشه، ولذلك نجد أنَّ النبي ﷺ يحضُر عنده هذا الخُلق في أشدِّ الأحوال وأصعب الظروف، فإذا به يُبشِّر أصحابه ﷺ بالخير الذي أمامهم، وهذا كله منطلق من حسْن الظنِّ بربنا ﷻ

فَعِشْ حياتَك سعيدًا، وحوِّل الحزنَ إلى فرحٍ بأملٍ قادم، واجعل من الضيق دروسًا وعِبَرًا، ومن الغُربة خلوةً وذكرًا، ومِن الآلام صبرًا، ومن المصيبة شكرًا، وبدل أنْ تنتظِرَ متى يزول الظلام أَوْقِد شمعةً واستمتع بليلك، وبشِّر الناسَ بالخير وابتسم لهم خير لك.

"ومن فوائد التفاؤل أنه حسن الظن بالله ﷻ، ويجلب السعادة إلى النفس والقلب، وترويح للمؤمن وسرور له، في الفأل تقوية للعزائم ومعونة على الظفر وباعث على الجد، في التفاؤل اقتداء بالسنة المطهرة وأخذ بالأسوة الحسنة حيث كان النبي ﷺ يتفاءل في حروبه وغزواته"[1]

وإذا أراد المسلم أن يحيا بسعادة، ويتغلب على مصاعبه في الحياة، ويحين التخطيط لأهدافه عليه أن يملأ قلبه اطمئناناً بأن القادم أفضل ويتحلى بما هو إيجابي ويبعث الأمل وما هو إلا التفاؤل.

فلنتفاءل جميعاً ولنتذكر أن في التفاؤل حسن ظن بالله ﷻ وترويح لأنفسنا وجلب للسعادة وتقوية للعزيمة، وقبل كل ذلك وبعده هو اقتداء برسول الله ﷺ

[1] نظرة النعيم (3/ 1049).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النصيحة الأربعون
ابكِ من خشية الله ﷻ

البكاء من خشية الله ﷻ عبادة يحبها الله ﷻ، ويرغّب فيها، ويعطي عليها الأجر العظيم؛ لأن بها تتحقق العبودية الكاملة له ﷻ، ويتحقق الخشوع والخضوع والانكسار والتذلل بين يديه، والتوبة والإنابة إليه، كما أنها ترقق القلب وتزيد الإيمان، وترقي العبد إلى أعلى مقامات الولاية والقرب من الله ﷻ.

ولقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في الحديث عن البكاء، فمرة يستنكر على المشركين اشتغالهم بالعجب والضحك، بدل البكاء، فيقول ﷻ: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ النجم: ٥٩ – ٦١، وتارة يبين حال الصالحين ويثني عليهم قائلاً ﷻ: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ مريم: ٥٨، وقال ﷻ: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٩، فالبكاء من خشية الله ﷻ دليل الإيمان واستشعار حلاوته، ولذلك فإن الله ﷻ أنكر على من استمع آياته وهو يضحك ولا يبكي، قال ﷻ: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ النجم: ٥٩ - ٦٠، قال ابن كثير: "ثم قال ﷻ منكراً على المشركين في استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ النجم: ٥٩، من أن يكون صحيحاً، ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ منه استهزاءً وسخرية ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾

أي كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٩"[1]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم"[2]، فهذا دليل على أن البكاء من خشية الله سبحانه وتعالى عبادة، وهو من أسباب الفوز بالجنة والنجاة من النار، لحظة واحدة تذرف فيها عبرة صادقة، يمكن أن تكون فكاكك من النار، فأين هذه اللحظة وأين تلك العبرة؟ وقد قال النبي ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قال: "ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه"[3]، والنبي ﷺ كان يحث أصحابه رضي الله عنهم على البكاء، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء، فخطب فقال: "عرضت علي الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً." قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشد منه، قال: فغطوا رؤوسهم ولهم خنين"[4]

وبكى النبي ﷺ، وسالت دموعه، وهو الذي غفر الله عز وجل له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحاشا رسول الله ﷺ أن تكون منه معصية لله عز وجل، فهو المعصوم المنتقى المختار المنزه عن فعل المعاصي والمنكرات، قال عبد الله بن الشخير رضي الله عنه: "أتيت النبي ﷺ وهو يُصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء"[5]، هذا هو بكاء الخشية الشرعي، ليس هو الصراخ والعويل، وإقامة المآتم والنواح، وضرب الصدور وشق

[1] تفسير ابن كثير (7/ 434).
[2] مسند أحمد (16/ 330)، سنن الترمذي (4/ 171)، سنن النسائي (6/ 12).
[3] رواه البخاري (1/ 133)، رواه مسلم (2/ 715)
[4] رواه البخاري (6/ 54)، رواه مسلم (4/ 1832).
[5] صحيح ابن حبان (3/ 30)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 396).

الجيوب، ومشابهة أهل الجاهلية، فكل هذا جهل وضلال وبدع ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان، وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اقرأ علي القرآن"، قلت: "يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟"، قال: إني أحب أن أسمعه من غيري، قال بن مسعود رضي الله عنه: "فقرأت النساء، حتى إذا بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ النساء: ٤١، قال: فرفعت رأسي فإذا عيناه تذرفان"[1]، فلم يُحدث النبي ﷺ صوتاً في بكائه، ولم يعلم به ابن مسعود رضي الله عنه إلا أنه رفع رأسه، وفي بعض الألفاظ أن رجلاً غمزه فرفع رأسه، فرأى دموع النبي ﷺ تسيل، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "وأما بكاؤه ﷺ، فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمع عيناه حتى تهمُلا، ويسمع لصدره أزيز، وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقه عليها، وتارة من خشية الله ﷻ، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية. ولما مات ابنه ابراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: "تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزنون"[2]

البكاء من خشية الله ﷻ هدية من الله عز وجل لرقيقي القلوب، حيث لا تغدو الدمعات متعبة بقدر ما تكون منعشة لروح الخاشعين والخاشعات.

---

[1] رواه البخاري (6/ 196)، رواه مسلم (1/ 551).
[2] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (1/ 176).

شبكة الألوكة

البكاء من خشية الله ﷻ هو تمظهر الخشوع وقد تجسد، فالخشوع هو تجلي عظمة الرب ﷻ في القلب، والبكاء من خشية الله ﷻ هو رهبة ممزوجة بشوق، ممزوج بتعظيم، ممزوج بحب غامر لله ﷻ.

البكاء من خشية الله ﷻ وصف شريف، وخصلة حميدة، به وصف الله ﷻ أنبياءه عليهم السلام، والذين أوتوا العلم من عباده، وكلما قوي الإيمان عظمت الخشية وازداد التوقير لله ﷻ، وأول الناس في ذلك وأولاهم به النبي محمد ﷺ هو أتقى الناس لله ﷻ، وأخشى الناس لله ﷻ، وأكثر الناس بكاءً من خشية الله ﷻ.

قال ابن القيم رحمه الله: "ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله ﷻ فاعلم أن قحطها إنما هو من قسوة القلب، وأبعد القلوب من الله ﷻ: القلب القاسي"[1]، وكان كثير من السلف رحمه الله يحب أن يكون من البكائين، ويفضلونه على بعض من الطاعات، قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "لأن أدمع من خشية الله ﷻ أحب إليَّ من أن أتصدق بألف دينار"[2]، وكان النبي ﷺ يستعيذ من القلب الذي لا يخشع، يقول ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها"[3]

وقال ابن القيم رحمه الله: "إن في القلب قسوةً لا يذيبها إلا ذكر الله ﷻ، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله ﷻ"[4]، وذكر حماد بن زيد عن المعلى بن زياد أن رجلاً قال للحسن رحمه الله: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذِبه بالذكر"[5]،

---

1 بدائع الفوائد لابن القيم (3/ 224).
2 شعب الإيمان للبيهقي (2/ 253).
3 رواه مسلم (4/ 2088).
4 الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص 71.
5 الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص 71.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله ﷻ ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار فما أُذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله ﷻ.

لا تدمع العين إلا إذا طهرت النفس، وزكت الروح، وصفى القلب، فعندئذ تأتي الرقة فتسيل الدمعة ولذلك قال النبي ﷺ: "ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة من دموع خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله"[1]

فالبكاء سنة عظيمة وعادة لصالحي المؤمنين قديمة، ورثها أصحاب الرسل عنهم، كما ورثها أصحاب النبي ﷺ عن نبينا محمد ﷺ، فهذا الصديق الأكبر رضي الله عنه لما اشتد بالنبي ﷺ الوجع وأذن للصلاة قال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" فقالت عائشة رضي الله عنها: إن أبا بكر رجل أسيف إن يقم مقامك يبكي، فلا يقدر على القراءة، فقال: "مروا أبا بكر فليصل"، فقلت: مثله، فقال في الثالثة أو الرابعة: "إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل"[2]

ووصية النبي ﷺ لأمته، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به، فمن لم يتغن به فليس منا"[3]

إن البكاء الذي وراءه إيمانٌ وسيلةٌ تربوية فعالة، تُخرّج الربانيين الذين يتعالَوْن على السفاسف، ويَرِثُون الفردوس الأعلى، فانظر في قلبك أفيه خشيةٌ وخشوع، وتعظيم

---

[1] سنن الترمذي (4/ 190)، المعجم الكبير للطبراني (8/ 235).
[2] رواه البخاري (1/ 143).
[3] شعب الإيمان للبيهقي (3/ 467).

لله ﷻ وتأنيب للنفس؟ وانظر في طرْفك الجافِّ، وعوِّده دموعًا صادقة تثقِّل ميزانَك يوم المعاد والحساب والجزاء.

إنَّ البكاءَ مِن خشية الله ﷻ مقامٌ عظيم، وهو مقامُ الأنبياء والصالحين، إنَّه مقام الخُشُوع، وإراقة الدُّموع خوفًا منَ الله ﷻ، إنَّه التعبير عن حُزن القلب، وانكسار الفؤاد، يقول الله ﷻ عنْ أولئك الذين تدمع عيونُهم من خشية الله ﷻ، وترق قلوبُهم لِذِكْر الله ﷻ؛ يقول ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ المائدة: ٨٣، ويقول عنهم ﷻ أيضًا: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ مريم: ٥٨، ويقول ﷻ كذلك: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٩

إنَّ البكاء مِن خشية الله ﷻ مِن أعظم الأمور التي يحبُّها الله ﷻ، وهو نعمةٌ ما وُجِدَتْ على الأرض أجَلّ وأعظم منها، وما مِن قلب يُحْرَمُ هذه النِّعمة إلاَّ كان صاحبه مَوْعودًا بعذاب الله ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم ﴿٢٢﴾ ﴾ الزمر: ٢٢؛ لذلك ما مِن مؤمنٍ صادقٍ في إيمانه؛ إلاَّ وهو يَتَفكَّر كيف أرقِّق قلبي لِذِكْر الله ﷻ ومحبته؟

فإن البكاء من خشية الله ﷻ دليلٌ على إيمان العبد وخوفه من الله ﷻ، وسببٌ للاستضلال بعرش الرحمن ﷻ، وهو سببٌ للنجاة، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال:

قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: "أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك وابكِ على خطيئتك"[1]، والبكاء من خشية الله ﷻ من أسباب التحريم على النار.

"ومن فوائد البكاء أنه دليل على خشية الله ﷻ ومراقبته، والبكاء دليل على صلاح العبد واستقامته، والبكاء يورث الخوف من الله عز وجل وهو علامة على صحة الإيمان، والبكاء طريق موصل إلى محبة الله ﷻ ورضوانه، والبكاء دليل على رقة القلب واستجابته، والبكاء سمة من سمات الخاشعين"[2]

قم واسكب الدموع بين يدي خالقك ﷻ، قم وتخلص من ذنوبك، قم واطرد همومك، قم وابكِ على خطيئتك، قم واسكب الدمعات في أروعِ اللحظات، تنل سعادة الدنيا والآخرة.

[1] المعجم الكبير للطبراني (17/ 270)، شعب الإيمان للبيهقي (2/ 238).
[2] نظرة النعيم (3/ 842)

شبكة الألوكة

النصيحة الحادية والأربعون

خف من الله ﷻ

إنّ الخوف من الله ﷻ يعدّ من المقامات العليّة في مدارج السالكين، وهو من لوازم الإيمان بالله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ آل عمران: ١٧٥

والخوف من الله ﷻ طريق للأمن في الآخرة عند لقائه وسبب للسّعادة في الدّار الدنيا والآخرة، وهو دليل على صفاء القلب وطهارة النّفس، وهو خير مُعين للانتصار على شهوات النّفس وملذّاتها، والقلب الذي لا يسكنه الخوف من الله ﷻ كالبيت الخَرِب، وإنّ انتشار المعاصي في حياة الكثير من النّاس يرجع إلى غياب الخوف من الله ﷻ، حتى أصبح استصغار الكبائر عند بعض الناس أمراً مُستساغاً، فاسودّت القلوب وأظلمت، والتّخويف بعظمة الله ﷻ وبآياته سنّة ماضية، قال ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ الإسراء: ٥٩، فالتخويف وسيلة مؤثّرة من وسائل المرسلين والدّعاة في إنذار أصحاب المعاصي؛ رغبةً في إقامتهم على أمر الله ﷻ وطاعته.

الخوف من الله ﷻ صفة المؤمنين، وتشبّه بالملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين، قال ﷻ واصفاً الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ النحل: ٥٠، وامتدح الرّسل عليهم السلام بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ الأحزاب: ٣٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الخوف من الله ﷻ يُعين العبد على الاجتهاد في العمل الصالح الخالص لله ﷻ وحده، وتأكيداً على أثر الخوف من الله ﷻ في القُربات والطّاعات؛ قال ﷻ:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ ﴾ الإنسان: ٩ - ١٠

الخوف من الله ﷻ يُبعد عن الشّهوات والنّزوات واللّذات المحرّمة، فما كان عند العاصي من الآثام محبوباً يكون عند الخائف مذّموماً مشؤوماً، ويرفع صاحبه إلى رضا الله ﷻ ورحمته، ويُوصل صاحبه إلى الملاذ الآمن تحت ظل عرش الله ﷻ يوم القيامة، فقد جاء في حديث السبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه يوم القيامة: "ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه"[1]، الخائف من الله ﷻ في الدنيا يُكرم بالأمان في الآخرة، قال النبيّ ﷺ عن ربّه ﷻ: "وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة"[2]، **وقال الغزاليّ:** "إنّ فضل الخوف تارةً يُعرف بالتأمّل والاعتبار، وتارةً بالآيات والأخبار"[3]، وقَصَد بالاعتبار التّفكّر بالطريق الموصلة إلى السّعادة؛ حيث إنّه لا سعادة للعبد إلّا بالقرب من مولاه ﷻ ولقائه على الرضى، وهذا مُحتاج إلى الانقطاع عن شهوات الدّنيا؛ لأن ذلك لا يتحقّق إلّا بقمع الشّهوة؛ فإنّ القمع لها لا يكون إلّا بنار الخوف من عذابه ولقائه على المعاصي والآثام، وبتحصيل الخوف بالآيات والأخبار أنّ ما ورد من آيات قرآنيّة أو ما ورد في السنّة النبويّة من فضل الخوف وضرورة

---
[1] رواه البخاري (1/ 133)، رواه مسلم (2/ 715).
[2] صحيح ابن حبان (2/ 406)، شعب الإيمان للبيهقي (2/ 223).
[3] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 160).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تحصيله أكثر من أنْ يحصى، وأنّ العلم بآيات الله ﷻ وأخبار الخائفين من الله ﷻ خير طريق لتحصيل الخشية منه"[1]

الخوف من الله ﷻ الذي يُطلق عليه أيضاً خوف العبادة، فهو الخوف الذي يقترن بتعظيم الله ﷻ، ومحبّته، والتذلّل إليه، والخضوع له، ويدفع المسلم إلى العبادة، وينهاه عن المحرّمات، فهذا هو الخوف المحمود الذي أمر الله ﷻ به، وأوجبه على عباده، وعدّ الله ﷻ توجيه هذا الخوف لغيره شركاً به، ويجدر التنبيه إلى أنّ هناك خوفٌ مذمومٌ، وهو الخوف من الله ﷻ بشكلٍ يثني الإنسان عن العبادة، ويتسبب بيأسه وقنوطه، وقد عدّ الله ﷻ هذا الخوف كبيرةً من الكبائر، وبالعودة إلى الحديث عن الخوف المحمود يجدر بيان أنّ هناك قسمان أساسيان للخوف من الله ﷻ؛ **فأمّا الأول فهو خوف مقام الله** ﷻ؛ ويُقصد به استشعار مراقبة الله ﷻ لعباده، وقدرته عليهم، ومحاسبته لهم، وقيل يُقصد بهذا الخوف: الخوف من الله ﷻ عند الوقوف بين يديه يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ الرحمن: ٤٦، **وأمّا القسم الثاني من الخوف: فهو الخوف من وعيد الله** ﷻ؛ أي أنّ العبد يستحضر ويخاف من عذاب الله ﷻ لعباده العاصين، ويخاف ممّا أعدّه لعباده المستكبرين، فيخاف النار والعقاب، قال ﷻ: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ الزمر: ١٦، وقد أجمع العارفون على أنّ الخوف من الله ﷻ خوفاً محموداً، وهو من لوازم الإيمان، وإنّ دلّ على شيءٍ فإنّما يدلّ على حُسن إسلام المرء، وطهارة قلبه، وكمال إيمانه،

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 160).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبالخوف من الله ﷻ تميّز العارفون، وسما المؤمنون، فهو خير دليل على القرب من الله ﷻ؛ إذ إنّ المسلم كلّما عرف الله ﷻ، وتقرّب إليه؛ زاد خوفه منه.

فالخوف من الله ﷻ من أعظَم أعمال القلوب، وأحد لوازم الإيمان؛ قال ﷻ: ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٥، فضلاً عن أنّه أمرٌ من الله ﷻ لعباده، ويتفاوت البشر في درجات الخوف من الله ﷻ، وأشدّهم خشيةً أقربهم إليه ﷻ وأعلمهم بأوامره ونواهيه، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴿٢٨﴾ ﴾ فاطر: ٢٨، من هنا يتبيّن أنّ للخوف من الله ﷻ أسباباً، كما أنّ له ثماراً يجنيها الخائف الوَجِل في الدنيا والآخرة.

الخوف من الله ﷻ خوف رجاء ورحمةً على العبد أن يلتزم به، وألا يأمن مكر الله ﷻ أو يقنط من رحمته، فكما أنّ من صفات الله ﷻ أنّه رحمن غفور، فهو عزيز شديد الانتقام، فمن يفقد خوف الله ﷻ من قلبه، سيخوض في المعاصي وتتحكّم به الشهوات التي توقعه في الشبهات والحرام وارتكاب الكبائر، ويمكن تحقيق الخوف من الله ﷻ من خلال الخوف من عقوبة الذنوب والمعاصي، والخوف من مكره ومن عذاب النار.

الخوف من الله ﷻ هو سمة المؤمنين وآية المتقين وديدن العارفين، وطريقٌ للأمن في الآخرة وسبب للسعادة في الدارين، ودليل على كمال الايمان وحسن الاسلام وصفاء القلب وطهارة النفس، وإذا سكن الخوف من الله ﷻ في القلب أحرق مواضع الشهوات فيه وطرد بهرج الدنيا عنه، وهو سوط الله ﷻ يقوّم به الشاردين

عن بابه ويرد به الباقين إلى رحابه، **قال ابن قدامة:** "اعلم بأن الخوف سوط الله عز وجل يسوق الله سبحانه وتعالى به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله عز وجل، والخوف سراج القلوب به يبصر ما فيه من الخير والشر"[1]

الخوف من الله سبحانه وتعالى أصل كل خير في الدنيا والآخرة وكل قلب ليس فيه خوف من الله سبحانه وتعالى فهو قلب خرب.

الخوف شجرة طيبة إذا نبت أصلها في القلب امتدت فروعها إلى الجوارح فأتت أكلها بإذن ربها عز وجل وأثمرت عملاً صالحاً وقولاً حسناً وسلوكاً قويماً وفعلاً كريماً فتخشع الجوارح وينكسر الفؤاد ويرق القلب وتزكو النفس وتجود العين.

فالخوف من الله سبحانه وتعالى أولاً من أسباب التمكين في الأرض، وزيادة الإيمان والطمأنينة؛ لأنك إذا حصل لك الموعود وثقت أكثر، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ إبراهيم: ١٣ - ١٤، إذاً الخوف من الله سبحانه وتعالى يؤدي إلى التمكين في الأرض والانتصار على الأعداء وأن يهلك الله سبحانه وتعالى عدوهم ويخزيهم ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم.

والخوف من الله سبحانه وتعالى يبعث على العمل الصالح والإخلاص فيه وعدم طلب المقابل في الدنيا فلا ينقص الأجر في الآخرة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ

[1] مختصر منهاج القاصدين ص 303.

﴿جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ الإنسان: ٩ - ١٠، وقال ﷻ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ النور: ٣٦ - ٣٧، أي تضطرب وتتقلب وهذا هو الذي دفعهم للعمل، يريدون النجاة ويحذرون الهلاك ويخافون أن يأتوا كتبهم بشمالهم، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط"[1]، قال أبو عثمان: "صِدْق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً."[2]،وسمعت شيخ الإسلام **ابن تيمية** رضي الله عنه يقول: "الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله ﷻ"[3]

وقال ابن القيم رضي الله عنه: "كلما كان العبد بالله ﷻ أعلم، كان له أخوف"[4]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "كفى بخشية الله ﷻ علماً."[5]، ونقصان الخوف من الله ﷻ إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأَعرف الناس أخشاهم لله ﷻ، ومن عرف الله ﷻ اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً"[6]

معرفة فضل الخائفين من الله ﷻ الوجلين، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 510).
[2] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (2/ 577)، مدارج السالكين لابن القيم (1/ 510).
[3] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 511).
[4] طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (1/ 283).
[5] المعجم الكبير للطبراني (9/ 189)، شعب الإيمان للبيهقي (2/ 204).
[6] طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم (1/ 283).

﴿يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ الأنفال: ٢، تدبر أحوال الخائفين، وكيف وصلوا إلى هذه المنزلة بالإيمان والعمل الصالح، وقيام الليل، وصيام النهار، والبكاء من خشية الله ﷻ، **قال الغزالي**: "معرفة سير الأنبياء والصحابة فيها التخويف والتحذير، وهو سبب لإثارة الخوف من الله ﷻ، فإن لم يؤثر في الحال أثر في المآل"[1]، **وقال الحسن البصري** رضي الله عنه: "صحبت أقواماً كانوا لحسناتهم أن ترد عليهم أخوف منكم من سيئاتكم أن تعذبوا بها"[2]، **وقال ابن قدامة**: "اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، مثال ذلك: من جنى على ملك جناية ثم وقع في يده فهو يخاف القتل ويجوّز العفو، احتمالات، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وتفاحش جنايته وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية بل عن صفة الذي يُخاف عظمة وجلالاً؛ فإنه إذا علم أن الله ﷻ لو أهلك العالمين لم يبالي ولم يمنعه مانع فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه وبجلال الله ﷻ، وأنه لا يسأل عما يفعل يكون الخوف على حسب هذا فهو مطالعة القلوب لسطوات الله ﷻ ونقمه فيولد في القلب الخوف "خوف الوعيد"[3]

الخوف من الله ﷻ عبادة قامت في قلب النبي ﷺ فارتفعت نفسه عن المحرمات والمحظورات؛ لأنه يخاف رب الأرض والسموات ﷻ، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ

[1] إحياء علوم الدين (2/ 237).
[2] زهرة التفاسير (10/ 5087).
[3] مختصر منهاج القاصدين ص 302 – 303.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ الأنعام: ١٥ – ١٦، فهو يخشى عذاب الله ﷻ ولا يتعد حدوده.

الخوف من الله ﷻ من صفات أولي الألباب، قال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ الرعد: ١٩ - ٢١، الخوف من الله ﷻ يدل على أن صاحبه صاحب عقل، من أولي الألباب أي راجح العقل يعرف الشيء الذي يخوّف حقًّا، **قال ابن قدامة**: "من ثمرات الخوف أن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة مكدرة"، وليس المقصود تكدير اللذائذ المباحة، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمّاً، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح و يذل القلب ويستكين ويفارقه الكبر والحقد والحسد ويصير مستوعب الهم لخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والظنّة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله كم وقع في مخالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلكه ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف وقوة المعرفة بجلال الله ﷻ وصفاته وبعيوب نفسه وما بين يديها من الأخطار والأهوال"[1]، **وقال ابن قدامة**: "فضيلة كل شيء

---

[1] مختصر منهاج القاصدين ص 303

شبكة الألوكة

بقدر إعانته على طلب السعادة وهي لقاء الله سبحانه وتعالى والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾"[1]

فإنَّ الخوف من الله سبحانه وتعالى مِن أفضل مَقامات الدِّين وأجملها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصُها لله عز وجل، قال سبحانه وتعالى عن أهل الجنة: ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الطور: ٢٦ - ٢٧،

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ ﴾ النازعات: ٤٠ - ٤١، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: "سبعةٌ يُظلهم الله في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله، ذكر منهم: ورجلٌ دعتْه امرأة ذات منْصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله"[2]

الخوف من الله سبحانه وتعالى إنه هو المانع للذنب، العاصم من الخطأ، الحافظ من الزلل، المبعد عن الخلل؛ وأنى لقلب لم يُزرع فيه خوف الله سبحانه وتعالى أن يرتدع عن الهوى؟! وكيف لفؤاد لم تسكنه خشية الله عز وجل، والهيبة لجلاله، والوجل من بطشه، والإشفاق من وعيده، كيف له أن يعمر بالطاعة ويتجافى عن المعصية، ويستوحش من الذنب؟! وما كثرت الذنوب، وأظلمت القلوب، إلا لقلة الخوف من علام الغيوب؛ تحيط بنا العبر، وتكثر الحوادث، وتعظم الكوارث، وتفتت الأمم، وتحل النقم، والأنفس لاهية، والأفكار ساهية، وحبال التقوى واهية.

---

[1] مختصر منهاج القاصدين ص 305

[2] رواه البخاري (8/ 163)، رواه مسلم (2/ 715).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والخوف من الله ﷻ ووعده ووعيده، من أعظم ما ينتفع به المسلم في طريقه إلى ربه ﷻ، فهو أصل كل خير في الدنيا والآخرة، فالقلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان، فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان، فهو عرضة لكل صائد وكاسر، **يقول ابن القيم** رحمه الله: "القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيِّد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر"[1]

فالخَوْفُ من الجليلِ ﷻ مطيةُ الوصولِ إلى رضاه، وهو في قلب العبد محجَّةُ الوقايةِ والنَّجَاةِ، ومخافة الرحمن ﷻ أمانُ الأرْواحِ المؤمنةِ من الأخطار العاجلةِ والآجلةِ، ومدخل الرجاء في باب الخوفِ أنه ضامنٌ بإذن الله ﷻ لسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

إن الخوف من الله ﷻ أدب من آداب الإسلام، بل عبادة عظيمة من العبادات تعلّم المسلم الخضوع لله ﷻ، والعزة على من سواه، تعوّد العبد المراقبة لخالقه ﷻ.

الخوف من الله ﷻ لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد بالخوف الكف عن المعاصي وتحري الطاعات؛ ولهذا قيل: "لا يُعَدُّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً."[2]، ويؤيد هذا المعنى تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للخائف بقوله: "الخائف من ركب طاعة الله ﷻ وترك معصيته"[3]

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (1/ 513)

[2] المفردات في غريب القرآن (1/ 303).

[3] تفسير الطبري (22/ 235).

إن الخوف من الله ﷻ من تمام الإيمان به لذلك أمر الله ﷻ به عباده، فقال ﷻ: ﴿ فَإِيَّىٰ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ النحل: ٥١، وقال ﷻ: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴿١٥٠﴾ ﴾ البقرة: ١٥٠

إن الخوفَ من اللهِ ﷻ من أجلِّ العباداتِ ومن أعظمِ القُرُباتِ، فهو الذي يحُولُ بينَكم وبينَ محارمِ اللهِ ﷻ ومعاصِيه، فللهِ ما أعظمَه، ولله ما أحوجَنا إليه، ولله ما أحسنَ عاقبتَه في الدنيا والآخرةِ؛ إذ بالخوفِ ينزِعُ العبدُ عن المحرَّماتِ، وبه يُقبِلُ على الطَّاعاتِ، فهو واللهِ أصلُ كلِّ فضيلةٍ، وباعثُ كلِّ قربةٍ.

وبالخوفِ من الله ﷻ يستيقظُ القلبُ من غفلتِه وينتفعُ بالإنذارِ ويتأثرُ بآياتِ القرآنِ، قال ﷻ: ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ طه: ٢ – ٣، وقال ﷻ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ الزمر: ٢٣

إن الخوفَ من اللهِ ﷻ هو من أخصِّ صفاتِ عبادِ اللهِ ﷻ المتقين وأوليائِه المحسنين، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ الأنفال: ٢، قال

الطبريُّ: "المؤمنُ هو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ ﷻ وجِلَ قلبُه وانقادَ لأمرِهِ وخضعَ لذِكْرِهِ خوفاً منه وفَرَقاً من عذابِه"[1]

إنه لما ضعُفَ إيمانُنا باللهِ ﷻ وقلَّ خوفُنا منه وتعظيمُنا له قَسَتْ مِنَّا القلوبُ وساءت الأعمالُ وصدق في كثيرٍ منَّا قولُه ﷻ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ يوسف: ١٠٥

"ومن فوائد الخوف الفوز بالجنة والنجاة من النار، والأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة، ودليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، ويثمر محبة الله ﷻ وطاعته، وسبب لسعادة العبد في الدارين، ودليل على صفاء القلب وطهارة النفس، وسبب لهداية القلب، ويبعد الإنسان عن الوقوع في المعاصي والسيئات، ويجعل الإنسان يخلص عمله لله ﷻ وألا يضيعه بالترك أو المعصية، ويورث المسلم الشفقة على الخلق، ويحمل الإنسان المسلم على التخلق بالأخلاق الحسنة وتجنب الكبر والعجب"[2]

فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام تقوى الله ﷻ في السر والعلانية؛ ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز الله ﷻ لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور.

[1] تفسير الطبري (11/ 27).
[2] نظرة النعيم (5/ 1900).

النصيحة الثانية والأربعون
ارضَ بما قسمه الله ﷻ لك

يجب على المسلم أن يرضى بما قدّره الله ﷻ له، وليس المقصود بالرضا الاستسلام وعدم بذل الجهود لتحقيق ما يريد، بل هو الحرص على بذل الجهد لتحقيق الهدف، ورضا المسلم بكلّ ما قدّر له دون جزعٍ، أو سخطٍ، أو ضجرٍ، مع القبول بحكم الله ﷻ في السراء والضراء، وأنّ ما كتبه الله ﷻ هو الخير.

الرضا كنز من كنوز الحياة، ومن عاش وهو قنوع وراضٍ فقد ظفر بالراحة والسعادة، كما أنه لا يتطلب الشعور بالرضا أمور عظيمة فقط يكفيه النظرة الإيجابية والتفاؤل، والقناعة بما يملك المسلم، والإيمان بأنه غني بنفسه وبذاته حتى وإن كان الواقع عكس ذلك أن ما هو مقدر له أتٍ وإن طال، فالراضي هو شخص عظيم سلك طريق الصواب لينعم بحياة رغدة بعيداً عن الضغينة وتمني الشر وزوال النعم لغيره.

والرضا عن الله ﷻ عبادة قلبية لها شأن عظيم عند الله ﷻ، حيث تعتبر درجة إيمانية عظيمة، تتجلّى فيها كل معاني الحب والشوق للقاء الله ﷻ، والتطلّع والتّشوّق إلى رضوانه ﷻ، إلا أنّ الكثير من الناس يجهلونها، ولا يصلون إلى هذه الدرجة الرفيعة، وكل ذلك عائد إلى جهلهم بالله ﷻ، وعدم تقديرهم له.

يعتبر قضاء الله ﷻ نافذاً لا محالة، لذلك على المسلم أن يتقبّله مهما كان عظيماً أو ثقيلاً على النفس، وأن يصبر خاصةً عند الصدمة الأولى، حيث قال ﷺ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن

سخط فله السخط"[1]،كما أنّ النبي ﷺ أشار إلى أن قضاء الله ﷻ سنّة إلهية، إلا أنّ الاختلاف يكون بكيفية استقبال المؤمن لهذا القضاء، فمنهم من يستقبله بالرضا الذي هو أصل الإيمان الحق بالله ﷻ، ومنهم من يستقبله بالجزع الذي هو صفة النفس الهلوعة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ ﴾ المعارج: ١٩ - ٢٠

والرِّضا عن شَرْع الله ﷻ وحُكمه يكون ذلك بعدم السخط على أي شيء أنزله الله ﷻ وورد في شريعته، وإنما بالتسليم، والطاعة، والانقياد، والخضوع، وأخذ كل ما ورد في الشريعة دون اختيار أو انتقاء أي شيء حسب أهواء النفس ورغباتها، فيفعل ما أمر الله ﷻ بفعله، ويبتعد عما حذر منه، ونهى عنه، ويأخذ مما أباحه الله ﷻ دون أن يتعدى على المحظور، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٨، حيث لا مجال لإساءة الأدب مع الله ﷻ، أو السخط على أي شيء من شريعته، أو انتقادها.

فإن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وهو باب الله ﷻ الأعظم، ومستراح العارفين، وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وألا يستبدل بغيره منه، أن ترضى عن الله ﷻ، لا بلسانك، ولكن بجنانك.

---

[1] سنن ابن ماجه (2/ 1338)، سنن الترمذي (4/ 601).

والرضا هو رضا العبد عن الله ﷻ بأن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله ﷻ عن العبد أن يراه مؤتمراً بأمره منتهياً عن نهيه.

ونعمة الرضا، ذلكم السلاح الفتّاك الذي يقضي بحدّه على الأغوال الهائلة التي ترعب النفسَ فتضرب أمانها واطمئنانَها بسلاح ضعف اليقين والإيمان؛ لأن من آمن عرف طريقَه، ومن عرف طريقه رضي به وسلكه أحسنَ مسلكٍ ليبلغَ ويصل، لا يبالي ما يعرض له؛ لأن بصرَه وفكره متعلقان بما هو أسمى وأنقى من هذه الحظوظ الدنيوية، والمسلم الحق هو من يسلم أموره كلها ويجعلها خالصة لله ﷻ، حتى ترضى نفسه ويطمأن قلبه، قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣، والمسلم الحق هو الذي يعجل إلى ربه ﷻ ويفر إليه طالباً رضاه، قال ﷻ: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ طه: ٨٤

سئل الحسن البصري رضي الله عنه: من أين أتي هذا الخلق؟ قال: "من قِلَّة الرضا عن الله ﷻ"، قيل له: ومن أين أتي قلّة الرضا عن الله ﷻ؟ قال: "من قلّة المعرفة بالله ﷻ"[1]

جنة الرضا جنة عامرة غامرة فيها من النعيم المقيم، والسعادة الخالدة الأبدية التي لو علمها كل مسلم لسعد في دنياه وانتظرته السعادة في أخراه، تلك السعادة التي وصفها الله ﷻ حينما قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

[1] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (1/ 160).

﴾ النحل: ٩٧، وتلك النعمة التي إذا أُعطيها العبد لكفته من نعمة، فالمؤمن الحق هو الذي يجد الأمن النفسي، هو الذي يجد الراحة والطمأنينة، قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الأنعام: ٨٢، الأمن بجميع صوره، الأمن في الأموال، الأمن في الأنفس، الأمن في الأولاد، الأمن في العتاد، الأمن في الحياة، فهو راض على كل حال، فلا تراه إلا حامداً شاكراً، **يقول إبراهيم بن أدهم** رضي الله عنه: "إننا والله في نعمة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف"[1]

قال ابن عجيبة في تفسيره: "إذا عَلِمَ العبدُ أن الله ﷻ كاف جميع عباده، وثق بضمانه، فاستراح من تعبه، وأزال الهموم والأكدار عن قلبه، فيدخل جنة الرضا والتسليم، ويهب عليه من روح الوصال وريحان الجمال نسيم، فيكتفي بالله عز وجل، ويقنع بعلم الله عز وجل، ويثق بضمانه"[2]

إن من لوازم الإيمان أن يرضى العبد بقضاء الله ﷻ وقدره خيره وشره وأن يعلم أن الأقدار لا تكون حسب رغباته وأهوائه وإنما تكون بحسب حكمة وتقدير الخالق ﷻ الرضا شأنه عظيم وأمره كبير ومنزلته في الدين عالية، هذا الرضا عليه مدار أمورٍ كثيرةٍ من الأمور الصالحات، هذا الرضا الذي هو من منازل السائرين والسالكين، أن أصل الرضا واجب ومنازله العليا مستحبّة، والرضا له أصلٌ ومراتبٌ أعلى من الأصل، فيجب الرضا من جهة الأصل، فالذي ليس عنده رضا عن الله ﷻ والدين والشرع والأحكام فهذا ليس بمسلمٍ، فلابد لكلِّ مسلمٍ موحّدٍ يؤمن بالله عز وجل واليوم

[1] المواهب اللدنية بالمنح المحمدية للزرقاني (9/ 100).
[2] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (5/ 79).

الآخر من درجةٍ من الرضا، أصل الرضا لابد أن يكون متوفّرًا؛ لأنه واجبٌ، فقد قال ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً."[1]

فالرضا هو أن يرضى بالله ﷻ ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا، يرضى بما شرعه الله ﷻ لعباده من تحريم حرامٍ أو إيجاب واجبٍ أو إباحة مباحٍ، يرضى عن الله ﷻ ويرضى عن قضائه وقدره ويحمده على كل حالٍ ويعلم أن ذلك لحكمةٍ.

الرضا بما قسم الله ﷻ وأعطاه من الرزق وهذا ممكنٌ يجيده بعض العوامّ، والمرتبة الأعلى الرضا بما قدّره الله ﷻ وقضاه، ومرتبةٌ أعلى من هذه، أن يرضى بالله ﷻ بدلًا من كل ما سواه، هذه منازل قد يأتي البعض بواحدةٍ ولا يقدر على الأخرى، وقد يأتي البعض بجزءٍ من الدرجة، ولا يحقق كل الدرجة.

وإن الرضا ليس معناه أن يُؤثِر المسلم السلامة الذليلة، والراحة البليدة؛ متفرّغًا من دوافع التطلُّع والتجربة والمعرفة، ومحتجبًا عن مزاولة النشاط الحركي المنفتح الوثَّاب، فهذا لعَمري سقوطٌ للهِمَّة وانحناءٌ للهامة، بل الرضا هو الاطمئنان لحكمة الله ﷻ وقدره، ومُحرِّك في الوقت ذاته للجدِّ والعمل، والتأثير والتأثُّر في واقع الحياة وخطِ المصير.

والرضا هو سكون القلب إلى اختيار الرب ﷻ، وسرور القلب بمُر القضاء، واستقبال الأحكام بالفرح، وارتفاع الجزَع في أي حكم كان، وليس الرضا هو الاستسلام، لأن الاستسلام هو الانهزام وعدم بذل الجهد لتحقيق الهدف، أما الرضا فهو استفراغك الوسع في تحقيق الهدف، لكن لم توفق إليه، فترضى بما قسم الله ﷻ لك من غير جزع، أو ضجر، أو سخط، والرضا هو باب الله ﷻ الأعظم

[1] رواه مسلم (1/ 62).

وجنة الدنيا، ومستراح العابدين، وطريق السعداء الموقنين، وتَقَبُّل ما يقضي به الله ﷻ من غير تردُّد ولا معارضة.

الرضا مَقامٌ عظيم من مقامات الإيمانِ واليقين، والتخلُّقُ به لا يتأتى إلا بعد طولِ عبادة وذِكر، وفهمٍ ومعرفة وفكر، وبالحصول عليه، والتمكنِ منه يتخطى المؤمنُ في إيمانه بالأقدار أعظَمَ اختبار في الحياة، وتصبح الآلام والشدائد عنده لذائذَ؛ لأنَّه يتعامل مع الأقدار الإلهية بلُغةِ الحب والرضا، لا بلُغةِ الاختبار والتحدي.

وليعلمْ يقينًا بأن الله ﷻ ما ابتلاه إلا ليرقيَه في مدارج الكمال؛ مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ البقرة: ٢١٦، نعم، أجملُ ما في الإيمان بالأقدار، المقترنِ بالرضا أنه يخلِّص المسلم من رتابة الحياة، ويُنجيه من الملل.

الرِّضا عن الله ﷻ عبادةٌ قلبيَّة رفيعة الشَّأن، ودرجة إيمانيَّة عظيمة، ولكِنْ قليلٌ من يَصل إلى تلك الدَّرجة السامية السامقة، وما ذاك إلاَّ بسبب الجهل بالله ﷻ؛ فلو عرف المرءُ ربَّه ﷻ كما يجِب، لظهَر منه التَّعظيمُ والتَّقوى، ولما كان منه إلاَّ الأدب الجمُّ مع مولاه ﷻ؛ إذعانًا وتسليمًا، وخضوعًا وانقيادًا، بمعاني الحبِّ والشَّوق إلى لقائه، والتشوُّف والتطلُّع إلى رضوانه ﷻ.

يقول ابن القيم رضي الله عنه: "وليس الرِّضا والمحبة كالرجاء والخوف؛ فإنَّ الرِّضا والمحبَّة حالان من أحوال أهل الجنَّة لا يفارقان المتلبِّس بهما في الدنيا، ولا في البَرْزخ، ولا في الآخرة، بخلاف الخَوف والرجاء؛ فإنَّهما يفارقان أهل الجنَّة بحصول ما كانوا يرجونه، وأَمْنهم ممَّا كانوا يخافونه، وإن كان رجاؤهم لِما ينالون من كرامته دائمًا، لكنَّه ليس

رجاء مشوبًا بشكٍّ؛ بل هو رجاءُ واثِقٍ بوعد صادق مِن حبيب قادر، فهذا لون، ورجاؤهم في الدنيا لون"[1]

يقول صاحب المدارج رضي الله عنه: "الرِّضا مَعْقد نِظام الدِّين ظاهره وباطنه؛ فإنَّ القضايا لا تخلو من خمسة أنواع: فتنقسم قسمين: دينية، وكونية؛ وهي: مأمورات، ومنهيَّات، ومباحات، ونِعَم مُلذَّة، وبلايا مؤلِمَة، فإذا استعمل العبدُ الرِّضا في ذلك كلِّه، فقد أخذ بالحظِّ الوافر من الإسلام، وفاز بالقِدْح المعلَّى"[2]

الرضا هو سكون القلب، وراحته باختيار الله عز وجل، بلا جزعٍ ولا وجع، وهو محبةُ ما جادَتْ به الأقدار، وما حكَم به ربُّنا عز وجل، بلا ندم ولا ألم، **يقول الراغب الأصفهاني**: "ورضا العبد عن الله سبحانه وتعالى ألا يكرَه ما يجري به قضاؤه، ورضا الله سبحانه وتعالى عن العبد هو أن يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه"[3]

أن الرضا صفةٌ مِن صفات أهل الإيمان؛ لأنهم برضاهم عن الله سبحانه وتعالى رضِيَ الله سبحانه وتعالى عنهم؛ فأهل الرضا لهم الرضا؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾ [البينة: ٧ - ٨]، فلما حقَّق أهل الإيمان الرضا من قلوبهم، نزل بهم العطاء والفضل من الله سبحانه وتعالى، بأن رضي عنهم، لَمَّا علِمَ ما في قلوبهم من حب الجهاد، وحب نصرة الدين، حتى لو كان الثمنُ أرواحَهم وأموالهم، وبايَعوا على هذا نزل الرضا عليهم؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 173).
[2] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 204).
[3] المفردات في غريب القرآن (1/ 356).

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ الفتح: ١٨

الرضا مِن علامات صدق الإيمان بالله ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ المائدة: ١١٩

والرِّضوان هو الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله ﷻ، خصَّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان مِن الله ﷻ؛ قال ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ ٢٩﴾ الفتح: ٢٩، وقال ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ ٢١﴾ التوبة: ٢١

فالرِّضا عطيَّةٌ مِن الله ﷻ لأهل الجنة؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسَعْديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خَلْقِك؟! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ قال: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا."[1]

الرضا سبب الفلاحِ الحقيقي في هذه الحياة؛ كما في قوله ﷺ: "قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه"[2]

[1] رواه البخاري (8/ 114).
[2] رواه مسلم (2/ 730).

الرِّضا وصيةُ النبي محمد ﷺ وأصحابِه ﷺ؛ فلقد أوصى النبيُّ ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه فقال: "ارضَ بما قسم الله لك، تكن أغنى الناس"[1]

أصحاب الرضا أصحاب الجنة، **قال ابن تيمية** رحمه الله: "والرضا مِن الله سبحانه وتعالى صفة قديمة، فلا يرضى إلا عن عبدٍ علِمَ أنه يوافيه على موجبات الرضا، ومَن رضِي اللهُ سبحانه وتعالى عنه لم يسخَطْ عليه أبدًا؛ فكلُّ مَن أخبر اللهُ سبحانه وتعالى عنه أنه رضي عنه فإنه مِن أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعدَ إيمانه وعملِه الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرِضِ الثناءِ عليه والمدح له، فلو علِمَ أنه يتعقَّبُ ذلك بما يُسخِط الربَّ، لم يكُنْ مِن أهل ذلك"[2]؛ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ التوبة: ١٠٠، **قال ابن كثير**: "يخبِرُ سبحانه وتعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعَدَّ لهم مِن جنات النَّعيم، والنَّعيم المقيم"[3]

"ومن فوائد الرضا أنه يثمر محبة الله سبحانه وتعالى ورضاه وتجنب سخطه، ودليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام، والفوز بالجنة والنجاة من النار، ومظهر من مظاهر صلاح العبد وتقواه، والوعد بالبشرى في الآخرة، ودليل حسن ظن العبد بربه عز وجل، وطريق إلى الفوز برضوان الله سبحانه وتعالى، ويضفي على الإنسان المسلم راحة نفسية وروحية،

[1] المعجم الصغير للطبراني (2/ 218).
[2] الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ص 573.
[3] تفسير ابن كثير (4/ 177)

ويجنب المسلم الأزمات النفسية من قلق زائد وتوتر، وطريق واضح إلى تحقيق الاسم الاجتماعي"[1]

اعلَمْ أن جنة العباد في الدنيا هي الرضا؛ فبالرضا تكون السعادة والراحة، والسكينة والأمان، واعلم أن للرضا وفيرًا من الخير والثواب في شريعتنا.

ارضَ بالله ﷻ رباً، ارضَ برسوله ﷺ نبياً، ارضَ بالإسلام ديناً، ارضَ بما قسَم الله ﷻ لك، تكن أغنى الناس

[1] نظرة النعيم (6/ 2124).

النصيحة الثالثة والأربعون

كن من الصادقين دائماً

يعتبر الصدق من الصفات الحميدة، التي وجب على الناس التزامها ليكونوا سعداء في جميع مجالات حياتهم، فالمسلم الصادق يكون محبوباً بين الناس وينال ثقتهم في الحياة الدنيا، ويفوز بالجنة في الآخرة، ويفرّج الله ﷻ كربه، والنجاة من المهلكات، والبركة في الرزق، والفوز بمنزلة الشهداء، والراحة وطمأنينة النفس.

فإنّ الصدق جوهرة ثمينة لا يقدّرها إلا الشخص الحكيم، ويعتبر الصدق هو الصفة التي كان يختصّ بها الله ﷻ أنبياءه عليهم السلام بالثناء عليهم، ومدحهم، قال ﷻ عن نبيه محمد ﷺ بأنّه الصادق الأمين، وذلك من شدّة حبّه.

الصدق هو طريق النجاة في الدنيا والآخرة، ومسلك الأبرار الصالحين الأوفياء المتقين، والصدق عزيز لا ينبت في قلب صاحبه إلا إذا ارتوى بالعمل، ولا يقنع بصاحبه إلا إذا صدق بصغار الأمور قبل كبارها.

الصدق جوهر كل عمل فلا عمل إلا بالصدق، وجوهر كل عبادة فلا عبادة إلا بالصدق، وجوهر كل خلق فالأخلاق لا قيمة لها بلا صدق، وجوهر العلم فلا علم إلا بالصدق، وجوهر المعاملة فلا معاملة إلا بالصدق، وجوهر التربية فلا تربية إلا بالصدق، وجوهر كل شيء فلا شيء يقوم إلا بالصدق.

الصدق طبع فطري وخلق إنساني لا يرتبط بدين ولا بعرق ولا بنسب ولا بمال، الصدق صفة مشتركة تشترك فيها كل الأطياف كأنه نبع ماءٍ صافٍ يقبل من أتاه عطشاً ويرفض من أتاه طمعاً.

الصدق هو الحياة والحياء فلا حياة بلا صدق فالمسلم الصادق يعيش مرتاح البال مطمئن الفؤاد لا ينغص عليه شيء فهو واضحٌ بصدقه وضوح الشمس في كبد السماء لا ينتظر أحداً ليكذبه ولا ينتظره أحد ليصدقه فديدنه الصدق وهو الحياء.

فبالصدق يحفظ المرء عقله وما حوى، وقلبه وما حوى، وبطنه وما حوى.

الصدق هو دأب الصالحين وصفة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فقد وعد الله ﷻ الصادقين منزلة عظيمة في الآخرة وخصهم بها فهم بمرتبة الأنبياء والشهداء يوم القيامة وذلك لدلالة عظيم الصدق وفضله عند الله ﷻ.

الصدق عزيز لا يقبل أن يكون مجرد عبارات تخرج من اللسان ولا مجرد كلمات يرددها الإنسان بل يجب أن يتوَّج الكلام بالعمل الذي يدلل على صدق صاحبه فهو لا يرتضي إلا بكامل الأمور ولا يقبل بالتجزئة كالتاجر الذي يملك نفائس البضائع وأفضلها لا يدلل عليها ولا يلقي بها بأيدي الناس إلا أن يدفع ثمنها جملةً واحدة فهو لا يقبل بالتجزئة ولا التقسيط وكذلك لا يحبس السلعة ويحتكرها تمام كالصدق لا يجعل نفسه حكراً على أحد، الصدق لا يرضى بالتجزئة فلا يقبل نفسه حاضراً على صغائر الأمور دون كبارها والعكس صحيح فهو سبيل الحق وجراءته به تظهر الحقائق والأمور فلا سبيل لإظهاره إلا بالصدق.

الصدق شجاعة وإصرار فهو لا يخشى لومة لائم ولا جبروت عظيم ولا بأس قوي ولا ظلم متجبر، فالصادق كالسيف أينما حل عدل وأينما وجد حكم وأينما نزل برز وانتصر فلا يضره شيء بعد الصدق ولا يهيبه شيء دون الصدق ولا يملك شيء غير الصدق فهي بضاعته التي يتجر بها ولا يعلم سبيلاً للنفاق والكذب فهم أشد الناس أعداءً وأكثرهم انتباذاً.

الصدق عبادة فبها يظهر المؤمن من المنافق فصدق عبادة الله ﷻ والإخلاص إليه أمره عظيم، به تعلو المراتب وترفع الدرجات لينال الأجر من رب السماوات ﷻ فليس للصدق جزاء إلا مرتبة الصديقين مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

الصدق منارة المجتمع ومرآة الحضارة والتطور ونهج الراكبين فيها لا علو لجاه إلا بالصدق، به تسمو الأمة على سائر الأمم وتزهو وترتفع، فالصدق أساس تطور الدول وتفوقها واكتفائها بالصدق تسود الأمم وتنشأ القيم وتنهض الحياة بشتى مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية والدينية.

بالصدق تطمئن القلوب وترتاح النفوس فيشعر الفرد بلذة الصدق مما يدفعه لتحمل ما قد ينتج عنه من تحديات ويحيط به من أضرار فهو بذلك ينال محبة الله ﷻ ورضوانه، فالصادق له منزلة عظيمة عند الله ﷻ جزاء لتضحيته والتزامه، والصادق ينال سمتاً حسناً بين الناس فقد كان النبي ﷺ يعرف بالصادق الأمين وكانت صفة الصدق ملازمة له بين الناس ولم يشككوا بها رغم عداوتهم لها.

الصادق يجد التيسير في أمور حياته فيجد سعة الرزق وراحة البال التي بها يجتاز كل صعب ويتخطى كل عقبة فلا يتعثر أو ينكسر فهو الصادق الذي ثبت عند الشدائد قد نبت عند انفراجها، وبالصدق تحصل الثقة وينتشر الحب فالصادق موثوق به بين الناس محبوبٌ لا يكره أحد لا صاحب الطبع السيئ مألوف لا يبتعد عنه إلا ذا خلقٍ سقيم، فهو يتربع على قلوب الناس يحضر في أذهانهم مباشرة عند حضور الصدق كأنهما رجلان في جسد واحد، وبالصدق تنتشر المحبة بين أبناء المجتمع فالصدق شجرة المجتمع يستظل بها الناس ليأكلوا من ثمرها الذي يضفي

عليهم رونق الصفاء وعزة الصدق فيغسل قلوبهم فلا تفقه إلا صدقاً وتنبت عقولهم فلا تعقل إلا صدقاً.

الصدق أساس الإنتاج وأساس العطاء به يصبح المجتمع منتجاً معطاءً؛ فلا يعرف أفراده إلا الصدق في التعامل والصدق في العمل والصدق في التعامل مع المجتمعات الأخرى، فتتعزز الثقة بين المجتمعات وأفرادها ويسهل تبادل الخيرات والخبرات فلا مكان للنفاق في قلوبهم ولا الكذب في تعاملهم.

يا له من خلق عظيم لمن وصف به وجزاء كبير لمن عمل به فعلى الآباء أن ينشئوا أبناءهم على الصدق ويزرعوا فيهم بذوره فهي تنمو بنموهم وتزهر بهم كل صنوف الخير والعطاء فيجد الآباء من أبنائهم الراحة وسهولة التربية.

الصدق جنة من جنان الدنيا تحبه الناس، وتحب من يتحلى به، والله ﷻ يحب الصادقين، فالصديقون مع الذين أنعم الله ﷻ عليهم من الأنبياء والشهداء، الذين صدقوا فيما فعلوا وقالوا، صدقوا فكان لهم من الله ﷻ أن جعل منزلتهم رفيعة عنده يغبطهم عليها من سواهم.

ولقد أمر الله ﷻ بالصدق وحثّ عليه، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ التوبة: ١١٩، أمر من الله ﷻ بتحري الصدق، ويعني ذلك أنّ الكاذب يعاقب على كذبه والصادق يثاب عليه، قال ﷺ: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب

ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً."[1]، وكلنا نعلم أنّ البر باب واسع من الأعمال التي يحبّها الله سبحانه وتعالى والطريق لها الصدق، يظل يكذب الكاذب حتى يكتب عند الله سبحانه وتعالى كذاباً حتى يدخله النار، والصادق يبقى صادقاً حتى يكتب عند الله سبحانه وتعالى صدّيقاً، ثم تكتب له الجنة، فالصدق باب إلى الجنة والكذب باب إلى النار، وشتان بين فائزٍ وخاسر، وبين من يمشي في الظلمات ومن هو خارج منها.

الصدق هو كلّ الاستقامة في النفس البشرية، ورمز صلاحها، ولا ننسى أنّ جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا صادقين، فكان الصّدق شعارهم، وإظهار الحقيقة همّهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات: ١٥، لذلك يجب علينا أن نكون صادقين في جميع نواحي حياتنا وأمورنا العامّة، ممّا يعود علينا بالفائدة في الدنيا، وأن الصدق من صفات الله عزّ وجلّ وصفات أنبيائه والمؤمنين، وأن الصدق يهدي إلى البر والتقوي، ويهدي إلى الجنة، حيث إنّ أهمّ وسيلة مؤثّرة في جذب الناس هو الصدق، وأخطر وسيلة لهدم العلاقات الاجتماعية وتخريب أواصر المودّة بين الأفراد هو الكذب، والأمر الآخر هو أنّ الصدق يجلب لصاحبه شخصية اجتماعية كبيرة في حين أنّ الكذب يتسبب في فضيحته وابعاد الناس عنه، والمسلم الصادق يعيش حياة العزّة والكرامة دائماً أمّا الكاذب فيعيش حالة مليئة بالخوف والضياع.

[1] رواه مسلم (4/ 2013).

الصدق هو واحد من الصفات الجيدة، والسلوك الصادق يعني السلوك الخالي من الغش والخداع ويخلو من جميع أنواع دوافع الشر، ويقال: "الصدق هو أفضل سياسة"؛ لأنه إذا كنا صادقين مع الأشخاص الآخرين سيعود ذلك علينا بالفائدة لأنهم سيعطون قيمة لتعاملاتنا معهم.

يشير الصدق إلى وجود طابع أخلاقي رفيع، وصفات إيجابية فاضلة مثل النزاهة والصدق والتسامح، بما في ذلك صراحة السلوك وغياب الكذب، والغش والسرقة، ويعتبر الشخص الصادق شخص جدير بالثقة وأهلاً لها.

الصدق يعتبر فضيلة، ومنزلة القوم الأعظم، وهو الذي ينشأ في جميع منازل السالكين، ومدارج العابدين، **يقول ابن القيم** رضي الله عنه: "وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم، الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله عز وجل في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أراده وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت على الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال وهو أساس بناء الدين وعمود قسطاط اليقين ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين ومن مساكنهم في الجنات تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين كما كان من قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين"[1]

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 257)

ويقول صاحب المدارج ﷺ: "وأيضاً فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يطيقه إلا أصحاب العزائم فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل لحملة الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلاً البتة، فهو حامل له في أي موضع اتفق، فلا تعب ولا مشقة ولا كلفة فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله"[1]

الصدق من الأخلاق الحميدة التي عنى بها الإسلام ورغب العباد فيها لما لها من أثر في بناء الأمة وتقوية أركانها فهو كلمة طيبة ثابتة راسخة آثارها عظيمة وصداها يملأ الآفاق من اتصف بالصدق قوي وعلا ومن حاد عنه صغر وخزي.

الصدق من أجَلِّ الأخلاق وأعظمها، وهو منبع كثير من الفضائل الخلقية حيث يتشعب منه الأمانة والعفة والوفاء والشجاعة وغيرها، وهو غير قاصر على صدق القول بل يشمل صدق الفعل والحال، كما **قال المحاسبي**: "الصدق في ثلاثة أشياء لا يتم إلا بها صدق القلب بالإيمان تحقيقاً، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام"[2]، **قال ابن القيّم** ﷺ: "والصّدق ثلاثة: قول وعمل وحال، فالصّدق في الأقوال: استواء اللّسان على الأقوال كاستواء السّنبلة على ساقها، والصّدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرّأس على الجسد، والصّدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطّاقة، فبذلك يكون العبد من الّذين جاءوا بالصّدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صدّيقيّته"[3] والصدق له مكانة عظيمة في الإسلام، هو الخُلق الذي اتصف به الرسول ﷺ قبل بعثته حتى لُقِّب

[1] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 264).
[2] رسالة المسترشدين للمحاسبي ص 170.
[3] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 258).

بالصادق الأمين، وقد أوضح ﷺ آثار كل من الصدق والكذب النفسية فقال ﷺ: "الصدق طمأنينة والكذب ريبة"[1]، فالصادق مطمئن النفس منشرح الصدر عالم بأنه أخبر بالحق ونطق بالصدق فلا يخشى أن ينكشف شيء على خلاف ما قاله، وعنده توافق بين ظاهره وباطنه فلا تناقض ولا تعارض، بينما الكذب يُبقي صاحبه في شك وحيرة واضطراب فلا هو مطمئن ولا متوافق مع نفسه؛ لأنه يعلم أنه قال أو فعل خلاف الحق، ولا هو مرتاح في تعامله مع الآخرين، لخوفه أن ينكشف أو يفتضح أمره.

الصدق هو مِفتاح كل خير، قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ التوبة: ١١٩

ما أعظمَ قدرَ الصدقِ! ففيه تتعلق سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شرهما، فما أنجى اللهُ ﷻ مَن أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب، وقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين.

فالصدق يهدي إلى العمل الصالح الموصل للجنة، وتَحرِّي الصدق وقصدُه والاعتناء به في كل عملٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، للخالق أو المخلوق، فيه ضرر على الغير أو لا ضرر فيه يرفع صاحبه إلى مقام الصديقين، فيكتبه الله ﷿ في عدادهم، فينال بصدقه وتحريه للصدق منزلة الصديقين وثوابهم، ويعرف في ذلك في الملأ الأعلى، ويلقي ذلك في قلوب الناس وألسنتهم، ويوضع له القبول في الأرض.

[1] مسند أحمد (3/ 252)، سنن الترمذي (4/ 668).

"ومن فوائد الصدق أنه طريق الأبرار إلى الجنة، والصادقون هم أحباب الله ﷻ المقربون، ومدح الله ﷻ أنبياءه عليهم السلام وخلاصه بأنهم مصدقون وصادقون ويوم القيامة ينفعهم صدقهم، والصادقون يحبهم الناس ويثقون بهم ويأتمنونهم في سائر معاملاتهم، والصادق يعتز بنفسه ويرفع نفسه بين أفراد مجتمعه، والصدق يرفع الأعمال ويعلي شأنها، والصدق دليل القوة وسمة الثقة بالنفس، والصدق منجاة والكذب مهواة، والصدق في الحديث يجعله مؤثراً في القلوب، والصادق محشور مع النبيين والشهداء والصالحين"[1]

فلنصدق مع الله ﷻ ومع الناس في القول والعمل؛ فالعبرة ليست بالعمل وحده، إنما بما يقرُّ في القلب، لا بحصول العمل أو كثرته؛ فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: أن النبي ﷺ قال: "من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه"[2]

عليكم بالصدق فإن الصدق طريق إلى كل خير، طريق إلى الفوز والفلاح، طريق إلى الأمن والمحبة والاستقرار والنماء، طريق إلى السعادة في الدارين

---

[1] نظرة النعيم (6/ 2516).
[2] رواه مسلم (3/ 1517).

النصيحة الرابعة والأربعون
أحسن كما أحسن إليك

ما زالت الشريعةُ الإسلاميةُ توصي المسلمين بالإحسان من خلال النص الشرعي في الكتاب والسنة النبوية الشريفة؛ فالإحسانُ ليس مجرد كلمة، بل قول، وعمل، وجهاد، وتَضحية، وبَذل، وتَنازل، وكرمُ أخلاق، وهو كذلك أعلى مَراتب القُرب من الله ﷻ.

الإحسان هو أن يَعبد المسلم خالقهُ ﷯؛ بحيث تكون عبادتهُ على وجه الحضور مع استشعار مُراقبة الله ﷻ، فيَشعر وكأنّه يرى الله ﷻ ويُراقبه، ويَتيّقن أنَّ الله ﷻ مُطّلِعٌ عليه، وناظرٌ إليه؛ ممّا يدفع المسلم إلى دوام طاعة الله ﷻ، ويدفعه كذلك لزيادة التقرّب إلى الله ﷯، وهو رادعٌ قويٌ عن المعاصي.

الإحسان هو العبادات والأعمال التي يَتقرّب بها المسلم إلى الله ﷻ من النوافل التي لم يفرضها الله ﷯ على المسلم؛ فاعتبر العلماء أن التزام النوافل يُعتبر من الإحسان، **قال الطبري**: "أنّ الإحسان هو العمل بما لَم يَفرضه الله ﷻ من الأعمال، إنّما هي نوافل تقرّبوا بها إلى الله ﷻ طلباً لمرضاته وهُروباً من عقابه"[1]

لقد خلَق الله ﷯ السماوات والأرضِين وما فيهما لغاية سامية، وحكمة عظيمة، وجعل الحياة والموت ابتلاء للإنسان بإحسان عمله وصدقِ تقربه إلى الله ﷻ؛ فسخّر الحياة والموت ليَبتلي الناس أيُّهم أحسَنُ عملاً، قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ

---

[1] تفسير الطبري (8/ 665).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ هود: ٧ ، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ الكهف: ٧، وقال ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ الملك: ٢، حتى يَسير المؤمنُ في درب الإحسان في جميع ما يَصدر عنه من أعمالٍ، وأقوالٍ، وتصرّفات؛ فإنَّ عليه معرفة الله ﷻ حق المعرفة، وعليه كذلك مراقبته ﷻ في كلّ الأحوال، وأن يَتيقّن بأنّ الله ﷻ مُطّلعٌ عليه، وناظرٌ إليه، وأنّ الله ﷻ على كلّ شيء رقيبٌ شهيد؛ لا يغيب عن علمه مِثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، فيَسمو بإحسان العمل وتَعظيم الله ﷻ كأنَه يراه، ويَلتزم أوامر الله ﷻ، ويَجتنب نواهيه، ويَبتعد عن كلِّ ما يُغضبه من آثامٍ، ومعاصي؛ استشعاراً لمراقبة الله ﷻ له في جميع أعماله، وحركاته، وسكناته.

"إنّ للإحسان مقامين أوردهما **ابن رجب**:

أولاً: مَقامُ الإخلاص: وهو اجتهاد المؤمن في استحضار رؤية الله ﷻ له، واطِّلاعه عليه، وقُربه منه؛ فالمؤمن إذا استحضر رؤية الله ﷻ له في جميع عمله، وعَمِل بناءً عليها، فهو مُخلصٌ لله ﷻ؛ لأنَّ استحضار المؤمن رؤية الله ﷻ له في عمله، سيمنعه من الالتفات إلى أي أمرٍ، أو أي شيءٍ غير مرضاة الله ﷻ، وهذا هو مَقام الإخلاص في الإحسان.

ثانياً: مَقام المشاهدة: وهو عَملُ المؤمن على مقتضى رُؤيته، ومُشاهدته لله ﷻ بقلبه، وتَحقّق مُشاهدة المؤمن لله ﷻ بالمشاهدة القلبيّة؛ بأن يَتنوّر قلبه بالإيمان،

وتَنوّر بصيرته بالعرفان، فإذا تَحققت هذه الرؤية القلبية، فقد أدرك المؤمن بهذا المِقام مَقام الإحسان وحقيقته"[1]

يُعتبر الإحسان في الدين الإسلاميّ خلقاً نبيلاً لمن يتحلّى به، حيث جعله في المرتبة الثالثة بعد الإسلام والإيمان في مراتب الدين الإسلاميّ، أمرنا الله ﷻ بالتحلّي بأخلاق جميلة كالعدل وعدم الشرك بالله ﷻ، وإعطاء كلّ صاحب حقٍّ حقه، والإحسان في عبادته ﷻ وتأدية فرائضه، وفي الأقوال والأفعال.

الإحسان يعني إتقان العمل وتأديته بأكمل وجه، وفي سنّة نبينا محمّد ﷺ عُرّف الإحسان على أنّه عبادة الله ﷻ كأنّك تراه، وإن لم تكن تراه فإنّه يراك، قال ﷻ: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨ ﴾ آل عمران: ١٤٨، في هذه الآية الكريمة يتبيّن لنا عِظم مكانة الإحسان في الإسلام، وأنّ الله ﷻ يحب المحسنين، ولهم ثوابٌ في الحياة الدنيا وثوابٌ في الآخرة، فهنيئاً للمحسنين، يكفيهم حبّ الله ﷻ لهم.

ما أجمل الإحسان عندما يزيّن كلّ عملٍ نقوم به سواءً في تعاملنا مع الله ﷻ عند تأدية فرائضه وحقّه في العبادة، أو في معاملاتنا مع الإنسان والحيوان والنبات، فالإحسان من أعلى منازل العبودية وأفضلها، وجزائه عظيم، ويبيّن الله ﷻ أنّ جزاء الإحسان هو الإحسان، قال ﷻ: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠ ﴾ الرحمن: ٦٠، ويوم القيامة يجازي الله ﷻ المحسنين بالجنة والنظر إلى إليه ﷻ وهذا أعظم الجزاء.

---

[1] جامع العلوم والحكم لابن رجب (1/ 132).

الإحسان في عبادة الله ﷻ تكون بعبادة الله ﷻ كأننا نراه، أو عبادته وطاعته كأننا نراه، **والإحسان في التعامل مع الوالدين**: يكون ببرّ الوالدان وطاعتهما، وعدم التأفّف بوجههما، ومعاملتهما برحمةٍ عند كبرهما، **والإحسان لليتامى والمساكين**: من مظاهر الإحسان ليتامى والمساكين العمل على تربيتهم، والمحافظة على حقوقهم، ومدّ يد العون لهم في كلّ الأوقات، والبر بهم، فالإحسان للمسكين واليتيم تذهب قسوة القلب لقوله ﷺ: "امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين"[1]، **والإحسان في التعاملات التجارية**: أمرنا الله ﷻ بالإحسان في المعاملات التجاريّة، فهي طريق للسعادة والنجاة، كاستيفاء الثمن فمن الإحسان المسامحة، أو الإمهال، والتيسير، أو التسهيل في طلب الدين، وسلامة رأس المال، **والإحسان في الكلام**: يكون بالكلام الحسن والكلمة الطيّبة، لقوله ﷻ: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣ ﴾ الإسراء: ٥٣، **والإحسان في التعامل مع الحيوان**: حثّ الدين الإسلامي وسائر الأديان على الاهتمام بالحيوان والرفق به، وإطعامه وعدم تعذيبه، وعدم تحميله فوق طاقته من عمل.

والإحسان ذروة الأعمال، وهو أن تقدم الفعل من غير عوض سابق، بل يساء إليك ولا يسعك إلا أن تقدم الإحسان، كما فعل يوسف عليه السلام، قال ﷻ: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِى سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٌ

[1] مسند أحمد (14/ 558).

﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ يوسف: ٤٦ – ٤٩، فعاملهم بالإحسان فلم يعبر لهم الرؤيا فقط بل أعطاهم الحل معه، قال ﷻ:

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ٤٧﴾

والإحسان خير مكانة يتبوأها العبد؛ لأنه إن أساء وسعه بعده الإيمان ثم الإسلام، أما من يعيشون على الحد الأدنى للإسلام فهو مع النقص مهدد بكفر الاعتقاد أو كفر النعمة، **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "جعل النبي ﷺ الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليه الإسلام، فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم، وليس كل مؤمن محسناً، ولا كل مسلم مؤمناً."[1]، ثم قال: "وأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإيمان، والإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أصحابه من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين"[2]

وخلق الإحسان يتسع ليشمل القول والعمل والعبادات والمعاملات، فهو إكسير الحياة الذي يحيلها طيبة متآلفة، لذلك جعل الله ﷻ رحمته ومحبته جائزة المحسنين،

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (7/ 7).
[2] مجموع الفتاوي لابن تيمية (7/ 10).

قال ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ آل عمران: ١٣٤، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾ الأعراف: ٥٦

إن الإحسان هو الأمارة الدالة على الفوز والنجاة، فمن كان من أهل السعادة، عمل عمل المحسنين، ومن كان من أهل الشقاء عمل عمل المسيئين.

فالإحسان طريقك وهدفك ومحل كدك ونصبك، عن أبي سلمة عن معاذ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أوصني. قال: "اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر، وإذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية"[1]

الإحسان خلق عظيم وأدب رفيع من عاش في ظلاله فإنه يتبوأ مرتبة سامقة تعلو مجرد الإسلام وترتقي مستوى الإيمان لتتربع على عرش الأخلاق الحميدة التي دعا إليها إسلامنا العظيم فينال بذلك مرتبة الإحسان، فالإحسان حياة بأسمى معاني الأخلاق، وأفعال دقيقة تُسطر بالإتقان، وتفكير بأرقى صور الإبداع، بل هو منهاج حياة للمسلم يحوي في طياته الكثير من الأخلاق الحميدة والتصرفات النبيلة التي نبحث عنها وننشد الصعاب للوصول إليها، **يقول ابن القيم** رضي الله عنه: "منزلة الإحسان هي لب الإيمان وروحه وكماله"[2]؛ لأجل ذلك أوجبه الله ﷻ على كل مسلم ليتحلى به خلقاً وأدباً ومنهاجاً، قال ﷺ: "إنَّ الله كتب الإحْسَان على كلِّ شيء"[3]

[1] المعجم الكبير للطبراني (20/ 175).
[2] مدارج السالكين لابن القيم (2/ 429).
[3] مسند أحمد (28/ 361)، رواه مسلم (3/ 1548)، سنن ابن ماجه (2/ 1058)، سنن الترمذي (4/ 23).

إنَّ غايةَ الإسلام الكبرى وتشريعاتِهِ العظمى هي الإحسانُ إلى النَّفس والإحسان إلى الخلق، فبهذا الإحسان إلى النَّفس والإحسان إلى الخلق تكون منازلُ النّاس عند ربهم ﷻ في الدّنيا والآخرة قُربًا وبُعدًا، وبهذا الإحسان تكون منزلة المسلم عند الخَلق قَبولًا ونُفورًا، ولكون المأمورات والفرائض والمحرّمات والمنهيّات كلها ترجع إلى الإحسان، وإذا كان جوهر صدق الأعمال هو إخلاص النية، فإن أعلى مراتب الدين هو الإحسان، وليس ثمة مسيرة طويلة بين الإخلاص والإحسان؛ فالمؤمن القادر على إخلاص نيته لله ﷻ وتجديدها مع كل عملٍ يقوم به هو إنسانٌ قادرٌ على الوصول إلى مرتبة الإحسان التي ليس لها جزاءً إلا جنة ربّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والطريق إلى الإحسان يبدأ بالرغبة الصميمة في الامتثال لأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتجنب نواهيه واستشعار حب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله ﷺ في القلب، كأن يكون كل عمل وكل حركة وكل سكون في سبيل الله ﷻ؛ وهو ما يجلب حُبّ الله ﷻ ورضاه؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ ﴾ البقرة: ١٩٥

والإحسان الإلهي لا ينقطع ولا يتوقف فكل مُيسّر لما خلق له، والأرض والسماء والبر والبحر لآيات للمؤمنين ممن يعملون بصائرهم ويتأملون بديع صنع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتدبيره؛ فنعم الله ﷻ لا تعد ولا تحصى وإحسانه أكبر مما يمكن حصره في خلق أو تدبير؛ فالقلب ينبض دون تدخل منا وحركة التنفس من شهيق وزفير دائبة حتى في أثناء النوم، وتعاقب الليل والنهار آيةً كبرى وإعجازٌ عظيم إلى غير ذلك من المنح والهبات التي سخرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده، ومع كل تلك العطايا، أمرنا الله ﷻ بأن نسلك سبيل الإحسان في جميع مناحي الحياة لنحظى بثواب هذا الخلق العظيم

شبكة الألوكة

الذي يرتضيه الله ﷻ للمؤمنين؛ قال ﷻ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ٧٧﴾ القصص: ٧٧

الإحسان خلق عظيم وعمل جليل من أعمال البر والخير، وخلق من أخلاق المقربين، وسمة من سمات العابدين، وخصلة من خصال الفائزين، فيه خير للعباد، ومنفعة للبلاد، وسبيل إلى تماسك المجتمع، وتقدم الأمم، به تقبل الأعمال وتحسن الأحوال.

فمقام الإحسان مقام رفيع؛ فهو غاية مراد الطالبين، ومنتهى قصد السالكين؛ أن تعبد الله ﷻ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

الإحسان خلق جميل؛ هو دليل على النبل، واعتراف بالفضل، وعرفان للجميل، وقيام بالواجب، واحترام للمنعم، ينبئ عن الصفاء، وينطق بالوفاء، ويترجم عن السخاء؛ بالإحسان يشُترى الحب، ويُخطب الودّ، وتكسب النفوس، ويُهيمن على القلوب، وتستعبد الأفئدة، الإحسان عطاء بلا حدود، وبذل بلا تردد، وإنعام دونما منّ، وإكرام لا يلحقه أذى، فالمحسن لا يؤذي أحداً، فإن آذاه أحد عفا وصبر وصفح وغفر، وإذا عامل الناس عاملهم بالفضل والإحسان، فيعطيهم وإن منعوه، ويَصِلهم وإن قطعوه، ويمنّ عليهم وإن حرَموه، وإنما كان كذلك لأنه كان بالله ﷻ غنياً، وبه راضياً، ومنه قريباً، ولديه حبيباً.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فمَن أحسن مع الله ﷻ أحسن مع الناس، ووجد في قلبه سهولة الإحسان إليهم، قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ - ٣٥

الإحسان من أفضل منازل العبودية؛ بل هو حقيقتها ولبها وروحها وأساسها، وهو أن تعبد الله ﷻ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فهو لب الإيمان، وروح الإسلام، وكمال الشريعة، وهو يدخل في سائر الأقوال والأفعال والأحوال، وأعظم درجات الإحسانِ، الإحسانُ مع الله ﷻ، ثم إحسان المرء مع نفسه وأهله وسائر المخلوقات، حتى يشمل البهائم والعجماوات.

الإحسان سبب في إحسان الله ﷻ إلى عبده؛ قال ﷻ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الرحمن: ٦٠، فمَن أحسنَ عمله أحسن الله ﷻ جزاءه، ومن أحسن إلى العباد أحسن إليه رب العباد ﷻ.

أحسن فإن الإحسان طريق إلى عظيم الأجر وجزيل الثواب؛ قال ﷻ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١٢، وقال ﷻ: ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ هود: ١١٥، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الكهف: ٣٠

إن الإحسان هو قمة كلِّ الطاعات والقرُبات والخيرات، وذروةُ الدين والتدين، وروح قوة كل إيجابية وعطاء، فالشخصيةُ المحسنة زادت عما هو مطلوب من مسؤولياتها، فاتسعت دائرة أعمالها، وانتشر فضلُها وخيرها؛ ولذلك كان جزاؤها من جنس أعمالها، قال ﷻ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ الرحمن: ٦٠

إن الإحسان إنما يتكون بالإحسان الحقيقيِّ، الذي هو حياة تتسم بإشراقةِ عطاء، تمنح الصلاح لكل جوانب الحياة؛ للأفراد وللأوطان فتنهض بها وترتقي، وذلك عندما تحسن قدرات الناس إتقانها للأعمال والإنجازات، وتقوم بمهماتها، وتتحرَّك القلوب والأرواح والجوارح لطاعة ربِّها ﷯ بكل حب وشوق، وخوفٍ ورجاء، وهي تُحس بأن الله ﷯ مطَّلع على ما تفعل، فهو عبادة ومراقبة وتحسين للأحوال المضطربة، التي تحول بيننا وبين السعادة الحقيقية.

إن الإحسان هو عماد الإيمان واليقين، وبوابةُ السعادة الأبدية، وبه يتلقى المؤمن همومَ الحياة بنفس مطمئنَّةٍ، وإيمان راسخ، وعندما يرى الله ﷯ هذا الثباتَ المتواصل من المحسنين، فإنه يشملُهم برعايته وعنايته ومحبته، فقال ﷻ: ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ البقرة: ١٩٥، كما وعد الله ﷯ المحسنين بالبركة والزيادة، فقال ﷻ: ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ البقرة: ٥٨

فحريٌّ بكل مسلم أن يسعى لدخول جنة الإحسان، وهي جنة لا يملأُ عرضَها المشارقُ والمغارب، أما بناؤها فلَبِنَةٌ من حب ولبنةٌ من إخلاص، وملاطُها القلب

الخاشع والعمل الصالح، ونورُها اليقين الكامل، ومنها تتفجر أنهار الطمأنينة والسعادة، وهي الفردوس الأرضيُّ الأعلى.

"ومن فوائد الإحسان أنه له ثمرة عظيمة تتجلى في تماسك بنيان المجتمع وحمايته من الخراب والتهلكة ووقايته من الآفات الاجتماعية الناجمة عن الخلل الاقتصادي، والإحسان هو المقياس الذي يقاس به نجاح الإنسان في علاقته بالحياة وهي علاقة ابتلاء، والمحسن يكون في معية الله ﷻ ومن كان الله ﷻ معه فإنه لا يخاف بأساً ولا رهقاً، والمحسن يكتسب بإحسانه محبة الله ﷻ، وإذا أحب الله ﷻ العبد جعله محبوباً من الناس وعلى ذلك فالمحسنون أحباء للناس يلتقون حولهم ويدافعون عنهم إذا أحدق بهم الخطر، وللمحسنين أجر عظيم في الآخرة حيث يكونون في مأمن من الخوف والحزن، ومن ثمرات الإحسان التمكين في الأرض، والمحسن قريب من الله ﷻ، وللمحسن البشرى بخيري الدنيا والآخرة، والإحسان هو وسيلة المجتمع للرقي والتقدم وإذا كان صنوه أي العدل وسيلة لحفظ النوع البشري فإن الإحسان هو وسيلة تقدمه ورقيه لأنه يؤدي إلى توثيق الروابط وتوفير التعاون، والإحسان وسيلة لحصول البركة في العمر والمال والأهل، والإحسان وسيلة لاستشعار الخشية والخوف من الله ﷻ كما أنه وسيلة لرجاء رحمته ﷻ، والإحسان وسيلة لإزالة ما في النفوس من الكدر وسوء الفهم وسوء الظن ونحو ذلك، والإحسان وسيلة لمساعدة الإنسان على ترك العجب بالنفس لما في الإحسان من نية صادقة، والإحسان طريق ييسر لصاحبه طريق العلم ويفجر فيه ينابيع الحكمة، والدفع بالحسنة وهي إحدى صور الإحسان يقضي على العداوات بين الناس ويبدلها صداقة حميمة ومودة رحيمة وتنطفئ بذلك نار الفتن وتنتهي أسباب الصراعات أما الدفع بالسيئة أي مقابلة

السيئة بمثلها فإنه يؤدي إلى تدهور العلاقات وإشعال نيران الفتن وتفاقم أسباب الصرع ويهبط بالنوع البشري إلى حضيض التخلف ويعرض بقاءه لخطر الفناء، وإذا اقترن إسلام الوجه لله عز وجل بالإحسان فإن ذلك يثمر الاستمساك بالعروة الوثقى التي يرجى معها خير الدنيا والآخرة أي أن المحسن يحتاط لنفسه بأن يستمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، ولبعض أنواع الإحسان ثمار خاصة تعود على المحسن بالخير العميم في الدنيا والآخرة ومنها إحسان المرء وضوءه وخشوعه وركوعه يكفر السيئات الماضية ويستمر التكفير ما استمر الإحسان، وإحسان المرء إلى جاره علامة صادقة على حسن إسلامه، وإحسان المرء في تربية بناته والسعي على رزقهن يجعل من هذه البنات ستراً من النار، وفي الإحسان إلى النساء في الكسوة والطعام وما أشبه قيام بحقهن يثمر الترابط الأسري ويحقق الاستقرار العائلي"[1]

فأصلحوا قلوبكم، وأرُوا الله عز وجل من أنفسكم خيرًا، واحمِلوا أنفسكم على طاعة الله تبارك وتعالى ما دمتم في زمن المهلة، فإن العمر قصير والدنيا زائلة، وإنكم موقوفون بين يدي الله عز وجل، ومسئولون عن أعمالكم، ومجزيّون عليها، الحسنة بعشر أمثالها أو يتفضل الله تبارك وتعالى عليكم بالزيادة، والسيئة بمثلها أو يتفضل الله تبارك وتعالى بالعفو، فيا خسارةَ مَن باع أخراه بدنياه، ويا حسرة مَن وجد صُحف أعماله ليس فيها عمل صالح، ووجد عمله السيئ مكتوبًا بين يديه لم يُترك منه شيء، قال تبارك وتعالى:

﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

[1] نظرة النعيم (2/ 90 – 91).

ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ الكهف: ٤٩

فأحسِنوا إلى أنفسكم وإلى خلق الله ﷻ، بما أمركم به من الطاعات، وبترك ما نهاكم عنه من المحرّمات، قال ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

النصيحة الخامسة والأربعون
ولا تنسوا الفضل بينكم

الاعتراف بالفضل خلق رفيع تعرفه النفوس الكريمة، وتنكره الطبائع المتمردة اللئيمة، فهو لون بهي من ألوان الحياة الهائنة المستقرة، من دونه ستظل أيامنا وليالينا كلها سوداء قاتمة مكفهرة، فلا مكان فيه للأخضر والأزرق والأحمر، فالكل فيها شيء واحد، لونه واحد، وشكله واحد، وطعمه واحد، يتساوى فيه الأبيض بالأسود، والشجاع بالجبان، والجواد بالبخيل، وبناء عليه فلا قيمة إذن للجمال، ولا معنى حينئذ للجلال، ولا فائدة في معرفة معادن الرجال!

إن الاعتراف بالفضل هو الإقرار بفضل من يصدر منه الفضل دون جحود أو نسيان، جحود يغمط الحق، أو نسيان يستر الإحسان، ويكون الاعتراف بالفضل قلبًا وقالبًا، فهو أشبه بوردة سقيت بماء العيون، وتفنن خادمها في العناية بها، ثم أهداها لحبيب له، فازدانت الوردة وتعطرت وتجملت أملًا في شكر جميل صاحب الصنائع!

الاعتراف بالفضل هو معرفة صاحب الفضل في الأولى والآخرة، وهو المولى ﷻ فهو المتن على الجميع، مسلمهم وكافرهم بما أسدى من نعم، وأولى من كرم، فنعمه لا تعد ولا تحصى، و كرمه لا يجحد ولا ينسى، قال ﷻ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤ ﴾ إبراهيم: ٣٤، والله ﷻ يدخل عباده الصالحين دار المقامة، ويسبغ عليهم من الخلد والكرامة، وهذا تفضل منه وكرم، فهو ذو الآلاء والنعم، قال ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا

مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ
فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ
مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ فاطر: ٣٢ - ٣٥

الاعتراف بالفضل هو سمة رجال الآخرة ممن يرجون اليوم الموعود، فهم حقيقة أهل المروءة والجود، بخلاف ما يقوم به أضدادهم من الأعراض والصدود، وهم دعاة النكران و الجحود، من انكار للنعمة، وتناسٍ للفضل، ألم يقل الله ﷻ عنهم:

﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴿٨٣﴾ ﴾ النحل: ٨٣، ولا أبشع من أن يتنكر الإنسان لعطاء خالق الأكوان ﷻ.

الاعتراف بالفضل هذه السجية الكريمة، وعُرف الفضل بالمكانة الشامخة ونفاسة القيمة، وفُهمت العلائق التي تجمع المتفضل والمتفضل عليه بالنوايا السليمة.

بالاعتراف بالفضل يسمو المسلم إلى درجات الإحسان، وكتوضيح مهم، لأجل الفهم الملم، فإن الاعتراف بالفضل يبدأ من شهود النعمة وذكرها، ورؤية التقصير في حق شكرها، فيستحي المسلم من نفسه ويخجل، فيعترف أولًا بنعم الله ﷿ التي لا حد لها ولا مد، قال ﷻ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴿٥٣﴾ ﴾ النحل: ٥٣، ثم يتجه العبد بعدها إلى شكر ربه ﷻ بقلبه ولسانه وجوارحه، ولا ريب فالرب ﷿ هو المنعم الأول، ثم يشكر بعد ذلك من يستحق الشكر من البشر، إذ المؤمن

الحقيقي لا تبطره النعمة ولا تطغيه، بل هو عبد شكر من الطراز الأول، ويهش ويبش لمن أسدوا له معروفاً، ويحمد صنيعهم ما عاش في الدنيا ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴿٢٣٧﴾﴾ البقرة: ٢٣٧، **قال الطبري:** "ولا تغفلوا أيها الناس، الأخذ بالفضل بعضكم على بعض فتتركوه، ولكن ليتفضل الرجل المطلِّق زوجته قبل مسيسها فيكمل تمام صداقها إنْ كان لم يعطها جميعه، وإنْ كان ساق جميع ما كان فرض لها، فليتفضل عليها بالعفو عمَّا يجب له، ويجوز له الرجوع به عليها، وذلك نصفه، فإن شحَّ الرجل بذلك وأبى إلا الرجوع بنصفه عليها، فتتفضل المرأة المطلقة عليه بردِّ جميعه عليه إنْ كانت قد قبضته منه، وإنْ لم تكن قبضته فلتعف عن جميعه، فإنْ هما لم يفعلا ذلك وشحَّا وتركا ما ندبهما الله ﷻ إليه من أخذ أحدهما على صاحبه بالفضل فلها نصف ما كان فرض لها في عقد النكاح وله نصفه"[1]، **ويقول السعدي:** "الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو أعلى درجات المعاملة؛ لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو: أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم"[2]، وقال النبي ﷺ: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله"[3]

[1] تفسير الطبري (4/ 338 -339).
[2] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 105.
[3] سنن الترمذي (4/ 339).

بالاعتراف بالفضل يتشجع كل ذي فضل، فيستمر عطاؤه، ويزداد نماؤه، وتتواصل بذلك حركة المتطوعين والمبدعين والمنتجين في حياتنا، فالشكر لهم أعظم محرك ودافع، وغمطهم حقهم قد يكون أكبر مثبط ومانع!

ومن الأخلاق الفاضلة النبيلة الاعتراف بالفضل لأهله، والاعتراف بالفضل ضد الجحود والنكران، وهو أنْ تُقرَّ بفضل من يصدر عنه الفضل، ولا شك أنَّ الله ﷻ هو صاحب الفضل في الأولى والآخرة، إذ هو المتفضل على أهل الدنيا مسلمهم وكافرهم بنعمه التي لا تحصى، وفي الآخرة يُدخل عباده الصالحين الجنة ويورثهم إيَّاها بفضله وكرمه وعفوه ورحمته سبحانه وتعالى، وللاعتراف بالفضل منزلةٌ عظيمةٌ لما يعود منه من خيرٍ على المجتمع وتآلف أفراده، وتشجيع ذوي الفضل أنْ يستمروا في تفضُّلهم الذي يلقى الاعتراف من الآخرين، والاعتراف بالفضل من الشكر الذي أمرنا رسول الله ﷺ به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله"[1]، ويُفهم من هذا الحديث أنَّ من يشكر الناس فإنما يشكر الله ﷻ أيضاً، والشكر لله ﷻ يزيد في النعمة ويورث الرضا.

قال أبو حاتم ابن حبان البستي: "الواجب على المرء أنْ يشكر النعمة، ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته، إنْ قدر بالضِّعف، وإلا فبالمثل، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده، مع بذل الجزاء له بالشكر وقوله له: جزاك الله خيراً، فمن قال له ذلك عند العدم فكأنه أبلغ في الثناء"[2]، ومن اهتم بإسداء المعروف إليك ولم يصبك منه نفعٌ فاشكره على اهتمامه.

[1] سنن الترمذي (4/ 339).
[2] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (1/ 266).

إنَّ الاعترافَ بفضلِ الآخرين ومواقفهم الجميلة الكريمة لخلقٌ إسلاميٌّ نبيل عزيز، فلا بدَّ أن تبقى القلوب نقية خالصة صافية، فالمؤمن لا يحقد، المؤمن لا يحمل في قلبه غلاً ولا ضغناء ولا شحناء على مسلم.

لقد عَلَّمَنا دِينُنا أن لا نَنْسى لأهل الفضل فضلهم، ولأهلِ المعروف معروفهم، ولأهل السَّعي سعيهم، هكذا هي الأخلاق الإسلامية المتكاملة الرَّاقية، بذل وعطاء من المحسن، ووفاء وعرفان من المحسن إليه، وهكذا هي الحياة في تكافل أبنائها، اسمع معي هذا الحديث النبوي الذي يغرس فينا قيماً كريمة وأخلاقاً سامية؛ يقول ﷺ: "ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا الله له حتى تروا أن قد كافأتموه"[1]، إذا لم تجد ما تكافؤ به من صنع معك معروفاً فلا أقل من أن تدعو له، وتشكره، هذا من حق المحسن على المحسَن إليه، أما بعض الناس اليوم فربما يأخذ منك عمرًا.. ولا يعوضك حتى بكلمة طيبة وردٍّ جميل.

إن الاعتراف بالفضل وحفظ الخيرات من شيم أهل الإيمان، **يقول الشافعي** رضي الله عنه: "الحر من راعى وداد لحظة، أو انتمى لمن علمه لفظه"[2]، **ويقول أبو حاتم**: "الحر لا يكفر النعمة، ولا يتسخط المصيبة، بل عند النعم يشكر، وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أوشك ألا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها، ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله عز وجل ولمن أسداها إليه"[3]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال: كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما

[1] صحيح ابن حبان (8/ 199).
[2] قيمة الزمن عند العلماء ص 7
[3] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (1/ 264).

خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: يا عائشة إنها كانت تأتينا زمان خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان"[1]

وحفظ ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فضله : "إن من أمنّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين باب في المسجد إلا سدّ إلا باب أبي بكر"[2]

وحفظ ﷺ للمطعم بن عدي عمله حين أجاره، فقال في شأن أسارى بدر: "لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له"[3]

فيا أهل المعروف والفضل اطردوا الشيطان من بينكم، ولا تعظموا خلافاتكم فتجعلوها عداوة وبغضاء، وتغافروا، ولا تسمحوا للجهال والدهماء أن يتطاولوا على أهل الفضل مهما اختلفتم معهم، واذكروا وداد اللحظات الكريمة، واعلموا أنكم في سفينة واحدة شئتم أو ابيتم، واستغفروا ربكم إن ربكم لغفور رحيم.

"ومن فوائد الاعتراف بالفضل أنه اعتراف بالمنعم والنعمة، وسبب من أسباب حفظ النعمة بل المزيد، ولا يكون باللسان فقط بل اللسان يعبر عما في الجنان وكذلك يكون بعمل الجوارح والأركان، وكثرة النعم من المنعم لا يمكن أن يؤدي الإنسان حقها وبالشكر يؤدي حقها، ويكب رضا الرب عز وجل ومحبته"[4]

نعم إنها قيم كريمة يجب أن نربي أولادنا عليها، يا من تبحث عن مفاتيح قلوب العباد ومحبتهم لك، رسول الله ﷺ يدلُّك على ثلاث مفاتيح:

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (1/ 62).
[2] رواه البخاري (5/ 4).
[3] رواه البخاري (4/ 91).
[4] نظرة النعيم (2/ 409).

الأول: إذا لقيت أخاك فبادر أنت بالسلام عليه وأنت مبتسماً، الثاني: نادي أخاك.. نادي زوجتك.. بأحب الأسماء إليهما، الثالث: إذا دخل عليك أحد وأنت في مجلس فوسع له وادعُه لجوارك، هذه الأشياء الثلاثة إذا فعلتها ملكت قلوب من صنعت إليهم ذلك.

جاء علي ﷺ ذات يوم ودخل على النبي ﷺ وأبو بكر ﷺ جالس عن يمين رسول الله ﷺ، فإذا بالصديق ﷺ يتنحى عن مكانه ويُجلس عليّاً ﷺ بينه وبين النبي ﷺ، وإذا بالحبيب ﷺ يتهلّل وجه فرحاً وسروراً ويقول لأبي بكر ﷺ: "لا يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلا أولُوا الفضل"[1]

[1] روح البيان (6/ 133).

النصيحة السادسة والأربعون

لا تغضب

إن الغضب عدو العقل، وهو له كالذئب للشاة قلَّ ما يتمكن منه إلا اغتاله، والغضب من الصفات التي ندر أن يسلم منه أحد بل تركه بالكلية صفة نقص لا كمال، والغضب ينسي الحرمات، ويدفن الحسنات، ويخلق للبريء جنايات.

إنها جملة أو قُلْ كلمتان قصيرتان، ولكن لا تحسبن الأمر هينًا وما نهى النبي ﷺ ذلك الرجلَ عنه أمراً يسيراً، بل إنه من الأهمية والخطورة بمكان، وذلك لأن الذي ينفذ هذه الوصية ينال عليها أجرًا عظيمًا، وهي الجنة، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: يا رسول الله، دُلني على عمل يدخلني الجنة، قال ﷺ: "لا تغضب، ولك الجنة"[1]

يا لها من كلمة، ولكن لا يطيق حملها إلا النفوس الكبار.

إن الغضب ثورة في النفس تهدر كالبركان الغاضب، تدمر كل شيء تأتي عليه، فلا عقلَ، ولا بصر ولا سمع يستجيب إذا تملّك الإنسانَ غضبُه، ولهذا كانت وصية النبي ﷺ بالتخلي عن الغضب تعني التحلي بالحلم والأدب.

قال الغزالي: "الأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها"[2]

---

[1] المعجم الأوسط للطبراني (3/ 25).

[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 172).

وقال المقدسي: "من أسباب الغضب الحسد، والحرص، فمتى كان العبد حريصاً على شيء، أعماه حرصه وأصمه، وغطى نور بصيرته التي يعرف بها مداخل الشيطان، وكذلك إذا كان حسوداً فيجد الشيطان حينئذ الفرصة، فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً أو فاحشاً."[1]

قال ابن عرفة: "الغضب من المخلوقين شيء يُداخل قلوبهم، ويكون منه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحقِ، وأَمّا غضب الله عز وجل، فهو إنكاره على من عصاه فيعاقبه"[2]

فالغضب نوعان:

الأول: الغضب المحمود:

وهو ما كان لله سبحانه وتعالى عندما تنتهك محارمه، وهذا النوع ثمرة من ثمرات الإيمان إذ أن الذي لا يغضب في هذا المحل ضعيف الإيمان، قال سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام بعد علمه باتخاذ قومه العجل: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ ﴾ الأعراف: ١٥٠، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك

---

[1] مختصر منهاج القاصدين ص 148.
[2] بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (4/ 135).

شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل"[1]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه، حب الرمان من الغضب، فقال: "بهذا أمرتم، أو لهذا خلقتم، تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم" فقال: عبد الله بن عمرو، ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ، ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه"[2]

الثاني: الغضب المذموم:

وهو ما كان في سبيل الباطل والشيطان كالحمية الجاهلية، والانتصار للنفس، أو لأمر من أمور الدنيا الزائلة، وهذه القصة توضح الفرق بين الغضب المحمود الذي لا يكون إلا لله عز وجل وبين الغضب المذموم الذي يكون من أجل الدنيا.

قال الغزالي: "أن رجلاً عابداً بلغه أن قوماً يعبدون شجرة فخرج لقطعها فقال له إبليس إن قطعتها عبدوا غيرها فارجع إلى عبادتك فقال لا بد من قطعها فقاتله فصرعه العابد فقال أنت رجل فقير فارجع إلى عبادتك وأجعل لك دينارين تحت رأسك كل ليلة ولو شاء الله لأرسل رسولاً يقطعها وما عليك إذا لم تعبدها أنت قال نعم فلما أصبح وجد دينارين في ثاني يوم لم يجد فخرج لقطعها فصرعه إبليس فقال له العابد كيف غلبتك أولاً ثم غلبتني ثانياً فقال لأن غضبك أولاً كان لله وثانياً للدينارين"[3]

---

[1] رواه مسلم (4/ 1814).
[2] سنن ابن ماجه (1/ 33).
[3] نزهة المجالس ومنتخب النفائس (1/ 4).

فالغضب هو ثوَرَانُ دم القلب لقصد الانتقام، **قال الجرجاني**: "الغضب تغير يحصل عند غليان دم القلب، ليحصل عنه التشفي للصَّدر"[1]، **وقال ابن رجب**: "هو غليانُ دم القلب، طلبًا لدفع المؤذي عند خشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل له منه الأذى بعد وقوعه"[2]

النبي ﷺ كان لا يغضب لنفسه قط، لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله عز وجل، النبي ﷺ ضرب وشج رأسه وكسرت رباعيته، وهو يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[3]، وهذا هو يوسف عليه السلام بعد الذي حدث من إخوته، وبعد ما عزموا على إبعاده عن أبيه، أو قتله، تخيلوا وبعد سنوات كثيرة التقى معهم قال لهم: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ﴾ يوسف: ٩٢، ولنتدبر هذا الموقف في غزوة أحد خالف الرماة أمر النبي ﷺ وقُتل في المعركة خيرة أصحاب النبي ﷺ، وبعد انتهاء المعركة، قام أبو سفيان رضي الله عنه وقال: أفي القوم محمد؟ فقال النبي ﷺ: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، وسأل عن ابن الخطاب، ثم قال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا، فلم يملك عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان رضي الله عنه: أُعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان رضي الله عنه: لنا العزى ولا عزة لكم، قال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ماذا نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو

[1] التعريفات للجرجاوي ص 162.
[2] جامع العلوم والحكم (1/ 410).
[3] رواه البخاري (9/ 16)، رواه مسلم (3/ 1417).

سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال"[1]، والآن لنتأمل متى قال لهم النبي ﷺ تكلموا، ومتى أمرهم ألا يجيبوه، لنتعلم أن متى نغضب، ولمن نغضب، لله ﷻ، أم لأنفسنا؟ وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ: "إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد"، فقالوا له إن النبي ﷺ قال تعوذ بالله من الشيطان، فقال وهل بي جنون؟"[2]

قال النووي: "وأما قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه هل ترى بي من جنون؟ فهو كلام من لم يفقه في دين الله سبحانه وتعالى ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالجنون ولم يعلم أن الغضب من نزعات الشيطان ولهذا يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله ويتكلم بالباطل ويفعل المذموم وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب، ثم قال ويحتمل أن هذا القائل.. كان من المنافقين أو من جفاة الأعراب"[3]

فالغضب شر كله فأمره خطير وخطره جسيم وعواقبه وخيمة فالغضب سبباً في قتل النفس التي حرم الله سبحانه وتعالى، والغضب من آثاره قطيعة الرحم التي من وصلها وصله الله سبحانه وتعالى ومن قطعها قطعه الله سبحانه وتعالى، والغضب سبب لعقوق الوالدين وقطع أواصل المحبة بين الناس، لذلك وصف لنا رسول الله ﷺ وسائل عدة لعلاج وتجنب عواقب الغضب ونذكر منها:

---

[1] رواه البخاري (5/ 94).
[2] رواه البخاري (4/ 124).
[3] شرح النووي على مسلم (16/ 163).

أولاً: الاستعاذة بالله عز وجل من الشيطان الرجيم، قال النبي ﷺ: "إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان ذهب عنه ما يجد"[1]

فذكر الله عز وجل والاستعانة به من أعظم الأمور لتجنب عواقب الغضب وآثاره، قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١

ثانياً: تغيير الحالة التي يكون عليها الغاضب أثناء الغضب، فإن كان قائماً جلس وإن كان جالساً اضطجع فإن تغيير الحالة يذهب الكثير من أثر الغضب وشدته.

فعن أبي الأسود رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "كان يسقي على حوض له، فجاء قوم فقال: أيكم يورد على أبي ذر ويحتسب شعرات من رأسه؟ فقال رجل: أنا، فجاء الرجل فأورد عليه الحوض فدقه، وكان أبو ذر قائماً فجلس، ثم اضطجع، فقيل له: يا أبا ذر، لم جلست، ثم اضطجعت؟ قال: فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: "إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع"[2]

ثالثاً: الصمت أثناء الغضب وعدم الانفعال، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: "علموا، ويسروا، ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت"[3]، ففائدة السكوت أنه يعينك على عدم التلفظ بالألفاظ الفاحشة والخطيرة التي يصعب علاجها.

---

[1] رواه البخاري (4/ 124).
[2] مسند أحمد (35/ 278)
[3] مسند أحمد (4/ 39)، الأدب المفرد للبخاري ص95.

رابعاً: أن يعلم الإنسان منا أن دفع الغضب يكون بالسيطرة على النفس وعدم الانجرار مع الانفعال، فعن أبي هريرة ﵁: أن رسول الله ﷺ قال: "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[1]

خامساً: تذكر وصية النبي ﷺ والتي ورد فيها عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصني؟ قال: "لا تغضب"، قال: قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال، فإذا الغضب يجمع الشر كله"[2]

سادساً: أن يعلم أن كظم الغيظ ودفعه من صفات المؤمنين المتقين، قال ﷻ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ الشورى: ٣٧

فإن الغضب من الصفات الذميمة التي وردت النصوص في ذمها والتحذير منها، فكم سبب من عداوات، وأحقاد وفرقة.

إن الغضب يجمع الشر كله، يغضب الرحمن ﷻ، ويرضي الشيطان، **قال الخطابي**: "لا تغضب": اجتنب أسباب الغضب، ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتّى النهي عنه، لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلّة"[3]

[1] رواه البخاري (8/ 28)، رواه مسلم (4/ 2014).
[2] مسند أحمد (38/ 236)، السنن الكبرى للبيهقي (10/ 180).
[3] فتح الباري لابن حجر (10/ 520).

شبكة الألوكة

وقال ابن التين: جمع ﷺ في قوله: "لا تغضب" خير الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يؤول إلى التقاطع، ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يُؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين"[1]، **وقال ابن القيِّم** رضي الله عنه: "دخل الناس النار من ثلاثة أبواب، باب شبهة أورثت شكًّا في دين الله عز وجل، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته سبحانه وتعالى، وباب غضب أورث العدوان على خلقه"[2]

علينا أن نسكت عند الغضب، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! ما يمنعني[3] من غضب الله عز وجل، قال: "لا تغضب"[4]

فمن أراد ألاّ يغضَب عليه ربُّه عز وجل، فلا يغضب على خلق الله سبحانه وتعالى، فإذا منعت غضبك وكففته، رفع عنك العذاب، وسُتِرت عيوبك، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من خزن لسانه ستر الله عورته، ومن كف غضبه كف الله عنه عذابه يوم القيامة، ومن اعتذر إلى الله عز وجل قبل عذره"[5]

"ومن مضار الغضب أنه يغضب الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى ويرضي الشيطان الرجيم، والصبر عليه أشد وأصعب من مجاهدة العدو، ويؤول إلى التقاطع وإفساد ذات البين، ويتولد منه الحقد والحسد وهذا نقص في العقل والدين، وكثيراً ما يعقبه الاعتذار والندم وقد يكون بعد فوات الأوان، ويجعل صاحبه لا يستفيد من الموعظة والعبرة، وقد يؤثر على البدن حتى يعمى البصر ويصم الآذان ويخرس اللسان ويعجز

---

1 فتح الباري لابن حجر (10/ 520).
2 الفوائد لابن القيم ص 58.
3 يمنعني: أي يحفظني
4 صحيح ابن حبان (1/ 531).
5 شعب الإيمان للبيهقي (10/ 541).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإنسان بل قد يموت الإنسان وتزهق نفسه بالكلية، ونفرة الخلق عنه وخوفهم من القرب منه"[1]

لنقف مع أنفسنا قبل أن يكون الغضب وسرعة الانفعال هو سمة من سماتنا، فلا نجد من يتعامل معنا بعد ذلك ونكون قد خسرنا أهلينا بسبب هذا الداء القلبي، فلنجدد النية، ونستحضر كيف كان النبي ﷺ يتعامل والصحابة ﷺ، وتذكر قول الله ﷻ: ﴿ وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾ آل عمران: ١٣٤

[1] نظرة النعيم (11/ 5097).

النصيحة السابعة والأربعون

لا تغش

يُعَدُّ الغِشُّ من الآفات المضِرَّة التي تَطالُ الجميع، فيتَّصِفُ الشخصُ الغشَّاشُ بالطَّمعِ فلا يَنظُرُ إلا للأطماعِ والمكاسبِ التي يُمكنُه أن يحصلَ عليها، دون أن يلتفتَ إلى ضحايا ذلك الغِشِّ، أو إلى المجتمَع الذي جنى عليه، ويُعتبَر الغِشّ من الكبائر، حيث دلَّت بعض النصوص الإيمائيّة والتصريحيّة على حُكم الغِشّ، قال ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ ﴾ الأنفال: ٢٧، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً فقال: "ما هذا يا صاحب الطعام؟" قال أصابته السماء يا رسول الله، قال: "أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غش فليس مني"[1]

الغشّ عبارة عن خلط الرديء بالجيّد، ويعتبر من الظواهر الاجتماعيّة غير السويّة حيث إنّه سلوك غير أخلاقي ومنحرف، هدفه تزييف الحقيقة من أجل كسب شيء معنويّ، أو ماديّ، أو من أجل إشباع الحاجات والرغبات، قال ﷻ: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ ﴾ المطففين: ١ – ٣، عرّفه ابن حجر الهيتمي: "أنّه الغشّ المحرّم أن يعلم ذو السلعة من نحو بائع أو مشترٍ فيها شيئاً لو اطلع عليه مريد أخذها ما أخذ

[1] رواه مسلم (1/ 99).

بذلك المقابل"[1]، **وعرفه الكفوي:** "الغشّ سواد القلب، وعبوس الوجه، ولذا يطلق الغشّ على الغل والحقد"[2]

نهى الإسلام عن الغش في جميع صوره ومظاهره، بل وتوعد الإسلام أهله بالويل والخسران، وكذلك حذّر النبي ﷺ من الغش وتوعّد فاعله، قال النبي ﷺ: "من غشنا فليس منا"[3]، ولقد ذمّ الله ﷻ الغش وأهله في القرآن وتوعدهم بالويل، ويُفهم ذلك من قوله ﷻ: ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣ ﴾ المطففين: ١ – ٣، فهذا وعيد شديد للذين يبخسون- ينقصون- المكيال والميزان، فكيف بحال من يسرقها ويختلسها ويبخس الناس أشياءهم؟ إنه أولى بالوعيد من مطففي المكيال والميزان، وقد حذّر نبي الله شُعيب عليه السلام قومه من بخس الناس أشياءهم والتطفيف في المكيال والميزان، قال ﷻ على لسان شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥ ﴾ الأعراف: ٨٥، **قال الطبري:** "قوله: ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾؛ أي: أتموا للناس حقوقهم بالكيل الذي تكيلون به،

[1] الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (1/ 396).
[2] الكليات للكفوي ص 672.
[3] رواه مسلم (1/ 99).

وبالوزن الذي تَزِنُون به، وقوله: ﴿ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾؛ أي: ولا تظلموا الناس حقوقَهم، ولا تنقصوهم إياها"[1]، **وقال ابن كثير**: "أهلك اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قومَ شعيبٍ ودمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان"[2]

فإننا في حاجة شديدة إلى عرض هذا الوعيد على القلوب لتحيا به الضمائر، فتراقب الله عَزَّ وَجَلَّ في أعمالها، دون أن يكون عليها رقيب من البشر.

الغش جريمةٌ منكرةٌ، وخلقٌ سافل، وكبيرةٌ من كبائر الذنوب، استصغرتْها النفوس المريضة والأهواء المضِلَّة، فرأتها بطولة وحذقًا، وكرمًا وإحسانًا، هذا المحرَّم الذي أعلن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البراءة من صاحبِه، وهو خيانة، ودناءة نفس، وضعفُ إيمان، وحرمان بركة، وطريقٌ إلى النَّار، وهو سبيل المنافقين، ومنهج المؤْتورين، لا يرتضيه مسلم، ولا يسلكه أَمين يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ ويراقبه.

ولهذا الخلُق الذَّميم مجالات كثيرة تدخُل كلُّها تحت من غشنا فليس منا، فمِنها: غشّ الرَّاعي لرعيَّته، سواء كان الإمامَ الأعظم ببُعده عن شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو ظلمِه للخلْق بهضم حقوقهم وعدم القيام بمصالحِهم أو نحو ذلك، أو كان الرَّاعي مديرًا أو مسؤُولاً أو أبًا؛ فعن معقل بن يسار المزني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّه قال: سمِعْتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة"[3]

---

[1] تفسير الطبري (10/ 311).
[2] تفسير ابن كثير (8/ 347).
[3] رواه مسلم (1/ 125).

اجتناب الغش وصية الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩ ﴾ الرحمن: ٩، **قال الطبري** في تفسير: ﴿ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ ؛ أي: ولا تنقُصوا الوزن إذا وزنتم للناس وتظلِموهم"[1]

قال النووي: "الغش ليس مِن أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله ﷻ بالرحمة بينهم، والتعاون على البر والتقوى، وجعَلهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وكالجسد الواحد، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[2]

ومن أسباب الغش:

1. ضعف الإيمان بالله ﷻ، وقلة الخوف منه.
2. جهل المسلم بحرمة الغش، وأنه من الكبائر.
3. عدم الإخلاص لله ﷻ في العمل.
4. الحرص على جمع الأموال من أي طريق كان.
5. عدم تطبيق الأحكام لمعاقبة مرتكبي جريمة الغش.
6. مرافقة أصدقاء السَّوء.
7. التربية غير السليمة، التي تتنافى مع الأخلاق والآداب الإسلامية.
8. عدم الرضا برزق الله ﷻ.
9. عدم تذكُّر الموت والدار الآخرة.

[1] تفسير الطبري (22/ 179).
[2] شرح النووي على مسلم (16/ 148)

إن الإسلام يحرم الغش والخداع بكل صوره، في بيعٍ وشراءٍ، وفي سائر أنواع المعاملات الإنسانية، والمسلم مطالب بالتزام الصدق في كل شؤونه، والنصيحة في الدين أغلى من كل كسبٍ؛ قال النبي ﷺ: "الدين النصيحة"[1]

قال الغزالي: "الغش حرامٌ في البيوع والصنائع جميعًا، ولا ينبغي أن يتهاونَ الصانع بعمله على وجهٍ لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه، بل ينبغي أن يُحسِن الصنعة ويُحكِمها، ثم يبين عيبها، إن كان فيها عيبٌ"[2]

وقال ابن حجر الهيتمي: "صور الغش التي يفعلها التجار والعطارون والصواغون الذين يبيعون الذهب والفضة، والحيَّاكون (الخياطون)، وسائر أرباب البضائع والمتاجر والحِرَف والصنائع - كله حرامٌ شديد التحريم، موجبٌ لصاحبه أنه فاسقٌ غشاشٌ خائنٌ، يأكل أموال الناس بالباطل، ويخادع اللهَ سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وما يخادع إلا نفسه؛ لأن عقاب ذلك ليس إلا عليه"[3]

ومن وسائل القضاء على الغش:

1. بتضرُّع المسلم إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء بأن يكفيَه بحلاله عن حرامه.
2. إخلاص العمل لله سبحانه وتعالى.
3. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر، بالحكمة والموعظة الحسنة.
4. تربية الفرد تربية سليمة، قائمة على الالتزام بأحكام الشرع الحنيف وآدابه.
5. تقوية الثقة بالله عز وجل، واستشعار مراقبته سبحانه وتعالى.
6. زيارة القبور، وتذكُّر الموت واليوم الآخر.

[1] رواه البخاري (1/ 21)، رواه مسلم (1/ 74).
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (2/ 77).
[3] الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (1/ 400).

7. الصبر في تحصيل الرزق الحلال بالوسائل المباحة.

8. القناعة والرضا برزق الله سبحانه وتعالى.

9. مجالسة الرفقة الصالحة.

10. معاقبة مرتكبي الغش؛ لردعِهم عن ذلك.

11. العلم بالحكم الشرعي بأن الغش حرام.

12. تعليم الناس خطرَ الغش، وتبيين صُوَره.

13. النظر للعواقب السيئة للغش في الدنيا والآخرة.

"ومن مضار الغش أنه طريق موصل إلى النار، ودليل على دناءة النفس وخبثها، والبعد عن الله سبحانه وتعالى والبعد عن الناس، وحرمان إجابة الدعاء، وحرمان البركة من المال والعمر، ودليل على نقص الإيمان، ويورث سخط الناس ومقتهم"[1]

فاتَّقوا الله سبحانه وتعالى، واجتنبوا الغش بجميع أشكاله، واستحضروا مراقبة الله سبحانه وتعالى في جميع أحوالكم، واعلموا أنكم باجتنابكم الغش ترضون ربكم عز وجل، وتخدمون بلادكم، وتفلحون في دنياكم وفي أخراكم

[1] نظرة النعيم (11/ 5075)

النصيحة الثامنة والأربعون
لا تستغب أحداً

نهى الله ﷻ عن الغيبة، يقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ الحجرات: ١١ – ١٣، نهيٌ شديد وزجرٌ واضح في هذه الآية عن الوقوع في الغيبة، وتشبيه الشخص الذي يغتاب أخاه كمن يأكُلُ لحمَ أخيهِ وهوَ ميّت، وهذا تشنيعٌ للفعل وردعٌ للواقعين فيه، وفيها دلالة على حجم الأمر الذي يقع فيه المغتاب، ولذلك فإنّ عقابه في الآخرة هو من جنس العمل.

وتورث الغيبة بين الناس الشحناء والبغضاء، خُصوصاً إذا وصَلَ للشخص الذي اغتبته كلامَكَ فيه، فيحصلُ عندها التقاطع والتباغُض، وكذلك تنشُرُ الغيبة أجواء من الكراهية وعدم الثقة بمن حولَكَ من الناس، فأنت عندما تكون بين بيئة يغتاب بعضهُم بعضاً فأنت بلا شكّ سيغتابونك وأنت لست حاضراً معهم، وهذا يقتل

الثقة بالآخرين ويُطفىءُ الودّ ويجعل الكراهية في صدرك لمن حولك، وهذا من عظيم خطر الغيبة على الفرد والجماعة.

وإنّ الغيبة في الإسلام محرّمة، وذلك في القرآن الكريم، والسّنة النّبوية، والإجماع، وقد اعتبرها العلماء من الكبائر، وقد شبّه الله ﷻ الإنسان المغتاب بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لما عرج بي ربي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم"[1]، ومن الأسباب التي تبعث على غيبة الإنسان لغيره الحسد، وأن يحقتر المغتاب، أو يسخر منه، أو يجاري رفاق السّوء، أو أن يذكره بطريقة تنقص منه ليظهر كمال نفسه، أو ربّما ساقها بمدعاة الشّفقة والحزن، أو إظهار الغضب فيما ادّعى، وغير ذلك من الأسباب المختلفة.

فالغيبة ذكر أخاك بما يكره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: "أتدرون ما الغيبة؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "ذكرك أخاك بما يكره"، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: "إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته"[2]، وما يكرهه الإنسان يتناول خَلْقَه وخُلُقه ونسبه، وكل ما يخصه.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا – تعني أنَّها قصيرة – فقال النَّبي ﷺ: "لقد قلت كلمة لو مزجت بماءِ البحر لمزجته"[3]؛ أي: خالطته مُخالطة يتغيَّر بها طعمه أو ريحه؛ لشدَّة قبحها، **قال النووي**: "هذا

[1] مسند أحمد (21/ 53)، المعجم الأوسط للطبراني (1/ 7)، شعب الإيمان للبيهقي (9/ 83).
[2] رواه مسلم (4/ 2001).
[3] سنن أبي داود (13/ 321)

الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث بلغ في ذمها هذا المبلغ"[1]

والغيبة من كبائرِ الذُّنوب، وهي مُحرمة بإجماع المسلمين؛ فقد قال ﷺ: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه"[2]

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال: "من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق"[3]، والقائل والمستمع للغيبة سواء؛ **قال عتبة بن أبي سفيان لابنه عمرو**: "نزه سمعك عن استماع الخنا، كما تنزه لسانك عن القول به، فإن المستمع شريك القائل"[4]، لذلك لا تعجب حين تَجد القرآن الكريم يصوِّر الغيبة في صورة مُنفرة، تتقزز منها النفوس، وتنبو عنها الأذواق؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ﴿١٢﴾ ﴾ الحجرات: ١٢، فشبَّه أكل لحمه ميتًا المكروه للنُّفُوس غاية الكراهة باغتيابه، فكما أنَّ الناس يكرهون أكلَ لحمه، وخصوصًا إذا كان ميتًا، فكذلك فليكرهوا غيبته، وأكل لحمه حيًّا؛ **قال السعدي**: "وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأنَّ الغيبة من الكبائر؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر"[5]، **وقال الغزالي**: "للغيبة أسباب وبواعث، وفيما يلي خُلاصتها:

- شفاء المغتاب غَيظَهُ بذكر مساوئ مَن يغتابه.

- مجاملة الأقران والرِّفاق، ومُشاركتهم فيما يَخوضون فيه من الغيبة.

---

[1] الأذكار للنووي ص 538.
[2] رواه مسلم (4/ 1986).
[3] مسند أحمد (3/ 190)، السنن الصغير للبيهقي (4/ 183)، السنن الكبرى للبيهقي (10/ 408)، شعب الإيمان للبيهقي (9/ 78)
[4] صفة الصفوة (2/ 40)
[5] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص 801.

- ظن المغتاب في غيره ظنًّا سيئًا مدعاة إلى الغيبة.

- أن يبرئ المغتاب نفسَه من شيء، وينسبه إلى غيره، أو يذكر غيره بأنَّه مُشارك له.

- رفع النَّفس وتزكيتها بتنقيص الغَيْر.

- حسد من يثني عليه النَّاس ويذكرونه بخير.

- الاستهزاء والسخرية وتحقير الآخرين"[1]

المغتابون هم الذين يأكلون لحوم البشر نيئة، الذين امتلأت قلوبهم حقداً وحنقاً وحسداً، الذين لا هم لهم إلا التفكه في المجالس بأعراض الناس، الذين يقطعون أوقاتهم بكسب السيئات، ويهدرون ساعاتهم بتحصيل العقوبات.

المغتابون لا يعرفون لله ﷻ طريقاً، ولا لهدي نبيه ﷺ مسلكاً، الذين فقدوا مشاعر الأخوة، ومُزقت من قلوبهم الرحمة، هم آكلوا الجيف، الذين امتلأت مجالسهم ريحاً ونتناً، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ، فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: "أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين"[2]

المغتابون هم الذين تخلو مجالسهم من ذكر الله ﷻ، وذكر رسوله ﷺ، وستكون عليهم حسرة وندامة في قبورهم، ويوم بعثهم ونشورهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم"[3]، وأنى لمجلس تؤكل فيه الميتة أن يُذكر الله سبحانه وتعالى فيه وقد حرمها، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ٣﴾ المائدة: ٣، وأنى لمجلس تدار فيه أطباق اللحوم البشرية النتنة أن يُذكر فيه رسول

---

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (1/ 155 – 156).

[2] مسند أحمد (23/ 97).

[3] سنن الترمذي (5/ 461)

الهدى ﷺ وقد حذر منها، حيث قال: "إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في الغيبة"[1]

فلا يجتمع ذكر الله سبحانه وتعالى، والذكر المحرم، ولا يلتقي ذكر رسول الله ﷺ، والذكر المحذور، فيا حسرة على العباد، ما أصبرهم على النار.

فالغيبة حرام، وهي ذكرك أخاك بما يكره، سواءً كان في بدنه أو دينه أو دنياه، أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه، أو ماله أو ولده أو والده، أو زوجه أو خادمه أو مملوكه، أو عمامته أو ثوبه، أو مشيته وحركته وبشاشته، وخلاعته وعبوسه وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك، **قال الحسن البصري** رضي الله عنه: "والله للغيبة أسرع في دين الرّجل من الآكِلة في الجسد"[2]، الغيبة تأكل حسناتك التي تعبت في تحصيلها، وتبدِّدها بعد ما جمعتَها، تبني الجوارح عباداتها في أيام ويهدمها اللسان في ساعات! فاللسان يعمل دون أن يتعب بعكس الجوارح.

الغيبة سبب عذاب القبر، **قال قتادة:** "ذُكِر لنا أنَّ عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول"[3]، لعل الغيبة أشد جُرمًا من الربا! في مواجهة استسهال الغيبة، والاستخفاف بعثرات اللسان، وفي رسالة موجهة لِمَن فقدوا تحديد معايير الحرام وتقدير دركاته، فاجتنبوا ذنوبًا عظيمة وهم يرتكبون ذنوبًا أعظم؛ إلى كل هؤلاء قال رسول الله ﷺ: "الربا اثنانِ وسبعونَ بابًا أدناها مثلُ إتيانِ الرجُلِ أُمَّهُ، وإنَّ أربى الرِّبا استطالَةُ الرجلِ في عرضِ أخيهِ"[4]

---

[1] سنن ابن ماجه (1/ 125).
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 143).
[3] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 143).
[4] المعجم الأوسط للطبراني (7/ 158).

والغيبة تهدم دينك وأنت لا تشعر، **قال الغزالي**: "والغيبة هي الصاعقة المهلكة للطاعات، ومَثَل من يغتاب كمن ينصب منجنيقًا، فهو يرمي به حسناته شرقًا وغربًا ويمينًا وشمالًا."[1]

والغيبة الخفية هي غيبة الملتزمين وأصحاب التدين، فإذا ذُكِر عندهم أحد يكرهونه أعرضوا وقالوا: دعوه يستر الله ﷻ علينا وعليه، أو اتركوه لا شأن لنا به، أو نعوذ بالله ﷻ من الغيبة، وإنما مرادهم الغيبة وانتقاصه، لكنهم يسلكون إليها طريقاً غير مباشر، هؤلاء يتصنعون الشفقة ويتظاهرون بالرحمة، لكن باطنهم السوء وإرادة الغيبة، **قال ابن تيمية** رضي الله عنه: "فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون، أو فيه بعض ما يقولون؛ لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفَروا عنه، فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة وطيب المصاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم"[2]

فواعجبًا كيف لانت الألسنة بالغيبة والنميمة وهما أصل الداء، وفترت عن الذكر؛ وهو شفاء القلوب والأبدان.

الغيبة كبر خفي، **قال الأوزاعي**: "إذا سمعت أحدًا يقع في غيره، فاعلم أنه إنما يقول أنا خيرٌ منه"[3]، والغيبة دَيْنٌ مستحق السداد غدًا، **قال الأوزاعي**: "بلغني أنه يُقال للعبد يوم القيامة: قم فخُذ حقك من فلان، فيقول: ما لي قِبَله حق! فيُقال: بلى ذكرك يوم كذا وكذا بكذا وكذا"[4]

[1] فيض القدير (3/ 129).
[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية (28/ 236).
[3] جامع بيان العلم وفضله (1/ 768).
[4] شعب الإيمان للبيهقي (9/ 98).

الغيبة مرض خطير، وداء فتّاك، ومِعْوَل هدّام، وسلوك يفرّق بين الأحباب، وبهتان يغطّي على محاسن الآخرين، وبَذرَة تنبت شروراً بين المجتمع المسلم، وتقلب موازين العدالة والإنصاف إلى الكذب والجور.

الغيبة داء ابتلي به كثير من الناس، ولا يكاد يسلم منه حتى ذوو الفضل والخير. فكم ترون من مسلمٍ مُتهاونٍ قد جرَّد لسانه مِقراضًا للأعراض، وانتهاكًا للحُرمات، في همزٍ ولمزٍ وحَطٍّ وانتقاصٍ؛ فهذا طويل، وهذا قصير، وهذا أحمق، وهذا فاسق، وهذا منافق، وهذا مُداهِن، بل كم ترى من رجلٍ مُتورّعٍ عن الفواحِش والظلم، وعليه مظاهر صلاح من صلاةٍ وصيامٍ وصدقاتٍ، ولكنّ لسانه يفرِي في أعراض الناس الأحياء منهم والأموات، لا يُبالي ما يقول، فهلاَّ حجزَته عبادتُه! وهلاَّ كفَّه صلاحُه! وهل يكبُّ الناسَ في النار على وجوههم إلا حصائدُ ألسنتهم.

الغيبة مرض من الأمراض الاجتماعية الفتاكة، التي نهى عنها الله ﷻ وحذر منها غاية التحذير، فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢ ﴾ الحجرات: ١٢، قال الشوكاني: "فهذا نهي قرآني عن الغيبة، مع إيراد مثل لذلك يزيده شدة وتغليظاً، ويوقع في النفوس من الكراهة والاستقذار لما فيه ما لا يُقادَرُ قدرُه، فإنّ أكلَ لحم الإنسان من أعظم ما يستقذره بنو آدم جبلة وطبعاً، ولو كان كافراً أو عدواً مكافحاً، فكيف إذا كان أخاً في النسب أو في الدين؟ فإن الكراهة تتضاعف بذلك، ويزداد الاستقذار، فكيف إذا كان ميتاً؟! فإن لحم ما يستطاب ويحل أكله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يصير مستقذراً بالموت، لا يشتهيه الطبع، ولا تقبله النفس، وبهذا يُعرَفُ ما في هذه الآية من المبالغة في تحريم الغيبة، بعد النهي الصريح عن ذلك"[1]

فالغيبة جيفة يرعى عليها اللئام، والذي يتكلم في الناس وهم غياب كالذي يأكل لحوم الأموات، أيحبّ أحدكم أيها القوم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ميتاً، فإن لم تحبوا ذلك وكرهتموه؛ لأن الله ﷻ حرّم ذلك عليكم، فكذلك لا تحبوا أن تغتابوه في حياته، فاكرهوا غيبته حياً كما كرهتم لحمه ميتاً، فإن الله ﷻ حرّم غيبته حياً كما حرم أكل لحمه ميتاً.

الغيبة تطاوُلٌ على أعراض الناس وانتهاك لِحُرُماتهم، أنَّ الغيبةَ من الكبائر، والتي لا تكفرها كفارةُ المجلسِ، وإنما تكفرها التوبةُ النصوح، فكلنا يعرف خطرَ الغيبة وشدة عذابها، ولكن لا ننتبهُ لخطرِها أو نتجنبها، ونقع فيها كثيرًا، ومن خطر الغيبة أنها تحبطُ الأعمالَ، وتأكل الحسنات؛ **قال ابن المبارك** رضي الله عنه: " لو كنت مغتابًا أحدًا لاغتبت والدي؛ لأنهما أحق الناس بحسناتي"[2]

الغيبة هي أن تذكرَ أخاك المسلم بما يكره، سواء كان ذلك فيه أو لم يكن فيه، على أنَّ ذكرَك ما فيه تتناوله حرمةُ الغيبة، وذكرك ما ليس فيه تتناوله حرمةُ البهتان.

والغيبة من أعظم أسباب ذهاب الإيمان، فالمغتاب عارٍ عن الإيمان كالشجرة اليابسة التي تحات ورقها، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الغيبة والنميمة يحتان الإيمان كما يعضد الراعي الشجرة"[3]، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "عليكم بذكر الله ﷻ فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء"[4]، **وعن الحسن**

[1] الفتح الرباني من فتاوي الإمام الشوكاني (11/ 5568).
[2] شرح صحيح البخاري لابن بطال (9/ 245).
[3] الزواجر عن اقتراف الكبائر (2/ 17)، الترغيب والترهيب للمنذري (3/ 332).
[4] الزواجر عن اقتراف الكبائر (2/ 18).

البصري ﷺ أن رجلًا قال له: إن فلانًا قد اغتابك فبعث إليه رطبًا على طبق، وقال: "قد بلغني أنك أهديت إليَّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أكافئك على التمام"[1]

وإن الغيبة من أخطر آفات اللسان التي تفعل الكلمة فيها في القلوب الأفاعيل، وقد تكون كالقذيفة المسددة للأفئدة، فتفسد وداً قديماً، أو تمحو حباً متمكناً، أو تقتل ثقة متبادلة، أو تقطع علاقة محكمة، إنها الآفة المستشرية والمرض الفتاك، الذي ما انتشر في مجتمع إلا قامت فيه سوق الظنون السيئة، ونبت فيه التحسس والتجسس، وظهر فيه الحقد والحسد والتشفي، وربما بلغ أثرها في إفساد المجتمع ما لم تفعله بعض الغارات والحروب.

فالغيبة خيانة وهتك ستر وغدرٌ وإيذاءٌ للمسلمين، وهي زادُ الخبيث، وطعامُ الفاجر، ومرعَى اللئيم، وضيافةُ المنافق، وفاكهةُ المجالس المحرمة، **يقول ابن حجر الهيتمي** عن الغيبة: "إنّ فيها أعظم العذاب، وأشد النّكال؛ فقد صح فيها أنها أربى الربا، وأنها لو مُزجت بماء البحر لأنتنته وغيّرت ريحه، وأن أهلها يأكلون الجِيَف في النار، وأن لهم رائحة منتنة فيها، وأنهم يعذبون في قبورهم، وبعض هذه كافية في كون الغيبة من الكبائر، فكيف إذا اجتمعت؟! وكلُّ هذا في الأحاديث الصحيحة"[2]

إن الغيبة كلها إثم مبنية على إثم، فهي ظلمات بعضها فوق بعض، فإنه مما يحمل الشخص غيبة غيره عدة أمور إما الخصومة التي تحمل المرء على التشفي من خصمه بغيبته وبهته، أو مجاملة الأقران والجلساء إذا وقعوا في الغيبة والبهتان، وإما سوء الظن

---
[1] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 154).
[2] الزواجر عن اقتراف الكبائر (2/ 22).

الذي يحمل سيء الظن على غيبة صاحبه لسوء اعتقاده فيه وحكمه الباطل على سريرته أو شعوره بنقص في نفسه فيغتاب أنداده ليظهر فضله عليهم عند مجالسهم أو قناعته بعيب في نفسه يعترف به قد فشل في التخلص منه فيغتاب الآخرين ليشعر الحاضرين بمشاركة أولئك له بالعيب الذي فيه.

وتكون التوبة من الغِيبة بالاستغفار والندم، والاستحلال من الذي اغتيب، **قال الغزالي**: "اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله ﷻ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته، وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله"[1]، **وقال ابن القيم** رضي الله عنه: "والصَّحيح أنَّه لا يحتاج إلى إعلامه بل يكفيه الاستغفار، وذكره بمحاسن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، والذين قالوا: لا بد من إعلامه، جعلوا الغِيبة كالحقوق المالية، والفرق بينهما ظاهر؛ فإنَّ الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه، فإن شاء أخذها، وإن شاء تصدَّق بها، وأما في الغِيبة فلا يمكن ذلك ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع... فإنَّه يوغر صدره، ويؤذيه، إذا سمع ما رمي به، ولعله يهيج عداوته ولا يصفو له أبدًا، وما كان هذا سبيله، فإن الشارع الحكيم... لا يبيحه ولا يجوزه فضلًا عن أن يوجبه، ويأمر به ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها، لا على تحصيلها وتكميلها"[2]

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 153)
[2] الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص 141 – 142.

يقول ابن تيمية رضي الله عنه: "من الناس من يخرج الغيبة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة ان أذكر أحداً إلا بخير، ولا أحب الغيبة ولا الكذب وإنما أخبركم بأحواله"[1]

"ومن مضار الغيبة أن صاحب الغيبة يعذب في النار بأكل النتن القذر، وينال عقاب الله سبحانه وتعالى في قبره، وتذهب أنوار إيمانه وآثار إسلامه، ولا يغفر له حتى يعفو عنه المغتاب، والغيبة معول هدام وشر مستطير، وتؤدي وتضر وتجلب الخصام والنفور، ومرض اجتماعي يقطع أواصر المحبة بين المسلمين، ودليل على خسة المغتاب ودناءة نفسه"[2]

فاتقوا الله تعالى واعلموا أن الغيبة مرضٌ خطير وداءٌ فتاك، ومعولٌ هدام، وسلوكٌ يفرق بين الأحباب، وبهتانٌ يغطي محاسن الآخرين، وبذرةٌ لا تُنبت إلا الشرور في المجتمع.

اعلموا أن ما يلفظه العبد فهو يكتب، قال تعالى: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ ﴾ ق: ١٨، فلنحرص على صيانة هذه الألسنة مما يغضب الله تعالى، ومما يؤذي عباد الله، ولنتعاون على محاربة هذا الخلق الذميم ولينصح وليذكر بعضنا البعض

[1] مجموع الفتاوي لابن تيمية (28/ 237).
[2] نظرة النعيم (11/ 5177).

النصيحة التاسعة والأربعون
لا تكن همازاً مشاءً بنميم

النميمة هي نقل كلام بين الناس بغرض الإفساد وإيقاع العداوة والكره بينهم، وإيغال صدورهم، وأشد أنواعها حرمة وإثماً نقل الكلام إلى السلطان، وهو ما يعرف بالوشاية، وتنبع خطورتها من كون السلطان ذو قدرة على البطش والانتقام، وإيقاع الظلم، أما النّمام فهو ناقل الكلام بين الناس بغرض إيقاع العداوة والإفساد بينهم، وهو أشد خطراً على الناس من المغتاب، كون النميمة يتعدى أثرها إلى المجتمع، فتتسبب بقطع الأرحام، وتعكير صفو النفوس، وتوقع العداوة بين الناس.

النميمة من الأسباب التي توجب عذاب القبر، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: "إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما هذا: فكان لا يستتر من بوله، وأما هذا: فكان يمشي بالنميمة"[1]، وقال ﷺ: "وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون البرآء العنت"[2]

النمام هو إنسان ذو وجهين يقابل كل من يعاملهم بوجه، فهو كالحرباء يتلون بحسب الموقف الذي يريده وقد حذر النبي ﷺ من أمثال هؤلاء فقال: "تجد من شر الناس يوم القيامة، عند الله، ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"[3]

فالمسلم الصادق له وجه واحد حيثما كان وله لسان واحد لا ينطق إلا بما يرضي ربه عز وجل.

---

[1] رواه البخاري (8/ 17)، رواه مسلم (1/ 240).
[2] مسند أحمد (29/ 521).
[3] رواه البخاري (8/ 18).

النميمة فإنها تقضي على العلاقات والروابط الاجتماعية فيصبح المجتمع مفككاً ويسوده العداوات والكره المتبادل بين أفراد هذا المجتمع ولذلك يجب على من ينقل له الكلام أن يكون عاقلاً فطناً فلا يقبل مثل هذا الكلام ولا يستمع لهذه النوعية من الناس؛ لأنها نوعية فاسدة مفسدة تسعى بأعمالها إلى إفساد المجتمعات عملاً بقول الله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ٦ ﴾ الحجرات: ٦، فالآية تبين خطورة قبول الكلام بلا تثبت.

النميمة من كبائر الذنوب وهي محرمة شرعاً، قال ﷻ: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ١١ ﴾ القلم: ١١، قال القرطبي: "بنميم" أي يمشي بين الناس ليفسد بينهم، يقال نم ينم نما، ونميمة أي يمشي ويسعى بالفساد، وقال رسول الله ﷺ: "لا يدخل الجنة نمام"[1][2]، قال يحيى بن أكثم: "النمام شر من الساحر، ويعمل النمام في ساعة مالا يعمل الساحر في سنة"[3]، ويقال: "عمل النمام أضر من عمل الشيطان، لأن الشيطان، بالخيال والوسوسة وعمل النمام بالمواجهة والمعاينة"[4]

النميمة من أقبح القبائح وكثر انتشارها بين النّاس حتى ما يسلم منها إلا القليل، وهي محرمة بإجماع المسلمين، قال الحافظ المنذري: "أجمعت الأمة على تحريم

[1] رواه مسلم (1/ 101).
[2] تفسير القرطبي (18/ 232)
[3] الفروع وتصحيح الفروع (10/ 211).
[4] الزواجر عن اقتراف الكبائر (2/ 37).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النميمة وأنّها من أعظم الذنوب عند الله ﷻ وقد حُرمت النميمة لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين"[1]

وقد ذكر ﷺ أنّه لا يدخل الجنة نمام، فإذا لم يدخل الجنة لم يكن مأواه إلاّ النار، لأنّه ليس هناك إلاّ الجنة أو النار، فإذا ثبت أنّه لا يدخل الجنة ثبت أن مأواه النار، قال ﷺ: "ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت"[2]

ولنتأمل قول الرسول ﷺ: "من شان على مسلم كلمة يشينه بها بغير حق أشانه الله بها في النار يوم القيامة"[3]، هذا جزاؤه يوم القيامة وقبل ذلك عذاب القبر.

النميمة من كبائر الذنوب؛ لأنها مؤدية إلى فساد ذات البين، وقد قال رسول الله ﷺ: "ألا أدلكم على ما هو أفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين"[4]، فالنميمة سبب في حلق الدين؛ لأنها تفسد ذات بين المسلمين، وقد قال ﷻ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ ١ ﴾ الأنفال:، وقال ﷻ: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۢ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ ١١٤ ﴾ النساء: ١١٤، فالنمّام مرتكب كبيرة، وقد قال ﷻ: ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ

[1] الترغيب والترهيب للمنذري (3/ 324).
[2] مسند أحمد (45/ 575).
[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 353).
[4] سنن الترمذي (4/ 663)، سنن أبي داود (4/ 282).

﴿لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ القلم: ١٠ - ١٢، قال بعض أهل التفسير: "قلَّ أن تجد نماماً إلا وهو -والعياذ بالله- ولد زنا، واستدل بهذه الآية، فإن الله ﷻ قال بعد هذه الأوصاف: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣﴾ القلم: ١٣، والزنيم: هو الذي لا نسب له يعرف، وهو ابن السفاح والعياذ بالله! ولا يلزم ما قالوه على كل نمام، لكن الشاهد أن النمام نادى على نفسه بأنه شخص غير سوي"

النميمة بريد الشيطان؛ منها يدخل الشيطان لإيقاع الناس في الشر والفتنة، جاء رجل إلى **وهب بن منبه** رضي الله عنه فقال: إن فلاناً يقول فيك كذا وكذا، فقال: "أما وجدَ الشيطان بريداً غيرك"[1]

فالنمام جند من جنود إبليس، يفرق بين المرء وزوجه، وهذا هو أحب الأعمال إلى الشيطان، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت"، قال الأعمش: أراه قال فيلتزمه"[2]

النميمة مرض عُضال فتاك وداء خبيث، وشر خطير يُولِّد أَعظم الشرور، ويُنتج أشد المفاسد في المجتمعات ويُوَرث فيها العداوة والبغضاء، فتنهدم الأسر ويقع التفريق بين الأحبة والأزواج، وتتقطع الأرحام، وهي بضاعة إبليس التي يُعرضها على الناس ليشتروها بثمن بخس، فلم يسلم من شرها وضررها لا كبير ولا صغير إلا من رحم

[1] مختصر منهاج القاصدين ص 184.
[2] رواه مسلم (4/ 2167).

الله ﷻ، يقول النبي ﷺ: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم[1]"[2]، الشيطان لم ييئس ولن ييئس من السعي في التفريق بين الناس، والتحريش بينهم، وإذكاء العداوات المفرقة بين الأحبة والأصدقاء.

فمن كان واقعاً في شيء من النميمة، فليتب منها عاجلاً مادام قادراً على التوبة وما دام باب التوبة مفتوحاً، فإن النميمة من الذنوب العظيمة التي حذر الله ﷻ ورسوله ﷺ منها، وهي مرض عضال، وداء خبيث، يفسد في المجتمعات ويورث العداوة والبغضاء فيها.

والنميمة كما بيَّنها النبي ﷺ هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إن محمداً ﷺ قال: "ألا أنبئكم ما العضة[3]؟ هي النميمة القالة بين الناس"[4]

قال الذهبي: "النميمة من الكبائر، وهي حرام بإجماع المسلمين، وقد تظاهرت على تحريمها الدلائل الشرعية من الكتاب والسنة، وقد أجاب عما يوهم أنها من الصغائر، وهي قوله ﷺ: "وما يعذبان في كبير"، بأن المراد ليس بكبير تركه عليهما أو ليس بكبير في زعمهما، ولهذا قيل في رواية أخرى: "بلى إنه كبير"[5]

يقول الإمام الغزالي: "اعلم أن اسم النَّمِيمَة إنما يطلق في الأكثر على مَن ينمُّ قول الغير إلى المقول فيه، كما تقول: "فلان كان يتكلَّم فيك بكذا وكذا"، وليست النَّميمة مُختصة به، بل حدُّها كشفُ ما يُكره كشفُه، سواء كَرِهه المنقولُ عنه أو

---

[1] ولكن في التحريش بينهم: أي ولكنه يسعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن وغيرها.
[2] رواه مسلم (4/ 2166).
[3] ألا أنبئكم ما العضة: الفاحش الغليظ التحريم.
[4] رواه مسلم (4/ 2012).
[5] الكبائر للذهبي ص 160.

المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان عيبًا ونقصًا في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النَّميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يُكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يُكره فينبغي أن يسكت عنه، إلا ما في حكايته فائدةٌ لمسلم أو دفعٌ لمعصية؛ كما إذا رأى مَن يتناول مال غيره؛ فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، فأما إذا رآه يُخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاءٌ للسر، وإن كان ما ينم به نقصًا وعيبًا في المحكي عنه؛ كان قد جمع بين الغيبة والنَّميمة"[1]

قال الحسن البصري رضي الله عنه: "من نمَّ إليك نمَّ عليك"[2]، "وهذه إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته، وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة والغدر والخيانة والغل والحسد والنفاق والإفساد بين النّاس والخديعة وهو ممن يسعون في قطع ما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل ويفسدون في الأرض"[3]

وقال ابن حجر الهيتمي: "وجه كونه – أي: النَّمِّ – كبيرةً ما فيه من الإفساد، وما يترتب عليه من المضار، والحكمُ على ما هو كذلك بأنه كبيرٌ ظاهر جَليٌّ، وليس في معناه – بل ولا قريبًا منه – مجردُ الإخبار بشيء عمَّن يَكره كشفه من غير أن يترتب عليه ضررٌ ولا هو عيبٌ ولا نقص؛ لأن الغيبة لا توجد إلا مع كون الكلام المنقول نقصًا وعيبًا، ومن ثَم فالنَّميمة الأقبحُ مِن الغيبة ينبغي ألا توجد بوصفِ كونها كبيرةً

[1] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 156).
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 156).
[3] إحياء علوم الدين للغزالي (3/ 156).

إلا إذا كان ما يُنَمُّ به مَفسدة"[1]، وقال كعب ﵁: "اتقوا النميمة فإن صاحبها لا يستريح من عذاب القبر"[2]

"ومن مضار النميمة أنها طريق موصل إلى النار، وتذكي نار العداوة بين المتآلفين، وتؤذي وتضر وتؤلم وتجلب الخصام والنفور، وتدل على سوء الخاتمة وتمسخ حسن الصورة، وعنوان الدناءة والجبن والضعف والدس والكيد والملق والنفاق، ومزيلة كل محبة ومبعدة كل مودة وتآلف وتآخٍ"[3]

فلا تدع النمام يلوث مجلسك ويدنس سمعك بالذنوب والمعاصي، بل كن آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وازجره شر زجرة وابن له قبيح فعله وسوء صنيعه، ولا تصغ له سمعك وابرأ إلى الله ﷻ من فعله.

فلنتق الله ﷻ ولنحفظ ألسنتنا من كلام السوء وشر النمامين، فقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ بلسانه وهو يقول: "يا لسان، قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم"[4]

---

[1] الزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي (2/ 38).
[2] الصمت لابن أبي الدنيا ص 161.
[3] نظرة النعيم (11/ 5671).
[4] المعجم الكبير للطبراني (10/ 197)

النصيحة الخمسون
ابتعد عن الكذب

الكذب هو عدم قول الحقيقة، أو تزييفها، أو التغاضي عن قولها، ومن أقبح الصفات على الإطلاق، ومن الأشياء التي حرّمها الله ﷻ، فهو من صفات المنافقين، الذين أعدّ الله ﷻ لهم أشدّ أنواع العقاب يوم القيامة، يعتبر الكذب أيضاً من الأخلاق الذميمة الذي ترفضه المجتمعات وينبذه الأفراد، ولم يتصف به أي نبيٍ أو رسول أو صحابي، حتى أن الرسول ﷺ كان يُلقّب بالصادق الأمين لشدة صدقه.

وللكذب أنواعٌ كثيرة، ومن أعظمها أن يكذب الفرد على الله ﷻ ورسوله ﷺ، كأن يكذب الشخص كي يحلّل الحرام، أو أن ينسب الأحاديث الكاذبة للرسول ﷺ، ومن أنواعه أيضاً الكذب على الناس، كأن يكذب الشخص للإيقاع بين الناس. على الرغم من هذا فقد أباح الإسلام أن يكذب الشخص في حالاتٍ معيّنة، كأن يكذب الشخص كي يصلح بين الأشخاص المتخاصمين، أو أن يكذب على الأعداء في الحرب، أو أن يكذب الزوج على زوجته كي ترضى، كما توجد أنواع أخرى منه كخلف الوعد، وإنكار العهود والمواثيق، وشهادة الزور، واليمين الكاذب، والكذب الساخر الذي يتعمده بعض الأشخاص ليُضحكوا غيرهم، وهو من أنواع الكذب التي نهى عنه الرسول ﷺ.

الكذب سلوك اجتماعي مُكتسب يتمثّل بإيصال معلومات مزيّفة، وغير مُطابقة للواقع للأخرين، مع تبطين نيّة الخداع والمراوغة؛ وذلك بقصد تحقيق منافع، أو

مكاسب معيّنة، أو للتهرّب من تحمّل مسؤولية أخطاء، وأفعال غير سويّة مرتكبة، الأمر الذي يُخلّف العديد من الأضرار، ويخلق الكثير من المشاكل بين أفراد المجتمع.

الكذب من الأخلاق السيئة التي نهى عنها الإسلام، كما أن المجتمع يرفض هذا الخلق البذيء ويعتبره من الخصال التي تُسبب انحدار صاحبها إلى أدنى درجة من درجات الأخلاق، فالكذب يرتبط بالعديد من الأخلاق السيئة الأخرى ويُعتبر مفتاحاً لها ومكملاً أساسياً لانتشارها، لذلك جاء تحريمه في العديد من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، بالإضافة إلى أن له الكثير من الآثار السلبية سواء على الفرد أو على المجتمع، وقد ربطه الرسول ﷺ بالنفاق، قال ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان"[1]

يُعتبر الكذب من أكثر وسائل نشر الفتنة بين الناس، كما أنه يُخفي الحقائق ويعمل على تضليلها ويتسبب في وقوع الظلم على الآخرين ويوجب سخط الله سبحانه وتعالى وعقابه، فالكاذب محرومٌ من رضى الله عز وجل؛ لأنه يُعتبر بمثابة شاهد الزور الذي يقول عكس ما يرى أو يعرف، كما أنه يجلب لصاحبه قلة الهيبة؛ لأن الناس يمتنعون عن تصديقه ولا يأخذون بشهادته أبداً حتى لو قال شيئاً صادقاً فيما بعد فلن يصدقونه، وهذا من أكبر أنواع العقاب التي يتلقاها الكاذب.

يُساهم الكذب في نشر البغضاء بين الناس لأنه يتسبب في وقوع الكثير من المشاكل، كما أنه يُسبب الخسارات بكافة أنواعها سواء كانت خساراتٍ مادية أو معنوية، فالذي يكذب في تجارته مثلاً يُسبب الأذى للناس في أموالهم، والذي يكذب في مشاعره تجاه الآخرين يتسبب في كسر القلوب والخواطر، ولا يكون

[1] رواه البخاري (1/ 16)، رواه مسلم (1/ 78).

الكذب فقط على الناس، فالبعض تصل بهم الدناءة أن يكذبوا على الله ﷻ ورسوله ﷺ، وهذا من أعظم أنواع الكذب؛ لأنه يغمس صاحبه في جهنم.

يُمكن للكذب أن يهدم البيوت العامرة وأن يُشتت الأسر وأن يهدم العلاقات بين الناس، فآثاره السلبية لا يُمكن حصرها، فالكثير من الموازين انقلبت بسبب كذبة صغيرة، كما أن الكثير من الأشخاص تشوهت لديهم مفاهيم الحياة بسبب التقائهم بأشخاصٍ كاذبين، لذلك يجب محاربة هذا الخلق السيء وتجنبه بشكلٍ تام والتزام الصدق في الأقوال والأفعال، والابتعاد عن الكذب مهما كانت الكذبة صغيرة، فالكذب هو الكذب ولا يوجد كذبٌ أبيض أو أسود، كما لا يجوز الكذب حتى أثناء المزاح، لأن الرسول ﷺ الذي هو قدوتنا لم يكذب في أي حديثٍ قط وكان صادقاً قولاً وفعلاً، حتى أن لقبه قبل أن يُبعث بدعوة الحق كان "الصادق الأمين" لأن الصدق منجاة من كل شر، وجبلٌ شامخٌ لا تثنيه الريح أبداً.

فالكذب هو الإخبار بخلاف الواقع، وهو بريد الكفر، والنفاق دليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحليته، ولباسه، ولبه، فمضادّة الكذب للإيمان كمضادَّة الشرك للتوحيد، فلا يجتمع الكذب والإيمان إلاّ ويطرد أحدهما صاحبه ويستقر موضعه.

الكذب خصلة ذميمة جارت بصاحبها عن الاستقامة، ومالت به إلى الفجُور؛ فالكذب مجمع الشَّرِّ، فما من خصلة مقيتة إلا والكذب لها خطام أو زمام، فالكذب مطيَّة يَمتَطِيها الكذاب توصله إلى النار؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا،

وإياكم والكذبَ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتَحرَّى الكَذِب حتى يكتب عند الله كذابًا."[1]

الكذب من خصال النفاق العملي، وصاحبه شبيه بالمنافقين في هذه الخصلة ومتخلِّق بأخلاقهم، فإنَّ النِّفاق أن يُظهِر أمرًا، ويُبطِن خلافَه، وهذا المعنى موجود في الكذَّاب، فالكذب بريد المعاصي والمنكرات؛ فالكفر والنفاق والرياء والفجور، والبهتان والخديعة والمكر، والظلم والخُلف والغش، والتحايل والغيبة والنميمة، كلها أمراض أستاذها الكذب، ولو بحثتَ وراء كُلِّ مُصِيبة، وتحتَ كُلِّ خطيئة، فستجد أنها مُتَلَطِّخة بالكَذِب، مغلَّفَة به، أو هو أساسُها وبنيانُها وعِمَادُها.

الكذب مفتاح النفاق وأساسه، وهو من أخص صفات الأراذل من الخلق، لا يستوطن إلا في النفوس العقيمة والأرواح السقيمة.

الكذب سبيل إلى كل قبيح وفاسد من أقوال أو أفعال، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "كل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب، والله سبحانه وتعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق، ولا مفاسدها ومضارها بمثل الكذب"[2]، **وقال مالك بن دينار** رضي الله عنه: "الصدق والكذب يعتركان في القلب، حتى يُخرج أحدهما صاحبه"[3]

[1] رواه مسلم (4/ 2013)
[2] الفوائد لابن القيم ص 136.
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (2/ 360).

الكذبُ مدخل من مداخل الشياطينِ؛ قَالَ ﷻ: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣ ﴾ الشعراء: ٢٢١ – ٢٢٣، فالكذب سلاح يصد به الشيطان العباد عن طاعة الله ﷻ، فلقد بيَّن الله ﷻ لنا أنّ الكذبَ أعظم سلاحٍ استطاع بِهِ إبليس إغواءَ أبينا آدم عليه السلام وأمِّنا حوَّاءَ عليها السلام، فزين لهما بكذبه وافترائه الأكل من الشجرة التي نهاهما الله ﷻ عن الأكل منها، ولم يكن الكذب معروفاً قبل ذلك؛ قال ﷻ: ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ ﴾ الأعراف: ٢٠ - ٢١

الكذب داء لا يصلح منه جدّ ولا هزْل، يمزق الأمم، ويقطع الأرحام، وتؤكل به الحقوق، وتنتهك به الحرمات، ويهدي إلى الفجور والفساد، فالكذب جماع كل شر، وأصل كل ذم؛ لسوء عواقبه وخبث نتائجه؛ لأنه ينتج النميمة، والنميمة تنتج البغضاء، والبغضاء تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة.

الكذب صفة من صفات الجاحدين الملحدين المعرضين عن آيات الله ﷻ المكذبين بها، قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥ ﴾ النحل: ١٠٥، أي : "إنما يفتري الكذب على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، الذين لا يؤمنون بآيات الله ﷻ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس"[1]

[1] تفسير ابن كثير (4/ 519).

قال ابن القيم ﷺ: "الكذب متضمن لفساد العالم، ولا يمكن قيام العالم عليه لا في معاشهم ولا في معادهم، بل هو متضمن لفساد المعاش والمعاد، ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم، كيف وهو منشأ كل شر وفساد"[1]

"ومن مضار الكذب أنه وسيلة لدمار صاحبه أمماً وأفراداً، والكذب قد يؤدي بصاحبه إلى النار، والكذب سراب يقرب البعيد ويبعد القريب، والكذب يذهب المروءة والجمال والبهاء، والكذاب لص يسرق العقل كما يسرق اللص المال، والكاذب مهان ذليل، والأمم التي كذبت الرسل لاقت مصيرها من الدمار والهلاك، ويورث على خسة النفس ودناءتها، واحتقار الناس له وبعدهم عنه، ويمقت نفسه بنفسه ويحتقرها"[2]

إياك والكذب، فإنّه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس، فإن الكاذب يصوِّر المعدوم موجوداً والموجود معدوماً والحق باطلاً والباطل حقّاً، والخير شراً والشر خيراً، فيفسد عليه تصوره وعلمه، عقوبة له، ثم يصور ذلك في نفس المُخاطب المغترّ به الراكن إليه فيفسد عليه تصوره وعلمه، ونفس الكاذب مُعْرِضة عن الحقيقة الموجودة نزّاعة إلى العدم مؤثرة للباطل، وإذا فسدت عليه قوة تصوره وعلمه التي هي مبدأ كل فعل إرادي فسدت عليه تلك الأفعال وسَرَى حكم الكذب إليها مضار صدورها عنه كصدور الكذب عن اللسان، فلا ينتفع بلسانه ولا بأعماله.

---

[1] مفتاح دار السعادة لابن القيم (2/ 73).
[2] نظرة النعيم (11/ 5430).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النصيحة الحادية والخمسون
لا تكن طويل الأمل

إن طول الأمل هو الاستمرار في الحرص على الدنيا ومداومة الانكباب عليها مع كثرة الإعراض عن الآخرة، قال ﷻ: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الحجر: ٣، **يقول القرطبي**: "أي يشغلهم عن الطاعة"[1]، **وقال ابن حجر**: "وفي الأمل سر لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته، وسبب طول الأمل الجهل وحب الدنيا"[2]

تعددت في كتاب الله ﷻ الآيات التي تذم طول الأمل، وتنوعت الأساليب التي ينفر بها القرآن من ذلك الداء العضال والمرض الفتاك، و من ذلك قوله ﷻ: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الحجر: ٢ – ٣، وقوله ﷻ عن اليهود: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ البقرة: ٩٦، وقوله ﷻ: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

---

[1] تفسير القرطبي (10/ 2).
[2] فتح الباري لابن حجر (11/ 237)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ المؤمنون: ١١٢ – ١١٥، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ الحديد: ١٦

ولقد حذر النبي ﷺ أمته من الاسترسال مع الآمال الملهية عن طاعة الله ﷻ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : "لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنين: في حب الدنيا، وطول الأمل"[1]، وعن أنس رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطوطاً فقال: "هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب"[2]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً عنه، وخط خططاً صغاراً إلي هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط ، وقال: "هذا الإنسان وهذا أجله محيطاً به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا"[3]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، وكان ابن عمر يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك

---
[1] رواه البخاري (8/ 89).
[2] رواه البخاري (8/ 89).
[3] رواه البخاري (8/ 89).

لمرضك ، ومن حياتك لموتك"[1]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: "اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"[2]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غني مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال فشر غائب منتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمرُّ"[3]

ولما سئل رسول الله ﷺ عن صحف موسي عليه السلام قال: " كانت عبراً كلها، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأي الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل"[4]

ولقد علم السلف رضي الله عنهم حقيقة الدنيا وتعلقت قلوبهم بالآخرة ونصحوا لمن جاء بعدهم، فحذروا من الركون إلى الدنيا والإعراض عن الآخرة، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوي وطول الأمل، فأما اتباع الهوي فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة"[5]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "لا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل، فإن كل ما هو آت قريب، ألا وإن البعيد ليس آتياً."[6]، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: " ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني،

---

[1] رواه البخاري (8/ 89).
[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 341).
[3] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 147).
[4] صحيح ابن حبان (2/ 76).
[5] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 172).
[6] المعجم الكبير للطبراني (9/ 97).

مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس يغفل عنه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض"[1]

دخل رجل على أبي ذر الغفاري ﷺ فجعل يقلب بصره في بيته فقال: " يا أبا ذر، أين متاعكم ؟! قال: إن لنا بيتاً نتوجه إليه، فقال: "إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا"، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا هاهنا"[2]، **وقال عمر بن عبد العزيز**ﷺ في خطبته: "لا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم وتنقادوا لعدوكم فإنه والله ما بسط أملاً من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا"[3]، **وقال الغزالي**: "لقد قصم الموت رقاب الجبابرة، وكسر ظهر الأكاسرة وقصر آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة – فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزاً، وقال البعض: كم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً لا يبلغه لو أدركتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره، وقالوا: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، وعمره يقوده إلي أجله، وحياته تقوده إلي موته"[4]، وكتب رجل إلي أخ له: "إن الحزن علي الدنيا طويل، والموت من الإنسان قريب، وللنقص في كل يوم منه نصيب، وللبلاء في جسمه دبيب، فبادر قبل أن تنادي بالرحيل، والسلام"[5]

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 192).
[2] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 192).
[3] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (5/ 291).
[4] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 448).
[5] قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص 52.

إن طول الأمل يدفع إلى المعاصي، ويبعد عن الطاعات، وهو من أسباب انتهاك الحرمات والتعدي على الآخرين وسلب حقوقهم، فأثبت أجلك بين عينيك، واستحي من الله ﷻ حق الحياء.

إن الجهل وحب الدنيا هما سبب طول الأمل فالعلاج يكمن في العلم بخطورة ومضار طول الأمل، وقيمة طاعة الوقت وأن التسويف يورد صاحبه موارد الهلكة وأن العبد يجب أن يكون حيث أمره مولاه ﷻ وأن يحذر أن يراه حيث نهاه. وينبغي أن يكون شعار الواحد منا كما كان شعار **حاتم الأصم** إذ يقول: "وعلمت أن عملي لن يعمله غيري فأنا مشغول به، ورأيت الناس ينظرون إلي ظاهري والله ﷻ ينظر إلي باطني فعلمت أن مراقبته أولي وأحرى، ورأيت الموت يأتي بغتة فقلت أبادره"[1]

والفارق كبير بين الرجاء وطول الأمل، فمن رجا شيئاً طلب، ومن خاف شيئاً هرب منه فأين هذا من طول الأمل الذي آل بك لعدم الاستعداد لأمر الآخرة؟ وعلى العبد الذي يطلب العلاج أن يعرف حقيقة هذه الدار وأنها حقيرة وإلي كل نذل أميل، والأصل أن تلقاك بكل ما تكره فإذا لاقتك بما تحب فهو استثناء، دخل **ابن السماك** علي هارون الرشيد فقال له الرشيد: عظني- وكان بيده شربة ماء- فقال له: "يا أمير المؤمنين لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك ؟ قال: نعم قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبست عن الخروج أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم، فقال له الأخير: فملك لا يساوي شربة ولا بولة"[2]، **وقال الفضيل بن**

[1] تاريخ دمشق لابن عساكر (23/ 142).
[2] سراج الملوك للطرطوشي ص 8

عياض رضي الله عنه: "جعل الخير كله في بيت واحد وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، وجعل الشر كله في بيت واحد وجعل مفتاحه حب الدنيا"[1]

"إن الدنيا مثل ظل الإنسان إذا طلبته فرّ وإن تركته تبعك، فقل لنفسك أين الأولون والآخرون؟ أين الذين ملأوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً؟ أين الذين فرشوا القصور حريراً وخزاً؟ أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزاً هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟ أفناهم الله عز وجل مفني الأمم وأبادهم مبيد الرمم وأخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور فأصبحوا الأسري إلى مساكنهم، لم ينفعهم ما جمعوا ولا أغني عنهم ما اكتسبوا، أسلمهم الأحياء والأولياء، وهجرهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء"[2]

فيا قومنا: عمرُّوا الدنيا بطاعة ربكم وأقيموا الحياة على منهاج النبوة ولسان حالكم ينطق: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ طه: ٨٤

طول الأمل هو استمرار المرء في حرصه على الدنيا وشهواتها وزينتها، والانكباب عليها، والتعلق بها، مع كثرة إعراضه ونسيانه للآخرة، وعدم الاستعداد لها على الوجه المطلوب.

فقد نعيش بأملنا لعشرين سنة قادمة، نخطّط ونرتب، نقرر ونجهّز، والأجل أقرب منا من كل هذا، فكم من شخصٍ كان يتمنى ويتأمل، ويروي أحلامه، ويعيش أيامه في ترقب دائم، لكن الأجل باغته، قبل أن يحقق آماله.

[1] ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ص 131، الزهد الكبير للبيهقي ص 133.
[2] المستطرف في كل فن مستطرف ص 514.

فلتجمع شتات نفسك المبعثرة من هذه الحياة، ولتخطّط لأخراك قبل دنياك، فلا تغرك المظاهر والملذات، واستعد للقاء الله ﷻ ولا تؤجل ذلك أبداً، فما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً ولا تدري متى وأين تموت، ومن الطبيعي أن يكون هناك أهداف وطموحات دنيوية لدى كل منا، لكن من الخطأ الفادح التعلق بها وبذل أقصى الطاقات للوصول إليها، والاهتمام بها، وإهمال الآخرة تماماً، ولتجنب ذلك، فلنعي ونتأمل قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ الأنعام: ١٦٢، أي: فحياتي بكل ما فيها، ونومي وصلاتي، وعبادتي، وأكلي وشربي، وذهابي وإيابي، وكل أعمالي، هي لله ﷻ وحده ربي ورب العالمين جميعاً، جعلت أمرها وتعبها ووقتها لله ﷻ وحده، وهذا ما أمرني به ﷻ.

فإياك ونسيان مهمتك الأساسية هاهنا، فإنما أنت خليفة من الله ﷻ، لست مخلداَ، لك مهام وواجبات، عليك القيام بها على أكمل وجه، وسيأتي يومٌ وترحل وتغيب، ولا يبقى غير ذكرك وأعمالك، فماذا ستجني منها؟!

يُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينقش على خاتمه عبارة: "كفى بالموت واعظاً."[1]، وهذا عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين، من المبشرين في الجنة، قد تنبه وجعل من الموت ذكراً دائماً له، حتى لا يغفل وتجره الدنيا، فما حالنا نحن من الموت، وماذا أعددنا له؟!

طول الأمل من كيد الشيطان ووساوسه؛ به يَستدرج الإنسانَ ويُغويه ويُنسيه، وهو أول حيلة اتخذها لإغواء الإنسان وإيقاعه في المعصية، جاء إبليس إلى آدم عليه السلام

[1] منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (1/ 130)، كشف الخفاء (2/ 112).

وهو في الجنة فأقسم له أنه له من الناصحين، وأخبره أنه سيدله على شجرة إن أكل منها لا يفنى عمره ولا يبلى ملكه، قال ﷻ: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ طه: ١٢٠، وقال ﷻ: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠ - ٢٢

طول الأمل يَشغل عن العمل؛ فمن طال أمله ساء عمله، ومن ألهاه أمله أخزاه عمله، ومن طال أمله استعبدته الدنيا وشغلته بزخارفها وشهواتها حتى يرحلَ عنها من غير زاد، ومن طال أمله انحرف عن الطريق وزاغ عن السبيل؛ لأنّ طول الأمل يجرّ إلى التّسويف، وتعطيل الصّالحات، وتأخير التّوبة عند عمل السّيّئات، والتماطل في ردّ الحقوق، وغير ذلك من المساوئ والقبائح.

طول الأمل من أسباب الشقاء والهلاك؛ لذا حذر النبي ﷺ من عواقبه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين، وهلاكها بالبخل والأمل"[1]

إن طول الأمل حِبالة من حِبالات إبليس اللعين يقذفها في طريق ابن آدم فيأسره بها ليتحكم بعدها في أمره كما يشاء، **قال بعض الحكماء**: "الأمل سلطان الشيطان

[1] المعجم الأوسط للطبراني (7/ 332).

على قلوب الغافلين"[1]، **وقال الفضيل بن عياض** رضي الله عنه: "إن من الشقاء طول الأمل وإن من النعيم قصر الأمل"[2]، **وقال محمد بن واسع** رضي الله عنه: "أربع من الشقاء طول الأمل، وقسوة القلب، وجمود العين، والبخل"[3]

إنه داء طول الأمل وبئس الولد ما ولده طول الأمل، فيتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة والتسويف بالتوبة والرغبة في الدنيا والنسيان للآخرة والقسوة في القلب؛ لأن رقة القلب وصفائه إنما تقع بتذكر الموت والقبر والثواب والعقاب والجنة والنار وأهوال القيامة والصراط، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ الحديد: ١٦، ولذلك يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إن أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل، واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيضل عن الحق، ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل"[4]

فالأمل لا ينفك عنه أكثر الخلق، ولولا الأمل ما تهنَّى أحد بعيش أبدًا، **قال ابن حجر**: "وفي الأمل سر لطيف؛ لأنه لولا الأملُ ما تهنَّى أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته"[5]

---

[1] قصر الأمل لابن أبي الدنيا ص 82
[2] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 255)
[3] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 255)
[4] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 173).
[5] فتح الباري لابن حجر (11/ 237).

فعلى العاقل أن يغتنم أيام حياته، فما يدريه لعله لم يبقَ له منها إلا يسير، **قال ابن القيم** رضي الله عنه: "ما مضى من الدنيا أحلام، وما بقي منها أماني، والوقت ضائع بينهما"[1]

قال الغزاليّ: "اعلم أنّ طول الأمل له سببان، أحدهما: الجهل، والآخر: حبّ الدنيا. أمّا حبّ الدّنيا: فهو أنّه إذا أنس بها وبشهواتها ولذّاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الّذي هو سبب مفارقتها، وكلّ من كره شيئاً دفعه عن نفسه. وأمّا الجهل: فهو أنّ الإنسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشّباب ولو تفكّر هذا الغافل وعلم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له، ولكنّ الجهل بهذه الأمور وحبّ الدّنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب"[2]، **وقال ابن القيم** رضي الله عنه: "مفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل"[3]

يا ابن آدم، إنك لو رأيت قريب ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيلك، وإنما يلقاك غدًا

فطول الأمل سبب لقلة الطاعة، والتكاسل عن العبادة، وقسوة القلب، وتأخير التوبة، واتباع الهوى، وكثرة المعصية، والحرص على الدنيا، والغفلة عن الموت، وما بعده من شدائد وأهوال، وربما الموت على المعصية؛ وهذا هو عين الشقاء.

---

[1] الفوائد لابن القيم ص 48.
[2] إحياء علوم الدين للغزالي (4/ 456).
[3] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص 69

يقول مالك بن دينار رضي الله عنه: "أربع من الشقاء: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا"[1]

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ الحجر: ٣، أي: دعهم يا محمد ﷺ يعيشوا كالأنعام ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات، ويشغلهم طول الأمل عن الإيمان والأخذ بطاعة الله سبحانه وتعالى.

وقال القسطلاني: "هذا تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم، وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين"[2]

فلقد وصف الله عز وجل اليهود والمشركين بهذا الوصف المشين، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ البقرة: ٩٦، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزمر: ٥٤، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي

[1] ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ص 27
[2] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (9/ 239).

كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ الزمر: ٥٥ - ٥٩

قال ابن رجب عند ذكر هذه الآيات: "اعلم أن الإنسان ما دام يأمل الحياة؛ فإنه لا يقطع أمله من الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي وغيرها، ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا تيَقَّن الموت وأيس من الحياة؛ أفاق من سكرته بشهوات الدنيا؛ فندم حينئذ على تفريطه ندامةً يكاد يقتل نفسه، وطلب الرجعة إلى الدنيا ليتوب ويعمل صالحاً؛ فلا يجاب إلى شيء من ذلك، فيجتمع عليه سكرة الموت مع حسرة الفوت، وقد حذَّر الله ﷻ في كتابه عبادَه من ذلك؛ ليستعدوا للموت قبل نزوله بالتوبة والعمل الصالح"[1]

فطول الأمل هو سبب شقاء كثير من الناس؛ حيث يخدعهم الشيطان فيصوِّر لهم أن أمامهم عمراً طويلاً وسنين متعاقبة؛ يبنون فيها آمالاً شامخة، فيجمعون همتهم لمواجهة هذه السنين ولبناء هذه الآمال، وينسى الآخرة ولا يتذكر الموت، وإذا ذكره يوماً تبرَّم منه؛ لأنه في ظنه يُنَغِّص عليه لذاته ويُكَدِّر عليه صفو عيشه.

فأين من تعب ولَهَا؟ أين من غفل وسَهَا؟ دهاه أفظع ما دهى؟ وحُطَّ ركنه فوَهَى، ذهبت لذةُ ذنوبه وحُبِس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى.

يقول شميط بن عجلان رضي الله عنه: "طالت آمالكم، فجدَّدُتم منازلكم من الدنيا، وطيَّبتم منها معايشكم، وتلذَّذتم فيها بطيب الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلقتُم! أولا تعلمون أن الموت أمامكم؟ أولا تعلمون أن ملكَ الموت موكل بآجالكم، لا

[1] لطائف المعارف لابن رجب ص 338.

يذهب عنه من المدة شيء؟ ثم يقول: "لا تكونوا – رحمكم الله – أقل شيء بالموت اكتراثاً، وأعظم شيء عن الموت غفلة، فما ينتظر الحيُّ إلا الموت! وما ينتظر المسافر إلا الظَّعن[1]"[2]

"ومن مضار طول الأمل نسيان الآخرة وما أعد الله عز وجل فيها من النعيم المقيم لأهل طاعته ومن العذاب الأليم لأهل المعاصي، وقلة الصبر عن الشهوات وشدة الغفلة عن الطاعات، وإن طول الأمل يجلب السعادة الظاهرة في الدنيا ويسقي صاحبه كؤوساً مترعة من اللذة الفانية، ويقسي القلب ويجف العين ويزيد في شدة الحرص على الدنيا، ويدفع إلى المعاصي ويبعد عن الطاعات، به يتعدى على الآخرين فيسلب الحقوق وينتهك الحرمات"[3]

ندمك لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، فبان منك الولد القريب، ودفنك الوالدُ والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة.

احضروا طول الأمل فإنه كان سبباً في هلاك كثير من الأمم، واعلموا أن قصر الأمل والزهد في الأماني سبباً في صلاح ذلك الجيل الطاهر من أول هذه الأمة

[1] الظعن: الارتحال.

[2] قصر لابن أبي الدنيا ص 58.

[3] نظرة النعيم (10/ 4867).

النصيحة الثانية والخمسون
لا تكن حسوداً

عرف الحسد منذ أقدم العصور، والحسد هو تمني زوال النعمة عن صاحبها، فالحسد فعل سوء وكل فعل سوء منبعه الشيطان، والشيطان يوسوس لنفس الإنسان في العالم المغيب والنفس توسوس للعقل في العالم المحسوس.

الحسد هو فعل الشيطان بزوال النعمة – طبعاً بإذن الله ﷻ لحكمة لا يعلمها يقيناً إلا هو – حيث على أغلب حوادث الحسد أنّها تحصل من العين – على الرّغم من إمكانية صدوره من ضرير – فالحاسد يعين (أي يضرب بالعين المحسود) وبالتّالي تزول عنه تلك النعمة المعينة (المضروبة بالعين)، ويعينه – أي الحاسد – على ذلك الشيطان.

أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، الحسد كبيرة من كبائر الذنوب، حسد إبليس آدم عليه السلام فطرده من جنته، وحسد ابن آدم أخاه فقتله، فالحسد دليل على تفسخ الأخلاق، وانسلاخ الإنسانية، وانحطاط للهاوية، والحسد ربيب الكبرياء، ووالد الكراهية والبغضاء، ومثير الفتن والشحناء، وربما كان الحسد سبباً لإزهاق الأنفس البريئة، قَالَ ﷺ: "علام يقتل أحدكم أخاه، إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه، فليدع له بالبركة"[1]، فهلا أدركتم ذلك أيها الحساد، وتجنبتم طريق الفساد، وإهلاك العباد، ثم اعلموا أنكم مسيئون، وفي الأرض مفسدون، والله ﷻ يقول: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ المائدة:

[1] سنن ابن ماجه (2/ 1160)، السنن الكبرى للنسائي (7/ 101).

٦٤، وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً."[1]، ويقول النبي ﷺ محذراً ومتوعداً: "يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عوراتهم، فإنّه من تتبّع عوراتهم تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته، يفضحه ولو في جوف بيته"[2]، فما بال أقوامٍ هداهم الله ﷻ، من تكون غايةُ دنياه، وأكبرُ همِّه ومُناه، تتبّعَ العثراتِ، وتصيُّدَ الزّلّات، والنّفخَ في الهِنَاتِ الهيّنات، والتشهيرَ بها عبرَ المجالس والاجتماعات، لا يفتؤون همزًا، ولا ينفكّون لمزًا، ولا يبرَحونَ غمزًا، حسداً ومقتاً، ديدنُهم التشويش، ومطيّتُهم التحريش، وسجيّتُهم الإثارةُ والتهويش، ناموا على سُوءُ الظنّ، وقاموا على الأذى والمنّ، يكثِرون الوقيعةَ والعِتاب، ولا يتورّعون عن الشّتائم والسّباب، إذا رَأَوك في نعمةٍ حسَدوك، وإن تواريَتَ عنهم اغتابوك، يتحرّكون في الظلام كالخفافيشِ، ويعمَلون خلفَ الكواليس، يبثّون الشائِعات، ويختلقون الوِشايات.

الحسد من الأمراض القلبية التي تصيب بعض الناس، بسبب الغيرة، وعدم الرضا بالقضاء، فمن الناس من إذا رأى نعمة أنعمها الله ﷻ على أحد من الناس، تحركت نفسه الخبيثة، وغيرته القبيحة، وبدأ يفري ويهري في ذلك المسكين، وكان الواجب عليه أن يدعو الله ﷻ لأخيه بالبركة، فذلك فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء من عباده، ويمنعه عمن يشاء، بحكمته وعلمه ﷻ.

[1] رواه البخاري (8/ 19)، رواه مسلم (4/ 1985)
[2] شعب الإيمان للبيهقي (13/ 503).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالحسد خلق ذميم يجب علينا استئصاله من أنفسنا ومحاربته والقضاء عليه؛ لأنّه إذا وصل إلى القلوب أفسدها، وبعد بياضها سودها، ويتأكد علينا اجتنابه في كل زمان ومكان، وإذا هو من الذنوب المهلكات، وهو أن يجد الإنسان في صدره وقلبه ضيقاً وكراهية لنعمة أنعمها الله ﷻ على عبد من عباده في دينه أو دنياه، حتى إنّه ليحب زوالها عنه، بل وربّما سعى في إزالتها، وحسبك في ذمه وقبحه أنّ الله ﷻ أمر رسوله ﷺ بالاستعاذة منه ومن شره، قال ﷻ: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ الفلق: ٥، وقال رسول الله ﷺ: "ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً."[1]، وليس للحسد علاج إلاّ أن يعرف الحاسد ضرره عليه لا على المحسود؛ لأنّ النعمة لا تزول بالحسد، وأن يتقي الله ﷻ في لسانه؛ لأنّ اللسان ليس كغيره من الأعضاء، فالعين لا تصل إلى غير الصور والألوان، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل على غير المحسوسات، أمّا اللسان فيصل ويجول في كل شيء، وبه يتبين الربح من الخسران، والمؤمن من أهل الطغيان.

وليعلم أنّ الحسد ممقوت، وهو من تتبع الزلات والعورات، ولله سطوات وانتقامات ليست من الظالمين ببعيد، قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٢، فإنّ داء الحسد من أعظم الأدواء، والابتلاء به من أشد البلوى يحمل صاحبه

[1] رواه البخاري (8/ 19)، رواه مسلم (4/ 1985).

على مركب صعب، ويبعده عن التقوى، وحق للحاسد أن يعاتبه ربّه ﷻ بقوله: ﴿

أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴿٥٤﴾ ﴾ النساء: ٥٤

فالحسد ثوران النفس لغير الحق، وحقد دفين في الصدور، وغلٌّ كامن في دواخل النفس، ولؤم مستور في القلب، كلها سهام مصوَّبة نحو الكرم، والنبل، والشهامة، والفضيلة، التي تستحيل على الحاسد أن ينالها، أو يرقى إلى محاسنها، أو يتحلَّى ببعض صفاتها.

والحسد أوّل ذنب عُصِيَ الله ﷻ به في الأرض؛ عندما حسد ابن آدم قابيل أخاه هابيل، حين قدَّم كلٌّ منهما قُرباناً إلى الله ﷻ، فقبِلَ قربانُ هابيل، ولم يُقْبل قربان قابيل، فحسد قابيلُ أخاه هابيل على ذلك وقتله، قال ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المائدة: ٢٧ ـ ٣٠، قال الراغب الأصفهاني: "الحسد تمني زوال نعمة من مستحق لها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها"[1]، والحسد من صفات أشر عباد الله اليهود، كما

[1] المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص 234.

قال ﷻ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴿١٠٩﴾ ﴾ البقرة: ١٠٩، **قال ابن رجب**: "الحسد مركوز في طباع البشر، وهو أن الإنسان يكره أن يفوقه أحد من جنسه في شيء من الفضائل، ثم ينقسم الناس بعد هذا إلى أقسام: فمنهم من يسعى في زوال نعمة المحسود بالبغي عليه بالقول والفعل، ويسعى في نقل ذلك إلى نفسه، ومنهم من يسعى في إزالته عن المحسود فقط من غير نقل إلى نفسه، وهو شرهما وأخبثهما، وهذا هو الحسد المذموم المنهي عنه، وهو ذنب إبليس، حيث حسد آدم عليه السلام لما رآه قد فاق على الملائكة بأن خلقه الله ﷿ بيده، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه في جواره، فما زال يسعى في إخراجه من الجنة حتى أخرج منها، ومنهم من يحدث نفسه بذلك اختيارًا، ويعيده في نفسه مستروحًا تمني زوال نعمة أخيه، فهذا شبيه بالعزم المصمم على المعصية، وقسم آخر إذا حسد لم يتمنَ زوال نعمة المحسود بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنى أن يكون مثله، فإن كانت الفضائل دنيوية، فلا خير في ذلك، كما قال ﷻ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ القصص: ٧٩، وإن كانت فضائل دينية فهو حسن، وقد تمنى النبي ﷺ الشهادة في سبيل الله ﷿، قال النبي ﷺ قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به

آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار"[1]، وهذا هو الغبطة، وسماه حسدًا من باب الاستعارة، وقسم آخر إذا وجد من نفسه الحسد سعى في إزالته، وفي الإحسان إلى المحسود بإسداء الإحسان إليه، والدعاء، ونشر فضائله، وفي إزالة ما وجد له في نفسه من الحسد حتى يُبْدله بمحبة أن يكون أخوه المسلم خيرًا منه، وأفضل، وهذا من أعلى درجات الإيمان، وصاحبه هو المؤمن الكامل الذي يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[2]

قال ابن القيم رضي الله عنه: "لا ريب أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأجسام والأرواح قوًى وطبائع مختلفةً، وجعل في كثيرٍ منها خواصّ وكيفياتٍ مؤثرةً، ولا يمكن لعاقلٍ إنكار تأثير الأرواح في الأجسام؛ فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرةً شديدةً، إذا نظر إليه من يستحي منه، ويصفر صفرةً شديدةً عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقَم من النظر، وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقُواها وكيفياتها وخواصها؛ فرُوح الحاسد مؤذِية للمحسود أذًى بينًا؛ ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ به من شره، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين؛ فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفيةٍ خبيثةٍ، وتقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى؛ فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت بكيفيةٍ

[1] رواه مسلم (1/ 558)

[2] جامع العلوم والحكم لابن رجب (3/ 968 – 972).

خبيثةٍ مؤذيةٍ، فمنها: ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها: ما تؤثر في طمس البصر"[1]

فالحسد إذًا قضية ملازمة للخلق ما تحرَّك فيهم طرَفٌ؛ يقول عمر بن الخطاب ﷺ: "ما كانت نعمة الله على أحدٍ إلا وجَد لها حاسدًا، فلو كان الرجل أقومَ مِن القدح لَمَا عدم غامزًا."[2]، وكما قيل: "لا يخلو جسد من حسد، لكن الكريم يُخفيه واللئيم يُبديه"[3]، ليس هذا فقط، بل القضية الأولى في سُلَّم المعاصي كانت معصية الحسد، فأول معصية عُصِي بها الله ﷻ في السماء من قِبَل أخبثِ الخلق معصية إبليس؛ قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة: ٣٤، **قال قتادة بن دعامة**: "حسَد عدوُّ اللهِ إبليسُ آدمَ عليه السلام على ما أعطاه الله ﷿ من الكرامة، وقال: أنا ناريٌّ، وهذا طِينيٌّ"[4]

نحن لا نعلم العطاء أو المنع خير للعبد أم هو شر له؛ كما **قال الحسن البصري** ﷺ: "يا بن آدم، لا تحسد أخاك؛ فإن كان الذي أعطاه الله ﷿ لكرامته عليه، فلا تَحسُدْ مَن أكرمه الله ﷻ، وإن كان لغير ذلك، فلِمَ تحسُد مَن مصيره إلى النار"[5]

حامل الحسد يحمل بين جنبيه نارًا قد تكون مطيَّته إلى النار الآخرة، فكان لا بد من إطفاء نار الدنيا للسلامة من نار الآخرة؛ **قال أبو حاتم**: "الحسد من أخلاق اللئام، وتركُه من أفعال الكرام، ولكلِّ حريقٌ مطفئ، ونار الحسد لا تُطفَأ"[6]

---

[1] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (4/ 152 – 153).
[2] أدب الدنيا والدين للماوردي ص 271.
[3] كشف الخفاء (2/ 378).
[4] تفسير الطبري (14/ 63).
[5] الزواجر عن اقتراف الكبائر ص 93.
[6] روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (1/ 134).

الحاسد لا ينال الخيرية المشهود لها من خير البرية ﷺ، فقد قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: "كل مخموم القلب، صدوق اللسان"، قالوا: صدوق اللسان نعرِفه، فما مخمومُ القلب؟ قال: "هو التقيُّ النقيُّ، لا إثمَ فيه، ولا بغيَ، ولا غِلَّ، ولا حسد"[1]

الناس يُعبِّرون أحيانًا عن الحسد بالعَيْن، فيقولون: فلان أصابتْه العين، فهل العين هي التي تُؤثِّر أو غيرها؟ لقد تولى الإجابةَ **ابن القيم الجوزية** رضي الله عنه، فقال: "إن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيَّف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود فتُؤثِّر فيه بتلك الخاصية"[2]، إذًا فالحسد في الحقيقة لا يكون من العين، وإنما يكون من داخل النفس الشريرة.

وقد فسَّر هذا **ابن القيم** رضي الله عنه فقال مرةً أخرى عنه: "الحسد سهامٌ تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المسحور والمعِين، تُصيبه تارةً، وتُخطئُهُ تارةً، فإن صادفَتْه مكشوفًا لا وقاية عليه، أثَّرت فيه بلا شك"[3]

ومن الحسد حسد الغبطة الذي لا يذمه الشرع، يتمنى المرء مثل ما عند غيره من غير رغبةٍ في زواله، الحامل لصاحبه عليه: كبر نفسه وحب خصال الخير والتشبه بأهلها، أذن النبي ﷺ فيه وأقر مشروعيته فقال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا، فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار"[4]

---

[1] سنن ابن ماجه (2/ 1409).
[2] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (4/ 153).
[3] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (4/ 154).
[4] رواه مسلم (1/ 558)

فالحَسَد حَسْرةٌ على الحاسد، ورِفعةٌ للمحسود، ولا سيَّما إذا بغى عليه الحاسدُ، فإن الله ﷻ ينتقم من الظالم، كما ذكر ذلك أهلُ العلم، والحَسَدُ مرضٌ عُضالٌ، ومن أشدِّ معاصي القلب، ومن أخلاق اليهود.

والحَسَد يدلُّ على ضَعف إيمان مَنِ اتَّصف به، وكراهيتِه لما أنْعَم الله ﷻ على غيره من نِعَمٍ، وقد قتَل أحدُ ابني آدم أخاه حَسَدًا؛ لأن الله ﷻ تقبَّلَ منه، ولم يتقبَّلْ من القاتل، وقد ألقى أُخوةُ يُوسُفَ عليه السلام به في البئر حَسَدًا؛ بسبب منزلته عند أبيهم ومحبَّتِه له، فالحَسَد مرضٌ غالبٌ، لا يَسلَم منه إلَّا القليلُ من الناس.

"ومن مضار الحسد أنه إسخاط الله ﷻ في معارضته واجتناء الأوزار في مخالفته إذ ليس يرى قضاء الله ﷻ عدلاً ولا لنعمه من الناس أهلاً، وحسرات النفس وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء، وانخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة، ومقت الناس له حتى لا يجد فيهم محباً وعداوتهم له حتى لا يرى فيه ولياً فيصير بالعداوة مأثوراً وبالمقت مزجوراً، ويجلب النقم ويزيل النعم، ومنبع الشرور العظيمة ومفتاح العواقب الوخيمة، ويورث الحقد والضغينة في القلب، ومعول هدم في المجتمع، ودليل على سفول الخلق ودناءة النفس"[1]

فاتقوا الله ﷻ، وطهروا قلوبكم من الحسد والحقد والكراهية والبغضاء، واعلموا أن الله ﷻ لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم إنه ﷻ عليم بذات الصدور

[1] نظرة النعيم (10/ 4429).

النصيحة الثالثة والخمسون
لا تنكر جميلاً

إن نكران الجميل وقلة الوفاء من الأخلاق الذميمة التي نهى عنها الشرع وحذر منها، قال رسول الله ﷺ: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[1]، وهو يدل على سوء الخلق وقلة المروءة وفساد الرأي وأنانية النفس وضعف الإيمان وغيره من صفات السوء، وإنه إنكار للفضل وجحود بالإحسان الذي منَّ الله سبحانه وتعالى به على عباده وفتح عليهم به وكفران للنعم، قال ﷺ: "من صنع إليه معروف فليجزئه، فإن لم يجد ما يجزئه فليثن عليه، فإنه إذا أثنى فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط، فكأنما لبس ثوبي زور"[2]، ومن كانت عادته كفران نعم الخلق وترك شكرهم كانت عادته كفران نعم الله سبحانه وتعالى وترك شكره، فلا يليق بالعاقل أبداً أن ينكر الإحسان ويتنكر له، فإن اعتراف الإنسان بفضل الغير ومعروفه لا ينقص من قدره ولا يحط من منزلته بل يعلي قدره عند الله سبحانه وتعالى وفي عيون الخلق.

ونكران الجميل هو ألا يعترف الإنسان بلسانه بما يقرُّ به قلبه من المعروف والصنائع الجميلة التي أُسديَت إليه، ويتنافى مع طبائع النفوس السوية، التي طُبعت على حب مَنْ أحسن إليها، والتوقف إزاء مَنْ أساء إليها؛ ولذلك فإنه من الصعوبة بمكان أن يكون ناكر الجميل سوياً في نفسه أو مستقيماً في سلوكه وطبائعه؛ ما ينعكس بالدرجة الأولى على ذاته وشخصيته وعلاقته مع غيره، فينفضُّ الناس من خدمته بعد أن يكتشفوا حقيقة مرضه الدفين في نفسه.

---

[1] مسند أحمد (16/ 244)، الأدب المفرد للبخاري ص 85، سنن الترمذي (4/ 339).
[2] الأدب المفرد للبخاري ص 84

ولقد حثنا ديننا الحنيف على شكر مَنْ يقدم لنا معروفاً حتى تسود العلاقات الطيبة في المجتمع، فأكد الإسلام بر الوالدين، وشكرهما جزاء ما قدما لنا، كما وجه النبي ﷺ أمته إلى الإقرار بالجميل وتوجيه الشكر لمن أسداه إلينا، بل الدعاء له حتى يعلم أنه قد كافأه؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوا به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه"[1]

وقد وجه النبي ﷺ أيضاً أمته إلى الاعتراف بالجميل وعدم نكرانه؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من أعطي عطاء فوجد فليجز به، ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعطه كان كلابس ثوبي زور"[2]

أما أن يحسن الآخرون إلى أحدنا فلا يجدون إلا نكرانًا فهذا دليل على خِسَّة النفس وحقارتها؛ إذ النفوس الكريمة لا تعرف الجحود ولا النكران، بل إنها على الدوام وفية معترفة لذوي الفضل بالفضل، فحين لا يقر الإنسان بلسانه بما يقر به قلبه من المعروف والصنائع الجميلة التي أسديت إليه سواء من الله عز وجل أو من المخلوقين فهو منكر للجميل جاحد للنعمة.

إن نكران الجميل، وجحد نعمة الآخرين سببٌ من أسباب دخول النار، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهنَّ الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قط"[3]

---

[1] صحيح ابن حبان (8/ 199).
[2] سنن الترمذي (4/ 379)
[3] رواه البخاري (1/ 15)، رواه مسلم (2/ 626)

ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ﷻ؛ فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ على المنبر: "من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب"[1]، وهكذا يُوجه النبي ﷺ أمته إلى الإقرار بالجميل، وشكر من أسداه، بل والدعاء له حتى يعلم أنه قد كافأه؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن أتى عليكم معروفًا فكافئوه؛ فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه"[2]

إن نكران الجميل سبب العقوبة وزوال النعم، **قال الأصمعي**: سمعت أعرابيًا يقول: "أسرع الذنوب عقوبةً كفر المعروف"[3]، وقد جاءت السنة بالدلالة على ذلك قال النبي ﷺ: "إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكًا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل. قال: فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعرٌ حسنٌ ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأعمى فقال: أي شيء

---

[1] مسند أحمد (30/ 390)، شعب الإيمان للبيهقي (11/ 377).
[2] مسند أحمد (9/ 266)، الأدب المفرد للبخاري ص 85، سنن النسائي (5/ 82).
[3] الآداب الشرعية والمنح المرعية (1/ 311)

أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إليَّ بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والدًا فأنتج هذان وولد هذا، قال: فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا واد من الغنم، قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟! فقيرًا فأعطاك الله مالاً؟! فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد على هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك؛ شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فو الله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي عنك وسخط على صاحبيك"[1]

نكران الجميل هي من الصفات السيئة التي يتعامل بها الإنسان، لذلك يجب علينا البعد عن هذه الصفة نكران فضل شخص علينا، ومن كانت عادته نكران الجميل للمخلوقين فعادته نكران الجميل لله ﷻ، **قال ابن الأثير**: "من كان عادته وطبعه

[1] رواه البخاري (4/ 171)، رواه مسلم (4/ 2275).

كفران نعمة الناس وترك شكره لهم كان من عادته كفر نعمة الله عز وجل وترك الشكر له"[1]

"ومن مضار نكران الجميل أنه دليل على ضعف الإيمان وسوء الأخلاق ولؤم الطبع، ومن أسباب زوال النعمة بعد حصولها، ويسبب غضب الرب سبحانه وتعالى وإعراض الخلق، ويجلب الشقاء ونكد البال وسوء الحال"[2]

فإياك إياك أيها المسلم من نكران الجميل، واشكر صنائع المعروف، وكن من الأوفياء، فإن الكريم يحفظ ود ساعة

[1] جامع الأصول لأبن الأثير (2/ 559).
[2] نظرة النعيم (11/ 5664).

النصيحة الرابعة والخمسون
لا تكن من إخوان الشياطين

الله ﷻ يكره الإسراف والمسرفين، فالإسراف من أكثر السلوكيات السلبية المسبّبة للكثير من المشكلات، بالإضافة إلى أنّه يكسب صاحبه الإثم على هدر النعم، فالإسراف يعود على الفرد والمجتمع بالخسارات الكبيرة؛ حيث يُسبّب ضياع وهدر الطاقة والمال وكل شيء، كما يتسبّب في حرمان الكثير من الناس في حقهم الطبيعي في الكثير من الأشياء، وضياعها بلا فائدة، يقول ﷻ: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: ٣١، بالإضافة إلى أنّ الله ﷻ يكره المسرفين فقد وصفهم بصفةٍ سيئةٍ جداً؛ حيث قال عنهم بأنّهم إخوان الشياطين، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: ٢٧، وهذا دليل على بشاعة الإسراف، ومن الآثار الاجتماعية السيئة للإسراف أنه يعتبر من الأمور المنافية للأخلاق الكريمة، ويُشكل قدوةً سيئةً للأجيال القادمة، فلا يحافظون على مقدراتهم الشخصية ومقدرات الوطن والعائلة، وهذا كله سبب في تأخر الأمة في التطور والتقدم.

التبذير هو تجاوز الإنسان الحد الطبيعي في جميع سلوكياته كأن يكون مسرف في الأموال والذنوب أو القتل أو الإنفاق أو المياه أو السلطة هناك أنواع كثيرة من الإسراف لا يمكن جمعها فكل شخص مبذر له شيء معين يسرف فيه، والإسراف أيضاً هو استخدام الشيء بدون وعي وقد حرم الله ﷻ التبذير بجميع أنواعه،

قال ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر: ٥٣، ولقد حذرنا الرسول ﷺ من التبذير ووصفه بأنه إحدى أنواع الشرور فقال: "ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه حسب ابن آدم ثلاث أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث طعام وثلث شراب وثلث لنفسه"[1]، بالإضافة إلي ذلك يؤدي الإسراف أيضاً إلي انهيار أخلاق المجتمع وانعدام الرحمة من قلوب أفراده.

فإن الإسراف والتبذير داء فتاك يهدد الأمم والمجتمعات، ويبدد الأموال والثروات، وهو سبب للعقوبات والبليات العاجلة والآجلة.

أن الإسراف سبب للترف الذي ذمه الله ﷻ وعابه وتوعد أهله في كتابه، قال ﷻ: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الواقعة: ٤١ – ٤٥، **قال ابن كثير**: "كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم"[2]، فإياكم أن تكونوا من المترفين، فرب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة.

التبذير والإسراف سبب يؤدي بصاحبه إلى الكبر وطلب العلو في الأرض، قال ﷺ: "كلوا واشربوا وتصدقوا من غير سرف ولا مخيلة"[3]، فالحديث يدل على أن الإسراف

---

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 367).
[2] تفسير ابن كثير (8/ 26).
[3] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 150)

قد يستلزم المخيلة وهي الكبر، فإن الكبر ينشأ عن فضيلة يتراءاها الإنسان من نفسه، قال ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾ العلق: ٦ - ٧

إن الإسراف والتبذير يؤدي إلى إضاعة المال وتبديد الثروة، فكم من ثروة عظيمة وأموال طائلة بددها التبذير وأهلكها الإسراف وأفناها سوء التدبير، فإن الله ﷻ نهاكم عن إضاعة المال، فعن المغيرة رضي الله عنه قال: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: "إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال"[1]

والإسراف إضاعة للمال وتخوُّض فيه بغير حق، قال ﷺ: "إن رجالاً يتخوَّضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة"[2]، وهذا كما قال الله ﷻ: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ ﴾ غافر: ٤٣

إن الإسراف سبب من أسباب الضلال في الدين والدنيا، وعدم الهداية لمصالح المعاش والمعاد، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ ﴾ غافر: ٢٨، وقال ﷻ: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥ ﴾ الزخرف: ٥، وقال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢ ﴾ يونس: ١٢

[1] رواه البخاري (2/ 124)، رواه مسلم (3/ 1341).
[2] رواه البخاري (4/ 85).

إن من عقوبة الله ﷻ للمسرفين أن جعلهم إخوانًا للشياطين، فقال ﷻ: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: ٢٦ - ٢٧

ذروا ظاهر الإثم وباطنه، واعلموا أن الإسراف يشمل جميع التعديات التي يتجاوز بها العبد أمر الله ﷻ وشرعه، سواء كان ذلك في الإنفاق أو في غيره. فتوبوا من الإسراف كله، فإن الله ﷻ دعاكم إلى ذلك.

أن التبذير سبب من أسباب الهلاك ومحق البركات وزوال النعم؛ وذلك لأنه تفريق المال على وجه الإسراف، وهو أيضًا: أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير، والمراد بالتبذير هنا: مجاوزة حد الاعتدال في الطعام والشراب واللباس والسكن ونحو ذلك من الغرائز الكامنة في النفس البشرية، وتصيير ذلك في معصية الله ﷻ.

قال الإمام مالك بن أنس: "أن التبذير حرام لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: ٢٧"[1]، **وقال القرطبي**: "من أنفق درهمًا في حرام فهو مبذر، ويحجر عليه في نفقته الدرهم في الحرام، ولا يحجر عليه إن بذله في الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد"[2]، **وقال أبو حنيفة**: "لا يرى الحجر للتبذير، وإن كان حرامًا منهيًا عنه"[3]، **وقال ابن العربي** في تفسير قوله ﷻ: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ

---

1 تفسير القرطبي (10/ 247).
2 تفسير القرطبي (10/ 248).
3 البحر المحيط في التفسير لابن حبان (7/ 40).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الإسراء: ٢٦: **قال أشهب عن مالك**: "التبذير هو منعه من حقه، ووضعه في غير حقه"[1]، **وقال ابن كثير**: في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: ٢٧، أي في التبذير والسفه وترك طاعة الله ﷻ وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ الإسراء: ٢٧ أي جحودًا؛ لأنه أنكر نعمة الله ﷻ عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته"[2]

الإسراف فعلٌ يبغضه الله ﷻ وتصرُّفٌ يذمُّه ﷻ، يقول ﷻ في وصف عباده الأتقياء: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ ﴾ الفرقان: ٦٧، فإن الإسراف والتبذير خصلتان ذميمتان، فالإسراف تجاوز الحد فيما ينبغي، أما التبذير فهو صرف الشيء فيما لا ينبغي، والملاحظ أن بعض المجتمعات الإسلامية قد بالغت في الإسراف في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب، وقد قال ﷻ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ الأعراف: ٣١، وقد يشمل الإسراف حتى في المشاعر المعنوية كالحب والكراهية.

أن الإسراف والتبذير مسلك خطير، وداء مهلك، ومرض ينبت أخلاقاً سيئة، ويهدم بيوتًا عامرة، وقد جاء التحذير منه في كتاب الله ﷻ، وفي سنة رسوله ﷺ،

---

1 أحكام القرآن لابن العربي (3/ 190).
2 تفسير ابن كثير (5/ 64).

قال الماوردي: " واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما. **فالسرف**: هو الجهل بمقادير الحقوق، **والتبذير**: هو الجهل بمواقع الحقوق. وكلاهما مذموم، وذم التبذير أعظم؛ لأن المسرف يخطئ في الزيادة، والمبذر يخطئ في الجهل"[1]

ينبغي كذلك أن يُدْرِك المسلم جيِّدًا أنَّ الإسراف وما في معناه من التبذير والتَّرَف يشكِّلون جميعًا مثلَّثًا لكيد الشيطان وتلبيسه، على رأس المثلث الإسراف، وضِلْعاه التبذير والتَّرف، ولقد حذَّر النبي ﷺ من الإسراف في الطعام والشراب مبيناً الحدود المعقولة والمقبولة من ذلك، فعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه حسب ابن آدم ثلاث أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث طعام وثلث شراب وثلث لنفسه"[2]

قال ابن القيّم رضي الله عنه: "الأفعال الطبيعية: كالنوم والسهر والأكل والشرب والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك، إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلًا، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصًا وأثمرت نقصًا، فمن أشرف العلوم وأنفعها علمُ الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأَعلمُ النَّاس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها"[3]

"ومن مضار الإسراف أنه يجلب غضب الرب عز وجل لأنه ينافي كمال الإيمان، التشبه بالشيطان في الإفساد، وإضاعة المال والفقر في المآل، والندم والحسرة على ما ضاع

---
[1] أدب الدنيا والدين للماوردي ص 187.
[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم (4/ 367).
[3] الفوائد لابن القيم ص 141.

من غير فائدة، ويطبع المجتمع بطابع الانحلال والبعد عن الجد والاجتهاد، ويدع المجتمع عالة على غيره عاجزاً عن القيام بمهامه"[1]

"ومن مضار التبذير أنه فيه طاعة للشيطان ومعصية للرحمن ﷻ، ويباعد من الجنة ويقرب من النار، والمبذر أخ الشيطان، وفي التبذير رجوع إلى الجاهلية وعاداتها القبيحة وفيه مفاخرة ممقوتة، وفي التبذير إتلاف للمال وتضييع له، والتبذير عند الموت لا يعد من الصدقة المقبولة وهو مردود على صاحبه، والتبذير يؤدي للفقر ويحتاج صاحبه فيما بعد إلى الذل للخلق، والمبذر معرض للعين والحسد والحقد عليه، وفي التبذير اتباع للهوى وبعد عن الحق، والتبذير يشعر الإنسان بالمرارة خاصة إذا اقترب الأجل"[2]

فعلينا أن نراجع أنفسنا وأن نتقيد بشريعة ربنا ﷻ وهدي نبينا ﷺ وعلينا أن نتعاهد من ولانا عليهم الله ﷻ من الناشئة شباباً وفتيات فنغرس في نفوسهم حب الاعتدال وننشئهم على فقه هذه التوجيهات الربانية والأوامر النبوية الكريمة ونحبب إليهم العلم بها ونبين لهم أن الإسراف ممقوت في كل شيء إلا في رضا الله ﷻ

---

[1] نظرة النعيم (9/ 3895).
[2] نظرة النعيم (9/ 4119).

شبكة الألوكة

النصيحة الخامسة والخمسون
لا تشهد زوراً

إن شهادة الزور سبب لزرع الأحقاد و الضغائن في القلوب؛ لأن فيها ضياع حقوق الناس وظلمهم وطمس معالم العدل والإنصاف، ومن شأنها أن تعين الظالم على ظلمه وتعطي الحق لغير مستحقه، وتقوض أركان الأمن، وتعصف بالمجتمع وتدمره، نظراً لما لشهادة الزور من أضرار ومخاطر على الأفراد والمجتمعات فقد ورد ذمها في كتاب الله عز وجل وفي سنة رسوله ﷺ، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ الفرقان: ٧٢، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ الحج: ٣٠، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا ٢﴾ المجادلة: ٢، وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله و عقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور"، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت"[1]، أشفقوا عليه، ورحموه ﷺ لما رأوا من شدة انفعاله، ولما رأوا من شدة غضبه عند هذه القضية بالذات، ذكر الشرك بالله فلم يكرر ولم يحرج ولم يؤكد، وذكر عقوق الوالدين ولم يفعل شيئاً من هذا، فلما جاء إلى شهادة الزور جلس وقعد وأخذ يكرر: "ألا وقول الزور! ألا وشهادة الزور!"

[1] رواه البخاري (3/ 172)، رواه مسلم (1/ 91).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال ابن حجر في قوله: "وجلس وكان متكئاً " يشعر بأنه اهتم بذلك حتى جلس بعد أن كان متكئاً، ويفيد ذلك تأكيد تحريم الزور وعظم قبحه، وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعاً على الناس، والتهاون بها أكثر، فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة، كالعداوة والحسد وغيرها، فاحتيج للاهتمام بتعظيمه وليس ذلك لعظمها بالنسبة إلى ما ذكر معها من الإشراك قطعاً، بل لكون مفسدة الزور متعدية إلى غير الشاهد بخلاف الشرك فإن مفسدته قاصرة غالباً."[1]

بل إن رسول الله ﷺ حذر من الزور وقوله والعمل به حتى قال: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه"[2]

فشهادة الزور في الأصل هي نوع من الكذب، يأتي فيها كل ما جاء في الكذب من نهي وتخويف ووعيد؛ بل إن شهادة الزور كذب مغلظ، وهي أشد قبحاً من الكذب العادي؛ لأنه يترتب عليها منع الحقوق عن أهلها وإعطاء الحقوق لغير مستحقيها، والأصل في الشهادة أن تكون سنداً لجانب الحق، وأن تكون معينة للقضاء على إقامة العدل، وأن تساعده على الحكم على الذين يبغون ويظلمون ويعتدون على أموال الناس وأعراضهم وحقوقهم، فإذا صارت الشهادة على العكس من ذلك، إذا صارت الشهادة إلى جانب الباطل، وكانت سبباً لتضليل القضاء وصرفه عن الحكم بالعدل، ووقفت في صف المفسدين الظالمين، فإنها عند ذلك تتضمن جريمتين اثنتين: **أولاهما** صرفُ الشهادة عن مقصدها، وتضييع المراد منها، فالله ﷻ أمر

[1] فتح الباري لابن حجر (5/ 263).
[2] رواه البخاري (3/ 26).

بإقامة الشهادة لنصرة الحق؛ فإذا أقيمت الشهادة لنصرة الباطل خرجت عن مقصودها وضاع الحق بين الناس، **والجريمة الثانية:** الكذب الذي تتضمنه هذه الشهادة، وتضييع الحقوق الذي تتسبب فيه.

ومن هنا جاءت النصوص الكثيرة التي تحرم وتشدد في أمر الشهادة بالباطل، وتجرم شهادة الزور، وتؤثّم صاحبها، قال الله ﷻ: ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الحج: ٣٠، قال ابن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية: " تعدل شهادة الزور الإشراك بالله ﷻ"[1]، فاجتنبوا الرجس من الأوثان، ثم قال: واجتنبوا قول الزور، فجعل قول الزور في مقام ومنزلة الشرك بالله ﷻ، وهذا تأكيد وتحذير شديد على فعل هذا الإثم العظيم، والله ﷻ أثنى على عباده المؤمنين الصالحين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الفرقان: ٧٢، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل عن الكبائر فقال: "الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال: شهادة الزور"[2]

هذه أكبر الكبائر عند الله ﷻ، ولهذا الصحابة رضي الله عنهم كانوا يربون صغارهم على تعظيم أمر الشهادة، وعدم الاستهانة بها، والخوف منها، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"، قال: "ثم

[1] تفسير ابن كثير (5/ 369).
[2] رواه البخاري (8/ 4)، رواه مسلم (1/ 92).

يأتي قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته"[1]، أي: يأتي أناس يستخفّون بأمر الشهادات لا يبالي الواحد بأن يشهد في أي أمر كان، يبادر بإطلاق الحلف والأيمان ويقسم بالله ﷻ على أمر ربما لم يره ولم يسمعه،" ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته"

يقول إبراهيم النخعي الذي يروي الحديث قال: "وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد"[2]، كان الصحابة ﷺ يضربوننا ونحن صغار على الشهادة والعهد حتى لا نستهين بها، حتى لا نتساهل فيها، وكانوا ينهون صغارهم عن الشهادات، حتى لا ينشأ الصبي مستسهلاً لهذا الأمر، مستخفاً به؛ بل ينشأ معظماً لأمر الشهادة، يعلم أنها أمر عظيم عند الله ﷻ.

عرف الصحابة ﷺ وأدركوا أمر الشهادة وخطر شأنها وعظم ضررها إن هي انحرفت عن مقصودها وخرجت عن مرادها.

أن شاهد الزور يبتلى بدعوات المظلومين، وفي عهد عمر بن الخطاب ﷺ كان سعد بن أبي وقاص ﷺ والياً على الكوفة، فجاء أهل الكوفة إلى عمر ﷺ يشتكون سعداً ﷺ، وكان أهل الكوفة لا يرضون عن أحد، حتى إنهم شكوا إلى عمر ﷺ أن سعداً ﷺ لا يحسن الصلاة، فجاء عمر بسعد رضي الله عنهما وقال له: "يا أبا اسحاق، إن أهل الكوفة قد شكوك إلي، حتى إنهم قالوا إنه لا يصلح يصلي"، فقال سعد ﷺ: "أما إني –والله– لأصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ لا أخرم منها شيئاً."، قال عمر ﷺ: "فذلك الظن بك"، لكن عمر ﷺ كان يتحرى العدل، وكان لا

---

[1] رواه البخاري (3/ 171).
[2] رواه البخاري (3/ 171).

يكتفي بقول الولاة أو حكايتهم عن أنفسهم، فأرسل رجلاً أو رجالاً مع سعد رضي الله عنه إلى الكوفة فأخذوا يطوفون على مساجد الكوفة مسجداً مسجداً يسألون الناس عن سعد رضي الله عنه، فكلهم كانوا يثنون عليه خيراً، حتى جاؤوا إلى مسجد لبني عبس، فقام فيه رجل يدعى أسامة بن قتادة ويكنى بأبي سعدة، وقال: "أما إذ نشدتنا، فإن سعدًا رضي الله عنه كان لا يسير بالسريَّة، ولا يقسم بالسويَّة، ولا يعدل في القضية"، لا يسير بالسرية أي: لا يخرج مع الجيش ليقاتل، ولا يقسم بين الناس بالسوية أي: بالتساوي، فقال سعد رضي الله عنه: "أمَا والله لأدعونَّ بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا، قام رياءً وسُمعةً، فأَطِلْ عمره، وأطل فقرَه، وعرِّضْه للفتن"، هذا الرجل قام يشهد شهادة أمام رسل عمر رضي الله عنه الذين أرسلهم لأجل أن يتثبتوا من شأن سعد رضي الله عنه، فقام يشهد شهادة يدعي أنها شهادة لله وهو كاذب فيها، شاهد زور، فدعا عليه سعد رضي الله عنه بهذه الثلاث دعوات: "أطل عمره، وأطل فقره، وعرضه للفتن"، فكان هذا الرجل بعد ذلك يقول: "شيخ كبير مفتون؛ أصابتني دعوة سعد"، يقول راوي الحديث عبد الملك: "فأنا رأيته بعدُ، قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنه ليتعرض للجواري[1] في الطرق يغمزهن[2]"[3]، مفتون أصابته دعوة الرجل الصالح؛ بسبب ماذا؟ بسبب شهادة الزور التي شهد بها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: " كان رجل من بني هاشم، استأجره رجل من قريش من فخذ أخرى، فانطلق معه في إبله، فمر رجل به من بني هاشم، قد انقطعت عروة جوالقه، فقال: أغثني بعقال أشد به عروة جوالقي، لا تنفر الإبل،

[1] ليتعرض للجواري: أي: للفتيات.
[2] يغمزهن: يعاكسهن.
[3] رواه البخاري (1/ 151).

فأعطاه عقالاً فشد به عروة جوالقه، فلما نزلوا عقلت الإبل إلا بعيراً واحداً، فقال الذي استأجره: ما شأن هذا البعير لم يعقل من بين الإبل؟ قال: ليس له عقال، قال: فأين عقاله؟ قال: فحذفه بعصا كان فيها أجله، فمر به رجل من أهل اليمن، فقال: أتشهد الموسم؟ قال: ما أشهد، وربما شهدته، قال: هل أنت مبلغ عني رسالة مرة من الدهر؟ قال: نعم، قال: فكتب إذا أنت شهدت الموسم فناد: يا آل قريش، فإذا أجابوك فناد: يا آل بني هاشم، فإن أجابوك، فسل عن أبي طالب فأخبره: أن فلاناً قتلني في عقال، ومات المستأجر، فلما قدم الذي استأجره، أتاه أبو طالب فقال: ما فعل صاحبنا؟، قال: مرض، فأحسنت القيام عليه، فوليت دفنه، قال: قد كان أهل ذاك منك، فمكث حيناً، ثم إن الرجل الذي أوصى إليه أن يبلغ عنه وافى الموسم، فقال: يا آل قريش، قالوا: هذه قريش، قال: يا آل بني هاشم؟ قالوا: هذه بنو هاشم، قال: أين أبو طالب؟ قالوا: هذا أبو طالب، قال: أمرني فلان أن أبلغك رسالة، أن فلاناً قتله في عقال، فأتاه أبو طالب فقال له: اختر منا إحدى ثلاث: إن شئت أن تؤدي مائة من الإبل فإنك قتلت صاحبنا، وإن شئت حلف خمسون من قومك إنك لم تقتله، فإن أبيت قتلناك به، فأتى قومه فقالوا: نحلف، فأتته امرأة من بني هاشم، كانت تحت رجل منهم، قد ولدت له، فقالت: يا أبا طالب، أحب أن تجيز ابني هذا برجل من الخمسين، ولا تصبر يمينه حيث تصبر الأيمان، ففعل، فأتاه رجل منهم فقال: يا أبا طالب أردت خمسين رجلاً أن يحلفوا مكان مائة من الإبل، يصيب كل رجل بعيران، هذان بعيران فاقبلهما عني ولا تصبر يميني حيث تصبر الأيمان، فقبلهما، وجاء ثمانية وأربعون فحلفوا، قال ابن عباس: فوالذي نفسي

بيده، ما حال الحول، ومن الثمانية وأربعين عين تطرف"[1]، كلهم ماتوا خلال عام واحد، هلكوا كلهم بسبب الكذب والزور واليمين الكاذبة.

يظن بعض الناس أن شهادة الزور محصورة فيما يكون من أداء الشهادة واليمين أمام القضاء في المحاكم، وهذا ليس بصحيح، فشهادة الزور لها صور عديدة، وأشكال متنوعة، فشهادة الزور هي شهادة بالكذب والافتراء، **قال القرطبي**: "شهادة الزور هي الشهادة بالكذب ليتوصل بها إلى الباطل من إتلاف نفس أو أخذ مال أو تحليل حرام أو تحريم حلال"[2]، **وقال الذهبي**: "إن شاهد الزور قد ارتكب عظائم: **أحدها**: الكذب والافتراء، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ۝٢٨﴾ غافر: ٢٨، **وثانيها**: إنه ظلم الذي شهد عليه حتى أخذ بشهادته ماله وعرضه وروحه، **وثالثها**: إنه ظلم الذي شهد له بأن ساق إليه المال الحرام فأخذه بشهادته فوجبت له النار، قال ﷺ: "من قضيت له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار"[3]، **ورابعها**: أنه أباح ما حرم الله ﷻ وعصمه من المال والدم والعرض"[4]

ولقد اعتبر ديننا الإسلامي الشريف شهادة الزور ذنبًا عظيمًا، بل وجعلها كبيرة من كبائر الذنوب، لأنها تشتمل على تعمد الكذب، إذ فيها إخبار بالشيء بخلاف ما هو عليه على وجه العلم والتعمد، للإضرار بذلك الغير، وإعطاء خصمه ما لا يستحق، وهذا كله من أقبح الأخلاق وأرذل الصفات، وإن سبب جعل شريعة

[1] رواه البخاري (5/ 43).
[2] فتح الباري لابن حجر (10/ 412).
[3] المعجم الكبير للطبراني (23/ 382).
[4] الكبائر للذهبي ص 79.

الإسلام شهادة الزور في الدركة القبيحة؛ أنها تحتوي على الكذب وهو من أخطر الأدواء الفتاكة وأشد الأمراض المهلكة.

"ومن مضار شهادة الزور سبب لسخط الجبار ﷻ ودخول النار، وفيها ضياع حقوق الناس وظلمهم، وتطمس معالم العدل والإنصاف، وتعين الظالم على ظلمه وتعطي الحق لغير مستحقه، وتقويض لأركان الأمن وزعزعة للاستقرار، وسبب لزرع الأحقاد والضغائن في القلوب، وفساد اجتماعي يعصف بالمجتمع ويدمره"[1]

فاحذر أن تكون من هؤلاء؛ فإن الإثم عظيم، والمرتع وخيم، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ الشعراء: ٢٢٧

[1] نظرة النعيم (10/ 4780).

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقنا في تقديم هذا الكتاب، وقد كان الكتاب يتكلم عن **بعض النصائح في علو الهمة**، وقد بذل كل الجهد والبذل لكي يخرج هذا الكتاب في هذا الشكل، ونرجو من الله ﷻ أن تكون رحلة ممتعة وشيقة، وكذلك نرجو أن تكون قد أرتقت بدرجات العقل والفكر، حيث لم يكن هذا الجهد بالجهد اليسير، وأنا لا أدعى الكمال فإن الكمال لله ﷻ فقط، وأنا قدمت كل الجهد لهذا الكتاب، فإن وفقنا فمن الله ﷻ وإن أخفقنا فمن أنفسنا، وكفاني أنا شرف المحاولة، وأخيراً نرجو أن يكون هذا الكتاب قد نال إعجابكم.

وصل اللهم وسلم وبارك تسليما كثيراً على نبينا محمد ﷺ

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
الإهداء	2
المقدمة	3
تمهيد	12
النصيحة الأولى: اتق حيثما كنت	15
النصيحة الثانية: أخلص تخلص	26
النصيحة الثالثة: اعقلها وتوكل	36
النصيحة الرابعة: اصبر وما صبرك إلا بالله ﷻ	47
النصيحة الخامسة: ثق بربك تكن أسعد الناس	68
النصيحة السادسة: صل رحمك ولا تقطعها	77
النصيحة السابعة: كن قرآنياً	82
النصيحة الثامنة: كن أحسنهم خلقاً	90
النصيحة التاسعة: توبوا إلى الله جميعاً	101
النصيحة العاشرة: والمستغفرين بالأسحار	113
النصيحة الحادية عشر: واذكروا الله كثيراً	123
النصيحة الثانية عشر: قم الليل إلا قليلاً	135
النصيحة الثالثة عشر: كن من أولوا العلم	146
النصيحة الرابعة عشر: واعملوا الصالحات	156
النصيحة الخامسة عشر: حاسبوا أنفسكم	172
النصيحة السادسة عشر: احفظ لسانك	188

النصيحة السابعة عشر: تصدق ولو بشق تمرة	200
النصيحة الثامنة عشر: أدِّ الأمانة	223
النصيحة التاسعة عشر: إلا من أتى الله بقلب سليم	235
النصيحة العشرون: ادعوا ربك تضرعاً وخفية	248
النصيحة الحادية العشرون: ادعوا إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة	259
النصيحة الثانية العشرون: اؤمر بالمعروف وانهِ عن المنكر	269
النصيحة الثالثة العشرون: ففروا إلى الله	277
النصيحة الرابعة والعشرون: تبسمك في وجه أخيك صدقة	291
النصيحة الخامسة والعشرون: فاستقم كما أمرت	299
النصيحة السادسة والعشرون: والكاظمين الغيظ	307
النصيحة السابعة والعشرون: قل آمنت بالله	316
النصيحة الثامنة والعشرون: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين	329
النصيحة التاسعة والعشرون: فاعبده واصطبر لعبادته	340
النصيحة الثلاثون: أحسنوا الظن بربكم عز وجل	351
النصيحة الحادية الثلاثون: اخشع لله عز وجل	360
النصيحة الثانية الثلاثون: عليك بخشية الله عز وجل	369
النصيحة الثالثة الثلاثون: من توضع لله رفعه	379
النصيحة الرابعة والثلاثون: احمد ربك عز وجل	387
النصيحة الخامسة والثلاثون: اشكر ربك عز وجل	399
النصيحة السادسة والثلاثون: تعرف إلى ربك عز وجل	407
النصيحة السابعة والثلاثون: وأسلموا لله عز وجل	414

شبكة الألوكة - قسم الكتب

النصيحة الثامنة والثلاثون: تفكروا في خلق الله ﷻ	420
النصيحة التاسعة والثلاثون: تفاءلوا بالخير تجدوه	433
النصيحة الأربعون: ابكِ من خشية الله ﷻ	442
النصيحة الحادية والأربعون: خف من الله ﷻ	449
النصيحة الثانية والأربعون: ارضَ بما قسمه الله لك	461
النصيحة الثالثة والأربعون: كن من الصادقين دائماً	471
النصيحة الرابعة والأربعون: أحسن كما أُحسن إليك	480
النصيحة الخامسة والأربعون: ولا تنسوا الفضل بينكم	493
النصيحة السادسة والأربعون: لا تغضب	500
النصيحة السابعة والأربعون: لا تغش	509
النصيحة الثامنة والأربعون: لا تستغب أحداً	515
النصيحة التاسعة والأربعون: لا تكن همازاً مشاءً بنميم	526
النصيحة الخمسون: ابتعد عن الكذب	533
النصيحة الحادية والخمسون: لا تكن طويل الأمل	539
النصيحة الثانية والخمسون: لا تكن حسوداً	552
النصيحة الثالثة والخمسون: لا تنكر جميلاً	561
النصيحة الرابعة والخمسون: لا تكن من إخوان الشياطين	566
النصيحة الخامسة والخمسون: لا تشهد زوراً	573
الخاتمة	581
الفهرس	582